محمد قطب

القصة فى القرآن

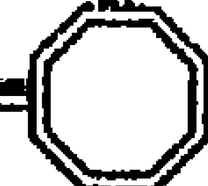
مقاصد الدين وقيم الفن



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب - القاهرة

القصة في القرآن

مقاصد الدين وقيم الفن



القصة فى القرآن

مقاصد الدين وقيم الفن

محمد قطب

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

الكتـــــاب : القصة فى القرآن .. مقاصد الدين وقيم الفن
المؤلـــــف : محمد قطب
رقـم الإيداع : ٢٠٠١/١١٩٧٧
الترقيم الدولـى : ISBN
977 – 303– 372 - 4
تـاريخ النشـر : ٢٠٠٢م



للمؤلف : دار قباء
للطباعة و النشر و التوزيع

الإدارة :
٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
☎ ٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨
المكتبـــــة :
١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)
المطابـــــع :
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التراث العربى حافل بألوان تعبيرية متنوعة . ولقد حفل الشعر العربى على مدى الزمان وتتابعه بالدرس الأدبى والمدارسة التاريخية، حتى كاد يطغى على ألوان التعبير الأخرى. ولا عجب فى ذلك فالشعر كما يقولون ديوان العرب.

وربما كان هذا الانكباب على الشعر ومدارسته وراء تخلف بعض الأنواع التعبيرية الأخرى والتى لم يُولها النقاد اهتماما كافياً فى النظرة والبحث. ومن الألوان التعبيرية القادرة على التعبير بشكل مؤثر وفعَّال، اللون القصصى. والتراث الأدبى العربى مليء بالنصوص القصصية المبدعة التى تثبت أن العرب يمتلك ن موهبة القص والحكى مثلهم فى ذلك مثل الأجناس البشرية الأخرى.

وحظ القصة فى القرآن الكريم حظ وفير ومتعدد المجالات. فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية وسيلة القوم إلى التواصل والفهم وأداتهم البليغة فى التعبير وصولاً إلى فن راق.

وكما أن القرآن تحدى العرب فى القول وهم فرسان الشعر وأربابه، فقد تحداهم أيضاً فى القصة. ذلك أن تراثهم النثرى قبل الإسلام يمتلئ بالقصص والحكايات، والأساطير والأخبار والأيام .. ومن ثم لم يكن عجيباً أن يحفل القرآن الكريم بألوان متعددة من القصة، كنموذج صادق لما يجب أن تكون عليه القصة.

ودراسة القصة فى القرآن على جانب كبير من الأهمية، ذلك لأن القصة قالب تربوى وإعلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها، وإلى النفوس فتنفضها نفضا. إن القصة فن يتلازم مع الإنسان منذ كان صغيراً يسعد بالحكايات التى تقص له. فالقصة تقدم للقارئ عوالم زاخرة بحيوات متغايرة ، وبأجواء مختلفة، وبأشخاص متنوعة ، وبصراع يدور بين خير وشر، وعدل وظلم، فتثير فى النفس العواطف، وتجذب القلوب إليها وتهيئ العقول إلى السماع والترقب والفعل.

والقصة في القرآن تساق لإبراز هدف ديني وتوضح غرض من أغراض العقيدة . فهي منذ البدء تنطلق من منطلق ديني بحت. ولكن القصة القرآنية مع ذلك تفي بمتطلبات الفن القصصي. وتتضمن خصائصه وعناصره ولكن على طريقتها الخاصة.

والملاحظة الجوهرية على القصة القرآنية أنها جاءت متوزعة على سور القرآن ، فلم تأت قصة – غالباً – وقد اكتملت منذ البدء حتى المنتهى فيما عدا قصة يوسف عليه السلام. وهذا التوزع لحلقات القصة مرتبط بإبراز الغرض الديني، وهو في نفس الوقت، متناسق تناسقاً تاماً ومبدعاً مع الموقف السياقي الذى وردت فيه الحلقة المسرودة من القصة المحكية.

وهى من هنا تختلف عن القصة البشرية اختلافاً جوهرياً. فهى إحدى وسائل القرآن الكريم لتقديم العقيدة. والدعوة إليها، وتثبيتها ورسوخها. وهى كأداة تعبيرية تندرج تحت القضية الكبرى للتعبير القرآنى. فالتعبير القرآنى فى كل ما يورده من صور وقصص ومشاهد ، يؤلف تأليفاً ممتزجا امتزاجا عضوياً بين الغرض الدينى والغرض الفنى.

وكما يقول الشهيد سيد قطب (والفن والدين صنوان فى أعماق النفس وقرارة الحس. وإدراك الجمال الفنى دليل استعداد لتلقى التأثير الدينى، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع وحين تصفو النفس لتلقى رسالة الجمال).

ولقد حاولت الدراسة أن تبرز جانب الفن فى القصة القرآنية بعد أن تكون قد أوفت الغرض الدينى درساً وتناولاً، ولقد صاحب ذلك نماذج تطبيقية مدروسة من كلا الجانبين الدينى والفنى.

إن بناء العقيدة فى النفوس يحتاج إلى الوسائل المؤثرة التى تتغلغل إلى القلوب مباشرة . ولا ريب أن القصة من أهم هذه الوسائل.

ولقد كان ذلك دافعى إلى الدراسة. والله أسأل أن يتقبل مناً.

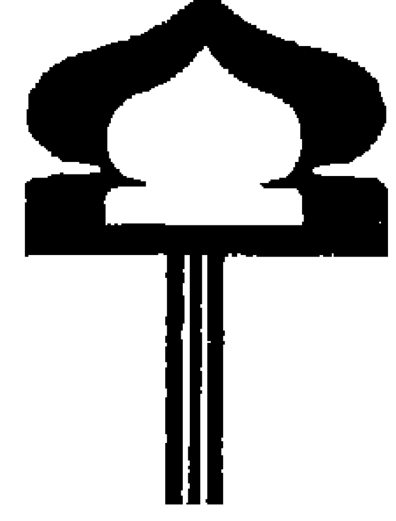
محمد قطب عبدالعال

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

صدق الله العظيم



الفصل الأول

مدخل إلى الدراسة



الإسلام هو دين الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها، ومجيء الإسلام كان ضرورة لإخراج البشر من الوثنية الضالة التى طمست الفطرة وغطت القلوب بغطاء كثيف من الظلمة، فحدّت من تفكير الإنسان، وسدَّت منافذ وجدانه، وأرجفت مشاعره، وخنقت توقعه، وشوقه إلى عالم أفضل، وقيدت عقله بآليَّة الحياة ووثنيتها، وأراجيفها، وخرافاتها. فظل الفرد قابعاً، مقيداً، ينتظر من يطلقه من هذا القيد الآسر، حتى ينطلق باحثاً عن روحه الحبيسة، منقباً عن وسائل معينة لتكشف له ذاته، وتعينه على إدراك العوالم التى تتحرك فيها هذه الذات المفردة.

وجاء الإسلام ليعين الإنسان على إدراك الحقيقة، وعلى العودة إلى الفطرة البشرية السليمة. إن الإسلام جاء ليأخذ الإنسان إلى عالم الكمال والحقيقة، وينطلق به بعيداً عن رجس الشيطان وآفاقه الوثنية..

إن الانطلاق الإسلامى، انطلاق بالفن إلى آفاق عليا لا تدركها إلا النفس الصادقة المهذبة، التى تسعى إلى الكمال، وتعبر عن رحلتها تعبيراً إسلامياً راقياً.

والفــن التعــبيري ضرورة لإطفاء الظمأ البشري المجنح إلى عالم الحقيقة، وعــالم الكمال ولكنه يتخذ وسيلته الخاصة للوصول إلى هذه الغاية.. وسيلة تتمثل في الكلمة، بأبعادها وأنماطها وبما تحمله من دلالات، وبما تكنه من انساق تعبيرية أخاذة.

والقــرآن الكــريم - كتاب الإسلام - هو الذخيرة الفنية التى تنطلق بالمسلم إلى آفــاق لا تحدها حدود، في عوالم النفس، والكون، والحياة، والتاريخ.. في نسق تعــبيري معجز، يمسك بتلابيب النفس، ويخوض بها غمار الوجدان والفكر، فتتفتح الذات المسلمة على عوالم مدهشة بالرؤى والجمال والأخلاق..

إن الــنفس المتــلقية، المــتذوقة، لتقع طوعاً تحت تأثير هذا البيان المعجز الكــريم. وإذا كــان المسلمون الأوائل احترزوا حين قالوا أدباً، بل وانصرفوا عنه حيــن كفاهم القرآن تلك المتعة الآسرة، فإن العودة إلى القرآن الكريم مرة أخرى، هى الخطوة الراقية للحصول على فن إسلامى راق.

فــالفن الإسلامى فى حاجة شديدة لأن يراجع القرآن، فهو الذخيرة الموحية لهــذا الفن، كما هو الذخيرة الموحية للحياة.. ولأنه كان سبباً من أسباب انصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفنى، لأنه أغناهم - مؤقتاً - عن جمال الأداء بجمال التــلقى والانفعال.. ولكن العرب حين عادوا إلى التعبير بعد تلك الفترة المؤقتة، لم يلجأوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيحاءاتهم وأغراض تعــبيرهم وطــرائقه، وإنمــا عــادوا إلى الجاهلية فى مجال التعبير[1] حين عادت الأغراض التعبيرية القديمة من جديد.

وإذا كان القرآن الكريم قد عنى بالفن الجميل، فقد دعا المسلم إلى النظر فى مجــالات الجمــال المختلفة فى الكون والحياة. قال تعالى فى كتابه الكريم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[2]. فالإحساس بالجمال شعور فطرى، لا يحــتاج إلى تعــلم، وإنما يحتاج إلى من ينبه، ويثير كوامنه فى الداخل. ولقد دعا

(١) منهج الفن الإسلامى. محمد قطب ص ٩، دار الشروق.
(٢) سورة النحل آية (٦)

القــرآن، المســلم أن يســتقرئ مظاهر الجمال فى الكون والحياة والإنسان، حتى يــتهذب الــذوق وتــتربى حاســة الإدراك الجمالى – وتتأمل النفس مجال الجمال ومكــنوناته، ولا شك أن هذا التأمل والصّقل المستمر ينميان فى الفرد المسلم (قوة الملاحظة وقوة الفكر، وقوة التدبر، وهى العمد التى يقوم عليها الفن)[1].

والإســلام يقدر الفن الجميل ويدعو إليه، انطلاقاً من حق الإنسان فى التمتع بزيــنة الدنيــا وجمالها دون سرف وانحراف وانحطاط. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

ومــن ثــم يرتــبط الفن، فى مفهومه الإسلامى بالأخلاق والتربية، وتهذيب الــروح. ويتســامى بالــنفس البشرية إلى آفاق رحبة من المتعة والخير والجمال والأخــلاق الفاضــلة، وهى قيــم تساهم فى تكوين المسلم تكويناً دينيا كاملا، حتى يصبح القرآن الكريم، خلقه، ودستوره، ومتعته.

والفــنان عمومــاً – من الوجهة الإسلامية – لا يضيق بهذا القيد الأخلاقى، لأن الفن قيد التزامى، وإلا تحول الفن إلى فوضى ودعوة إلى التحرر، والانحطاط. وتكمــن حــرية الفــنان وقدرته فى السيطرة على هذا القيد واحتوائه لصالح فنه، ولصالح أدواته التى يستخدمها وسائل تعبيرية معينة. وليس هناك موضوعات تمنح أو تمــنع عــن الفنان المسلم، فهو حر فى الاختيار، وهو يملك إرادته فى انتقاء ما يريد التعبير عنه، حتى عاطفة الحب الجياشة، وغيرها من العواطف البشرية التى أودعها الله الذات الإنسانية، والتى يحمل الاقتراب منها مظنة الخوف منها والوقوع فى موجهــا الهــادر، والسقوط أمام إغرائها وفتنتها، فإن المنظور الإسلامى ليس بعيداً عن هذه العواطف. وكيف يبتعد القرآن، وقد حكى لنا فى سورة كاملة[3] نوعاً مــن هذه العواطف التى دارت فى قلب امرأة العزيز وسيطرت عليها، وكادت أن تجرف يوسف الفتى آنذاك لولا عصمة من الله..

(١) معلمة الإسلام. أنور الجندى . ص ٣٨٧.
(٢) سورة الأعراف آية (٣٢).
(٣) سورة يوسف وترتيبها بين السور (١٢)

فـليس هناك حجر على الفنان وإنما هناك إطار يتحرك داخله الفنان المسلم، فهـو هنا يعبر عن الحب الإنسانى ما حلا له أن يعبر، وكيف لا يعبر عنه؟ وقيمة الحـب هى القيمـة البارزة فى سواء الشخصية المسلمة. ولكن الإسلام يرفض فى حسـم وقطع، أن يتحول التعبير إلى إثارة الغرائز فى النفس البشرية. وإنما يسمو بها إلى عالى الفن الخالص المجرد من كل شبهة – وتضليل – إن السمو الأخلاقى هو الفيصل النقدى بين ما هو فى الفن وبين ما هو بعيد عن النظرة الإسلامية.

إن الفـنون التعـبيرية المختـلفة، كالشعر والقصة، والموسيقى، والرسم.. وغيـرها مـن الفنون، لتنطلق وفق المنهاج الإسلامى فى الفن، متحررة من القيود الآليـة، ومعـبرة فى انطلاقـتها عن كافة العواطف البشرية فى إطار من الضبط الأخلاقى والتوجيه الدينى.

ولقـد ورد فى القـرآن الكـريم، ما يدعم النظرة الإسلامية إلى الفن، حين تحـدث عـن نعم الله سبحانه وتعالى على سليمان (عليه السلام)، حين سخَّر له الجن، فيصنعون له المحاريب وهى القصور الشامخات الجميلة ، والتى تدل على اكتمال فى فن العمارة وكذلك التماثيل العجيبة من النحاس والزجاج. قال الحسن : ولم تكن يومئذ محرمة، وقد حرمت فى شريعتنا سداً للذريعة لئلا تعبد من دون الله)[1]. كما صـنع الجـن القصاع الضخمة والتى تشبه الأحواض، وهى مناظر جمالية تزدان بالميـاه أو الأشـجار، أو الأزهـار، وكذلك القدور الكبيرة الثابتة التى لا تتحرك لضـخامتها. وكل هذه المجالات الفنية إنما هى من صنع فنان، ولو كان من الجن، ولقد أوجب الله – بهذا الصنيع الفنى – على آل داود أن يشكروه وأن يحمدوه على نعمه. حيث خصهم الله بالفضل العظيم والفن العظيم أيضاً.

ولـم تكن هذه التماثيل لتستخدم إلا فيما صنعت من أجله، بل وكانت إحدى مـنن الله على عباده. وذلك يدل على ارتباط الفن بالفطرة ولما تغيرت الفطرة بما داخـلها من وثنية، جاء التحريم. ولكن يظل الفن فى الإسلام هو ما يلائم الفطرة – قـال تعـالى فى هذا المجال التذكيرى بنعم الله ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ

(١) صفوة التفاسير الجزء الثانى تأليف محمد على الصابونى ص٥٤٨.

وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

وعلى هذا فإن الفن الإسلامى يتصل اتصالاً وثيقاً بالقرآن الكريم، وبالتوحيد أى بجوهر العقيدة التى جاء بها الإسلام.

والفن الإسلامى يقوم على الاعتدال والتوازن، إنه الفن الوسطى الذى لا يجنح إلى التطرف، أو إلى الإفراط والتفريط. والاعتدال مبدأ إسلامى أخلاقى يترسمه المسلم فى كل مجالات حياته المادية والمعنوية. ولم يقم صراع ما فى الفكر الإسلامى بين الفن والأخلاق. فلا الفن يستقل عن الأخلاق ولا علاقة الفن بالأخلاق علاقة خضوع أو قسر أو إيقاف له عن انطلاقته. وليس فى تحرك الفن الإسلامى فى دائرة الأخلاق ما يحول بينه وبين تحقيق هدفه من إبراز حقيقة الشر والخير (فالفن فى الإسلام متحرر من المادية الخالصة، جامع بين الروح والفكر بعيداً عن مفهوم الأوثان والتماثيل والأحجار)[2] وهو الفن الذى "يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق. فالجمال حقيقة فى هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال"[3].

وإذا كان موضوع كتابنا يتناول القصة فى القرآن، وإذا كان فن القول – ومنه القصة – يعتمد على الكلمة واللفظ، فإن القرآن الكريم قد وضع للكلمة إطارها وبيّن مقدارها وغايتها. فالكلمة الطيبة كلمة ذات ثمار يانعة، وآثار طيبة، وهى زاد للعقل والروح كما أن الشجرة المثمرة زاد للجسم ومن ثم للعقل، بحكم تكامل الفرد جسماً وروحاً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ • تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة سبأ آية (١٣).

(٢) معلمة الإسلام أنور الجندى ص ٣٨٨.

(٣) منهج الفن الإسلامى ص٦.

(٤) سورة إبراهيم الآية ٢٤، ٢٥.

والآيــة الكريمة مثل ضربه الله لكلمة الإيمان، فمثّل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيــبة (**قــال ابــن عــباس: الكــلمة الطيــبة "لا إله إلا الله" والشجرة الطيبة "المؤمــن"**)[1]. وبالــرغم من التفسير الذى أورده المفسرون – غالباً – فإن المعنى العام سيظل إطاراً عاماً تتحرك ضمنه الكلمة، وفن القول كله. فالكلمة يظل تأثيرها قويــاً وبناءً وفاعلاً بالنسبة للفرد وللجماعة، طالما كانت طيبة، فى الأداء والمغزى والهدف الذى تنطلق منه، وهو العقيدة ، ومبدأ التوحيد الخالص.

ومن هنا فإن فن القول، فى هذا الإطار، ينشر القيم، ويدعم الأخلاق، ويرفع لــواء الحق، فى كل اتجاه، وكل تعبير، فى أداء تعبيرى يمتزج فيه الحق بالجمال ويصــبح للكلمة الخبيثة خطرها وآثارها المدمرة، فما من خبيث يتلاءم مع الفطرة البشرية. وما يتلاءم مع الفطرة هو ما يتماشى مع الفن الإسلامى. والدين الإسلامى يقــف محاربــاً كــل الفنون الخبيثة التى تساعد على تحطيم إنسانية المسلم، وتهدم آدميــته وتــتلاعب برغباته ورغائبه الرخيصة، وتنزله منزلة الحيوان الشرس ولا يعــنى هــذا أن الفن الإسلامى يقف جامداً أمام حركة النفس ورغائبها، وإنما هو يخترق هذه الحركة ليعلى منها ويسمو بالنفس عالياً. وهو فى ذلك يدعو – أى الفن – إلى إدخــال الســرور على النفس بوسائل مشروعة ضمن الإطار الأخلاقى. إن الكلمة الطيبة نقلت البشرية من جمود الغرائز إلى حيوية الفكر الطليق.. وإن الكلمة فى مفهــوم الفكــر هى التى جعلت للإنسان تاريخاً، فلولاها لما كان هنا ما يسمى بالتاريخ البشرى، ولولاها لما ارتفع للحضارة صرح بناء[2].

ويصــبح التســامى بالكلمة عن القول الرخيص من الأهداف الأخلاقية التى يرسيها الفن الإسلامى. وكل فن من فنون القول يقف فى قوة وحسم مدافعاً عن كل قيمــة فاضلة، وكل مبدأ أخلاقى، وكل مثل أعلى يصور ليحتذى به، ويكون أسوة حسنة – لهو من الفن الإسلامى.

والقــرآن الكــريم، هو الذخيرة الحية والنسق البيانى المعجز، وهو النموذج الذى يجب أن يحتذى من الفنانين، حيث قدم نماذج تعبيرية خالصة فى الفن القولى،

(١) صفوة التفاسير الجزء الثانى – ص ٩٦.

(٢) القرآن والفن. حسين على محمد دار آتون القاهرة ص٦.

ومـنه القصـة موضوع درسنا الأدبى. ولقد أبرز القرآن الكريم القصة، شخصية ووصـفاً وحـواراً، ودلالة، إبرازاً واضحاً ضمن إطار اعتقادى ودينى وتوجيهى، بحيـث تعتـبر نموذجـاً كاملاً لفن القصة القرآنية، وعلامة على ما فى تراثنا من أصالة فى هذا الفن، وإشارة إلى الفنانين أن ينهلوا من هذا المنهل الثر والنبع الذى يفيض نوراً وفناً وجمالاً.

إن الجـانب الفـنى فى العمل الأدبى جانب مهم جداً فى نظر الإسلام.. لأن العمل الأدبى بفنيته يكون قادراً على التأثير وتحقيق الهدف. وكل ما فى الأمر أننا يجـب أن نحقـق مـن خلال العمل الفنى الجيد غايات سامية، وأهدافاً نبيلة، تسهم بشكل ما فى تطوير الحياة الإنسانية ودفعها خطوة أو خطوات إلى الأمام فى سبيل واقع أفضل(١).

والفـن فى الإسلام فن موجه، مهما تنوعت عناصر الفن وأجناسه من شعر ونـثر وقصة وخطابة، وعمارة، وتصوير، وخط الخ.. والتوجيه هنا يعنى الالتزام بالغـرض الاعـتقادى والديـنى وإبـراز القيم الإسلامية والمبادئ الدينية السامية وغرسها فى نفوس المسلمين.. وتعميق المعنى الإنسانى والحياة الإنسانية والارتفاع بهـا عالياً والضَّن بها أن تهان أو تحتقر، والسمو بتلك الحياة الإنسانية نحو الكمال والاكـتمال عبر طريق مفروش بقيم الدين وتعاليمه وإرشاداته، وهو الطريق الذى يليق بالإنسان المسلم. والأديب المسلم.

وعـلى هـذا فـإن الفن – ومنه القصة القرآنية – له وظيفته التى يؤديها، ورسـالته الـتى يقوم بتوصيلها، وله هدفه الذى يسعى إلى تحقيقه. فالفن جزء من اهـتمامات المسـلم ونشـاطاته العقلية والوجدانية والإبداعية، ولابد أن يصدر هذا النشاط الفكرى والفنى والإبداعى عن تعاليم الإسلام ومبادئه السامية. ولا يعنى ذلك ابداً الاهتمام والالتزام بالجانب الموضوعى فى الفن على حساب الجانب البنائى فى العمـل الفنى والأدبى، بل إن العمل الأدبى بموضوعه وشكله يحظى باهتمام بالغ فى نظرة الإسلام إلى الفن كما قلنا سابقاً.

---

(١) القصص فى الحديث النبوى. محمد بن حسن الزير. دار اللواء، الرياض، ص٣٧١.

وليست هناك موضوعات بعينها توضع للأديب يبدع فيها فنه، فالفنان فى الإسلام يكتب ما حلا له أن يكتب، ينطلق خياله ويسجل قلمه، ما انفعل به وما ارتآه موضوعاً صالحاً للكتابة والتعبير. حتى ولو كانت موضوعات شائكة لها حساسيتها الخاصة مثل الموضوعات التى تتناول علاقة المرأة بالرجل. إن هذا الفرض لموضوع بعينه لا يرتضيه الإسلام، وهو الدين الذى يرسى أسس التحرر من القيود الضالة، والأثقال المحيطة. الإسلام لا يضع قائمة للأديب يبدع من خلالها، لأن الإسلام دين يدعو إلى الاختيار حتى تصبح المسؤولية الملقاة على العاتق كاملة. ولكن المطلب الإسلامى – وهو مطلب عقيدى فى الأساس – هو أن ينطلق الأديب من منطلق الإسلام، ويعرض موضوعه من خلال وجهة النظر الإسلامية. وبذلك يصبح للأدب تميز وتفرد يختص به.

فالإنسان من وجهة النظر الإسلامية مخلوق – وإن كان مفطوراً على النقاء والصفاء – قد كمنت فيه نوازع النفس البشرية، ففيه ميل إلى الخير وإلى الشر، العدل والظلم، الصلاح والفجور، القوة والضعف، الحب والكره.. وغير ذلك من الثنائيات المتضادة التى تصنع فى داخل الإنسان محاور للصراع والقلق والجدل.. وهو كإنسان معرض أن يميل هنا أو هناك بحكم الاستعداد الغريزى لديه. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(١).

وسجل القرآن الكريم ضعف الإنسان فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(٢).

ومع هذا الضعف البشرى فإن القرآن الكريم يعلى من الجانب الروحى للإنسان لأنه الجانب الأقوى والأكثر فعالية. وهو الذى (يمنح الإنسان قوة إيجابية وإرادة فاعلة فى أن يختار، وأى الطريقين يختار، وهو بهذه الإيجابية الفاعلة النابعة من جانبه الروحى العلوى، يملك أن ينتصر على لحظة الضعف، ثم إن القرآن الكريم وهو يسجل لحظة الضعف تلك يسميها ضعفاً.. وإنها ليست هى الأصل..)(٣).

---

(١) سورة الشمس آية ٧، ٨.

(٢) سورة النساء آية ٢٨.

(٣) القصص فى الحديث النبوى ص٣٧٢.

بهــذا المفهــوم تصبح نظرة الإسلام إلى الفن كنشاط إنسانى، نظرة واقعية تجســد حــركة الإنســان وهــو يصارع الضعف البشرى للارتقاء إلى المستوى الأفضل، وهو يدفع الشر ليؤكد الخير ويرسى قواعده.

إنهــا نظــرة واقعيــة إلى الفن – ومنه الفن القصصى الذى يتناول النشاط الإنســانى – فــهى تأخذ الواقع البشرى بإطاره الشامل، وبما فيه من جوانب عليا، تكشف عنها، وتوضحها وتبرزها وتصقل معانيها، وتسلط الأضواء عليها.

والفن الإسلامى يتناول هذه الجوانب السامية بما يجعلها المثل الحى للإنسان السّــوى، والصورة الرائعة البراقة للمسلم فى إطاره العقدى. إن الفن الإسلامى هو الفــن الحقيقى الذى يجعل من لحظات الارتفاع والسمو عند الإنسان، البطولة التى تســتحق الإظهار وتسليط الأضواء. وللإسلام واقعيته المميزة الخاصة به. فالأمر الواقــع لا يفرض ذاته على الإسلام، فقد يكون هذا الأمر غارقاً فى الخطأ والفساد، فوجــوده ليــس مــزية، وإنما المزية للصواب والحق، والواقع الذى ينحرف عن الإنسانية لا يمكن أن يكون حقاً وصواباً، ومن ثم فللإسلام منه موقف.

فالواقعيــة الإسلامية لا ترسم صورة مزورة للحياة، صورة بيضاء ناصعة البياض لأن ذلك يخالف ما جاء فى القرآن.

قال تعالى وهو يصف ضعف الإنسان ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(١).

كمــا بيــن القــرآن الكريم ما فطر عليه الإنسان من رغبات وغرائز. قال تعــالى: ﴿زُيِّــنَ لِلــنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَــبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾(٢) إلى غير ذلك من الآيات الــتى تتناول نقائص الإنسان (تصويراً صادقاً بارعاً عميقاً واقعياً إلى أقصى حدود الواقعيــة.. ولكنها تصورها على وضعها الطبيعى الحقيقى وهى أنها نقائص ينبغى أن يرتفع عليها الإنسان..)(٣).

---

(١) سورة النساء آية ٢٨.
(٢) آل عمران آية ١٤.
(٣) منهج الفن الإسلامى ص٥٦.

فالواقعيـــة الإســـلامية لا تزعم أن الإنسان شر كله، ولا تزعم أنه خير كله وإنما خليط بين الاثنين، والفن الإسلامى مجاله التعبيرى أن يرسم تلك الصورة فى هــذه اللحظة وتلك، ولكنه لا يسلط الأضواء على حالة الهبوط والتدنى فالفن يجب ان يقــوم بتصوير الوجدانات البشرية فى مختلف حالاتها ومجالاتها دون الاقتصار على حالة دون أخرى.. وهو أمر فنى يليق بالواقعية الحقة التى ينبغى أن يمارسها الفن فى تصوير الحياة بما تموج به من خير وشر.. فالواقعية الإسلامية تسير على أســاس منهج موحد فى النظرة الكاملة لفطرة الإنسان وجوهر الحياة وسنن الله فى كونه.

والفــن الإسلامى (ليس هو الفن الذى يتحدث عن حقائق العقيدة مبلورة فى صورة فلسفية، ولا هو مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات، وإنما هو شىء أشــمل من ذلك وأوسع. إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود)[1].

ومــن هذا الشمول والتكامل تأتى نظرته إلى النفس البشرية، بحيث تعرض الصــورة كامــلة بما تتضمن من الماديات والروحانيات فى تربط ممتزج امتزاجاً كــاملاً، يؤثر بعضها فى البعض الآخر، ولكن مع إبراز القيم الدينية والروحية لأن إبــرازها حقيقــة كونية متصلة بالفطرة الإنسانية، التى هى مناط الإنسان وجوهره الحقيقى.

---

(١) نفسه ص١١٩.

بين القصة القرآنية والقصة البشرية

نحـــن نعرف القصة القرآنية من خلال ما جاء فى القرآن الكريم من أخبار عـــن الأمم السابقة، وعن الأنبياء والمرسلين، وموقف أممهم منهم. والقرآن الكريم كتاب الله، ودستور المسلمين إلى الحياة الإسلامية الصحيحة. ذلك أن القرآن الكريم ليـــس كتاب قصص. وليست قصصه كالروايات أو القصص التى ينشئها الإنسان، حيث تتضمن الحوادث المتخيلة أو المختلقة أو الواقعية.

إنما القصة القرآنية هى القصة التى جاءت بالقرآن، ونزل بها الوحى الأمين ليخبر بها عن الله سبحانه، عمّ حدث للأمم السابقة. وعمّ دار بين هذه الأمم والرسل مـــن مواقف وأحداث، وما جرى بين هذه الأمم وغيرها من الأمم الأخرى وما دار بين الأمة نفسها، مع ضرب نماذج منها تعطى المثل والعبرة.

وقصـــص القـــرآن – وهـــو قصـــص لأمور واقعة – يساق للعبر وإعطاء المـــثلات وبيان مكان الضالين والمكذبين ومنزلة المؤمنين المهتدين إلى الحق. فهو قصـــص للعـــبرة من المواقع والأحداث، وليس لمجرد المتعة ، وقضاء الوقت فى قراءة القصة أو الاستماع إليها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة خاتمة لقصة يوسف بأجمعها، لتلخص الهدف، وتـــبين المغزى، وتثير الذهن إلى إدراك الحقيقة الثابتة وراء الأحداث المتصارعة، والمواقف المتشابكة، والعواطف المشتجرة.

ووجـــه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائـــه فيـــه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوتـــه بعـــد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد (ﷺ)، وإعلاء شأنه وإظهار دينه(٢).

---

(١) سورة يوسف آية ١١١.

(٢) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص٧١.

ومعــرفة الظروف التى مرت بمحمد (ﷺ) توقفنا على العبرة وعلى النمط الفــريد الــذى جاءت به القصة. ففى تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم، كــان يعانى (ﷺ)، من الوحشة والغربة، والانقطاع فى جاهلية قريش، وكان نزول هــذه الســورة تخفيفــاً لــلآلام، ذلك أن فترة الدعوة بمكة حفلت بكثير من الأذى والأحــزان، فالقصـــة حين نزلت كان الهدف هو سوق العبرة وتخفيف الحزن عن الرســول، فمــا من شدة إلا ويعقبها فرج، وما من حزن إلا ويعقبه فرح، وما من ضيق إلا ويسبقه مخرج.. وجاءت القصة أيضاً تحمل التنبأ بما سيحدث على غرار ما حدث . ذلك أنها جاءت تحمل البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على الدرب النبوي السابق، ومن ثم فهى تبشر بقرب النصر.

ومن أجل أن يصل الهدف إلى صاحبه، ومن أجل أن تتحقق الغاية العظمى مــن سياق القصة وتتابعها، فقد اختلفت عن السور المكية التى حملت طابع الإنذار والوعيــد فجــاءت قصة يوسف، وهى المكية أيضاً (طرية ندية، فى أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان ولهذا قال خالد بن معـــدان "سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء "لا يســمع ســورة يوســف محزون إلا استراح إليها"[(1)]. ومن أجل ذلك فقد تكررت قصـــص القــرآن الكــريم التى تناولت الأنبياء والمرسلين، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالإطناب أو بالإيجاز وكذلك قصة إبراهيم وقصة موسى.. وغير ذلك.. من القصـــص فطبيعة القصة القرآنية، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف، التى جاءت فى السورة كاملة مع تتمة بسيطة وتكرار للمحة منها فى سورة أخرى وهى سورة "غافر" الآية (٣٠).

(قــال العلامـــة القرطبى : ذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن، وكررها بمعنى واحد، فى وجوه مختلفة وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر والإعجاز واضح لمن تأمل[(2)].

---

(١) نفسه الجزء الثانى ص٣٩.

(٢) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص٤٠.

والمعنى الذى يقصده القرطبى ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة فى مواضع كثيرة لا يعنى تكرار المعنى.. أو تكرار الفكرة، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة فى المواقف المختلفة.

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة. على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية.

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثرى له مهمة خاصة به، وهى أن تقص أعمال الرجل العادى فى حياته العادية، بعد أن تضعها فى شبكة من الحوادث كاملة الخطوط، متتبعة كل فعل إلى أدق أجزائه وتفصيلاته وسوابقه ولواحقه..)(١).

ولا شك أن التعريف يتضمن هذا التسلسل المتتابع للأحداث والمواقف، كما لو كانت شبكة متداخلة الخيوط. كما أن كلمة الخيال التى وردت فى التعريف تدل على أن الرواية ليست نقلاً حرفياً للواقع وإنما هى انتقاء واختيار له ومن ثم يمتزج الخيال بالحقيقة. والرواية تصف الرجل العادى. ثم (هى حدث تام ترتبط أجزاؤه، وتتآزر عناصره فى سبيل الوصول إلى الخاتمة، ثم هى بعد ذلك لا تكتفى بوصف الشخصية من خارجها وإنما تتوغل فى أعماقها لتصف مكنوناتها وتعبر عن وعيها)(٢).

وإذا كانت هذه هى نظرة بعض النقاد الغربيين إلى تعريف الرواية وهى تعريف يختلف من مدرسة إلى مدرسة، حسب الاتجاه، والمعتقد، فإن الدارسين العرب لا تختلف نظرتهم كثيراً عن النظرة الغربية، من حيث اكتمال الموضوع وتتبع الحدث، والإلمام بحياة الشخصية الرئيسية، وطريقة التعبير عنه، واستكمال أحداثه.

---

(١) فنون الأدب. تشارلتون ص١٢٨ ترجمة د. زكى نجيب محمود. لجنة التأليف والترجمة.
(٢) بناء الرواية، د. عبدالفتاح عثمان ص١٢ مكتبة الشباب القاهرة.

يقـول محمود تيمور – وهو أديب ودارس ينطلق تعريفه من منطلق النظرة الواقعيـة الطبيعية كالاتجاه السابق – في تعريفه للرواية، ومحاولة تنظيره لها "أما الـرواية ففيهـا يعالج المؤلف موضوعاً كاملاً أو أكثر زاخراً بحياة تامة واحدة أو أكـثر . فـلا يفـرغ القـارئ منها إلا وقد ألم بحياة البطل أوالأبطال في مراحلها المختلفة"(١).

ولعلنا نلاحظ فروقاً كثيرة بين القصة القرآنية وبين القصة البشرية فإذا كان كلاهمـا فـناً قوليًّـا يـتخذ من اللغة أداة تعبيرية، ومن الحكى وسيلة للكشف عن الشخصـية، ومن السرد طريقاً إلى التصوير.. فإنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً فى الغايـة والهـدف، فـإذا كان غاية القصة البشرية نقل الواقع بنماذجه، فإن القصة القـرآنية، تهدف إلى غايات دينية بحتة تحددها الأغراض الدينية التى تدور القصة فى فلكها.

كذلـك فإن المنطلق مختلف تمام الاختلاف، فليس هناك فى القصة القرآنية تتـبع كامل لحياة الشخصية، وشبكة أحداثها، وإنما هو اختيار مبثوث عبر السور، لتوضـيح موقـف مـا، أو إبـراز صراع حول الدين والوثنية، وغير ذلك. مما سنوضحه فيما بعد.

والقصة القرآنية – كما سبق القول – قصة تتخذ الصدق الحقيقى مقياساً لها وليـس كالقصة البشرية، تتخذ الخيال وسيلة لاختلاق أحداث تعادل الواقع. والقصة القـرآنية أبطالها هم قادة الأمم ورسلها إلى الصلاح؛ إنهم الأنبياء والرسل. وأبطال القصـة البشـرية رجـال عاديون، حيث تصف الرواية الرجل العادى، فتعبر عن العاديين من البشر الذين نراهم ونتعامل معهم. وليس النبى المصطفى المرسل، إلى الأمة كفرد عادي ينسلك ضمن ملايين الأفراد العاديين.

والقصـة البشـرية وهى تعـالج أنماط السلوك البشرى فإنها (تتمثل علاقة القصـة بالحيـاة فى كونهـا تعبيراً عن أنماط السلوك الإنسانى، لها ما يقابلها فى الحيـاة. ولكـن بيـنما تظـل دوافع بعض السلوك والاستجابة لها خفية فى الحياة

(١) دراسات فى القصة – محمود تيمور ص، ١٠٠ المطبعة النموذجية.

الواقعيـــة.. نجد أن العمل القصصى يكشف عن الرابطة القوية المتداخلة بين أنماط السلوك...)[1].

والقصـــة القــرآنية إنمـــا تقدم للبشر – القارئ والمستمع – النموذج المثالى للســلوك وللأخلاق، وللقدوة المتعالية عن الدنايا وأخطاء البشر. وهذا السلوك الذى تقدمـــه القصـــة القرآنية ليس سلوكاً شخصياً، بل هو سلوك تقتضيه مواجهة الكفر والضلال، ويوضحه الصراع الهائل بين الرسول وبين الطغاة. ثم هو سلوك مثالى فى التصرفات والمعاملات، وإرشاد الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

والقـــادة الرســل يمتازون بأنهم مصدر عقيدة، ومنبع إيمان، إنهم هم الذين يعــلمون الناس الإيمان ويمنحونه قلوبهم ويفيضونه على أرواحهم. وهم بهذا النبع الإيمـــانى الصـــرف يسـيطرون عــلى قــلوب أممهم فيدفعونها إلى أبعد الغايات والأهــداف، فيولــدون فى نفوسهم القوة الهائلة (فيخلقون من الجماعات مهما تكن درجـــة قوتها المادية أكبر قوة سيَّرت الحوادث، وبنت التاريخ، ودفعت بالحضارة قدمـــاً)[2]. وهـــذا هـــو الفرق بين شخصية القصة القرآنية والشخصية فى القصة البشرية.

والقصـــة القـــرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثـــه كمـــا هو شأن القصة العادية، وإنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكـثيرة إلى إبراز الأغراض الدينية التى تكفل للإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة. والقصـــة الفنية التى يقوم بإبداعها قصاص من البشر، تترجم عن مشاعر ومعاناة التجربة التى مر بها المؤلف أو نقلها عن تجربة مؤثرة... والنقد التحليلى قد يكشف لنا عن الخفايا النفسية التى تكمن وراء العمل الفنى.

أمـــا القصة القرآنية فلا تخضع لهذا الاتجاه التحليلى النفسى، إلا من جانب واحـــد فقط يرتبط بتأثيرها فى النفوس ودرجة استجابة القلوب لما تدعو إليه القصة ذلـــك لأن مصدرها هو الخالق، طابع النفوس على طبائعها وخصائصها. ما خفى منها وما ظهر.

---

(١) نقد الرواية. د. نبيلة إبراهيم ص٢٧ النادى الأدبى – الرياض.

(٢) من هدى القرآن. أمين الخولى ص ٣٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وإذا كـنا نستطيع أن نتعرف على شخصية المؤلف من خلال ما يكتب من قصـص وروايات فإن ذلك لا يتأتى فى القصة القرآنية، ذلك لأن الله جل وعلا.. وهـو المنزه عن كل تشبيه.. هو المنشئ والموحى بها. وهل يقوى الفكر البشرى المحـدود أن يتصـور ذلك، أو يحيط علماً به، والأمر فقط يكون بالتدبر فى خلقه وليـس فى ذاته[1]. وخلاصة القول فى هذه الجزئية إنه إذا كانت قيمة العمل الفنى فى القصة تبرز على قدر اتضاح الفكرة الأساسية فيه، وعلى قدر الاتصال بحقيقة الإنسـان فى أسلوب جذب وصيغ تعبيرية جميلة ومؤثرة بقصد الامتاع، فإن جمال الفن فى القصة القرآنية يبدو واضحاً فى وحدة الموضوع، ووحدة الشخصية ومنهج العـرض الخـاص بـالأحداث، وذلك عبر وسائل غاية فى الجمال والتأثير، مثل المشـاهد المصـورة الحية، وأسلوب إدارة الحوار بين الشخصيات بما يؤكد القيم الديـنية، ويـبرز الحالات النفسية، فضلاً عن القدرة الفذة فى حسن اختيار الموقف المناسب الذى يحمل العظة والعبرة.

ويقـول أبو هلال العسكرى وهو يفرق بين القصة والحديث، ومنشئ كليهما "ولا يقـال لله قاص لأن الوصف بذلك قد صار علماً لمن يتخذ القصص صناعة". وهو أن دلّ على شيء فإنما يدل على عمق النظرة والتحليل عند "العسكرى".

والـنظرة القـرآنية إلى القصـة تختلف تمام الاختلاف عن النظرة البشرية إليهـا.. ولا شك أن القصة المقروءة في هذا الزمان المعاصر، تغاير تماماً ما جاء فى الـتراث العـربى القديـم، أو ما جاء فى القرآن الكريم وما ورد عن الرسول الكريم، إن القصة الحديثة مبتوتة الجذور بالأصول وهى أقرب إلى القصة الغربية وأسلك فى دروبها ومناهجها وأساليبها. إنها بمعنى من المعانى فنّ غربى خالص، يختـلف اختلافاً بيناً عن طابع القصص القرآنى. ولا شك أن الخلاف مبعثه الدين والقيـم والمسـلك العـام والخـاص، والتباين الشديد فى نوعية الشخصية المسلمة والغـربية – وفى الـتكوين المـزاجى والبـنيان الجسمانى، والتكوين الحضارى والثقافى.

(١) قـال تعـالى ﴿لَيْـسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى، وقال تعالى ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الأنعام ١٠٣.

ولقــد تأثــرت القصـــة العـــربية الحديـــثة بمـــا تناولته القصة الغربية من موضـــوعات وإن كـــانت تغايـــر طبائع الأمة العربية. ذلك أنه غلب على مؤلفى القصص الدعوة إلى المادية، فتكالبت الشخصيات عليها على حساب الأخلاق والقيم ولقــد أثر ذلك فى الناس القارئين والسامعين على السواء، وأصبح أبطال الأعمال القصصية نماذج تحتذى.

وهـــو نوع من الاستهتار العقلى يبعثه الروائيون فى نفوس الجماهير السهلة الانقيـــاد فى قالب منمق يؤدى إلى الاستهانة والسقوط، مع تبرير السقوط والفاحشة والتماس الأعذار للساقطين والمنحلين، والمستهترين أخلاقياً. وليس ببعيد أن بعض التأخر الذى حاق بالأمة العربية، وهذا الهبوط الأخلاقى الذى نلمسه فى حياتنا، لهو أثر من آثار هذا التقليد الأعمى الذى وقع فيه كتاب العرب.

وليـــس بخافٍ علينا ما يحمله الغرب المسيحى من عداء إلى الإسلام وأهله. ومحاولاتـــه المستميتة لغزو الإسلام عبر تخريب العقول وإفساد القلوب ولقد زين الكتاب للناشئة وللناس أموراً لا يرضاها الدين ولا تتلاءم مع أخلاقه وطبيعته. من ذلـــك الاتجاه الذى يسود فى الأدب العربى الحديث والذى يستخدم الأساطير الوثنية التى أدانها القرآن.

فالأســـطورة اليونانيـــة وكذلك تراث الأساطير الشرقية القديم، من حيث إن طبيعة كل منهما تستمد موضوعها وأسلوبها من الوثنية الخالصة فإنها آداب تقترب مـــن الوثـــنية. فالخلاف فى الجوهر والصميم كما هو فى الشكل والخصائص وفى الدوافـــع والغايات من حيث إن دوافعه مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الدوافع التى يتولد منها الأدب الأوروبى وأبرز هذه المعالم هى الإيمان والتوحيد وسلامة النظرة وصـــدق التوكل على الله الخالق الرازق، وكلها تعطى للأدب طابعاً ملؤه الإشراق والتفاؤل والإقبال على الحياة والرضى بقضاء الله(١).

ومـــثل هـــذه القصص التى تستقى مادتها، من النظرة إلى الإنسان من حيث كونه حيواناً مادياً لا روح فيه، أكدت على الاستهتار بالدين والقيم والفضائل. وهى

(١) معلمة الإسلام ص٣٩٣.

أساساً نتيجة الأفكار المتطرفة والنظريات التي لحقت بالعالم الغربي، مثل نظرية التطور أو نظرية الانتخاب الطبيعي أو نظريات فرويد في التحليل النفسي.. وهي كلها أمور علمية عكسها الفن الروائي الأوروبي. وقام كتاب العربية الروائيون بتقليد ذلك كله فسجلوا على أنفسهم، التقليد الأعمى، والانسياق المزاجي وراء الهرج من القول والفكر والانفصال الحقيقي عن تراث أمتهم وآدابها.

وجاء المذهب الواقعي والطبيعي ليوضح مقولة دارون من أن الإنسان حيوان متقدم ، وطرأ الاتجاه التحليلي في القصة والنقد وسبر أغوار الشخصية من منطلق التفسير "الفرويدي" الذي يفسر سلوك الإنسان تفسيراً جوانيا خاضعاً لغرائز فطرية محركها الأساسي هو الجنس.

وانطلق الأدباء ينتجون على ضوئه أدباً جنسياً مكشوفاً، يخضع فيه الإنسان لضعفه وشهوته العارمة، مركزين الأضواء الكاشفة على لحظة الإنسان الهابطة وهو يبحث عن المتاع الدنس. وقد تخصص في هذا النوع من الأدب الجنسي مجموعة من الأدباء... زاعمين أنهم يصورون الواقع الحقيقي للإنسان(١).

إن هذه الاتجاهات والمذاهب، غير أمينة على الإنسان، اتجاهات وأساليب منحرفة عن حقيقة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها، ومن ثم جعلت هذه المذاهب من الإنسان مسخاً بشرياً.

ونظرة القرآن الكريم إلى الإنسان نظرة كلية شاملة فهو إنسان فرد مطلق في ذاته بلا حدود ولا قيود، ثم هو في الوقت نفسه عضو ملتحم في جسد اجتماعي مشدود إليه شدًّا محكماً وثيقاً لا يمكن أن ينفصل عنه إلا إذا فسد هذا العضو أو فسد المجتمع الذي كان ملتحماً فيه(٢).

وإنها لمعادلة صعبة تلك التي يقع بين طرفيها الإنسان، وهي محور الصراع البشري وهي الموضوع الرائع لأي عمل أدبي للقصة يستطيع أن يتناول مثل هذا الإنسان في جانبيه الذاتي، والاجتماعي.

---

(١) منهج الفن الإسلامي . محمد قطب ص٧٤ دار القلم.

(٢) الإنسان في القرآن الكريم. عبدالكريم الخطيب ص١٠٩ دار الفكر العربي.

ذلـك أن "التكيف مع الحياة ضرورة اجتماعية، وهذا ما تصنعه القصة فهي تخـلق تكيفـاً مـن نوع ما في إطار العمل الفني، وذلك من خلال تجميع عناصر الحيـاة المتشعبة في وحدة دلالية واحدة تمثل الحد المقبول على المستوى الجمعي، عـندئذ يبدو السلوك الفردي واضحاً في إطار الأحداث التاريخية والاجتماعية. أو تخـتفي العوامل المشوشة التي لا تفسر سلوك الإنسان على نحو منطقي في الحياة الواقعية(١).

وبالـرغم مـن محـاولات إبـراز عنصر التكيف في الفن القصصي فإن الاتجاهـات الواقعيـة والطبيعية والنفسية في الأدب، تأخذ الإنسان كفرد عادي في لحظـات أبعـد ما تكون عن التكيف بل هي قريبة من النبذ والاستلاب.. لحظات الضـعف والسـقوط، واعتبرت أن هذا الضعف وهذا السقوط إنما هو الأصل في الطـبيعة، أما الثانوي منه فهو الدين والقيم والأخلاق. واعتبرت كثير من الأعمال الأدبيـة لحظـات ضـعف الإنسان هي البطولة الحقيقية له. ولذلك فكثيراً ما ترد عـبارات الخطيئة الأولى، والزلة الأولى، وسقوط الإنسان منذ البدء.. مشيرين إلى وقـوع آدم في المعصية، دون أن يدركوا الهدف من ذلك كله. والله جل وعلا كما وضـح القـرآن لم يخلق آدم وزوجه ليبقيا في الجنة، كالملائكة وإنما جاء الخلق، لعمارة الكون، وكانت الزلة سبباً في الهبوط إلى الأرض ليتحمل الإنسان مسؤوليته عن تعمير الكون واستمرار الحياة. ونقطة الانطلاق تختلف تماماً. فالإسلام يخاطب الإنسـان كمـا قلـنا من جانبيه الذاتي والاجتماعي معاً. على حين.. أن الأنظمة السياسـية والاجتماعية المصنوعة بأيدي الناس لا ينظر إلى الإنسان إلا من جانب واحـد، إمـا مـن جانب الجماعة كالشيوعية فلا تراه إلا قطرة ماء ذائبة في نهر الجماعـة، وإمـا مـن جـانب ذاته وحده كما في الرأسمالية، التي تراه ذا وجود مستقل(٢).

ولقـد واجـه القرآن الكريم الإنسان في هذا الجانب الذاتي حتى لا يقع في مغبته، فيدعوه إلى النور والهدى. قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

---

(١) نقد الرواية د. نبيلة إبراهيم ص٤٧.

(٢) الإنسان في القرآن الكريم ، ص١١٠.

نَبْتَليه فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا • إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١). والقرآن الكريم يحذر الإنسان مما فى طبيعته من عناصر الظلام التى خالطت عناصر النور، فحذره من سلطان الغنى ، والغرور والطغيان. وفى قصة قارون نموذج للقصص القرآنى الكريم الذى تناول هذا الجانب الذاتى من الإنسان، والذى طغى عليه غروره، وسلطان القوة فيه. ولقد حمله ذلك الغرور على محادة الله والكفر به.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ • وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ • قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ • فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ • وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ • فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ • وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ • تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقصة قارون تعطى الفارق العظيم بين منطق الإيمان ومنطق الطغيان. ولقد وردت قصة قارون، وهى قصة الطغيان بالمال، بعد قصة فرعون وهى قصة الطغيان بالجاه والسلطان. وجاء التعقيب بعد قصة قارون لإبراز الهدف والمغزى الدينى الذى سيقت من أجله القصة وهو أمر خاص بطبيعة القصة القرآنية. وبيَّن التعقيب الإلهى أن الدار الآخرة لا يستحقها إلا المتقون الذين لا يريدون التكبر

(١) سورة الإنسان آية ٢، ٣.

(٢) سورة القصص آيات ٧٦-٨٣.

والطغيان والظلم والعدوان. وتصبح العاقبة محمودة لمن يخشون الله ويراقبونه. إن قصة قارون تندرج تحت ما يمكن أن نسميه القصة القصيرة، لأنها وردت في حيز ضـيق، دون اهتمام بالتفصيل أو إيراد التفاصيل، وهي أيضاً لم تتكرر لأن إيراده في سورة القصص كان كافياً لإبراز الغرض الديني. والقصة كاملة في عناصرها. ففيهـا وصف خارجي لقارون فهو غني ومظاهر الغنى واضحة جلية في تصرفاته وفي مظهره. وأبطره الغنى، فاختلَّ توازنه وأصيب بداء نفسي وهو الغرور. ومن ثم لم يتصالح مع نفسه، ولا مع المجتمع ولم يحدث هذا التكيف الاجتماعي بالمعنى الحديـث، فـأحدث بذلك شرخاً في علاقته بالجماعة، وانقسم الناس إزاءه قسمين، وهـذان القسـمان يعكسان ما في النفس من جانبيها المتصارعين: الخير، والشر. ومـن ثـم توجه البعض إليه بالنصيحة، على حين تمنى الآخرون أن يكونوا مثله. وهـذا الحـوار الذي دار بين قارون وقومه يعكس طبيعته الشخصية، ويفضح ما بداخلها. فجاء الأمر كفعل قولي من باب النصيحة، وكذلك النهي وجاء القول على لسـان قـارون يشي بالغرور والعظمة، والكبرياء وهي صفات ممقوتة، ولأن هذه الصـفات مذمومـة، ردَّت عـليها الآيـات سريعة، دون أن تترك الحدث البسيط للاسترسـال. إنـه الـتدخل المباشر، في القصة القرآنية. ذلك التدخل الذي يعطي الـتحفظ عـلى القول ويؤكد المعنى الصحيح، ويعترض على القبيح، حتى تتضح العبرة والعظة. وعلى ذلك ذكرت الآية في هذا الموضوع أن الله أهلك قبله من هو أشـد مـنه قوة. وجاء الحوار على لسان الفئة الضعيفة بما يفيد التمني، على حين جاء على لسان العقلاء ثابتاً محايداً بلا انفعال بل في تعقل وبصيرة.

ثـم لا تترك الآيات الموقف بلا عقاب بل تذكر الآيات العقاب الذي استحقه قـارون. فخسـف بـه وبـداره الأرض، ولم يبق من هذا الموقف كله إلا العظة والعبرة.

تلك شخصية تتضمن العناصر الكاملة، لشخصية درامية، ولكنها في القصة القرآنية سردت بما يلائم الغرضَ الديني، ولم تتكرر. ولو وقعت هذه الشخصية في يد الكتاب لجعلوا منها صورة للابتذال، وضمنوها صوراً للغنى الفاحش وآثاره في تدهور الأخلاق مع الإشارة إلى مسالك جنسية مبتذلة.

إن الإسلام لا يرضى من الإنسان أن يكون ذاتى النزعة، يعيش لذاته، ويعمل لحساب تلك الذات غير ناظر إلى ما حوله ولهذا كان من دعوة الإسلام البر والإحسان، والتكافل بين الجماعة، فيعين القوى الضعيف، ويساعد الغني الفقير ويعلم العالم الجاهل، ويهدي المهتدى الضال.

وتلك المعانى كلها ، افتقدها "قارون" وهو المعنى الذى نستطيع أن نخرج به من وراء القصة.

ومن هنا فإننا نستطيع أن نلمح الفارق بين القصة القرآنية وغيرها من القصص البشرى. فالقصة القرآنية تأخذ الواقع الأكبر للإنسانية بصورته الشاملة وبما فيه من خير وشر. وما فيه من مادة وروح وبما ينطوى عليه من جوانب عليا، وأنها هى الجوانب الأصيلة فيه، الجديرة بتسليط الأضواء عليها، وأن تصور وتكبر أيضاً على صفحات الأدب وفى مجالات الفن، وأن يجعل من لحظات الارتفاع والسمو عند الإنسان البطولة الجديرة بالإبراز وتوجيه الأنوار(١)، فالتصور الإسلامى، الذى جاء به القرآن – هو الموجه للقصة القرآنية فى مضمونها، وأساليب تعبيرها مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه القصص إنما هى نصوص دينية معجزة.

(١) القصص فى الحديث النبوى ص٣٨٠.

قيم فنية وجمالية

١- التصوير الفني

القصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم لإبراز أغراضه الدينية، ذلك أن القرآن كتاب دعوة دينية في المقام الأول، تتجلى فيه وحدة العقيدة ووحدة الأديان وتماثل وسائل الدعوة منذ البدء حتى الإسلام خاتم الأديان.

... والقرآن - وهو يتخذ من القصة وسيلة لإبلاغ الدعوة وترسيخها ونشرها - يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني. بحيث يتخذ من الجمال الفني والتصوير التعبيري طرائق للتأثير النفسي والوجداني. (فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية)(١). فالفن والدين كلاهما عميق الغور في النفس والحس. ولا شك أن صفاء النفس مدعاة طبيعية لحسن التلقي لمجال الدين والفن.

إن القصة القرآنية تتفرد بملمح خاص بها وهو التصوير. فالتصوير يجعل من العمل القصصي أداة فعالة ومؤثرة في جماهير المتلقين للعمل الفني كما ينشئ علاقة إيجابية بين محور العمل وعناصره وأحداثه وبين السامع أو القارئ لما يتضمنه التصوير الجمالي من حركة متدفقة تبعث الحياة فيما يسمع أو يُقرأ من القصة. والتصوير الجمالي الحي يشيع جواً من الحياة في ثنايا القصة. بحيث تنطلق الأخيلة وتتتابع الصور على الأذهان (فعملية التصوير البياني تستغل في الإنسان ملكة التصور والتخيل الذهني، حين يستحضر الصورة التي يسمعها أو يقرأها في كلمات القصة بحيث تصبح مجسدة بكامل أبعادها في ذهنه ومخيلته)(٢). والتصوير هو الأداة المفضلة في الأسلوب القرآني، حيث ينقل في صورة حسية ملموسة تؤثر في المتلقي، وتسرع بإبراز الغرض.. المعاني الذهنية، والحالات النفسية والأحداث المتصارعة والمتصادمة والنماذج البشرية في حركة حياتها واحتوائها على أنماط الطبيعة البشرية.

(١) التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص١٤٣.
(٢) القصص في الحديث النبوي محمد بن حسن الزير ص١٣٥.

ولقد برز التصوير فى مجالات تعبيرية ومتعددة منها :

أولاً : تصوير المواقف والمشاهد :

إن التصـــوير فى القصـــة القـــرآنية يحيل المواقف البشرية والإنسانية إلى مشـــاهد حيـــة كامـــلة – حيـــث تتبدى فيها الحركة البشرية الظاهرة، والانفعالات المستترة، وهاتان حركتان رئيسيتان، تمتزجان امتزاجاً كاملاً، بحيث لا نستطيع أن نفصـــل حـــركة عن أخرى، فالتمازج عضوى، وخيوط النسيج الذى يصنع قماشة الموقـــف، يـــتداخل ويتشـــابك ، وتلـــتقى فيه الصورة الحسية المادية، بتضاريس ملامحها، بالصورة النفسية، التى تتداح من النفوس التى تتواجه فى الموقف، ليبدو فى النهاية مشهداً حياً معروضاً بكل أبعاده أمام عيون المتلقين.

وهذا النوع من التصوير يتكرر بكثرة فى سور القرآن الكريم، سواء جاء عبر القصص أو الأمثال المضروبة أو مشاهد القيامة، أو غيرها من مجالات التعبير. ويتحول الموقف إلى مشهد ملموس بالحس والخيال.

ولنضرب على ذلك نموذجاً بقصة أصحاب الجنة .. والمراد هنا هو صاحب الجنتين وموقفه من صاحب له فقير. وكلاهما نموذج من الناس، أحدهما غنى تبطره النعمة فينسى قدرة الله وعظمته. أما صاحبه فهو نموذج للمؤمن المعتز بإيمانه والذى يرى أن النعمة ما هى إلا دليل على قوة الله وعظمته.

إن القصة تتناول موقف الغنى، وموقف الفقر تجاه نعم الله وقدرته.

قال تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا • كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا • وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا • وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا • وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا • قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا • لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ

ربي ولا أشرك بربي أحدا • ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا • فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا • أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا • وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا • ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا • هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا﴾(١).

الآيات الكريمة التى صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير، من سورة الكهف.. وهى تدور حول محور العقيدة. والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال و السلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها.

ثمة كافر ومؤمن. أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه. وما أروع ذلك المنظر الذى تصوره الآيات، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانعة طيبة المذاق جميلة الشكل.

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير. فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسى الله، وواجب الشكر على نعمه، فازدهى قائلاً مفتخراً: إننى أغنى منك وأشرف وأكثر أنصاراً وخدماً. وأنكر أن تبيد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة، وأبدى قوله متحدياً أن الله فى حالة البعث سيعطيه كما أعطاه فى الدنيا.

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذى يصيب أصحاب الثراء والغنى، من الكفرة الجاحدين لنعم الله.

أما الصاحب الفقير الذى لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله. ومن ثم ينكر على صاحبه الغنى بطره وكبره ويذكره

(١) سورة الكهف آيات ٣٢-٤٤.

بمنشئه المَهين من ماء وطين، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لوّاهب النعم، المعبود وحده لا شريك له. ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره. إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه، وأن ما عند الله خير من أعراض الدنيا. ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغنى إلى خطورة ما يفعل، بل لامه وقرّعه واشتد عليه، ودعا الله أن تبيد الجنة حتى يتعظ صاحبها. (أكفرت بالذي خلقك!) والاستفهام للتوبيخ وللتقريع.

وحين ينتهى الحوار بينهما تتحقق المفاجأة المثيرة للذهن وللحس معاً، تقع المفاجأة تصويراً حسياً دامغاً لكل المفتريات التى افتراها الكافر حيث يتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر.

وينقلنا السياق القرآنى إلى مشهد تصويرى آخر، مشهد يتضاد مع المشهد الأول. ينقلنا السياق من البهجة والجمال والازدهار والحياة والتفتح والتدفق إلى مشهد البوار والدمار، فالثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء والجنة خاوية على عروشها، وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً على ماله الضائع، وهو نادم على إشراكه بالله وجحوده نعمته، ويعترف فى لحظة الندم بوحدانية الله. وندمه لا ينفعه ولم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك، فلم تنفعه العشيرة ولا الولد حين اعتز وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب. فالله هو الولي الحق الذى ينصر أولياءه.

وهكذا يتحول المشهد من جمال متفتح إلى جنة خاوية يقف وسطها رجل مفجوع ترتسم على ملامحه علامات الحزن والندم وهو يضرب كفاً بكف أسفاً على ما فات.. وجلال الله، وعظمة الله، وقدرة الله.. تتجلى لتظلل الموقف كله وتحدد معالمه، فى حين تتوارى قدرة الإنسان[١].

إن القصة فى تصويرها البديع لمشاهد المكان وتحوله، ولحركة النفس وتغيرها ولموقف الإنسان وتباينه، لتضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الثابتة وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بالدنيا والأخرى المعتزة بالله. وهما نموذجان واقعيان يدلان على أنواع من البشر منهم الغنى الجاحد والفقير المؤمن. إن فى

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد ٤ الجزء ١٥ ص٢٢٧١.

القصة تصحيحاً للعقيدة وللفكر وللقيم، فالفقير يقول لصاحبه – وهو يحاوره مبيناً أن الله هو الذى خلقه – إنه جحد النعمة، والجحود شرك بالله ولقد أنساه البطر والغنى أنه مخلوق مهين من ماء وطين. ولقد صاغ هذا الحوار لتصحيح عقيدة الكافر الغنى فى أسلوب استفهامي يراد به التقريع. ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾.

وجاء استخدام "ثم" فى السياق وهى تدل على التراخى لبيان المدى الزمني الطويل الذى تتضمنه كل مرحلة. وكأنما الآية رمز لخلق الإنسان، منذ خلق ادم من تراب، وتناسلت ذريته من نطف مهينة.

كما يتجلى التصوير الفنى واضحاً فى قصة نوح، وخاصة فى مشهد الطوفان، والآيات الكريمة تصور هذا المشهد تصويراً معجزاً.

قال تعالى :

﴿..حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ • وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ • وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ • قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ • وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[(١)].

وتتفجر عيون الأرض ماء، وتفيض، والسماء تفتح أبوابها، وينهل المطر غزيراً، وطغى الماء، وعلا حتى غطى كل الجبال المرتفعة، وأمر نوح أن يحمل فى السفينة من كل زوجين اثنين، وسارت السفينة تصارع الأمواج المتلاطمة محروسة من الله فى مجراها ومرساها، والأمواج تفتح للكافرين دوامات ليقبروا فيها، وليس لهم منجاة من الموت، فمهما صارعوا الموج خوفاً من الموت فإن الموت غالبهم.

---

(١) سورة هود آيات ٤٠-٤٤.

وهذا الهول الذى يحدق بالناس ويحيط بهم، ينبت هولاً جديداً حين يبصر نوح ابنه فيدعوه أن يركب معه، فعواطف الأب التى تحركت فى قلبه جعلته يتلهف على ابنه، ويناديه لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن الابن، أو يذعن: إنه يقول فى لهفة: يا بنى هلّم إلى السفينة ولا تكن من القوم الذى غضب الله عليهم، ولكن الكلمات لم تصل إلى قرارة وجدان الابن العاق، فيتمادى. ويصرخ متحدياً أنه سيأوى إلى جبل عالٍ مرتفع ولم يستمع إلى نصيحة نوح الذى أشجاه الهم حين بين له أنه لا عاصم اليوم من أمر الله.

وتتلاطم الأمواج وتعلو، هادرة كالجبال، وتبتلع الأمواج الابن كما ابتلعت كل شيء، لقد طوى الماء كل شيء على الأرض..

إننا هنا أمام مشهد يمور بالحركة والقوة والعنف والهول كالجبال في ثقلها وضغطها وجرمها. وحركة الموج تتراكم وتتصالب حتى لتبدو للرائى أنها جبل حقيقى، والتشبيه الحسى يخاطب العين، وهى وسيلة إدراكية مؤثرة تلتقط أبعاد الهول المرئى.

ويتوازى مع هذا الهول المادى هول نفسى صارخ، نداء من نوح إلى ابنه، نداء عالٍ كأعلى ما يكون الصوت، صارخ كأحد ما يكون الصراخ، حتى يصل النداء إلى الابن واضحاً وسط هذا الهول والصخب والتلاطم. ويأتى الحسم بين النداء والإباء وأعطت كلمة "حال" دلالة الحجز والمنع والقطع، وهى دلالة إشارية إلى عنف الموج وشدة حركته واضطرابه، وها هى ذى الموجة تصفع كل شيء ولا تأبه بعاطفة مشبوبة، أو بوجدان ميت، إنها فى شغل عن ذلك، لقد جاء الأمر أن تغرق الكافرين، والابن منهم، فلا مجال للنداء، ولا مكان للاستجابة. واستوى كل شئ أمام الماء، الأرض والإنسان. فلا الأرض تملك من نفسها شيئاً، ولا الإنسان يقوى على مواجهة النهاية القاسية.

لقد تكافأ العجز فى الطبيعة والإنسان، وهذا التكافؤ تأكيد وترسيخ للقدرة الإلهية والعظمة الربانية.. فكل شيء بأمره..

ونـأتى إلى مشـهد آخر من مشاهد الطوفان – فبعد أن وصلت الحركة إلى الذروة، آن لها أن تجد قرارها وتستكين.

لقد هدأت العاصفة وبدأ السكون يخيم ويتمشى الهدوء والاستقرار على الأرض من جديد. فالأرض جاءها الأمر أن تغيض فغاضت وبلعت ماءها، واستعادت جأشها، والسماء حجبت ماءها وأقلعت عن إنزاله وغيض الماء وقضى الله الأمر ونفذ القضاء. وغرق الظالمون الكافرون.

وجاء الأمر حاسماً نقلته أدوات النداء الدالة على الأمر "يا" والمصحوبة بالفعل الطلبى المطلوب تحقيقه وتنفيذه (ابلعى، أقلعى).. ونقل المشهد إلى النهاية فى سرعة تطلبت بلاغياً ونسقياً أن يكون البناء للمجهول (غيض) تأكيداً على الفعل نفسه، ووقوع حدثه.. إنه وقوع الحدث عبر أمر يستدعى تشخيص المادى بخصائص العاقل الواعى فتكتمل الاستجابة ويتحقق المغزى. وكذلك (قيل).. لفظ مبنى للمجهول يحمل لعنة على الظالمين، ليست آتية من فرد بعينه فى زمن بعينه وفى مكان بعينه، وإنما حملت الدلالة العامة الشاملة للإنسان وللزمان وللمكان.

والقصة تبين مواقف الرسل وهم يواجهون بالإعراض والتكذيب والسخرية والتهديد، ويظل موقفهم صامداً ثابتاً، متيقناً من نصر الله ونجاة المؤمنين. ومثل هذه القصص تقوم على حقائق ثابتة وأساسية، وتتمثل فى الوحدانية وعدم الشرك به، والعبودية له، وهى رسالة منذ آدم حتى محمد. وفى ذلك تسرية للرسول وإيناس له وتثبيت له أيضاً..

فالقصة القرآنية تبرز الغرض الدينى والاعتقادى من خلال السياق الفنى ولكن فى نسق تعبيرى متوازن يجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى.

إن المواقف والمشاهد لم تنقل بطريقة إخبارية تزودنا بالمعلومات وكفى ولكنها تنقل بطريقة تصويرية وغير مباشرة يتجلى فيها الفن وروعة الأداء التعبيرى، حيث تنقل هذه المشاهد والمواقف بطريقة يقدم فيها الحدث تقديماً كاملاً، بحيث يعطينا المعلومة الإخبارية والإحساس المصاحب لذلك، حيث تتضح التجربة الكاملة، ومن ثم يمنحنا هذا التكامل الشعور الفياح بالتأثر الوجدانى والانفعالى.

ثانياً : تصوير المشاعر والانفعالات :

إن التعـــبير القرآنى يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التى يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التى يعرفها، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهدا يجري، لا قصة تروى ولا حدثاً قد مضى(١).

ويتجــلى هذا النوع من التصوير فى إبراز الوجدان الإنسانى بما يكتنفه من عواطــف وانفعالات، وذلك من خلال سلوك الشخصية وموقفها من الأشياء، وعبر منظورها الخاص تجاه الأحداث، وهذا النوع التصويرى المرتبط بوجدان الشخصية يكشــف فى قـــوة تعبير، وروعة أداء وجمال تصوير، موقف الشخصية ومسلكها وتصـــرفها وما يدور بداخلها من مشاعر وانفعالات.. كالحيرة ، والقلق، والخوف والاضــطراب، والــتوجع والتفجع، والفرح والحزن وغير ذلك من المشاعر التى تتسلط على النفس الإنسانية فى موقف ما، وفى ظرف ما.

والأداء التعــبيرى فى القصة القرآنية لا ينقل لنا الموقف المصور المشحون بالعاطفــة بطريقة خبرية ليضيف معنى، أو معلومة، أو خبرا، ولكنه – وذلك وارد أيضـــاً – ينقل ذلك كله في نسق تصويرى موح ومعبر وغير مباشر، بحيث يتجلى الجــانب الفــنى واضــحاً وجــلياً، وبحيث ينقل إلينا الإحساس الفياض بالمشاعر والانفعالات التى تتجلى من هذا الرصد الوجدانى للشخصية.

ولا نســتطيع أن نفصل المواقف والمشاهد عن العواطف والانفعالات، ذلك أن الموقــف إنمـــا هو مثير انفعالى – وبالتالى تصبح العواطف، استجابة انفعالية، ومــن ثـــم وجب الارتباط بين المحورين ارتباطاً قوياً لا نستطيع فكَّه.. ولكننا فى مجـــال الدراســـة نحتال على هذا التوحّد فى الموضوع، حتى نستطيع أن نعيد إليه خيوطـــه الرئيسية قبل حالة اندماجها.. ومثل هذه المواقف، وهذه الانفعالات، تتميز بقـــدر كبير من الصراع النفسى كرد فعل للصراع الخارجي.. وخير مثال لذلك.. قصة مريم..

قال تعالى :

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص١٩٠.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا • فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا • قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا • قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا • قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا • قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا • فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا • فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا • فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا • وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا • فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا • فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا • يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا • فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا • قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(١).

الآيات الكريمة تصور مريم فى حالاتها الانفعالية بينها وبين نفسها، وبينها وبين الآخرين. وهذه الانفعالات مصحوبة بردود أفعال شرطية ترتبط بالمواقف التى فوجئت مريم بها، ففى كل موقف، هزة، ومع كل مشهد انفعال مصاحب. وفى كل الحالات تعبير مصور لحالة مريم النفسية وتطورها. ها هى ذى الفتاة العذراء الطاهرة التى وهبتها أمها ونذرتها لعبادة الله وخدمة معبده فى بيت المقدس. لم يعرف أحد عن مريم إلا الطهر والعفة. وهى تعتكف كعادتها، تصلى كعادتها، وتخلو إلى نفسها. مطمئنة إلى وحدتها وتفردها فى موقفها النفسى مع ذاتها. وفجأة يظهر أمامها ملك من السماء مكتمل الرجولة سوى، حتى تأنس له. ولا تنفر منه. وتأخذها الهزة الانفعالية هزة المفاجأة، فتنتفض انتفاضة عذراء تخشى على نفسها أن يمسها سوء. وحاولت الهروب واستعاذت بالله واستثارت مشاعر التقوى فى نفس الرجل فلعله يرجع عن انفعال الشهوة الذى تخشاه مريم.

وما إن تنتهى الهزة الأولى حتى تأتى الهزة النفسية الثانية، هزة صاحبت إلقاء الخبر الغريب على مسامعها. يريد أن يهب لها غلاماً. إنه لانفعال شديد

(١) سورة مريم آيات ١٦-٣٠.

وقـــوى. فكيـــف يكـــون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تك فى يوم بغيا! وغشيتها سحابة من الحزن وطافت بها موجة من الأسى، ولكن هول الموقف وشدته لم يعقد لسانها، بل استجمعت قوتها الشاردة وخرجت من صمتها[1]، وقالت وبانفعال شديد وبألفاظ مكشوفة، فكيف يتأتى لها أن تنجب؟ إن الحياء لا يجدى والصراحة أجدى، ولكن الملك يخبرها بأن الله يبين لها أن هذا هيّن، وأن الله جل وعلا يجعل من هذا الحادث آية للناس.

وتـــأتى الهـــزة الثالثة لتعود إلى نفسها مرة أخرى فها هى ذى حائرة، قلقة، مفكـــرة فيمـــا سمعته، وأوجست فى نفسها خيفة، وذهب خيالها بعيداً فيما يمكن أن يقولـــــه الـــناس. مـــاذا يقول الناس عن امرأة تحمل وتلد دون بعل!! وقلقت مريم وفـــزعت بعدمـــا حـــدث. لقد نفخ فيها الروح الأمين وتركها لتواجه هذا الموقف العصـــيّب، ومـــا كان منها إلا أن انعزلت فى مكان قصى وانفردت بنفسها وغلب عـــليها الخـــوف وصارت دائمة التفكير شديدة التوجس من ذلك السر الرهيب الذى ينمو فى أحشائها. فهى على وشك أن تواجه الناس بالفضيحة.

وتصـــور الآيـــات الكريمة موقف مريم لحظة المخاض وهى تواجه الآلام الجســـدية بجـــانب الآلام النفســـية. تواجه المخاض الذى "أجاءها" إجاءة إلى جذع النخلة واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها – وهى وحيدة فريدة ، تعانى حيرة العـــذراء فى أول مخاض ولا علم لها بشىء ولا معين لها فى شىء[2]. ونكاد من فـــرط اضطراب حواسها أن نحس ماتعانيه ونلمس مواقع الآلام النفسية فيها. إنها تتمنى لو كانت نسياً منسياً.

وكمـــا فوجـــئت مـــريم فى هزتها الأولى بالملك، ها هى ذى تفاجأ بمفاجأة عجيـــبة، ففى حدة الألم وغمرة الهول. تسمع صوتاً.. ويا للهول! تسمعه من طفل وليـــد يـــناديها أن تطمئن قلباً فهى فى رعاية الله. فلا تحزنى ولا تجيبى أحداً عن سؤال. وها هى ذى مريم ووليدها، يواجهها قومها بالسخرية والتقريع، ويسخطون عـــليها ويـــتحول السخط إلى تهكم مرير. وذلك التهكم له آثاره المدمرة على نفسية المـــرأة العاديـــة، فما بالك بامرأة فى مثل مريم وفى مثل موقفها؟ إن الأمر يكون

(١) قصص القرآن . محمد أحمد جاد المولى ص٢١٢ ، المكتبة الأموية.
(٢) فى ظلال القرآن ص ٢٣٠٧– مجلداً ٤ جزء ١٦.

أكــثر إيلامــاً. ولكنها تستجمع شتات قوتها، ولا بد لها أن تفعل وتتحمل من أجل الطفــل الصــغير وواجهت موقف قومها بالصمت وهم الذين سرحوا فى عرضها وتحدثــوا فى طهرها ولم تنفرج شفتاها ولابد أن الحياء والخوف أطبقا على لسانها فأشــارت إلى الطفل أن يحدثوه. وصاحب الإشارة تعجب ، وسخرية مريرة منهم. ويعلن الطفل أنه عبدالله، وأنه نبى وأنه مبارك.

أنطــق الله عيسى، وتحركت تلك الشفاة الرقيقة. فكان ذلك أقوى دليل على بــراءتها وأسطع برهان على طهرها، وكانت آية بينة ترد بها قذف القاذفين وعيب العائبين.

ولقــد بــرز الغرض الدينى – هدف القصة فى القرآن – إذ يعلن عيسى أنه عــبدالله، وليس ابنه كما يدعى البعض من المسيحية. وليس إلها كما يدعى البعض الآخر، بل يعلن أنه نبى وأنه ولد ويموت ويبعث.

وهــذا المشــهد "درامى" من الدرجة الأولى حافل بالصراع بجميع جوانبه، صــراع مــع الــنفس، وصــراع مع الغير، يعلو الصراع عاطفة الخوف والقلق والاضــطراب. فــفى جانب الصراع الخارجى تبدو مريم فى خوفها من الشخص (المــلك) الــذى فاجأهــا. وكذلك مادار بينها وبين قومها وهم يواجهونها بالاتهام والســخرية، ويتــبدى الصراع مع النفس – الصراع الداخلى – فى مراحل قصتها كــلها وهــزاتها النفســية الثلاث.. ولقد امتزج هذان النوعان من الصراع ليعطيا للمشهد قوته، وليطفو الوجدان عالياً ليصبح هو محور المشهد كله وأساسه. فمما لا شــك فيــه أن قــوة إبراز العواطف والانفعالات هى الغالبة، وأن هذا اللون الذي يطبعها ويغلب فيها على الألوان الأخرى[١].

والتناســق واضــح فى درجة تطور العواطف والانفعالات.. كما أن القصة ذات إطار دائرى مكتمل التكوين حيث بدئت القصة بمفاجأة، وانتهت بمفاجأة ولكن المفاجأة الأولى ذاتية خاصة بمريم، والمفاجأة الثانية عامة بالجماعة وبالناس، وفيها الدليــل الإشــارى إلى الغرض الدينى، وهو محور القصص القرآنى ووسائله إلى إبراز الدعوة والوحدانية.

(١) التصوير الفنى ص١٩٩.

كمـــا أنـــنا نلمس فى نسيج السياق القرآنى ذلك التناسق الرائع بين الكلمات وظلالهـــا وبيـــن المعـــانى، ذلـــك أن تلك الظلال هى التى تحمل دلالات الانفعال ومؤشـــرات الوجـــدان. ولقد صاحب ذلك إيقاع أخاذ فيه جمال وطراوة ولقد عكس هذا الإيقاع الرخى الندى الساكن المحدود حالة الانفعالات التى تجيش بنفس مريم، بحيـــث يتـــنوع الإيقاع والفاصلة بتنوع الجو والموضوع والوجدان. مثل : شرقيا، ســـويا، زكيـــا، ثم يحمل الإيقاع معنى شعورياً متجدداً يلائم هزات النفس ومواقف الآخـــرين مـــثل بغيـــا، مقضياً، منسياً، ثم يحسم الإيقاع الصراع الخارجى لصالح مريم، ولصالح الغرض الدينى. نبياً حيّا.

وهـــذا التناســـق بيـــن الآيات الخاصة بقصة مريم، يتمازج مع النسق العام للســـورة نفســـها (سورة مريم) فالسورة فى سياقها معرض للانفعالات والمشاعر القوية، حيث تبدأ الانفعالات والعواطف فى النفس الإنسانية من مفتتح السورة حتى ختامها.



ولـــنأخذ مشـــهداً آخـــر مليئاً بالعاطفة والقلق والخوف، مشهد مرتبط بالألم أيضاً. إنها أم موسى.

قال تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ • فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ • وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْـــنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ • وَأَصْبَحَ فُـــؤَادُ أُمِّ مُوسَـــى فَارِغًـــا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِـــنِينَ • وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ • وَحَرَّمْنَا عَـــلَيْهِ الْمَرَاضِـــعَ مِـــنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ • فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

---

(١) سورة القصص آيات ٧-١٣.

طـغى فرعون واشتد طغيانه على بنى اسرائيل لأن عقيدتهم تخالف عقيدته فهـم يديـنون بدين أنبيائهم، ومن ثم أنكروا وثنية فرعون. وأحس الطاغية أن ثمة خطـراً يأتيـه من هذه الطائفة اليهودية التى ازدادت عدداً فى مصر منذ أن جاءها يوسـف (عليه السلام). ولقد هداه تفكيره الفاسد الذى غلبه الشيطان أن يذبح الذكور من اليهـود لحظة ولادتهم فيأمن ألا يزداد اليهود وألا يكونوا قوة تناوئه أو تثير القلق فى أرضه.

وفى هـذا الجو الرهيب الذى يسيطر فيه القلق ويتمشى فى أرجائه الخوف، ولد موسى، ولد والخطر يحدق به، ويكاد يتخطفه، ويأخذ أمه معه.

فها هى ذى أمه الحائرة الخائفة، تخشى أن يصل إلى وليدها سيف الطاغية، ويـزداد خوفها وهى تشعر أنها عاجزة، وأنها وحيدة أمام الجبروت الطاغى، ولكن الله يوحى إليها أن أرضعيه.. وضميه إلى حضنك، فإن كنت تخشين عليه وهو فى حضـنك وتحت يدك ونظرك فاتركيه لصاحب القدرة يرعاه ويحميه وما عليك إلا أن تلقى به فى اليم ويد القدرة ترعاه وتحميه.

فثمة عواطف مختلفة، بين الخوف والقلق والاضطراب من جهة ثم الشعور بالاطمئـنان المبشـر بالراحة والطمأنينة.. وينزل هذا التبشير على القلب الواجف المضـطرب برداً وسلاماً، بل لقد وصلت البشارة إلى ذروة الفرح، فالوليد الملقى سـيعود إليهـا، وسيحظى بالرسالة.. لقد كانت البشارة تشويقاً ظل عالقاً بقلب الأم فزرع الأمل فى القلب وخفف من ضغط الخوف والقلق..

(ولقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته بعد أن اقتحمت به عليه حصـنه، لقـد حمته بالمحبة، ذلك الستار الرقيق الشفيف.. حمته بالحب الحانى فى قـلب امرأة وتحدّت به قسوة فرعون)[1]. ولقد صورت الآيات فرحة امرأة فرعون تصـويراً حياً، فها هى تتشوف إلى الولد، فجاءها طفلاً وليداً فى صندوق تحرسه العناية، فتقر نفساً وتفرح به.. لقد غزاها الشوق فأثمرت المحبة ستاراً حمى موسى وصانه من الغدر.

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٥ جزء ٢٠ ص ٢٦٧٩.

ولكن الأم وقد ألقت بطفلها في اليم طار عقلها من فرط الجزع حين سمعت بوقوعـــه في يد فرعون، حتى كادت أن تكشف أمرها وأمره معاً، لولا أن أدركها أمـــر الله فألهمهـــا الصبر. وكأنما نسمع في خلوتها مع النفس تلك التساؤلات التي تحمل دلالة العقاب والتأنيب.. كيف طاوعها قلبها أن ترمي بفلذة كبدها في موج لا تعـــرف مـــداه وحركـــته؟ والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد أم موسى تصويراً قوياً وموحيـــاً حيـــن يصفه بكلمة "فارغ" إن التفريغ يعني خلوه من الإدراك ، والتعقل، والاقـــتراب من مرحلة الجنون التي هي دلالة على اللهفة كما هي دلالة على القلق والخوف..

ومـــرة ثانية تدركها العناية الإلهية فتربط على قلبها، ولكن الأم يتحول القلق عندها من مشاعر إلى فعل عملي محسوس، فها هي تحاول أن ترصد العيون لتأتي بأخـــبار الطفل. كي تطمئن وتستريح بالا، فتطلب من أخته أن تقص أثره في حذر وخفية كي تتلمس أخباره.

ويعـــود الطفل إلى أمه الملهوفة، فتسعد به وتفرح ، وتهدأ بالا، وتطمئن قلباً وتأكدت أن وعد الله حق..

إن هـــذا المشـــهد مـــن ميلاد موسى ليبدأ بالبشارة وينتهي بتحقيق البشارة والوعـــد.. وما بين البداية والنهاية.. تتداح العواطف البشرية موجة إثر موجة بين الخـــوف والرجاء، والأمل واليأس.. فيعطي للمشهد حركة وحيوية وعمقاً وتأثيراً. إن القصـــة تريـــنا صـــورة أم مضطربة، منزعجة، خائفة، فهي تريد نجاة الطفل والهـــول حوله شديد، ويكاد يبلغ الفزع مداه إلى درجة أن تبدي أمرها.. ولكنها في الـــنهاية تـــرى المعجزة الكبرى إذ يمتنع عن المراضع، حتى يعود إلى أمه وتأخذه أخـــته إلى الأم الـــتي تضـــطرب بين اليأس والرجاء، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم(١).

إن الـــنص القرآني صور حال الأم في صورة بلغت حد الإعجاز ، واكتمل فـــي هـــذا المشـــهد كل جوانب الصورة الإبداعية ، المصوغة في قصة قد تعددت

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص٢٠١.

شخصـــياتها، وتنوعت مشاعرها، واختلط فيها السرد بالحوار، والأمر بالاستغاثة، والتشوق بالأمل، والوعد بالتحقيق، والخوف بالاطمئنان..

إن القصـــة هذه تبين أنه ليس هناك قوة فى الوجود إلا قوة الله، وليس هناك مـــن قيمـــة تعلو قيمة الإيمان. إن يد القدر تضرب الطغيان ضربة مباشرة وتمكن للقلة المؤمنة المستضعفة .

ولا شك أن القصة القرآنية قد أبرزت هذا الغرض الدينى الذى يرجع تأثيره إلى القـــلة المسلمة المستضعفة فى مكة، فقد كانت فى حاجة إلى تأكيد هذا المعنى. وكانت الكثرة الظالمة فى حاجة إلى التيقن منه.

إن يـــد القـــدرة تأخذ بيد المستضعفين فتنقذهم، وتستنقذ عناصر الخير فيهم وتربيهم وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين.

فالقصـــة فى القرآن تخضع فى طريقة عرضها للغرض الدينى الذى تحمله، فـــهى أداة تربية للنفوس، ووسيلة تقرير لمعانٍ وحقائق ومبادئ .. وهى تتناسق فى هذا مع السياق الذى تعرض فيه، وتتعاون فى بناء القلوب وبناء الحقائق الذى تعمر هذه القلوب[1].

ولقـــد تضمنت القصة قدراً هائلاً من الصراع الدرامى، وهو صراع نفسى فى المقام الأول لأنه يرتبط بداخل الذات ومكامن مشاعرها. مما يؤدى إلى انطلاق الخيـــال والانفعـــالات مـــن سيطرة العقل والبعد عن منطق الواقع والاعتماد على التهويل والمبالغة[2] وهو انفعال مصاحب للصراع فى مجال العاطفة والوجدان.

ثالثاً : تصوير الشخصية :

التصوير الفنى فى القصة القرآنية . يتناول الشخصية التى هى أساس الفعل الدرامى فى النسيج الفنى كله – بأبعادها المراد التعبير عنها، ذلك أن منطق القصة القرآنية يتناول الشخصية فى موقف ما.. وهذا الموقف يحدد – تبعاً لطريقة طرحه – المسلك الذى تسلكه الشخصية..

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٥ جزء ٢٠ ص ٢٦٧٦.
(٢) بناء الرواية . د. عبدالفتاح عثمان ص٨٣.

فالقصـــة القرآنية تضع أمامنا معالم الشخصية التى تتحرك أثناء القصة.. أو تـــتمحور حولها أحداث القصة، وتشارك مع غيرها فى بناء القصة.. فتحدد نوعية الشخصـــية مـــن خـــلال العـــرض القصصـــى، وتتحدد الأدوار التى تتوزع على شخصيات العمل سواء كانت الشخصية محورية أو ثانوية.

ومن أهم مميزات البناء فى القصة القرآنية، وفيما يتصل باستخدام الشخصية كعنصـــر بـــنائى.. هـــو وضع الشخصية فى مواقف متجددة، بحيث يتجدد المسار القصصـــى ويـــندفع إلى النمو.. وهذا التوجيه البنائى يدفع بالشخصية إلى الحركة الدائمة ما يجعلها تتخذ مسلكاً ما، أو تتجه اتجاهاً ما، يمليه عليها الموقف.. أحياناً، وأحيانـــاً أخرى يكون هذا الاتجاه نابعاً من ذاتيتها هى وما تلتزم به فى نفسه أساساً من قيم[1]. واتجاهات ومبادئ ، وأصولا راسخة.

وهـــذا التنوع فى المواقف، وسيلة لرصد المردود النفسى على الشخصية ، وهو يجعل المتلقى متجاوباً مع العرض القصصى الذى يبدو له كما لو كان مشهداً محسوســـاً، يـــرى أشخاصـــه بعين الخيال، ويرتبط بهم بانفعال الوجدان .. فتتعدد الانفعـــالات مـــا بين خوف وفزع – أو شفقة وعطف – أو توقع وترقب، أو شوق ويأس..

ونجاح القصة يقاس بتأثير ما تعرضه على المتلقى.. ذلك التأثير الذى يحدد مـــدى العلاقـــة الوثيقة التى تربط القصة بالمتلقى.. وتعطى إشارة دلالية على أن العمـــل القصصـــى قـــد بـــلغ الدرجـــة الفنية العالية فى التناول والعرض والتأثير والتواصل.

وتهـــتم القصـــة القرآنية بالجانب التربوى وهى تعرض لنا شخصية ما فى موقـــف مـــا. فالقرآن الكريم ليس كتاباً فى القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيـــه مـــن قصص. وإنما هو كتاب دعوة دينية فى المقام الأول. وهو دستور المسلمين ومنهاجهم إلى حياة إسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد..

ولقـــد وعـــت القصـــة القرآنية هذا المفهوم وعياً تاماً، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل أفعالها وأقوالها على حقيقتها.. بلا اختلاف، أو توليف، أو تغيير، مثلما

(١) القصة فى الحديث النبوى ص ١٥٤.

تـلجأ إليـه القصـة البشرية التى يقوم بإنشائها إنسان ما.. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة فى أعماقها.

والقصـص القـرآنى قصص يتناول بالأخبار والقص والحوار أمما ووقائع وأنـبياء يجـادلون أممهم، وأشخاصاً نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية بضرب بها المثل فى معان كريمة وقيم فاضلة – أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة..

وتحـرص القصـة القرآنية على تصوير الأشخاص تصويراً واضحاً كأننا نـراها ونشـاهدها. وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها.. "وكأن المعانى صور واضحة فى الشخص المتحدث عنه، ولو أن مصوراً متحركاً يصور الشـخص فى مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويراً من الألفاظ القرآنية.. والأساليب فى تصويرها"[(١)].

وسـنعرض فى هـذا المجـال قصة سليمان مع بلقيس كنموذج فني واضح الملامـح والسـمات الخاصة بالذكر والأنثى، (الرجل والمرأة). ولكن سليمان ليس رجـلاً فقـط، وإنمـا هو ملك ، وبلقيس ليست امرأة فقط وإنما هى ملكة، كما أن سليمان يتفرد بميزة سامية.. فهو نبى مختار وهو الملمح الرئيسى والمحور الكبير فى شخصـية سـليمان، ويقـابل هـذا الملمح المتفرد ملمح يتلقى الانفعال بانبهار وبضـعف أنـثوى، وهو ما تنفرد به بلقيس .. هذا الاختلاف البين تتحدد ملامحه حين يتواجهان فى موقف ما.. فتتداح كل التكوينات الشخصية السابقة لتلون حركة الفعل فى القصة.

١ – قال تعالى :

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[(٢)].

تفقـد سليمان (عليه السلام) جماعة الطير، وكان الهدهد كما يقول المفسرون يدله على الماء فى باطن الأرض[(٣)]. ولكن الهدهد غائب فأقسم ليعذبنه أو ليذبحنه، ما لم يأت بحجة واضحة يمهد بها لعذره ويزيل ما يخالج النفس فى أمره[(٤)].

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص٢٠٠.
(٢) سورة النمل : ٢٠-٢١.
(٣) صفوة التفاسير جـ ٢ ص٤٠٦.
(٤) قصص القرآن ص١٦٨.

وهـذا المشهد يوضح لنا سمات النبى سليمان عليه السلام، سمات الشخصية المحورية التى تدور حولها الشخصيات الأخرى.. فسليمان هنا الملك الحازم، الذى يتفقد أحوال ملكه، ويتعرف على أحوالها، ويتأكد من حضور رءوس القوم الكبار.

ومـن ثـم يصحب الملك انفعال الغضب المصحوب بالتعجب "مالى لا أرى الهدهـد" ويصـل الغضب بالملك إلى الذروة ويصاحب غضبه الانفعال الناتج عن خـلل فى نظـام الملك، ونظام التواجد فى معيته.. يصاحبه أدوات تصعد بالغضب إلى حـدّ التهديد.. فنجد لام التوكيد، المتكررة، مما يوحى بالإصرار والتوكيد على إنزال العقوبة، ثم تتنوع درجات العقوبة من تعذيب أو ذبح، وهذا التعذيب الموضح بـالمفعول المطلق والمؤكد بنون التوكيد.. ليبين درجة الغضب التى تصاحب الملك إذا ما رأى خللاً فى بنيان النظام الذى أسسه ويحكمه.

ولكـن سـليمان ليـس ملكاً فقط ، إنه نبى أيضاً.. وهى الصيغة المحورية المسـيطرة عـلى كل صفات فيه، ولذلك فسرعان ما يرتد الانفعال الحاد إلى تعقل حكيـم، يبتعد بالموقف عن الظلم . فهو لم يسمع حجة الهدهد، فقد يكون له عذره. ومن ثم تبرز سمة النبى العادل. (إنه ليس سلطاناً جائراً، فقد يكون للغائب عذره ، فإن كان فبها، وإلا فالفرصة لم تفت . وليعذبنه عذاباً شديداً أو ليذبحنه)(١).

ويكون العقاب فى هذه الحالة قد وافق غرضه، لأنه قائم على العدل.

٢- قال تعالى :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ • إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ • وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ • أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ • اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢).

غـاب الهدهـد غيبة قصيرة وعاد يخفض رأسه إحساساً بالذنب، وتقدم إلى سليمان قائلاً، لقد اطلعت على ما لم تطلع عليه، وعرفت ما لم تعرفه ولم تصل إلى

(١) التصوير الفنى ص٢١٠.
(٢) سورة النمل ٢٢-٢٦.

الإحاطـــة به أسباب قوتك وملكك وكشفت سراً ندّعنك[1] فلقد وجدت فى أرض سبأ امـــرأة تمـــلكهم وهـــم يدينون لها بالطاعة. واعطيت كل شيء يحتاج إليه الملوك، فضلاً عن عرشها العظيم "قال قتادة: كان عرشها من ذهب – قوائمه من جوهر – مكلل باللؤلؤ[2].

إلا أن الشيطان قد استبطنهم وحسَّن إليهم عبادة الشمس من دون الله وهالنى الأمر، إذ كيف لا يسجدون لله الخالق العظيم. الذى يعلم خبيء كل شيء، ويعلم ما تكـــن الجـــوارح – لا إلـــه إلا هـــو المتفرد بالعظمة والجلال رب العرش العظيم المستحق للعبادة والسجود.

وإلى هنا ويصمت الهدهد، لقد أدى رسالته، وأبدى عذره، وأبان عن تعجبه واســـتنكاره، وأفاض فى شرح قضيته، وترك الأمر بعد ذلك فى شأن عقابه.. إلى سليمان..

ولكـــن الهدهـــد كان عجباً ، ولقد حكت الآيات عنه ما حكت بما يدل على شخصـــية مـــتميزة ومتفردة بين الطيور. فهو لم يكن هدهدا كغيره من بنى جنسه وإنما كان ممثلهم لدى سليمان، وإلا ما لفت نظر سليمان إلى غيابه.. إذ لا يعقل أن يكـــون الهدهد أحد أسراب الطيور من جنسه، ويشغل سليمان نفسه به.. إنه هدهد مميز وهدهد يعطى الدرس لسليمان، كما أعطى العبد الصالح الدرس لموسى. حتى تظـــل القـــاعدة الراســـخة (وفوق كل ذي علم عليم).. شعاراً لا ينطفئ معناه ولا يلتوى.

وانظـــر كيـــف وضحت الآيات وهى تسرد ما يحكى الهدهد، السمات التى تميـــز الهدهـــد عـــن غيره من بنى جنسه، وتجعل لغيبته أثرها فى نفس سليمان.. الهدهـــد يعـــلم أن سليمان ملك حازم. وأنه تغيب عن مجلسه، والحزم صفة لازمة لسلامة الملك – وسياسة الرعية. وهو يعلم أن الوجدان محتشد له لإنزال العقاب.. والهدهـــد فى موقف لا يحسد عليه.. ولقد استطاع الهدهد بذكائه أن يحول الوجدان الغاضـــب إلى وجدان اندهاشى ليستر به حالة الغضب، ويخفف حدة التهديد.. فلجأ

(١) قصص الأنبياء ص ١٦٩ ابن كثيرة.
(٢) صفوة التفاسير ص ٤٠٧.

إلى استخدام عنصر.. المفاجأة.. ولأمر فنى أساسى فى بناء هذه القصة – تكررت المفاجـأة.. لتصـبح عنصـراً بارزاً فى بناء القصة ، وفى الملامح التكوينية فى الشخصية.

وألـقى الهدهـد بالمفاجأة أمام سليمان الملك.. أحطت بما لم تحط به. ولقد صـحب تلك المفاجأة انفعال الدهشة.. كما صحب الدهشة الرغبة القوية فى معرفة هذا الذى يعلمه الهدهد ويعجز عن معرفته سليمان.. الموقف ساخن، والهدهد الذكى لا يـريد أن تـبرد حدة الموقف.. حيث ألقى بالخبر، وعرض النبأ مفصلاً.. فلعب التشويق دوره فى تقبل النبأ ومصاحبة الهدهد وهو يحكى حكايته.

والهدهـد لا يـزال واقعـاً تحت الإحساس بالذنب.. ومن ثم يستثير الجانب الحكيـم فى شخصية سليمان.. الجانب النبوى – الذى يهتز حين ينهى الهدهد سرد القصـة بقولـه (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم). لقد لمس قلب سليمان بتلك الإشارة. إننا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة فى عرض النـبأ ويقظـة إلى طبيعة موقفه. فهو يدرك أنه يتحدث عن ملكة ، وأنهم يسجدون للشـمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله. (إنه هدهد خاص أوتى هذا الإدراك الخاص على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف)[1].

قال تعالى :

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ • اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[2].

تـلقى سـليمان النبأ الذى سرده الهدهد، ولكنه ظل كما هو هادئاً ساكناً. إن ذلـك يعنى تحولاً من حالة الغضب، إلى حالة من السكون تمهل المذنب للتأكد من تـبريراته الـتى سـاقها خروجًا من المأزق الذى وضع فيه. إن سليمان يعطيه – كالقاضى – الفرصة العادلة للتحقق من القصة التى أوردها.

(١) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء (١٩) ص ٢٦٣٩.
(٢) سورة النمل ٢٧-٢٨.

ولقد جاء أسلوب الاستفهام ملائماً للحالة العقلية الهادئة التى صحبت القصة، فحدد الموقف بين طرفين الصدق، والكذب، والهدهد يعلم وهو يلفظ بهذا التخيير.. نتيجة كل طرف وأثره.

الموقف تجربة عملية لتطبيق مبدأ العدل.. ووسيلة حسية لإدراك الحقيقة، وهو ما يميز سليمان، الملك العادل، وهو ما اشتهر به، وتوتر عنه.

ومن ثم أقر سليمان الهدهد بأن يتناول ذلك الكتاب الممهور.. بخاتمه وشعار ملكه ويذهب به إلى ملكة سبأ ، وطلب منه أن يتنحىً وينظر ماذا يردون من جواب.

وذهب الهدهد بالكتاب – ولك أن تتخيل المشاعر التى دبت داخل الهدهد "مشاعر الفرح، ومشاعر الطمأنينة، مشاعر النجاة، من عقاب صارم فضلاً عن علو المكانة بفضيلة الصدق – والزهو بأنه الوحيد الذى أعلم سليمان بنبأ كان مجهولاً على سليمان نفسه.

لقد أخذته هزة الفرح .. فطار مرفرفاً حيث ملكة سبأ .. بلقيس الملكة المتوجة.

٣- قال تعالى :

(أ) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ • إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ • قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ • قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ • قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ • وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾(١).

هذه الآيات من القصة تحكى مشهد تلقى بلقيس كتاب سليمان.. إن بلقيس تفتح الكتاب.. وإنه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة

(١) سورة النمل ٢٩-٣٥.

والإذعـــان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه[1]. فلا يستكبرون عن الطاعة ولا يـــتوانون عـــن القـــدوم مسلمين مطيعين. والأمر حاسم ومقطوع به. وجمعت المـــلكة كبراء قومها وعرضت عليهم الكتاب وطلبت منهم المشورة. فقالوا لها إنهم رجال حرب وقوة . وبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها فى ذلك الأمر، لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم [2] وكان رأيها أن المـــلوك إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً خربوها وأهانوا أشرافها وأذلوهم، وتلكم عادتهم[3].. وإنى مرسلة إليه بهدية عظيمة تليق بمثله ثم لأنظر أيقبلها أم يردها.

فى هـــذا المشهد الذى يحكى لحظة وقوع الكتاب فى يد بلقيس.. وردّ الفعل إزاء ذلـــك.. تبرز ملامح الملكة بروزاً واضحاً فى حوار مع كبراء قومها. فتبدو.. المـــلكة لبقة.. أريبة فى هذا المشهد.. وهى تطرح الأمر على رجالها. فالأمر جاد، وحاسم، ويقتضى المشورة. والانفراد بالرأى فى مثل هذا الموقف لا تحمد نتيجته. إنهـــا تعرض الأمر كملكة، والحاشية تجيب كما تجيب دائماً الحاشية، فهم مجندون لخدمـــة المـــلكة.. ثـــم هـــم يعـــرفون مقدارهم جيداً.. فيلقون الأمر عليها كلية.. وينتظرون الأمر..

وإلى هنا فإن الحوار يعكس تماماً سلوك الملكة فى موقف مأزوم..

ثـــم يظهر على مسرح الموقف ملمح آخر للملكة.. إنه ملمح.. عقلى، حيث تعـــلم بخبرتها وبثقافتها ما يفعله الملوك حين يغزون البلاد.. ومن ثم استبعدت حلّ الحرب وكانت فى ذلك حازمة الرأى سديدة الفكر..

ثـــم يترقرق على الموقف شخصية المرأة المستكنة داخل المملكة... فتقترح أن ترســـل هدية عظيمة إلى سليمان. إن الهدية سلاح فى يد المرأة، وهى تعلم أنها وســـيلة إلى ترقيق القلوب.. إنها كما يقولون.. جسُّ نبض .. قال قتادة : علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وقال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبى صادق فاتبعوه[4].

---

(١) قصص الأنبياء – ابن كثير . تحقيق عبدالقادر عطا ص٢٧٤جـــ٢.

(٢) نفسه ص ٢٧٦.

(٣) صفوة التفاسير ص٤٠٨ جزء٢.

(٤) صفوة التفاسير جـــ ٢ ص٤٠٨.

إنهـا أرادت بهذه الهدية أن تجمع الأطراف معاً، فهى تريد أن تأمن جانب سـليمان. كما أنها تريد أن تصانع عن نفسها، وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها[1].

إذن فشخصـية بـلقيس كما يوحى بها المشهد.. شخصية قوية.. فهى ملكة قـادرة ، وآمـرة وقـرارها مطاع.. كما أنها ملكة تؤمن بالشورى والحوار، ولو انفردت بالأمر فى النهاية.. ثم هى تعرف كيف تفصل بين الملكة كشخصية حاكمة ومسـؤولة، وبينها كامرأة لها مشاعر وقلب ووجدان .. امرأة تعرف كيف تستميل قلب الرجل – لقد برزت هذه الصفات فى مجالها دون اختلاط أو تشويه.

(ب) قال تعالى :

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2].

فى هذا الجزء من المشهد يتبين لنا موقف سليمان من الهدية... فهاهم أولاء رسل ملكة سبأ يحملون الهدايا إلى سليمان – ولكنه أنكر عليهم ذلك وغضب، فهو لا يشـترى بالمال ولا يتحول عن دعوة الإسلام، وما أعطاه الله من الملك والنبوة لخيـر ممـا أعطـوا وممـا حملوا. وإنهم قوم يفرحون بالهدايا لأنهم أهل مفاخر ومكاثرة فى الدنيا. وأمر الرسول.. (ارجع أيها الرسول إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهـم بها، ولا قدرة على احتمالها، ولنخرجنهم من سبأ أذلة ذاهبا عنهم العز والملك والسلطان)[3].

فى هذا المشهد، يبدو حزم النبى سليمان فى أمر الدعوة .. فلا مصانعة فى الدين.. ومن ثم صحب ذلك.. الاستنكار الشديد، الدال على حدة الانفعال، وعاد إلى الـتهديد مـرة أخرى.. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً فى الكتاب. "والآن لقد رد

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص ٢٧٦.

(٢) سورة النمل ٣٦-٣٧،

(٣) قصص القرآن ص١٧٠.

الرسـل بهديـتهم، فلندعهم فى الطريق قافلين. إن سليمان النبى لملك، وإنه كذلك لرجل، وإن الملك ليدرك من تجاربه أن هذا الردّ الضيق سينهى الأمر مع ملكة لا تريد العداء، كما يبدو من هديتها له – وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق"(١).

٤- **قـال تعـالى : ﴿قَـالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْـلِمِينَ • قَـالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ • قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَـلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَـا يَشْـكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ • قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾** (٢).

رجـع رسـل بلقيس إليها، وألقوا عليها بالخبر، فأدركت لتوها أن هذا ليس بمـلك، وأنه لا طاقة لها به. فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة. إذ لا مفر من السمع والطاعة.

وذلـك هو المدخل المتصور للمشهد الرابع.. مشهد ترتيب سليمان للمفاجأة التى ستهز بلقيس الملكة، والمرأة.

ولقـد أراد سـليمان عرش بلقيس فكان له ما أراد، فلقد طلب من قومه أن يـأتوه بهذا العرش المرصع بالجوهر واللآلئ.. قبل قدوم بلقيس ورجالها.. وبادر جـنىٌّ مـارد قائلاً بأنه قادر على إحضاره قبل أن ينفضَّ مجلس الحكم الذى يديره سـليمان، وإنه لقادر على ذلك، أمين على ما فى العرش من جواهر وزينة. ولكن سـرعان مـا تقـدم مَنْ عنده علم الكتاب وهو من الصدّيقين – مبدياً عرضه بأنه يسـتطيع أن يحضر العرش فى لمح البصر. ولقد تعجب سليمان كيف يحدث هذا؟ كيـف يـأتى العـرش من اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين؟ ولكن المفاجأة تحـدث، (فهـا هو يرى عرش بلقيس مستقراً عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد

(١) التصوير الفنى ص ٢١٣.
(٢) سورة النمل ٣٨-٤١.

اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين)[1]. فشكر الله على فضله ونعمه التى ينعمها عليه وعلى عباده. ليختبرهم على شكر النعم أو جحودها.. فمن يشكر فشكره يعود عليه بالنفع ومن يجحد فالله غنى كريم.

وعندما أدرك سليمان قرب وصول ملكة سبأ وقومها، أمر أن تغير بعض معالم العرش ليختبر فهمها وعقلها، وليعرف ما إذا كانت ستهتدى إليه أم لا وهو اختبار للذكاء والعقل.

وفى هذا المشهد تتجلى سمات الشخصية تجلياً واضحاً.. فسليمان هنا، سليمان الملك الرجل .. ((وهنا يستيقظ الرجل الذى يريد أن يبهر المرأة بقوته وبسلطانه.. فها هو ذا يريد أن يأتى بعرش الملكة قبل أن تجيء[2]. وهذه مشاعر إنسانية بحتة، مشاعر الرجل الذى يريد أن يرى تأثيره على المرأة حتى يستطيع أن يجذب انتباهها جذباً وجدانياً خالصاً.. فتلين له، وتهدأ ثائرتها، وهى مشاعر فاضلة لا يختلط بها ما يمسها أو يسيء إليها.

ولكنه ملك.. فكان استحضار العرش وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تناصر وتؤيد سليمان.. والهدف هنا التأثير فى قلب المرأة.. وانقيادها إلى الإيمان بالله..

فكأن المدخل إلى الإيمان هنا مدخل قلبى معزز بمعجزات وقدرات غير عادية. وسليمان نبى.. استيقظت فيه النبوة أمام نعمة الله.. التى تتحقق على يدى عبد من عباد الله، فيشكر.. ولقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان، وأدرك أن هناك من أتاه العلم الخفى – وأن هناك من هو أقدر وأقوى من غيره، ولو كان من الأنبياء.. إن الموقف هنا يستدعى بالإشارة موقف موسى من العبد الصالح.. حيث تبين الإشارة.. أن العلم أعظم من أن يحويه رجل، أو ينفرد به رسول، وإن فى الأرض من خصه الله بعلم أوفر مما لدى الرسل، وبنصيب من الإلهام أوفر من نصيبهم[3].

---

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص٢٧٩.
(٢) التصوير الفنى ص٢١٣.
(٣) قصص القرآن ص ١٤٠.

والانتفاضـــة الوجدانيـــة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتداء يحقق الغرض الدينى للقصة..

ثم تستيقظ مرة أخرى صفة الرجولة فى سليمان ليعقد لها اختباراً فى الذكاء وحسن التصرف.. وذلك حين طلب تنكير العرش.

ولا شـــك أن التبدل فى سمات الشخصية، وتبادل الصفات ليدل على وقوع الشخصـــية تحـــت تأثيـــر موقف ما.. له أبعاده وآثاره. وأن هذا الموقف من القوة بحيـــث يتضـــمن انقســـاماً لمســـاحة العواطـــف والسلوك، ويبرز مكنونات الذات الإنسانية، فضلاً عن ترسيخ قيم ثابتة، وإبرازها.

ولقـــد جـــاءت المفاجـــآت التى تضمنتها المشاهد، متلاحمة مع نسيج البناء القصصـــى بحيـــث قامت بدورها كعنصر بارز ورئيسى لكشف الوجدان الداخلى للشخصيتين المحورتين.. سليمان.. وبلقيس.

٥- قال تعالى :

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ • وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ • قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

ووصـــلت بلقيس، واستقبلت بحفاوة تستحقها، وعرض عليها العرش بجماله وزينته ولآلئه مع بعض من التغيير يضفى عليه تنكيراً ما. وسئلت عما إذا كان هذا عرشـــها؟.. وكـــان السؤال نتيجة طبيعية للدهشة الفورية التى صاحبت المفاجأة.. مفاجـــأة أن ترى عرشاً كأنه عرشها. وهذا كما يقول ابن كثير من فطنتها وغزارة فهمهـــا لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب(٢).

(١) سورة النمل ٤٢-٤٤.

(٢) قصص الأنبياء . ابن كثير ص٢٧٩.

وحيـــن أدرك سليمان دهشتها وحيرتها تحدث سليمان بنعمة الله عليه، حين أنعـــم الله عليه بنعمة الإسلام، على حين كان منع بلقيس من عبادة الله والإيمان به هو عبادتها للشمس، حيث نشأت فى قوم كافرين.

وكـــان ســـليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل فى ممره ماءً وجعل عـــليه ســـقفاً من زجاج، وطلب من بلقيس أن تدخل الصرح، فلما رأته ظنته لجة فكشـــفت عن ساقيها لتخوض فى مائه.. وأدرك سليمان حرج موقفها وحيرتها فقال إنـــه صـــرح ممـــلّس مـــن الزجاج الصافي، فاعترفت أنها ظلمت نفسها بالشرك، وأعلنت إسلامها مؤمنة برب العالمين.

والغـــرض أن ســـليمان (عليه السلام) اتخـــذ قصراً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليريها عظمة سلطانه، وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت فى أمـــره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنّه نبى كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل[1].

وهذا المشهد يوضح لنا بعضاً من معالم شخصية بلقيس إضافة إلى معالمها الســـابقة فهى هنا، ذات فطنة وذكاء، يتضح ذلك من سؤالها عن العرش وجوابها. فدلت بقولها (كأنه هو) على فراسة وبديهة فى مواجهة تلك المفاجأة العجيبة الغريبة التى رأتها.

وهى هنا تندهش ويطول اندهاشها، وتلك سمة من سمات المرأة عامة، حين تنـــبهر بشيء جميل، فتنجذب إليه، وتستحسن مرآه، فما بالنا بذلك الصرح العظيم المنيف المملّس من زجاج صافٍ رائق.

ولقد صاحب هذا الانبهار مراجعة عقلية للمدركات التى ادركتها، وللمفاجآت الـــتى استوعبتها، ووصلت بعقلها وتفكيرها إلى أن الإسلام إسلام لله رب العالمين. لقد اهتدى قلبها واستنار عقلها.

ولقـــد بـــرزت المفاجأة فى هذه القصة بروزاً واضحاً، بل تكررت أكثر من مرة، وأصبحت عنصراً بنائياً فعالاً فى نسيج القصة الفنى، كما أنها وسيط معنوى لنقل الفكر والهدف الدينى المصاحب له.. فهى لم تأت اعتباطاً.

(١) صفوة التفاسير جـــ ٢ ، ص٤١٠.

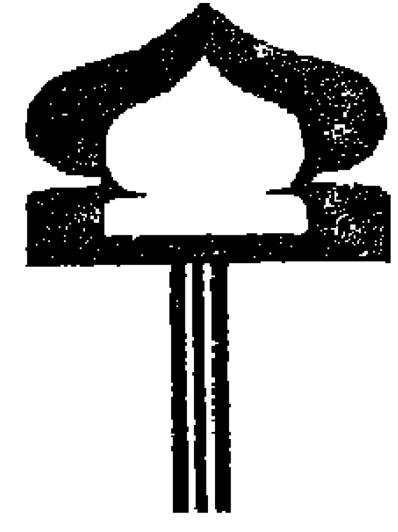
والمفاجـــأة بطبيعـــتها ذات أثـــر خاص فى نفسية الإنسان وداخله ودوافعه وردود فعلـــه، وهى هـــنا تأتى بطريقة موضوعية تثير العقل والقلب على السواء وهى حين تتحقق لا تبدو أنها مقحمة على نسق القصة، بل هى تبدو معقولة تماماً، فى تواجدهـــا ، وبـــنائها.. فتنسجم مع ظروف القصة، وطبيعة الموقف وملابساته، وتلائـــم الجـــو العـــام الـــذى يسود الحدث.. وترتبط بسياق القصة ونطاق أحداثها ومواقفها.

والغـــرض الدينى بارز فى القصة، فالقصة تبرز بصفة خاصة استقبال ملكة ســـبأ وقومها لكتاب سليمان – وهو عبد من عباد الله – واستقبال قريش لكتاب الله، هؤلاء يكذبون ويجحدون، وأولئك يؤمنون ويسلمون – والله هو الذى وهب سليمان مـــا وهب، وسخر له ما سخر، وهو الذى يملك كل شىء[(١)]... ولكن الغرض الفنى للقصة أيضاً – وهو لا يتنافى مع الغرض الدينى – قد أبدع فى تصوير الشخصية فى هذا المشهد الأخير إبداعاً يفى بالغرض الدينى والفنى على السواء.. وإنه يكفى لقصـــة ديـــنية وجهتها الدين وحده، أن تبرز هذه الانفعالات النفسية وأن ترسم هذه الانفعالات النفسية..

فـــلقد كـــانت بـــلقيس "امرأة" كاملة، تتقى الحرب والتدمير، وتستخدم الحيلة والملاطفة، بدل المجاهرة والمخاشنة، ثم لا تسلم لأول وهلة، فالمفاجأة الأولى تمر فـــلا تسلم، فإذا بهرتها المفاجأة الثانية وأحست بغريزتها أن إعداد المفاجأة لها دليل عـــناية "الرجل" بها، وألقت بنفسها إلى الرجل الذى بهرها، وأبدى اهتمامه بها، بعد الحذر الأصيل فى طبيعة المرأة والتردد الخالد فى نفس حواء[(٢)].

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص٢٦٢٥.
(٢) التصوير الفنى ص٢١٥.



الفصل الثاني

القصة والجدل



لا شك أن لقصص القرآن الكريم أثراً بليغاً في توجيه العقيدة والدعوة إليها، فضلاً عن تأصيل السلوك الأخلاقي، ذلك أن السلوك منشؤه شعور بالانفعال بموقف ما يدفعه إلى الفعل، وحين يكون الشعور الوجداني قد تربى في حضن القيم فإن رد الفعل الناشئ عن دافع الانفعال سيحظى بالضبط الأخلاقي والحرص المسلكي المتوائمين مع العقيدة التي تأصلت جذورها في أعماق الوجدان.

وتأثير القصة التي تصف وتصور ما حاق بالمكذبين للرسل وللأنبياء من أهوال العذاب والخسف والتدمير، لتأثير قوي، ذلك أنه يحدث إحساساً بالخوف من عاقبة تشبه تلك العاقبة، ومن عصيان يشبه ذاك العصيان، ومن تكذيب يماثل ذاك التكذيب، ومن معاندة تماثل تلك المعاندة.. الأمر الذي يجعل الإنسان وهو يلقي ذلك كله يعقد في مخيلته المقارنات بين ما كان.. وبين ما يكون بين موقف الأمم من أنبيائهم .. وموقف الكفار من محمد (ﷺ) ولا ينتهي الأمر عند مجرد عقد المقارنة، بل إن التصور الذهني المصحوب بالانفعال الوجداني ليرسم في الذهن تلك المشاهد المهولة التي تصور تلك النهايات المفزعة والمؤثرة .

إن هــذا الشــعور بالخوف من العقاب ليس شعوراً وقتياً، وإنما هو شعور يــتجدد فى نفــس الــذات المؤمنة كلما أثار الانفعال ذكر قصة من قصص القرآن الكريم.. وهو هدف تسعى إلى تحقيقه القصة القرآنية..

والقرآن الكريم – والقصص القرآنى بعض كثير منه – يؤلف على اختلاف مقاصده وحدة كاملة متكاملة، ومتناسقة.. فى العقيدة..

والقصــص القــرآنى وهــو يتبع هذا المنهج القرآنى، يعتمد فى إبراز هذه الوحــدة عــلى تجــربة شــعورية دينية يطمئن إليها الفكر العقلى، أى يصبح قوام التجربة القصصية، جانباً وجدانياً وآخر عقلياً..

وتــلك مــن الحقــائق الثوابت فى قصص القرآن.. حتى تلك القصص التى جــاءت حوادثها مقترنة بخارقة من الخوارق التى تستعصى على العقل البشرى.. الجــانب الــثانى من جوانب وحدة القصة القرآنية.. وتلك الخوارق تدخل فى باب الإعجــاز الــذى أيّــد به الله رسله وأنبياءه.. فقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات والحجج والبراهين الدامغة الــتى تدل على صدقهم وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير. وهذه المعجزات معجزات حسيّة تتناسب مع العصر والزمان والموقف الذى حدثت فيه.

والهــدف مــن هذا الجانب الخارق للعادة ولمظاهر الحياة الطبيعية، والذى يؤلــف جانباً كبيراً فى القصص القرآنى، هو إظهار عجز البشر وإثبات أن ما جاء بــه الأنبياء وحى من الحكيم العليم. وأنهم إنما يبلغون رسالات الله، وليس لهم إلا الإخبار والتبليغ.. (فالمعجزات إذن براهين من الله سبحانه إلى عباده بصدق رسله وأنبيائه، فكأن الله تعالى يقول. صدق عبدى فيما بلغ عنى وأنا أرسلته ليبلغكم ذلك. والدليــل على صدقه أن أجرى على يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتى بمثله[1].

فــفى قصة سليمان وملكة سبأ أحضر العبد الصالح عرش بلقيس فى طرفة عيــن. وقلــنا إن تلك الخارقة كانت مفاجأة أثارت بلقيس، وأثارت عقلها، وأدركت

(١) التبيان فى علوم القرآن ص٨٩

بـــالعقل أن سليمان مؤيد من السماء. فأعلنت إسلامها [1].. وثمة خوارق كثيرة فى قصص القرآن.. نأخذ نموذجاً عليها خارقة البعث فى قصة إبراهيم.

ولقـــد غـــلب على مثل هذه القصص الجدل والمحاورة. وجدل القرآن يدور حول قضايا يتكشف فيها الحق ويُدحض الباطل.

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَـــالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

إن إبـــراهيم هنا يتشوف إلى سرّ الصنعة الإلهية، وحين يجىء ذلك منه فإنه يكشـــف عمـــا يختـــلج فى النفس أحياناً من الشوق والتطلع إلى الاقتراب من سرّ الصنعة الإلهية..

ويســـتجيب الله لهـــذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم، ويأمره الله أن يختار أربعـــة من الطير وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن فوق الجبال ثم يدعوهن ، فتتجمع الأجزاء المتفرقة وترتد إليها الحياة.

إنه أمر الله، والناس لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء. والنفوس ولو كانت مؤمنة تسعى إلى الحصول على أكثر من دليل لتزداد إيماناً وإذا كان إبراهيم (عليه السلام).. قـــد ســـعى وراء ذلك وطلبه، فما بالنا بالرجل العادى.. ومن ثم وردت الخـــوارق، والأدلـــة العقلية، على ترسيخ الإيمان، وتأصيل العقيدة ليتكشف الأمر للإنسان.. فيزداد المؤمن إيماناً ويبوء الجاحد بالكفر والعقاب.

إن الخارقـــة ولو كانت مادية حسيّة، لتنزل على القلب فتطمئن، وتهدئ من انفعالـــه، وتطهر من نوازعه، وتغسله مما يمكن أن يكون قد ران عليه من رجس الشيطان أو ارتكاس إلى العبادات الفاسدة..

---

(١) انظر فصل التصوير الفنى، تصوير الشخصية.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠.

وإذا فحصنا هذه الوقائع الخارقة التى سيقت فى مجال الإعجاز أو التثبيت أو المؤازرة ، أو الدليل العقلى.. لوجدنا أنها تكشف عن إرادة كاملة تجرى على سنن تثير العقل والتفكير للنظر والبحث والتأمل والاستقصاء .. والبحث فيما وراء تلك الوقائع وما تدل عليه وما لها من انعكاسات فى النفس على طريقة التنبيه والإيقاظ، لمواجهة موضوع الفكر والإيمان تثير التوصل إلى إدراك الحقائق التى يعرضها القرآن الكريم على الفكر الإنسانى الطبيعى المتحرر، لا الفكر المقيد بالقوالب النظرية المصطنعة والقضايا الفلسفية المصنوعة [1] والأدلة العقلية حين تساق فى القصص فإنها تتخذ سبيلها إلى الاقناع والتأثير. والقرآن الكريم قد ضمن قصصه الأدلة العقلية على بطلان ما يعتقده المشركون. ومواجهة الرسل والأنبياء لأممهم بالحجة والبرهان والدليل .. وبلسان القوم فيه اجتذاب للعقل ، ومدعاة إلى التأثير.. بل وقد يكون مفحماً لا رجعة فيه.. ولا شك أن قصة إبراهيم مع ملك القوم، نموذج لذلك الجدل العقلى البحت. الذى يؤكد على التوحيد ، وإفراد العبادة لله.

والعرب ينتسبون إلى إبراهيم، فهو والد إسماعيل.. والعلاقة بين العرب وبين إبراهيم علاقة قوية.. فإذا ما حكت القصة جدل إبراهيم للملك الضال الوثنى... وأكدت على الوحدانية فإن ذلك يحمل تأثيرا فى قلوبهم .. ويدعو إلى الارتباط الحقيقى بالعقيدة، والابتعاد عن الشرك.. ومن ثم يتوجه الدليل إلى كفار قريش أنفسهم بحكم أنهم من العرب الذين يرتبطون بإبراهيم .. ويوجههم إلى التوحيد وإفراد العبادة لله.

(ومجىء الدليل على لسان رسول يقر بفضله المخالفون كإبراهيم عند العرب أو موسى عند بنى إسرائيل ، يعطى الدليل قوة فوق قوة، إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين، من جهة قوة الدليل الذاتية، ومن جهة أن الذى قاله رسول أمين يعرفونه، فيكون هذا قوة إضافية، وفوق ذلك فيه إلزام وإفحام، إذ إنهم يدعون أنهم أتباعه[2].

---

(١) سيكولوجية القصة فى القرآن. القافلة رجب ١٤٠٥هـ.

(٢) القرآن المعجزة الكبرى، ص٣٧٥.

قال تعالى :

﴿ أَلَـمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

فى قصة إبراهيم مع الملك.. نجد إبراهيم وهو فى مجال الجدل العقلى البحث واستخدام البرهان العقلى نجده يلجأ إلى الطريق الذى يحسم هذا الخلاف المشتجر بينه وبين ملك القوم الذى يدعى الألوهية.. والذى ترجح الروايات أنه النمروذ.

إنه يلجأ إلى الدليل الحسى الذى يقطع لحاجة القول ويفحم أطراف الحوار المعارضين، وإذا كان الملك قد فهم حين جادله إبراهيم حول الموت والحياة، أن مجرد القتل يعنى الإماتة، وتركه يعنى الحياة.. وهو يدل على منطق عاجز وعقل خاوٍ من المدركات العقلية الشاملة.. فإن إبراهيم قد ألقى بالدليل الحسى الذى يقضى على كل لجاجة وكل جدل عقيم.. دون أن يأخذه الجدل، وحبّ الحوار إلى تفريعات خارج الإطار البرهانى المحدد.. كأن يتحدث عن الفرق بين الموت فى الآية ومعناه عند الملك، أو عن الحياة كما جاء فى الآية ومعناها عند الملك.. ولكنه مضى إلى هدفه سريعاً وحاسماً، وتلك صفة برهانية عقلية لازمة فى مجالات الحوار الجدلى الذى يدور حول قضايا كلية حاسمة كقضية العقيدة، والإيمان بالوحدانية، وبحيث لا يكون هناك إلا التسليم والاقتناع.

وكان مطلب إبراهيم العقلانى – ما دام الملك قد ارتضى أن يعقد مقارنة بينه وبين الله – أن يأتى بالشمس من المغرب، وأن يحوّل الخلقة التى خلقها الله، وأن يعيد ترتيب الكون.. وأمام تلك الحجة بهت الذى كفر.

إن هذا الجدل الذى يعرضه القرآن على محمد (ﷺ) وعلى جماعة المسلمين، مثال لموقف الضلال والعناد من القضايا الرئيسية التى تحتاج إلى برهان، إذ كل البراهين العقلية والأدلة الحسية توصل إلى حقيقة التوحيد، وإفراد

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨.

العبادة لله.. إنها تجربة وموقف يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين.

والنصوص القرآنية تؤكد على ذلك.. وتحسم المسألة ، وتعلن تحرير الإنسان بل تعلن ميلاد الإنسان.

إنه بهذا الإعلان يخرج الناس من عبادة الضلال إلى عبادة الله وحده. والإنسان الكامل لا يوجد فى الأرض إلا يوم تتخرر رقبته وتتحرر حياته من سلطان العباد – فى أية صورة من الصور – كما يتحرر ضميره من هذا السلطان سواء[1].

وهذه هى الهدية التى يهديها الله إلى الناس فى الأرض بعقيدة التوحيد.

ولقد اثبت القصص القرآنى أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وبين بطلان عبادة الأوثان.. التى هى أسماء سموها وآباؤهم .. وما أنزل الله بها من سلطان.

كما أن فى هذه القصص القرآنية اثباتاً للوحدانية.. للذين يدعون ألوهية... البشر.

وفى قصة عيسى (عليه السلام) الدليل القوى على أنه عبدالله تعالى..

قال تعالى :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا • لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[2].

---

(١) خصائص التصور الإسلامى سيد قطب ص٣٣٤.

(٢) سورة النساء آيات ١٧١-١٧٢.

قال تعالى :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. وقال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ولقد جاوز القوم الحد . وكان الواجب أن يعتقدوا أنه عبدالله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التى احصنت فرجها فبعث الله جبريل فنفخ فيها بأمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى (عليه السلام) والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم وهى مخلوقة من مخلوقات الله[2].

والآيات التى وردت فى قصة عيسى (عليه السلام) تتجه إلى إنصاف الحق والعقيدة، وتصحيح عقائد أهل ا لكتاب المشحونة بالأساطير. ولقد جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة للبشر أجمعين. ولذلك جاء النهى بالبعد عن الغلو وتجاوز الحد والحق حين يزعمون أن لله ولدا، وانهم يفسرون النبوة هنا – خروجاً من فساد الإدراك العقلى – بأنها ليست ولادة عن طريق الطبيعة البشرية، وهو تحايل يدل على الوقوع فى الخطأ..

فالله سبحانه وتعالى – متعالٍ عن المشاركة والمشابهة.. ومقتضى كونه خالقاً يستتبع بذاته أن يكون غير الخلق.

ولقد خلق الله عيسى بالأمر الكونى (كن .. فيكون) كما نفخ الله من قبل من روحه فى طينة آدم، فكان إنساناً . فالأمر له سابقة، والروح هنا هى الروح هناك – ولم يقل أحدٌ من أهل الكتاب – وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله – إن آدم إله، كما قالوا عن عيسى، إن الذى وهب لآدم – من غير ابوين – حياة إنسانية متميزة بنفخة. لهو الذى وهب عيسى – من غير أب هذه الحياة الإنسانية نفسها.. وهذا البرهان العقلى الواضح البسيط، لدليل قوى وبليغ على أن الله واحد

(١) سورة آل عمران ٥٩–٦٠، آل عمران ٦٢.
(٢) قصص الأنبياء ابن كثير ص٣٨٧.

لا شـــريك لــــه، ويشـــهد بذلك العقل البشرى، فالقضية فى حدود ادراكه، فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته ولا ثلاثة فى واحد.

ولا واحد فى ثلاثة.

والمســـيح عيسى بن مريم لن يتعالى على أن يكون عبد لله.. لأنه (عليه السلام) وهـــو نـــبى الله ورســـوله خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان.

ولقـــد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه وحدانية لا تتلـــبس بشـــبهة شـــرك أو مشابهة فى صورة من الصور، وعنى بتقرير أن الله – سبحانه – ليس كمثله شيء. فلا يشترك معه شيء فى ماهية ولا صفة ولا خاصيّة.

وقضـــية عيسى (عليه السلام) أخذت كثيراً من الجدل والمناظرة، والقرآن الكريم يوجّـــه نظر محمد (ﷺ) إلى أن ذلك هو القصص الحق، وأن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر.. ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبى البشـــر.. إن هـــذا التقرير يتجه إلى الرسول يثبته على الحق الذى معه والذى يتلى عـــليه. ويؤكـــده فى حسه كما يؤكده فى حسّ من حوله من المسلمين، الذين ربما تؤثر فى بعضهم شبهات أهل الكتاب.

ويوجـــه القـــرآن الكريم النظر إلى أن الحق كل الحق من الله، فلا تكن من الممـــترين. وما كان الرسول ممترياً ولا شاكاً، وإنما هو التثبيت على الحق.. وإننا لندرك من هذا التوجيه.. مدى ما كان يتعرض له المسلمون من كيد فوجب تثبيتهم على الحق فى وجه الكائدين والخادعين، وبيان أن الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله إلا أن يكون هناك إله واحد يدبر أمره..(1).

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله..

---

(1) فى ظـــلال القرآن مجلد (1) جزء (3) ص٤٠٤-٤٠٦، وكذلك المجلد (2) من المرجع نفسه والجزء ٦ ص٨١٤-٨٢٠.

ولقد نفت الآيات الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم يدعها فقد كان هو الداعى إلى التوحيد.

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة، فكان تصريفاً فى الاستدلال إذ إن سوق الدليل فى ضمن قصة يجعله أكثر سرياناً فى النفس، وانسياباً فى أطوائها.

وقد يجيء الدليل أحياناً فى قصص القرآن على لسان حيوان أو طائر فيكون ذلك غرابة تسترعى الذهن، وتثير الانتباه وتملأ النفس إيماناً بالحقيقة. وذلك كما جاء على لسان الهدهد فى سورة النمل فى قوله تعالى :

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ • وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ • أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ • اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(١).

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد، فى عبارة موجزة وإشارة واضحة، إنه ينبه فى سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون الله، وذلك ضلال للفطرة، وهو جانب جاء من تزيين الشيطان الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة، فجعلهم بذلك يبتعدون عن حكم الفطرة السليمة، وهو أن يسجدوا لله الذى يخرج المخبوء من البذور والنوى وكل أسباب الوجود(٢).

إن الجدل فى القرآن.. وفى القصص القرآنى خاصة – يتوجه فى الكثير الغالب إلى إرشاد القارئين والمدركين، والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه النظر إلى الحقائق وما فى الكون من دلائل على القدرة.

إن الأسلوب الجدلي فى القرآن الكريم يمتزج بالأسلوب العاطفى، دون أن يكون ذلك على حساب البرهنة العقلية. فهو يخاطب الإنسان ويثيره ليحرك تطلعه

---

(١) سورة النمل : ٢٣-٢٦.
(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص٣٧٦.

إلى معرفة الحقائق المرتبطة بحياته، كما يدعوه إلى النظر فى الكون للاهتداء إلى الإيمـــان، ولا شك أن الإثارة الذهنية موجهة إلى القوة العقلية ليكون الإيمان قائماً على تدبر وتأمل.

لقد عمد القرآن الكريم إلى لمس البداهة وإيقاظ الإحساس، لينفذ منها مباشرة إلى البصـــيرة ويــتخطاها إلى الوجدان ، وكانت طريقة التعبير عن الجدل طريقة تصـــويرية خاليـــة مـــن التعقيد اللفظى والجدل الذهنى البحت.. وإنما تعتمد على الصـــور والحواس والمشاهد، والحوار الخلاق. ذلك كله يشترك فى مخاطبة الحس والخيال ولمس البصيرة والوجدان من أجل تركيز عقيدة التوحيد فى النفوس.

ولهذه الطريقة فضلها فى أداء الدعوة لكل عقيدة. وهى طريقة ذات أداء فنى عالٍ. "فوظيفة الفن الأولى هى إثارة الانفعالات الوجدانية، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه.. وكل أولئك تؤلفه طريقة التصور والتشخيص للفن الجميل[1].

وقـــد سلك القرآن الكريم مسلكاً خاصاً فى الجدل أرسى به القواعد الأخلاقية فيـــه. قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِـــنْهُمْ وَقُولُـــوا آمَـــنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

ولقد تجاوز الجدل القرآنى هذا الخلق الكريم إلى قاعدة أخلاقية أخرى وهى (أن يكـــون الحـــق هو المستهدف من الجدل وليس الباطل. إنه من هنا نهى القرآن الكـــريم النبى عليه السلام أن يجادل من ليسوا على الحق وهو نهى يقصد به جميع المسلمين..)[3].

قال تعالى :

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص٢٤٢.
(٢) العنكبوت آية ٤٦.
(٣) مفاهيم قرآنية د. محمد أحمد خلف الله ص١٥٨.

﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾(١).

وقد ينحو الجدل منحى حوارياً جديداً، وذلك حين يتحول إلى جدل بين الإنسان ونفسه.. ذلك أن الجدل فى مثل هذه الحالة يعكس صورة الصراع المشتجر بين الذات البشرية وما يدور داخلها من أفكار ورؤى .. ففى لحظات التأزم وفى منحنيات القضايا الكبرى – تلبد النفس تحت جناح الجدل الداخلى.. من أجل الوصول إلى حل لقضية تشغل النفس وتحتوى فكر ووجدان الذات. وإذا كانت صور الجدل فى القصص القرآنى التى عشناها، جاءت خارجية، تبرز إلى المدركات العقلية البراهين الفكرية الدالة على قضية الجدل والحوار لإثبات صحة العقيدة، والتأكيد على الوحدانية، فإن بعض الصور القصصية تناولت الجدل الداخلى، أى حوار النفس أو جدل الذات حول ما يؤرقها ويشغل بالها..

ولا شك أن قضية الوحدانية قد شغلت وجدان إبراهيم (عليه السلام) واستحوذت على تفكيره، وصاحبت ليله ونهاره، جهره وصمته، سكونه واهتزازه.. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ • فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ • فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ • إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

إن هذه الصورة القصصية، تكشف عن داخل النفس وما اشتجر فيه من صراع حول معرفة الحقيقة الدينية التى يسعى إبراهيم (عليه السلام) إلى كشفها حتى تفيض عليه نوراً ويقيناً، إنه حوار جدلى نفسى يدور حول الاهتداء القلبى والعقلى إلى وحدانية الله.. وتوحيده.

---

(١) النساء آية ١٠٧.
(٢) الأنعام : ٧٦-٧٩.

يقــول الزمخشرى حول هذه الحلقة من قصة إبراهيم (الْتَلِيُّلاً): (وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ فى ديـنهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شـيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيه وأن وراءها محدثاً أحدثهـا وصـانعاً صـنعها ومدبراً دبر طلوعها وقولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها..)[1].

ومـن ثـم فـلقد جاءت العبارة القرآنية ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ لبيان حقيقة مؤكدة أن من يمضى فى الطريق هذا ضال كما أنها (تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمـر إلهاً وهو نظير الكوكب فى الأفول فهو ضال وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه)[2].

ولقـد وشـت كلمة "الأفوال" بذلك الدليل الساطع على الحقيقة الدينية الخافية عـلىالقوم والـتى بـدأت تتجلى فى نفس ابراهيم.. تلك النفس التى أجرت حواراً داخـلياً فيـه نظر واستدلال واستقراء لمفردات الكون المعبودة عند قومه.. وبيان فسـادها وضـلالها.. إنها تأفل. والاحتجاج بالأفول فى هذا المجال أقوى وأظهر (لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب).

وهذه الحلقة من القصة تبين لنا صورة لنفس إبراهيم وقد ساورها الشك فى عـبادة قومه. إنها نفس تميل إلى العزلة، وتستقرئ فى الليل مفردات الكون مثار الـتأمل والـنظر. فالليل يسدل أستاره والكوكب يضىء فينجذب إليه، ولكنه يفاجأ بأفولـــه وتـناجى نفسه داخلياً. كيف يكون الكوكب ربًا للخلائق ويغيب عنها؟.. وتـتكرر الـتجربة .. فالقمر يسطع بنوره الرقراق ولكنه كغيره يمضى إلى أفوله المحتوم.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٢٤.
(٢) نفسه ص٢٤.

وكذلـــك الشمس الأكثر بهاء وضياءً تغمر الكون نوراً وسرعان ما تحتجب وتتـــبدل من حال إلى حال.. وتتناجى نفسه داخلياً.. مرة وأخرى.. كيف يكون ربًّا للخلائق ويغيب عنها؟؟

وهـــنا تـــدرك إبراهيم (عليه السلام) شرارة الإيمان الحق بعد أن نظر فى أمور الكواكـــب واســـتدل من أفولها على أنها مخلوقات محدثة وراءها خالق واحد وهو خالق الكون كله، هو الله الواحد الأحد.

ويســـتعيد إبـــراهيم نفسه بعد صراع داخلى ونظر عقلى.. فيطمئن إبراهيم ويزول قلقه بعدما رأى الله فى قلبه وعقله وفى الوجود من حوله!)(1).

وهـــذا مشـــهد قصصى آخر بلغ فيه الجدل حدًّا كبيراً.. والقصة تكشف عن موقف إبليس حين عصى ربه ورفض السجود لآدم متباهياً بأصله النارى ومعرضاً بأصـــل آدم الترابى. إنه يجادل من أجل الدفاع عن نفسه ويقف متحدياً فى ضلال وإضـــلال ويجاهـــر بالصـــد عن سبيل الله... فى جرأة لا يفعلها إلا كل ضال عن سبيل الله.

﴿وَلَقَـــدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ • قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَـــنِي مِـــنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ • قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ • قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ • قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ • قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ • ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَـــلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ • قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (2).

.. هـــذا موقـــف جدلى بحت أخذ شكل القصة واعتمد على الحوار اعتماداً كـــبيراً.. إن جوهـــر الجـــدل هنا هو المقارنة بين إبليس وآدم.. تلك المقارنة التى ملكت على إبليس مداركه وأغشت حقده، ثم يأتى التكريم لآدم والبشر جميعاً، على أن الـــتكريم فى معناه العميق كشف عن تحقير وصم به إبليس. ولقد كشف الحوار

---

(1) نظرات فى قصص القرآن جـــ1 ص130-131.

(2) الأعراف 11-18.

عن طبع إبليس الضال المضل وعن شخصيته الحاقدة المترصدة، كما أوضح الحوار الغرور الذى أصابه وأدار عقله وجعله لا يستسلم لأمر الله وقدره.. بل وصلت الشخصية إلى قدر كبير من المحاجة والتحدى.. وكلها صفات أخلاقية مذمومة.. أوحت بها القصة وكشف عنها الجدل والحوار الدائر فى القصة.

لقد جاء الأمر إلى الملائكة بالسجود تكريماً لآدم فأطاعوا وسجدوا، ورفض إبليس فى إباء حاقد ويسأل عن المانع الذى منعه من السجود.. والله أعلم بما منعه.. ولكن السؤال يحمل التقريع والتوبيخ والإهانة (ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف ربَّه معتقداً انه غير واجب عليه لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب)[1].

ويأتى الأمر بالطرد من رحمة الله والهبوط من السماء التى هى مكان الطائعين والمتواضعين. ولقد خرج صاغراً مهاناً للتكبر الذى حصل منه والعصيان.

ويستمر الجدل الحوارى حول الإغواء والترصيد والصد عن سبيل الله.. وطلب إبليس من ربه أن يُنظر حتى القيامة، وأجيب إلى استنظاره الذى طلبه وذلك للحكمة العليا التى أرادها الله سبحانه، ولما فى ذلك من ابتلاء العباد، وحُكم الإجابة هنا لما طلبه إبليس **(حكم ما خلق فى الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي وما ركب فى الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده)**[2].

والموقف الجدلى هو تمهيد لبدء قصة البشرية. لقد أعطى الله سبحانه كل شئ خصائصه ووظائفه وهدى إلى أدائها عند خلقه (وأن الترقى فى تاريخ الإنسان، كان ترقياً فى بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية)[3]. وكان ميلاد الإنسان بهذا التكريم الذى أعلنته الآيات. ولقد كشف الموقف الجدلى ثلاثة أنماط من الخلق. نمط يتسم بالطاعة والتسليم وهم الملائكة، ونمط آخر يتسم بالعصيان وهو إبليس ونمط ثالث وهو الإنسان. ولكن الموقف

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٥٤.
(٢) الكشاف جـ٢ ٥٥.
(٣) الظلال جـ٣ ١٢٦٤.

القصصى أعطى لابليس مساحة طويلة نسبياً.. لنتعرف من خلاله على عدو الإنسان الأكبر.. وعن خصائص طبيعته التى اتصفت بالشر الأصيل، ولقد صور الموقف المعانى العقلية والحركات النفسية تصوراً تشخيصياً..

كما أوضح الموقف أن مشيئة الله – وقد أجيب إبليس إلى طلبه – اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر وبما وهبه من عقل راجح.

(لقد جعل الله سبحانه لإبليس وقبيله فرصة الأغواء، وجعل لآدم وذريته فرصة للاختيار وتحقيقاً للابتلاء..)(١).

.. ولا شك أن أبرز صور الجدل فى القصة القرآنية هى الصور الجدلية القصصية التى دارت بين الأنبياء والرسل وبين أقوامهم حول التوحيد ونقاء العقيدة والموضوعات تكاد تكون واحدة فى هذه القصص، فضلاً عن وسائل الأنبياء فى الدعوة بل إن العبارات الداعية إلى التوحيد وبيان أن الله واحد لا شريك له خلق السموات والأرض وأنعم على الناس بنعمه الظاهرة والباطنة.. وهو الذى يحيى ويميت وإليه الأمر.. هذه العبارات القرآنية تكاد تكون متشابهة فى اللفظ والنظم.. ذلك لأن المنشأ واحد والدعوة واحدة والوسيلة واحدة فى أغلب الأحوال ونتيجة الصراع والجدل واحد.. وهو نصر المرسلين وأتباعهم والعذاب الشديد للكافرين المكذبين.

وهى صور قصصية تكشف ما كان يحدث لمحمد (ﷺ) مع قومه.. وتؤازره فى مواقف الصراع والجدل والدعوة إلى الإسلام، وتبشره بنصر الله الذى لا يغيب عن أنبيائه والمؤمنين من أقوامهم.

والجدل فى هذه القصة يدور حول الرسالة الدينية التى حملها الرسول إلى القوم. وهى رسالة دينية تواجه بالإعراض والصد والإنكار الشديد لها ، ولنبوة النبى ورسالة الرسول.. كما دار الجدل حول القيم الأخلاقية والمعايير السلوكية التى كانت شائعة عند الأمم. ولنأخذ نموذجاً يوضح ذلك..

---

(١) نفسه ١٢٦٧ جـ٣.

قال تعالى :

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ • وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ • بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ • قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ • قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ • وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ • وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ • قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ • قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ • وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ • وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(١).

"إن القصة القرآنية من أغراضها الدينية أنها ترسم النموذج الكامل للمعاملة الحسنة والسلوك القويم، فضلاً عن دعوة التوحيد غرضها الأكبر والأعظم. ولكنها بينت مع هذا أن دعوة الأنبياء دعوة – مع التوحيد ونقاء العقيدة – إلى الخير وصلاح النفوس وحسن المعاملة وتقويم المشاعر وتهذيب الأخلاق والتحذير من إفساد الحياة وتخريب النفوس.

وإذا وردت هذه المعانى فى شكل قصصى تغلغلت إلى النفوس.. وقصة شعيب مع قومه نموذج للقصة التى تضمنت هذه المعانى وأبرزتها، كما أنها نموذج لسياق الجدل والحوار فى سبيل تحقيق وإشاعة هذه المعانى جميعها.

---

(١) سورة هود : ٨٤-٩٤.

ولقـد تضمنت القصة موقفين جدليين كبيرين : الأول الموقف الجدلى حول الـتوحيد، جوهـر الرسـالة ومقصدها العظيم ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غـيره..﴾ ومن خلال هذا الغرض الدينى الكبير دعا شعيب قومه إلى قيم اخلاقية ترتـبط بهـذه الدعـوة الكلية، وحياتهم لا تسير وفق نظامها إذ يفتقدون هذه القيم الأخلاقية التى هى أساس نظام الحياة ككل..

وذلـك هو المحور الجدلى الثانى الذى دار بين شعيب وقومه – الدعوة إلى الوفـاء فى الكيـل والميزان . ويبرز هنا القدوة حيث وضح شعيب لقومه أنَّه لا يرتكب شيئاً ينهى قومه عنه. وإنما هو يأمرهم بما يأمر به نفسه وهو حين يأمرهم بالـتوحيد وبترك البخس فى أموالهم وموازينهم إنما يريد إصلاح الأمر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. ويتبع شعيب هذا النصح بالتحذير وضرب نماذج من الأمم السابقة حق عليهم العذاب لعصيانهم وضلالهم.

وفى مجال جدل شعيب مع قومه أبرز السياق القصصى مجاملة القوم له من أجـل جماعـته ورهطـه.. والقصة بما دار فيها من جدل حول التوحيد والأخلاق تذكرنا بموقف الرسول (ﷺ) من أهل مكة حيث واجهوا الرسول بالنكران والأذى، واسـتمروا فى عـنادهم وضـلالهم "وممارساتهم الضالة فى أمور البيع والشراء والإنجـاز.. وكـان إيراد القصة إيناساً للرسول ومؤازرة له وتسرية للمسلمين عن سوء المعاملة التى يلقونها من كفار قريش وبياناً للمسلك الخاطئ الذى يسلكه كفار قريش..

ولقـد غـلب على الموقف الجدلى بين شعيب وقومه عنصر الحوار، حيث أعـطى الحوار النماذج المتباينة للشخصية.. الداعى – شعيب، وشخصية القوم – مدين. فشعيب رسول أمين على الرسالة يدعو إلى التوحيد ويستخدم مفردات الحياة الـتى يعيشـونها، فهو منهم ، ويعرف غناهم وعدم حاجاتهم إلى البخس فى الكيل والميـزان. ويحذرهم مغبة هذا الإصرار على الضلال والكفر، وهو الرجل القدوة الـذى يجب أن يقتدوا بـه.. ثم هو يستقرئ التاريخ ليعطيهم العظة والعبرة وليقنعهم بأدلـة برهانية لا تحتمل العناد أو التكذيب.. حتى يأتى تحذيره وتخويفه لهم مقنعاً. "أمَّـا القوم فقد أصروا على العصيان وسخروا به وبدعوته.. وأنكروا منه أن يدعو

هــذه الدعــوة، ويلتمســون له العذر فى رهطه الذى هو منهم.. وأصروا على ما يفعلون فى غلظة نفس، وجمود ، فحاق بهم العذاب الشديد. ولقد رسم الحوار معالم الشخصــية بالتعــبير عن المواقف والصراع المشتجر (على طريقة الحكاية عنهم، ونقــل أقوالهم نقلاً أميناً لا مبالغة فيه ولا افتعال، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسـلوب إعجــازه.. حتى يكون الاعجاز البيانى للأقوال المحكية إعجازًا للقرآن لا لتــلك الأقــوال)[1] وفى هــذا المجال الاعجازى يقول الزمخشرى فى فائدة الأمر والــنهى الــذى ورد فى مطالبة شعيب قومه بالوفاء بالكيل والبعد عن بخس الناس أشــياءهم.. (نهوا أولاً عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لأن فى التصــريح بالقبيح نعياً على المنهى وتعبيراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجىء به مقيداً بالقسط أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان؟)[2].

ولا شــك أن الحــوار يــثرى الجدل فى الموقف القصصى ويحيى المشاهد المرســومة فى دقــة متناهية ويصور الانفعالات تصويراً دقيقاً كما يحمل الإقناع والــتأثير.. ومــن ثم ارتبط الجدل بالحوار ارتباطاً وثيقاً، فكشف عن نبل المقصد والــترفق فى الخطــاب من جانب الرسل وعن لجاجة الخصوم وسوء مخبرهم.. وعنادهم ومكرهم من جانب آخر.

---

(١) سيكولوجية القصة فى القرآن ص٤١١.
(٢) الكشاف جـ٢ ص٢٢٨.



الفصل الثالث

٣- مواءمة القصة لمراحل الأحداث ولمواقف الدعوة



القصة القرآنية – وهى عمل فنى رائع – وسيلة هامة ومؤثرة من الوسائل القرآنية الكثيرة التى تحقق الأغراض الدينية وتبرز الأصول الرواسخ في العقيدة الإسلامية والتى احتواها القرآن الكريم بحكم كونه الدستور الخالد الذى ينظم حركة الحياة للإنسان فى الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم – الوحى الذى نزل على رسول الله (ﷺ) – كتاب دعوة إلى الله، وإلى الوحدانية، وإلى الحق.. فى المقام الأول، ولما كان هزّ الوجدان وإثارة العاطفة الشعورية مدخلاً وجدانياً إلى ترقيق العاطفة وربطها بالشعور الديني الفياض الذى هو فطرة عميقة فى النفس البشرية.. فإن القصة تصبح في هذا المجال عاملاً مثيراً ومؤثراً فى نفس الوقت، وتصبح وسيطاً تربوياً رائعاً للتأثير فى الذات، وفى تطهير النفس من المشاعر الداخلية على الفطرة البشرية. ولقد تلازمت القصة مع الإنسان منذ بدأ يعى مدركات الحياة ومفرداتها، حتى أضحى ميل الإنسان إلى القصة أو الحكاية أو الخبر المثير – سماعاً أو قراءة – ميلا يكاد يكون فطريّاً.. ومن ثم تكون الدعوة عن طريقها أكثر نفاذاً وأعمق تأثيراً.

وفى هـذا المجال – مجال الدعوة إلى الإسلام ومواجهة طواغيت الكفر – فـإن القرآن الكريم أعطى للقصة مميزات خاصة تصل بها إلى الكمال فى المعنى والمبنى – وتلك الصفات التى تبرزها القصة القرآنية وتتميز بها فى ذات الوقت.. تتمثل فى حمل لواء التوجيه والتعليم والوعظ والإرشاد والإخبار، والنصح والوعد والوعيـد، ووصـف الجنة والنار وصفاً دقيقاً ومباشراً فى الآن نفسه – مما جعل القصة القرآنية ذات دور حاسم وفعال فى تعليم وتغيير وتطوير المدركات الحسية، والقيـم الديـنية، والعواطـف البشـرية.. إلى ما هو أفضل وأحسن ومع ذلك فقد احتفظت بفنيتها فى قوة واقتدار..

ولقـد سـاهمت القصـة القرآنية فى الإعلام عن الإسلام – خاتم الأديان، إعلامياً، حيث وضحت وحدة الأديان، وبينت أن الدين واحد.. وأن الله واحد ، وأن وسـائل الأنبياء فى مواجهة أعدائهم وأعداء الدين واحدة.. كما وضحت أن النصر فى الـنهاية لكـلمة الحق ولأنبيائه ورسله، وأن الله ينصر من ينصره، والله غالب على أمره..

تـلك الوحـدة الكامـلة بين الرسل – والمسلمون يسمعون ويتلقون قصص الأنـبياء واتباعهم – تؤكد مدى المساندة، والتثبيت التى تقوم به القصة وهى تقص هـذه الأنـباء والأخـبار عـن الأمـم السـابقة، كما أنها تزرع الأمل فى قلوب المستضـعفين من المسلمين فى بداية الدعوة الإسلامية، وتلوح بغصن الأمل الذى يـثمر نصـراً، وانتصاراً، وتبشرهم بحياة جديدة وعالم جديد تكون الكلمة فيه لله، والغلبة فيه لمن ينصرون الله ويؤيدون رسوله (ﷺ).

ومـن خلال ذلك يعرف المسلم أمور الدين ، وتحيط مداركه بحركة التاريخ الصـحيحة الـتى هى انـتماء إلى الله، ودفاع عن دينه، وتغرس فيه القيم الجديدة والأخلاق الفاضلة والتى هى تصحيح لما هو سائد من فوضى فى السلوك والخلق، وإرجاعه إلى الله، وإلى الفطرة البشرية السوية التى خلق الله الناس عليها. وللقصة القـرآنية أثـر واضح وبليغ وحاسم التأثير فى توجيه العقيدة وتصحيحها، ونبذ ما خالطهـا من ألوان الشرك، كما لها الأثر القوى فى تقويم السلوك، وحسن المعاملة عـلى المسـتوى الذاتى، أو على المستوى العام. ومدخل القصة إلى ذلك التوجيه والتصـحيح والـتقويم: هو إثارة الشعور الانفعالى الدافع إلى الفعل.. حتى يصبح

للعامل الوجدانى تأثيره، ومن ثم يضحى مردوده الفعلى مردوداً سلوكياً، وقيمياً.. يتلاءم مع العقيدة ومع الدين، ومع وضعية المسلم، كحامل لدستور الإسلام الخالد، وكحامل للأمانة التى ألقاها الله على عاتقه، فيصبح أهلاً لتحمل تلك الأمانة بمفهومها الخاص المرتبط بالدين الإسلامى ومفهومها العام المرتبط بوحدة الكون، ولقد أدرك الرسول (ﷺ) ما للقصة من تأثير ، فسلك نهج القرآن الكريم فى توظيف القصة من أجل تعميق مبادئ الإسلام فى النفوس، فالرسول يتخذ من القصة أسلوباً للدعوة – على تعدد أساليبها – يحمل قيم الإسلام ومعانيه. ولقد أدرك (ﷺ) ما للقصة من تأثير، فكان يقص على المسلمين قصصاً يضمنها القيم والأخلاق وشتى الموضوعات التى تتناول حياة المسلمين وتأثير الإسلام فى نفوسهم ومعاشهم.

والرسول فى ذلك ينطلق من ضرورة استغلال الإقبال على القصة كعنصر حيوى استجابة للمناخ الذى يطلب القصة ويطالب بها.. فضلاً عن حاجة الإنسان إلى القصة كعنصر ملازم له منذ الطفولة.

وكان رسول الله (ﷺ) حريصاً على أن يتعهد أصحابه بالقصة يعظهم بها ويذكرهم. ولما كانت "الصفّة" ملتقى ضيوف الإسلام فى المدينة من الوفود أو المسلمين حديثاً أو الفقراء الذين يأوون إليها، وجد فيها الرسول (ﷺ) فرصة كبيرة يلتقى بالمجتمعين فيها فيحدثهم ويذكرهم بالقصص وغيرها(١).

ولقد اشتملت أمهات كتب الحديث على نصوص قصصية كثيرة.

ولقد نزل القرآن الكريم على رسول الله تنجيماً، ولعل أحد أسباب هذا التنجيم مؤازرة رسول الله، فى جهاده ضد الكافرين وشد أزر المسلمين المستضعفين، وتسلية رسول الله وإيناسه، وهو يواجه الخطوب والأحداث.

ولا شك أن تثبيت قلب النبى (ﷺ) إنما رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب الخصوم، ولقد تعهده الله جل جلاله بما يخفف عنه الشدائد، فكان إذا اشتد الأذى عليه نزل القرآن تسلية له وتخفيفاً.

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص٥٤-٥٥.

ولقـد كـانت القصة القرآنية إحدى وسائل التسلية حيث تبين مصارع الأمم الغابرة وهى تتحدى كلمة التوحيد وتصد عن دين الله.. وتخبر تلك القصة الرسول باندحار أعداء الله وانهزامهم، وأن مآل الكفار واحد منذ البدء وحتى النهاية.

ولا شـك أن فى تجـدد نزول الوحى وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البيـنات التى فيها تسلية للنبى (ﷺ) وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظـم الأثـر فى تثـبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة والمعنى فى تبليغ الرسالة الإلهية لأن الله معه[1].

ولقـد قص القرآن فى مرحلة الدعوة الأولى قصص الأنبياء والأمم الماضية وُمجمـل مـا جرى من حوادث التدمير فى ديار عاد وثمود وطوفان نوح، وأثبت القرآن الصحيح والمفيد من هذه الأنباء وهو ما ورد فيه وما أوحى به.

قـال تعـالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [2].

ولقـد سـايرت القصـة مـراحل الدعوة الإسلامية وتواءمت مع الأحداث والمواقـف وبرزت عناصر القصة – حسب الضرورة الفنية والموضوعية – بما يخدم الحدث والمرحلة والمواقف المتجددة فى الدعوة.

إن الدعـوة المحمدية استمرت ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه وصدّ لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة الـتى آمنت معه، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة فى شعب من شعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه[3].

وفى هـذا الـليل الحالك يتنزل القرآن الكريم، وتقوم القصة القرآنية بدورها فى ضرب الأمثال وبيان مآل الكافرين تثبيتاً للرسول وللذين آمنوا معه.

---

(١) النبيان فى علوم القرآن ص٣٤.

(٢) سورة هود آية ٤٩.

(٣) النبأ د. محمد عبدالله دراز ص٤٢.

ولقــد ابـــرزت القصة القرآنية – والتى نزلت بمكة – أحداث الأمم السابقة حيــث تعــطى الــبديل الجــزائى الذى يستحقه كفار قريش المعاندون لرسول الله والمعذبون للقلة المؤمنة التى تعانى وتتعذب فى سبيل الإسلام والعقيدة.. إن القصة القــرآنية تتلاءم وتتناسق مع المرحلة.. فتقوم برسم وتصوير النهايات الأليمة التى حــاقت بــأمم غابـــرة، صدت عن دين الله – وهو المصير الذى سيؤول إليه كفار قريش.

كــان القرآن فى مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ويعدهم الأمن والنصر الذى كان لمن قبلهم.

قـــال تعـــالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١).

ولقــد اهتمت القصة القرآنية بإبراز عنصر الأحداث.. فى مجال الدعوة فى مكــة المكرمة.. وانطبق على القصة ما انطبق على القرآن المكى من جماليات فى الأداء، والإيقاع، والموسيقى وجرس الألفاظ ، والإيجاز الموقع.. الذى يحدث الأثر المطلوب من تصوير الأمم الغابرة فى لحظة التدمير، ولحظة النهاية المفجعة.

ففى سورة الذاريات وردت الإشارات القصصية السريعة إلى النهايات التى حاقت بالأمم. كما فيها إشارة إلى تحقيق وعد الله الذى جاء فى أول سورة الذاريات ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

والقصـــص بهذه الصورة الإشارية الخاصة بالنهاية، يهدف إلى تجريد القلب للعــبادة، وتخليصه من العوائق، ووصله بالسماء عن طريق الإيمان.. حتى يتحقق وعد الله بالنصر للمؤمنين الثابتين على العقيدة ، والصامدين للعذاب.

قال تعالى فى مجال الإشارة إلى قوم لوط :

﴿قَـــالَ فَمَـــا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ • قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ • لِنُرْسِـــلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ • مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ • فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ

(١) سورة غافر ٥١.

فيهَا منَ الْمُؤْمنينَ • فَمَا وَجَدْنَا فيهَا غَيْرَ بَيْتٍ منَ الْمُسْلمينَ • وَتَرَكْنَا فيهَا آيَةً للَّذينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَليمَ﴾[1].

وسورة الذاريات مكية تقوم على تشييد دعائم الإيمان، وتوجيه الأبصار إلى قــدرة الله الواحد القهار، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان. وبدأت السورة بالحديث عن الرياح والسحب والأمطار والسنن الجارية والملائكة المكلفين بــتدبير شؤون الخلق.. ثم تحدثت عن كفار مكة وبينت مآلهم حيث يعرضون على نــار جهنم. وتحدثت عن وعد الله للمؤمنين، من النعيم والكرامة فى الدار الآخرة. وجــاءت النقــلة الــتالية متلائمة تماماً مع جوّ السورة والظروف التى نزلت فيها والمرحلة الإعلامية الإسلامية التى كانت عليها الدعوة المحمدية..

ولقــد جاء الحديث بعد ذلك عن قصص الرسل وأممهم – وعن موقف الأمم الطاغيــة من الأنبياء وما حل بهم من العذاب والدمار كقصة لوط، وقصة موسى، وقصــة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح[2].. وتلك القصص – كما قلت – إشارات سريعة للنهايات المؤلمة التى حاقت بالكفرة الطغاة.

وفى الآيات السابقة من القصة ربط بين قصة إبراهيم والرسل الذين بشروه بغلام حليم، وبين نهاية وعذاب قوم مجرمين والمراد بهم قوم لوط..

ولــم يرد فى الآيات اسم الرسول.. ذلك السياق لا يؤكد على شخص النبى هــنا. فثمة آيات كثيرات متوزعة على سور القرآن تتحدث عن جهود نبى الله لوط فى الدعوة إلى التوحيد، والتمسك بمكارم الأخلاق والابتعاد عن فساد العقيدة وفساد المسلك الأخلاقى[3].

وجــاء ارتباط قصة إبراهيم بقصة لوط.. لأن تلك الأحداث وقعت فى حياة إبــراهيم الخــليل، فضلاً عن أن لوطاً ابن أخى إبراهيم. وكان قوم لوط قد ابتدعوا

(١) سورة الذاريات ٣١-٣٧.
(٢) صفوة التفاسير جــ٣ ص٢٥٠.
(٣) انظر سور الأعراف، هود، الحجر، الشعراء، النمل.

فاحشـــة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين[(١)].

ولما كانت هذه الفعلة فاحشة، تنفر منها الطباع السليمة وذوو الفطرة السوية فقد تكررت فى عديد من سور القرآن الكريم، حتى يظل للقصة المُثلة فى العالمين والعبرة التى يتعظ بها ذوو الألباب.

وربـــط قصـــة إبـــراهيم بقصة لوط إيحاء بأن العرب – وهو ينتسبون إلى إبـــراهيم. ولـــوط منه – لم يتعظوا بما حدث لأقوامهم من عذاب وتدمير، وغضب مـــن الله. فأدانوا أنفسهم بأنفسهم، إذ كيف يؤمنون بنبى الفطرة إبراهيم ولا يتعظون بما حدث، ويظلون فى كبرهم وعنادهم لما يدعو إليه محمد، وهى دعوة تتلاقى مع دعوة إبراهيم، فالمنبع واحد هو الله، والدعوة إلى التوحيد واحدة.

◈ ونهاية قوم لوط نذير لكفار قريش :

ولقـــد علم إبراهيم – فى القصة – أن الرسل ما هم إلا ملائكة قد جاءوا فى أمـــر خطيـــر، وهو إهلاك قوم لوط لما ارتكبوه من معاص، وحق على قوم لوط العذاب، وأصبحوا عبرة بما أنزل بهم من العذاب والنكال . وأصبحت محلتهم نتنة خبيثة عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم.

قـــال الإمـــام الرازي.. (واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وكون النـــبى (ﷺ) على سنته فى بعض الأشياء، وفيها إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين)[(٢)].

وتمضـــى الآيـــات فى ســـورة الذاريات.. لتقص قصص الرسل مع الأمم الطاغيـــة وفى كـــل ذلك.. تسلية للنبى وتثبيت لقلبه، وتذكيره بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله المكرمين.

قال تعالى :

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص٢٦٨.
(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص٢٥٥.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ • فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ • فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ • وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ • مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ • وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ • فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ • فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ • وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(١).

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٢).

فى قصة موسى إشارة ، للنهاية الماحقة التى حلت بفرعون، حيث عصى ربه وكذّب بما جاء به موسى وادعى عليه كذباً وبهتاناً بأنه ساحر، أو بأنه مجنون، فنزل عليه وجنوده العذاب، حيث هلك بالإغراق، وهو مليم لأنه أتى بما يلام عليه ويعذب من أجله.. وهو الكفر والطغيان.

وذكر اسم موسى لا يفيد جديداً فى صلب القصة فالقصة لا تتناول شخصية موسى وإنما تتناول نهاية الطاغية، وإنما ذكر موسى إشارة موجزة لحمل الرسالة الحق، التى كذّب بها فرعون وجنوده.

وتوضح الآيات بعد أن تنتهى من قصة فرعون، قصة عاد وكيف أرسل الله عليهم الريح العقيم، وهي ريح الدّبور، تلك الريح المدمرة التى لا خير فيها ولا بركة، فهى لا تحمل خيراً، ولا تلقح سحاباً ولا شجراً، وإنما هي فقط للهلاك. ولقد أتت الريح عليهم فما تركت شيئاً، وبقى كل شىء كالهشيم البالى. وأخبر الله بعد ذلك عن هلاك ثمود حيث جعلهم الله آية وعبرة لمن يعتبر ولم يذكر اسم نبيهم صالح، لأن الهدف هو ذكر ما أنزله الله على القوم الضالين ولقد منع الله قوم ثمود ثم أنذرهم.. بعد عقرهم الناقة ثم استكبروا وجحدوا أمر الله ولم يمتثلوا له فأخذتهم الصيحة المهلكة، وهم يرونها ويشاهدونها لأنها حلّت بهم في وضح النهار، ولم يستطيعوا الهرب أو النجاة بل أصبحوا فى ديارهم جاثمين.

(١) سورة الذاريات آيات ٣٨-٤٦.
(٢) الذاريات آية ٥٢.

كمـــا أخـــبرت الآيـــات عن هلاك قوم نوح فى إشارة سريعة، وبينت أنهم اســـتحقوا غضـــب الله لأنهـــم كانوا فسقة خارجين عن طاعة الله، بارتكابهم الكفر والعصيان.

وكل ما ورد فى هذه القصص إنما هو إشارات سريعة، سيأتى تفصيلها فى المواقـــف التى تستدعى التفصيل، وإنما اكتفى القرآن بأن يسجل نهاية القصة لأنها هى الهدف والغرض، إنها وعيد لكفار مكة، بأنهم سيلاقون نفس المصير الذى لقيه المكذبون السابقون من الأمم الغابرة.

وجـــاء ذلـــك فى قوله تعالى من نفس السورة ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ ومرمى الآية تجسيد لكل قصص الأمم السابقة، فـــإن لـــلكفار الذيـــن كذبـــوا محمداً (ﷺ) نصيباً من العذاب الذى أدرك أسلافهم السابقين، وأن العذاب واقع لا محالة فعليهم ألا يتعجلوه.

ولقـــد بينت الآية الصفة التى كانوا يلصقونها بالأنبياء والرسل، وهى صفة الســـحر، والجنون، حيث تهدف الآية إلى وحدة الرسالة السماوية، ووحدة الوسائل التى كان يتبعها الرسل مع أقوامهم، ووحدة النعوت التى نعت بها الرسل والأنبياء، وفى ذلك كله تسلية لمحمد (ﷺ) فلا تحزن يا محمد حين يصفك قومك بالسحر، أو الجنون فلست بدعاً فى ذلك بين إخوتك من الرسل السابقين، فلقد قال المكذبون من قبل لرسلهم ما يقوله قومك الضالون.

ولما كان القياس مثالاً يورد نفسه إيحاء، فإن المصير يصبح واحداً، والنهاية واحدة.

ولقد استخدمت قوى الكون فى إنزال العقاب على الأقوام الضالة، والإشارة هـــنا توحى – عبر المعنى العميق لدلالة وسيلة الهلاك – أن الكون كله وحدة وأنه دائـــرة مكتملة ولما كان قطب الدائرة ومحور الكون هو الإنسان، فإن أى خلل فى نقطة الارتكاز تعنى انهيارا ما، أو تصدعاً فى أركان البناء. والبناء الكونى كله لله، هـــو الذى أقامه، وهو الذى يأتمر بأمره، وهو الذى يقوم بالعقاب أو الإصلاح ليعيد وحدتـــه وانسجامه، إن الكون تيار يلفظ ما يشوبه ليبقى له صفاؤه، وانهماره. ومن

ثــم وضّح الفعل المباشر في إسناده إلى الله تعظيماً وتشريفاً. وتذكيراً، بأن الله هو المصدر والصمد والقادر، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾، ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾.

إن التعــبير يبين أن قوى الكون، من يمّ، وريح، وصاعقة، وطين مسوّم، قد ســلطت فــي الوقــت المقــدر بــالهلاك والدّمــار. إنها كلها مسخّرة بمشيئة الله وبَنو اميسه، فتؤدى دورها كأى جند من جند الله.

ولقــد كان القرآن يعالج قضية العقيدة فى المجتمع المكى بأن يخاطب فطرة الإنســان ويســتنقذها مما ران عليها من ركام، ويصقل الحواس الفطرية من صدأ الاعتقاد الهابط، ويفتح طاقات عديدة للنفس البشرية.. لتدخل الأشعة النورانية التى تضيء القلب وتنير الوجدان.

والقــرآن المــكى – والقصة إحدى آياته ووسائله – يتسم باللمسات المبدعة المحبــبة، التى تنتفض بعدها المشاهد والمعانى أحياء فى الحس والخيال.. وإذا كل مكــرور مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض، كأنما تتلقاه النفس أول مرة، وكأنمــا لــم يطــلع عليه من قبل ضمير إنسان[1] والقرآن الكريم فى مجال القصة يخــتار لقطــات حيــة من الوقائع التاريخية ولا يثقلها بما هو تافه من الجزئيات والتفاصيل التى تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار [2] وتلك الأحداث الموجزة إنما تلاءمت مع الدعوة فى أول عهدها، فجاءت القصة القرآنية وعرضت الأحداث فى إيجاز شديد وبفواصل قصيرة وبجرس لفظى للوصول مباشرة إلى تحذير مشركى مكــة.. ولقــد لمسنا فيما سبق من تتابع قصص الأمم الغابرة، كيف كانت الآيات قصــيرة، وكيــف كان الرنين الصوتى منغماً، وكيف حمل ذلك كله قوة فىالتأثير والإرهاب تنتقل من قصة إثر قصة أخرى.

ولا شــك أن ارتباط القصة بالدعوة والموقف والهدف الدينى، يحدد وسيلتها لــلغرض، حيث يبدو لنا التناسق واضحاً بين القول القصصى، والموقف. وكل تلك المقاصد يوحى بها النص، والنص هو الذى يحدد أسلوب العرض..

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٢ جزء ٧ ص١٠١٦.
(٢) سيكولوجية القصة القرآنية ص ٨٧.

ولقــد بــرزت الأحداث القصصية – كما سبق – في مجال الوعيد، والإنذار والتهديد.. ولقد تلاءم ذلك مع بدايات الدعوة.

حتى إذا تطورت الدعوة، وجاهد الرسول وصحبه لإبراز خصائص العقيدة الإســلامية، وحاور قومه حول الأصول الرواسخ من العقيدة، وواجه القوم كأقوى ما يكون، كان القرآن معه يسانده ويشد أزره ويثبت قلبه ويؤنسه ويسليه – بالعبرة والعظة – بقص أنباء الرسل والأقوام السابقين، وما حاق بهم من عذاب في تقرير لكفرهم وضلالهم.

ولقــد انقضــت ثلاثــة عشر عاماً في تقرير قضية العقيدة.. وترسيخها في الــنفوس ولقــد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعــوة لهــا منذ اليوم الأول للرسالة، وأن يبدأ رسول الله (ﷺ) أولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله.

إن قصــص القرآن التي نزلت بمكة قامت على الزجر والوعيد، فأهل مكة عبدة أوثان، طالت صحبتهم بها فقست قلوبهم وران عليهم الضلال والجحود فغلب على القصص في هذه الفترة (ذكر الأمم البائدة التي خالفت أمر الله، وكذبت رسله، فكــان عاقــبة أمــرها وبالا وخسراً)[1] كما غلب عليه التنوع في عرض الصور وأنــواع العــذاب ممــا يهز الوجدان ويقلل من العناد والاستكبار. ومن ثم برزت الأحــداث بــروزاً واضحاً وطغت على عناصر القصة الأخرى، وجاءت سريعة خاطفــة فواققهــا وتــنامى معهــا العــرض القصصي من حيث الإيجاز، وتقسيم الفواصــل، والــرنين الصــوتي العاكس للموقف وللحركة، بما يتضمن من تهويل وتخويــف، والــتكرار أحد ملامح الأسلوب السردي في هذه المرحلة، سواء جاء تكرارًا للأسماء المجردة أو للأقوام، أو للنهايات.

قال تعالى ﴿**الْحَاقَّةُ • مَا الْحَاقَّةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ • كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ....**﴾[2].

---

(١) مع القرآن الكريم دراسة مستلهمة ص٢٤. علي النجد ناصف.
(٢) الحاقة ١-٤.

فالـتكرار يحمـل تهويلاً وتخويفاً، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصـل المغـزى ويبرزه، حيث إن مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الـذى وضـحته كـلمة الحاقـة، وما فى التكرار من إلحاح فى المعنى فضلاً عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغى يصاحب المعنى المراد من السياق.

ويـتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة وما دار حولها من خصومات ولجـاج وجدل .. وما نتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته.. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها.. وهى صفات جاءت كرد فعل مهووس مـن جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة.

قال تعالى :

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ • فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ • فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(١).

وفى الآيـة تصـريح بالصـفة التى وصف بها موسى (عليه السلام) وهى صفة السـحر والجنون. وجاء التعبير ملائماً للهدف من ايراد هذه الإشارة السريعة إلى موسـى وقومه، حيث انتقل النص من الوصف السردي الموجز إلى إبراز النهاية وهو الغرض من القصة.. نهاية العذاب الذى حاق بهم وأغرقهم فى اليم.. والتعبير (تـولى بركنه) يوحى بالتكبر والغرور والاستهزاء.. وجاء الفعل (قال) ليسجل هذه الحالـة الشعورية التى سيطرت على فرعون وهو يسمع دعوة التوحيد من موسى. ولا شـك أن الرسول (ﷺ) قد سمع تلك الصفات تتردد على مسامعه، ورأى نفس الحـالات الشـعورية التى تدمدم بالسخرية والغرور.. مما يؤكد أن القصة القرآنية وهى تشير إلى موسى وقومه، تشير أيضاً إلى ما يحدث لمحمد مع قومه الضالين.. الحالة واحدة.. وإن طال الزمان وامتد.

قال تعالى :

(١) الذاريات ٣٨-٤٠.

﴿وَالـنَّجْمِ إِذَا هَوَى • مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى • وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى • إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(١).

بل إن أهل مكة قد نعتوه بالكذب تارة، وبالجنون تارة أخرى..

قال تعالى :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾(٢).

وقال تعالى :

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٣).

إن قصَّ الأنباء والأخبار فيه تثبيت للرسول وإدخال السكينة فى قلبه ومؤازرة للمؤمنين المستضعفين، وبيان للعظة والعبرة من سوء ما قال الذين كذبوا الرسول وعصوا ربهم.

ولقد تصدى القرآن الكريم لكل أنواع الجدل الذى ثار حول العقيدة والدعوة، فقارع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان وكشف دعاوى الكفار الضالة. والله غالب على أمره..

وفى هذا الموقف الجدلى برز عنصر الحوار فى القصة القرآنية ليتناسق مع السياق القرآنى وليتواءم مع الموقف الجديد، الموقف المشتجر حول العقيدة الجديدة التى يدعو إليها محمد، والذى فى دعوته، تحطيم لعقيدتهم وإدانة لعقولهم.

ذلك أن عناصر القصة لا نجدها مجتمعة فى القصة القرآنية.. فمن سمات (القصص القرآنى أن العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكانى وترتيب زمانى وعقدة.. لا نجدها مجتمعة فى القصة القرآنية، ولا

---

(١) النجم ١-٤.
(٢) الفرقان بعض آية ٤.
(٣) سبأ آية ٤٣.

موزعـــة توزيعاً يجعل لكل منها دوراً.. يختل بانعدامه توازن القصة، لأن المقاصد التى يوحى بها السياق هى التى توجه.. أسلوب العرض[1].

ومـــن ثـــم فـــالدعوة حين تتطور فإن عنصر الحوار يبرز فى موضوعات كالوحدانيـــة، ورســـالات الأنـــبياء والبعث كما يعكس الحوار الشخصية المحورية وتأثيرها على مجالات الأحداث.

إن إقامـــة الحجة، تستدعى الحوار والجدل، وهو أمر موضوعي بحت يلتقى بوحدة الموضوع ووسيلته إلى توضيح هدفه.

وأطـــراف الحوار المشتجر فى القصص يكون بين الرسل وأقوامهم أو بين المستكبرين والمستضعفين، ويحكم الحوار تكرار كلمة قال، أو قالوا.

والرســـل يوجهون سير الحوار ويحددون أهدافه وغاياته ووسائله الوسيطة ومـــن ثـــم فـــإن اهتمام القصة يقل بشخصية الرسول فى حين يتركز الاهتمام فى الحجج والأدلة والبراهين الدامغة.

وهـــذا ا لجدل المشتجر فى القصص إنما يوحى بموقف تبادلى، يساعد على تعديـــل الـــتيار الجـــارف من المعارضين، ذلك أن الناس بدأوا يدخلون إلى الدين الإســـلامى، وبـــدأت الأشـــعة تزيل عن النفوس ركامها، ولكن الذين يخشون على أنفسهم تشتد معارضتهم، وتحتد خصومتهم، ويلجأون فيما يلجأون إلى الحوار فلعل فيه هاجساً يمنع تلك الأفئدة عن المضى وراء نور الحق.

ولنضـــرب لذلـــك مثلاً قصصياً كنموذج لهذا الحوار الذى يستدعيه الموقف وتتطلبه مرحلة الدعوة الجديدة.

قال تعالى :

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ.

---

(١) سيكولوجية القصة فى القرآن ص٩٣.

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ.
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ.
قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ.
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ.
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.
قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ.
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ.
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ.
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ.
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.
قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ.
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ.
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.
فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ.
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ.
قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ.
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ.
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ.
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.
فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ.
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.
قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ.
فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ.
فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ.
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ.﴾(١).

الآيات الكريمة من سورة الشعراء، وهي سورة مكية، وموضوعها هو موضوع السور المكية.. وهو العقيدة، التى تتضمن الإيمان بالله واحداً لا شريك له، والخوف منه والإيمان بالبعث، والتصديق بالوحى.

.. والسورة توضح منذ البداية موقف المعاندين المكذبين ونهايتهم، وفيها تسلية للرسول، وطمأنة للمسلمين.

والقصة هى الخبر الكبير الذى شغل جسم السورة.

ويغلب على القصص جو الإنذار والتكذيب والعذاب الذى يتبع التكذيب. والآيات الكريمة بذلك تكون قد وضحت الأمر لمشركى قريش والمكذبين برسول الله (ﷺ) ، وأوحت بالمصير الذى ينتظر المكذبين.

والآيات التى أمامنا إنما هى حلقة من حلقات قصة موسى (عليه السلام) (وهى حلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد، ثم يرفع عن المشهد الذى يليه، وهى ظاهرة فنية ملحوظة فى طريقة العرض القرآنية للقصة)(٢).

(١) سورة الشعراء آيات ١٦-٤٨.
(٢) فى ظلال القرآن ص٢٥٨٨ جزء ١٩ مجلد (٥).

وهذه المشاهد قد عرضت فى سور سابقة ولاحقة لهذه السورة.. ولكنها حين تعـرض تلائـم الجانب الذى يناسب ذلك المشهد أو ذاك.. مع التركيز على جزئية معينة دون الأخرى.. حتى يتم التناسق فى السياق وفى الموضوع.

... فمواجهـة موسى لفرعون والسحرة، وغرق فرعون.. وردت فى سور البقرة، والأعـراف ويونس والإسراء، وطه وغيرها، حيث توزعت قصة موسى وتنوعت مشاهدها..

ولكـن هـذه الحـلقة من القصة وفى سورة الشعراء. تختلف من حيث أنها تركيـز واضـح على مشهد الجدل بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيـه إلى رسـله. وهـو موضـوع الجدل الذى يدور بين محمد (ﷺ)، وبين المشـركين.. وسجلته السورة فى أولها وآخرها.. فجاء الجدل متلائماً ومتناسقاً مع الموضوع، ومع الغرض من القصة.

والحـوار مـن مكونات القصة ومن دعائمها الأصلية، ولا تخلو قصة منه، سواء جاء واضحاً فى جمله الحوارية، أو متضمناً فى السياق، أو محكياً عنه أثناء السرد، فهو مظهر بارز للعملية القصصية.

واسـتعمال الحـوار فى مـثل هذه المواقف، كمواقف الدعوة، نقلٌ "للسرد والوصـف القصصـى إلى فاعلية جديدة فى الأداء والتأثير، وهى فاعلية المواجهة والجـدل والنقاش، مما يترتب عليه، إبراز الجانب الفكرى موضوع الحوار، فضلاً عن إثارة المشاعر والانفعالات المصاحبة لموقف النقاش.

ولا شـك أن الأداء التعبيرى فى الحوار يختلف من موقف إلى آخر حسب ما يقتضيه السياق، والموقف، وموضوع الحوار.

وما دار بين موسى (عليه السلام) وفرعون قصة حوارية من الدرجة التى يصل فيها إعجاز الحوار مداه.. فالحوار هنا هو سيد الموقف القصصى.

بدأ الحوار أثناء تلقى أمر الدعوة وتحمل عبء الرسالة.

وتضافر الحوار مع المبدأ الاعتقادى فى موقف المجادلة مع فرعون.

وانـتقل إلى جـانب انفعالى بحت وهو يعكس موقف فرعون والسحرة، ثم تنـتهى القصة الحوارية المكتملة البناء.. بالحوار الذى يدل على الاعتراف بالعقيدة – والإيمان بالوحدانية.. وذلك من قبل السحرة..

لقـد قـام الحـوار بذلـك كله، فوضح لنا معالم الشخصية، وأبرز مجالات الاعـتقاد وجسّد مواقف الكبر والمعاندة.. وانطلق بالحديث من هوادته الأولى إلى حدتـه وتأزمـه.. ثـم قـام بعملية الكشف القلبي حين يبين تغيّر المواقف وتبدل الحالات.. والأشخاص من الكفر إلى الإيمان..

وهذه القصة بدأت من الحوار وانتهت به.. فهى قصة دائرية.. مكتملة البناء الفنى تماماً..

تـبدأ القصة بحوار يوضح اختيار موسى رسولاً إلى بنى إسرائيل، وتخوف موسـى مـن عبء هذه الرسالة التى تحتاج إلى فصاحة فى الإعلام عنها ومن ثم يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون..

ثـم يتـلقى موسى أمر ربه بالدعوة، والذهاب إلى فرعون، حاملاً وهارون رسالة التوحيد إلى فرعون، وطالبا منه خروج بنى اسرائيل معه.

ويتضح الأمر.. فموسى لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته. وإنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا ربَّهم كما يريدون.. وأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد(١).

لقـد بين الحوار الذى افتتحت به القصة، مشهد التكليف.. وهو مشهد يتضح فيـه الضـعف البشـرى، وحاجـة الإنسـان – ولو كان رسولاً – إلى المؤازرة والمسـاندة، وهـو إيجاد إرشادى إلى مؤازرة الله لرسوله محمد (ﷺ) ومساندة له، من حيث إن الرسل جميعاً يغترفون من نبع واحد. وهو التوحيد.

وثمـة فجوة بين المشهد الأول والمشهد الذى يليه. حيث انتقلت القصة إلى سـاحة الجـدل والفعل مرة واحدة، دون تمهيد.. فنحن لا نعرف ماذا فعل موسى

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص ٢٥٩٠.

وهـارون قبل أن يذهبا إلى فرعون.. لأن القصة القرآنية قصة اختيارية إن صح التعـبير.. قصـة انتقائية.. تنتقى المشاهد وتتضافر فيما بينها، وتبقى الفجوة لتثير الذهـن، وتـلعب بخيال القارئ أو المستمع. إنها ليست قصة تقليدية.. تهتم بالمدى الطولى السببى..

ثم ينقل لنا الحوار، دهشة فرعون. مما يدعو إليه موسى.. ويصحب الدهشة نـوع من المنّ، يستدعى ذكر فضائل فرعون على موسى.. من جهة نظره كحاكم طاغ.. أى إبراز عنصر الزمن الماضى على ساحة الفعل الحاضر.

والحـوار أوضـح الدهشـة، ولا تأتى الدهشة القوية بتأثيرها إلا على قلب إنسـان اطمأن إلى ما يفعله.. ورأى صوابه.. فحين يأتى واحد من الناس.. ليزلزل الطمأنيـنة المسـتقرة – ويكون ذلك الواحد ربيباً تربى فى حجره.. تصبح الدهشة مفتتحاً عاقلاً لحالة الانفعال الغاضب التى اجتاحت فرعون.. وكأنما يتحدث قائلاً – أين موسى الذى ربيته والذى يخرج هذا النداء!!

ولـذل يذكّـر فـرعون .. موسـى قائلاً له .. لقد ربيتك وليداً ونشأتك فى قصـرى. تحوطـك الرعاية والعناية، ثم هربت حين قتلت المصرى، وأنت جاحد بـنعمى عـليك.. أيكون جزاء التربية، أن تخالف ديانتنا وتخرج على الملك الذى ربّاك ورعاك؟

.. وتـلك الجزئية من الحوار وإن كانت تثير الدهشة والتعجب عند فرعون، فـهى تكشف من خلال الدلالة اللفظية مراد فرعون.. كمحاولة لاستقطاب موسى، وامتصـاص دعوته.. تخيلاً أن تكون حالة نفسية طارئة .. ولجأ لتحقيق ذلك إلى أمـور مـنها – الـتذكير بنعم فرعون على موسى.. والتذكير مصاغ فى أسلوب إنشـائى أداتـه الاسـتفهام المنفى، الذى يحمل شحنات نفسية تدل على التعجب.. والاستنكار.. وهو ما يمكن أن يوضح معنى التودد الكامن فى هذا الحوار المبدئى.

ولعل ذلك التودد الكامن فى نبرة الأداء.. أن يضعف من موقف موسى.. ثم ينـتقل السـياق الحوارى من جانب فرعون إلى رفع التعجب درجة أعلى.. فيوقفه على فعلته.. وهى مقتل المصرى.. وذكر الأمر بكلمة فعلة.. لما تحملها من دلالة

البشاعة.. وهو يقصد ذلك قصداً .. فكيف تقتل بالأمس وتأتى اليوم داعياً إلى رب العالمين.. أو لم يكن رب العالمين موجوداً بالأمس؟..

إن دلالة هذا الجزء من الحوار لتكشف عن دراية واضحة بالنفوس.. يتميز بهـــا فـــرعون.. حاول أن يستثمرها لإضعاف موقف موسى، أو إبعاده عن معتقده الجديـــد.. ويـــدرك موسى ما وراء كلمات فرعون.. فيرد عليه قائلاً فى ثبات.. لا اهتزاز فيه ولا ضعف، ولا تأثير بما ذكر من ماضيه..

لقـــد فعلت تلك الفعلة حقيقة.. ولكننى فعلتها وأنا جاهل بها.. أخذنى "اندفاع العصـــبية لقـــومى لا اندفـــاع العقيـــدة الـــتى عرفتها اليوم بما أعطانى ربى من الحكمـــة.."[1]. وفررت منكم لأننى أعلم طغيانك.. ثم وهبني الله الحكمة.. ويواجه موســـى فرعون فى ثبات وقوة ويبادله الحجة بالحجة.. بل يدحض حجته الكبرى.. حجـــة الـــتربية والكفالـــة.. فيعلن موسى أن تربيته تلك لم تكن إلا نتيجة استعباد فـــرعون لبـــنى اسرائيل.. ولقد جاءت لفظ (عبَّدْت) بتلك الصيغة لبيان مدى القهر والظلم الذى مُورس على بنى اسرائيل حتى يظلوا طوع فرعون ورهن استعباده.. الـــلفظ يشى بدلالات القسوة والتوحش واللا إنسانية.. كما يوحى بحركتين، حركة فاعلة قوية وظالمة جاءت من قبل فرعون وحركة ضعيفة مستخذية جاءت من بني اسرائيل.

ولذلـــك جـــاء رد موسى غاضباً يحمل فى طياته حزن السنين الطوال وهو يرى قومه عبيداً لفرعون.. رداً خرج ناقماً من مخزون الألم.. عبَّدت.. كم هو ثمن غالٍ ذلك الذى دفعه بنو اسرائيل جراء تلك النعمة.. نعمة التربية والكفالة فى قصر فرعون. ويرفع موسى صوته يواجه فرعون ليصحح المفهوم المغلوط..

إنَّ ما تعده نعمة ليس إلا نقمة باهظة الظلم والعدوان..

يقول ابن كثير (وهذه النعمة التى ذكرت .."التربية والإحسان إليه".. من أنك أحســـنت إلىّ وأنـــا رجـــل واحد من بنى إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدتهم فى أعمالك وأشغالك[2].

(١) فى ظلال القرآن. نفسه ص٢٥٩١.
(٢) قصص الأنبياء – ابن كثير جـــ٢ ص٣٢.

وينـــتقل الحـــوار إلى مجـــال آخر.. وهو مجال جدلى بحت ، حيث تصبح الـــبراهين هى وسائله، وطرائقه إلى الإقناع، أو التعجيز. ذلك أن موضوع الجدل هـــنا يـــدور حول الوحدانية.. وهو موضوع يصيب فرعون فى الصميم من حيث كونه يدَّعى الألوهية ويفرضها على شعبه.

ويـــبدأ الحـــوار الجدلى بتساؤل من فرعون يحمل دلالة السخرية والتجاهل، ولعـــل أداة الاستفهام (ما) التى يستفهم بها عن الأشياء، تعطى هذا المعنى، وتعكس التصور الخاطئ الذى يحمله فرعون عن الله.. فهو يعتبره شيئاً، ويتساءل أى شئ يكون هذا الرب الذى تدعى أنه رب العالمين.

ويواجـــه موســـى، فـــرعون فى ثبات قائلاً إنه ربُ الكون كله، من سمائه وأرضه وما بينهما، (وهو المتصرف فيهما بالإحياء والإعدام)[1]..

وذلـــك الـــرد البرهانى يحمل سخرية دامغة لفرعون.. ولابد أن فرعون قد أدرك تلك السخرية، وهو الأريب الفطن، إن موسى يسخر منه كما سخر هو منه.. ولكـــن سخرية موسى تترقرق عبر المعنى.. الذى يتأكد بالمقارنة، ووضع السياق القرآنى . فحين وصف موسى الله جلّ وعلا بهذه الصفات المشتملة على الربوبية، حمـــل ذلـــك الوصف.. "استصغار ما يدعيه فرعون من بطلانه وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل.. والتفكير فيمن يكون ربه"[2].

ومـــن ثم جاء انفعاله شرطياً، تبعاً لإدراكه ذلك الاستصغار الذى أشار إليه موســـى عليه السلام. ولأن فرعون لم يقو على ضبط انفعاله، فلقد برزت سخريته حـــادة مباشرة، لتدل على الغضب العصبى الذى سيطر عليه.. ذلك الغضب الذى يدل على العجز أمام مواجهة البراهين العقلية البحتة.

ويلـــتفت فـــرعون إلى من حوله من قومه على سبيل الاستهزاء ويقول، ألا تسمعون ما يقوله، إنه لقول عجيب، أسأله عن حقيقة الله، فيجيب موسى بصفة من

---

(١) صفوة التفاسير المجلد الثانى ص٣٧٧.

(٢) فى ظلال القرآن المجلد الخامس الجزء التاسع عشر ص٢٥٩٢.

صـــفاته. ويهجـــم عليه موسى (عليه السلام).. بصفة أخرى من صفات رب العالمين.. وهى صفة تمس فرعون، ووضعه بين قومه..

يقول موسى: إن الله هو خالقكم وخالق آبائكم من قبلكم، فوجودكم دليل على وجـــود القادر الحكيم. وما فرعون إلا واحد من عبيد الرحمن.. "فالوراثة التى تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة"(١).

وينفعل فرعون.. ويرمى موسى بالجنون.. إذ كيف يصبر فرعون على تلك الإهانات من موسى، وأمام قومه الذين يعتبرهم عبيده.

وانظـــر إلى دلالـــة لفظـــة "الجـــنون" المستخدمة فى هذا السياق الحوارى الانفعـــالى.. فلم يستخدم فرعون لفظة أخرى – وهو القادر على ذلك – لأنه يرى أن وصف موسى بتلك الصفة، وسيلة نفسية – وإن كانت عصبية – ليذهب أثر ما يقوله موسى، لأن ما يقوله طعنة لفرعون.

ولم يحفل موسى بانفعال فرعون أو باستهزائه، وعاد إلى تأكيد حجته، وهو وحدانية الله وربوبيته عن طريق دليل برهانى آخر.. وهو أن الله يطلع الشمس من المشـــرق ويجعـــلها تغرب من المغرب، وهذا مشهد يومى معروض على الأنظار والأقـــوام، ولا يســـتطيع أحـــد أن يدعى قدرته على تصريفهما.. وفى هذه الحجة بـــرهان يوقـــظ العقول الغافية.. وهو أمر يخافه الطاغية كفرعون، لأن الطاغى لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب..

"ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القـــلوب، فيـــنهى الحـــوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح الذى يعتمد عليه الطغاة"(٢).

ويعلو صوت فرعون لئن اتخذت إلها غيرى فسألقينك فى غياهب السجون. ولكن موسى (عليه السلام) يخرجه من ثورته فى تلطف..

---

(١) نفسه ص٢٥٩٢.

(٢) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص ٢٥٩٣.

وهـنا نـأتى إلى جـانب آخر من جوانب الحوار يستخدم وسيلة أخرى من وسائل الإنسان الإدراكية..

فالحوار مرَّ فى ثلاث مراحل :

حـوار ذاتى استخدم فيه المتحاورون المشاعر، والانفعالات، التى صاحبت الحديث عن الماضى، والتذكير بالنِّعم، أو بالتعبيد.

حـوار عقـلانى بحت، كانت الحجج والبراهين هى الوسائط الداعية إليه.. وهو حوار جاء هادئاً عاقلاً داعياً من جانب موسى (عليه السلام)، وعصبياً غاضباً من جانب فرعون..

والحوار المادى، الحسى، وهو جانب ثالث من جوانب الحوار الطويل الذى دار بين موسى وفرعون..

فـإذا كان مناط النوع الأول القلب، ومناط الثانى، العقل، فإن مناط الثالث، هو العين، الأداة الإدراكية المبصرة.. إنها تدعيم للعقل وترسيخ له.

يقـول موسى، أو لو جئتك بشىء مبين؟.. أفأنت منزل عقابك بى وتهديدك لى بالسـجن؟! ويحار فرعون أمام القوم، ويؤخذ بهذا التحدى السافر.. فلقد وضعه موسـى فى مـأزق وانتهى الأمر أن يتراجع، حتى لا يبدو خائفاً، ويلجأ إلى نفس الوسيلة التى سبق وأن لجأ إليها، وهى التشكيك فى موسى وقواه العقلية – ومن ثم يوافـق عـلى مضض بعد إيحائه للقوم بأن موسى.. ليس هو بصاحب العقل الذى يعتد بحديثه.. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

ويرسم السرد القصصى الذى تخلل الحوار حكاية عن الفعل الذى تم.. يرسم صورة باهرة للموقف الثقيل الذى تتابعه العيون من كل جانب، وترتبط به القلوب، ويـتوقف عليه وجود فرعون نفسه، وخروج بنى إسرائيل ، وإبراز الحقيقة الإلهية الواضحة.

ويــلقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان عظيم واضح كل الوضوح، ثم أخرج يــده فــبدت بيضـــاء كفلقة البدر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، لها شعاع يكاد يغشى الأبصار.

"وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد.. ومع هذا كله لــم ينتفع فرعون بشيء من ذلك.. بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله ســحر وأراد معارضـــته بالســحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم فى رعيته وتحت قهره ودولته..."(١).

ولما جاء السحرة طلبوا لهم أجراً ومكانة ، ولبى فرعون طلبهم.

وتصـــف الآيات الكريمة المشهد العظيم الذى واجه فيه موسى السحرة الذين جاءوا من كل صوب..

ويــبدأ المشــهد هادئـــاً واشياً باطمئنان موسى إلى الحق الذى معه، فترك الســحرة يبدأون عملهم وأعطاهم الدور الأول.. فيلقون حبالهم وعصيهم .. ويلقى موســى عصـــاه فإذا هى ثعبان عظيم يبتلع حبالهم وعصيهم.. ولقد أدرك السحرة حقيقــة الموقــف، فمـــا يفعلونه خداع ووهم وتصوير للشيء بغير حقيقته من باب الإيهام ولكن ما يرونه من موسى حقيقة باهرة ومؤكدة.

وهـــا هـــو الدليـــل الحسى.. يعطى آثاره السريعة، فيسجد السحرة لله رب العـــالمين، وهم المأجورون الذين استؤجروا ليناصبوا موسى العداء، ولكن البرهان الســـاطع والمعجزة الباهرة كانت فوق كل المهارة، والرغبة فى المكان، وتخويف فرعون لهم.. ولقد كان ذلك انقلاباً مفاجئاً له دوي كبير ..

ولا شـــك أن هـــذا الانقـــلاب يتهدد فرعون، ويتهدد ألوهيته، وسيتحقق هذا التهديد أمام الجماهير الحاشدة التى جمعها لتشهد الصراع بين موسى، والسحرة.

يقـــول ابـــن كثير: وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس فى صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة..

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص٣٥ جـ٢.

ثــم يأتى حوار جانبى بين فرعون والسحرة. وهو حوار يدور بين حركتين انفعاليــتين، الحــركة الانفعالية الأولى، جاءت كردّ فعل لما حدث.. وكان صاحبها فرعون. فعَلاً، وغضب، وهدد، وأوعد، والحركة الثانية جاءت كرد فعل لما حدث أيضاً.. ولكنها حركة قلبية مطمئنة واثقة، وكان أصحابها هم السحرة.

ولقــد وجه فرعون لهم تهديده في صيغة استنكار وتهديد... ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُــمْ﴾ .. إن ذلــك ليس إيماناً، وإنما هو استسلام.. ولذلك عبر فرعون بقولــــه (آمنتم له) للدلالة على الاستسلام كما يتصوره هو. ولم يقل "آمنتم به" لأن ذلــك يعــنى الإيمان بحقيقة ما يدعو إليه موسى وهو ما يريد أن ينفيه بكل الحيل والوسائل..

ويصمد المؤمنون من السحرة لتهديد فرعون، ويعلنون فى رضى وطمأنينة بألا ضرر علينا فى وقوع ما هددتنا به ، فلا نبالى به فمآلنا إلى الله ورجاؤنا كبير أن يغفر الله لنا ذنوبنا، لأننا كنا المبادرين بالإيمان وبتصديق موسى.

وإن هــذا المشهد الجانبى بين فرعون والسحرة المؤمنين، ليملأ القلب غنى، وذخــراً، حيــن تنســكب الطمأنيــنة عليه، فيبدو نعيم الدنيا إزاء ذلك النعيم حقيراً وتافهاً.

ولا شك أن للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق.. "فهو يربى به النفوس فى مكــة وهى تواجه الأذى والكرب والضيق، ويربى به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.."(١).

مما سبق نرى أن المقاصد الدينية والأهداف التى تكمن وراء القصة القرآنية هى التى توجه السياق التعبيرى نحو عنصر فنى معين من عناصر القصة لابرازه وتوضــيحه.. ذلــك لأنه العنصر الملائم للموقف ولمرحلة الدعوة وطريقة عرض العقيدة. وقد يتكرر هذا العنصر الفنى فى موقف آخر، ولكن فى سياق مختلف مما يستدعى أن يكون العرض مائلاً إلى الإيجاز أو إلى الإطناب أو إلى النهاية مباشرة لملاءمتها للهدف الدينى الذى سيق العنصر الفنى تبعاً له..

(١) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص ٢٥٩٧.

وعرفنا مما عرضناله، أنه فى مجال الانذار والعظة والوعيد، برز عنصر الأحداث مثلاً.. وفى مجال إقامة الحجة والجدل العقلى برز عنصر الحوار.

ويبقى هنا فى هذا الجانب من الموضوع أن نلم إلمامة سريعة، بعنصر الشخصية.

فالشخصية تبرز على ساحة العمل الفنى، فاعلة قوية مؤثرة، كلما استدعى الأمر، تثبيت الرسول وإيناسه، وضرب المثل له (ﷺ)، بموقف الرسل وهم يواجهون أقوامهم فى ثبات ..

فإذا كان عنصر الأحداث موجهاً إلى المعاندين من كفار قريش..

وإذا كان عنصر الحوار، وسيلة لعرض العقيدة فى مجال التحدى والمكابرة، فإن عنصر الشخصية، موجه بالفعل إلى الرسول مباشرة، ومن ثم جماعة المسلمين.

وبروز الشخصية فى القصة يعنى أن القصة قد وصلت إلى مرحلة من مراحل الحسم.. فبعد الإنذار والحوار، لم يعد إلا الفعل، ومن ثم جاءت الشخصيات وهى تعمل، وتواجه، وتقوم بالفعل. مما يجعلنا نطمئن إلى القول بأن هذا النوع من القصص الدينى إنما جاء تعبيراً صادقاً عن وقائع المرحلة الأخيرة من الدعوة، وهى المواجهة.

ومن ثم فإن هذه المرحلة تتجسد فى القصة القرآنية حيث تكون الشخصية هى المحور الرئيسى، ويرفدها العنصران السابقان، الأحداث، والحوار.. وقد يتلازم الحوار مع الفعل، كما رأينا فى موقف موسى وفرعون.. ويكشف عن الأفكار والمبادئ المتصارعة، والناتجة عن المواجهة، وكذا مردودها الانفعالى..

وتبقى الشخصية فى ساحة العمل الأدبى متفردة، ومصارعة، ومتحركة.. وقد لا يكون لها الوجود الأوحد، بل قد يشاركها فى الفعل شخصيات ثانوية.. لإبراز التناقض، أو التوافق فى الفعل.. ذلك أن مدار الفعل فى هذه المرحلة يدور حول الصراع الأبدى بين الحق والباطل.. والناس يتوزعون بين هذين الجانبين منذ أن خلق الله البشر.

وتوضح مثل هذه المواقف القصصية : "أن القادة الرسل هم مصدر العقيدة ومنبع الإيمان.. وأنهم يتحملون عبء هذه العقيدة وعبء توصيلها إلى الناس.. إنهم أصحاب دعوة وليسوا أصحاب عقيدة فحسب. ولهؤلاء القادة الرسل نفوذ لا يقوم على مغريات مادية.. بل هم قوم عمر الإيمان قلوبهم، يندفعون نحو غاياتهم"[1].. فى إصرار مكين ويتلذذون بما يصيبهم من آلام.. لأنهم يسعدون بنتيجة الصبر فى النهاية.

ولأن الهدف من إيراد هذه المواقف القصصية هو تثبيت الرسول فى جهاده ضد كفار قريش، كانت الشخصيات تتحرك وهى فى طور النضج الكامل. إنهم رجال ناضجون يؤدون الرسالة.. في ثبات، ونضج كاملين – ولذلك جاء ذكر طفولة بعض الرسل كموسى لخدمة الاصطفاء الإلهى له.. ولتوضيح قيمة النضج الرجولى والسواء النفسى فيما بعد.. حين يحتدم الصراع.. وتكاد الشخصيات فى النهاية وهى تنطلق من منطلق العقيدة الواحدة، وتدعو إلى ذات العقيدة الواحدة، وهى الوحدانية لله.. تكاد تكون رموزاً واحدة.. فالتعبير واحد، والموقف واحد، ومواجهة القوم واحدة، والدعوة إلى عبادة الله واحداً لا شريك له.. واحدة..

وعلى ذلك يصبح محمد (ﷺ) واحداً من هؤلاء القادة الرسل.. وما جرى عليهم يجرى عليه..

ومن هنا تشى مثل هذه المواقف القصصية، بالهدف وهو تثبيت الرسول (ﷺ)، ومساندته فى جهاده ، وتبشيره بالغلبة على الكفار مثله فى ذلك مثل الرسل السابقين..

فالأنبياء لهم مكانتهم الخاصة بين البشر "وهم يمثلون وحدة الرسالة الإلهية"[2].

ولنأخذ نموذجاً لموقف قصصى برزت فيه الشخصية بروزاً واضحاً يشى بالفعل، وقوة المواجهة، وتحمل العناء.

---

(١) من هدى القرآن . أمين الخولى انظر ص٣٠-٤١.

(٢) معلمة الإسلام أنور الجندى ص٣٤.

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

فى هاتين الآيتين برزت شخصية نوح (عليه السلام) قوية صامدة، ثابتة صبورة تتحمل الأذى، والسخرية، والصدَّ. ولقد ظل نوح يدعو قومه زماناً طويلاً – دون أن ييأس – إلى توحيد الله – وإفراده بالوحدانية. ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرون على الكفر والضلال. ونجى الله نوحاً ومن ركب معه فى السفينة. وجعلها الله آية للناس وعظة وعبرة لمن يقف موقفهم ويعاند عنادهم.

وفى قصة نوح تتبدى ضخامة الجهد، وضآلة الحصيلة.

لقد وضحت القصة المغزى الحقيقى، وهو خلاصة الجهد الجبار المبذول من نوح، وذلك فى إيجاز شديد.. بالرغم من أن القصة قد وردت فى مواضع أخرى مفصلة، غاية التفصيل..

وتتتابع الآيات الكريمة لتسجل قصصاً أخرى..

قال تعالى :

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢).

﴿...فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

وهذا الموقف من القصة يوضح أن إبراهيم دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان، التى

(١) سورة العنكبوت آية ١٤–١٥.
(٢) سورة العنكبوت آية ١٦–١٧.
(٣) سورة العنكبوت آية ٢٤.

لا تـــنفع ولا تضــر، وإنمـــا هى أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم. ويبتغون منها الـــرزق وفى الحقيقــة ما هى إلا حجارة صماء؛ وابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعـــالى فإنـــه القادر على ذلك. فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازى كل إنسان بعمله.

وكـــان ردّ قومه على هذه الدعوة أن طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه فى الـــنار ولكـــن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً. وفى نجاة إبراهيم من النار، وتحول النار إلى برد وسلام.. دليل على قدرة الله، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده.

... وفى هـــذا الجـــزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذى بذله إبراهيم لدعـــوة قومه إلى الحق والإيمان والوحدانية.. وكان الجزاء، الإحراق.. بالرغم من البراهين الكثيرة التى ساقها لهم.

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها.. ولقد بذل إبـــراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاندة ، والصـــد والسخرية، وكانت نتيجة تلك الدعوة فى قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذى قام به إبراهيم عليه السلام.. ومع ذلك لم ييأس..

وانـــتهت دعوة إبراهيم لقومه، والمعجزة التى لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمـــان فـــرد واحـــد غير امرأته.. هو لوط)[1]. إن هذين الموقفين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وما لا قوه من شدائد وأهوال فى سبيل تبليغ رسالة الله.

(وفى قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء، تتمثل فى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة..)[2].

والآيـــات الـــتى وردت سابقاً من سورة العنكبوت، وهى سورة مكية تتناول آياتهـــا الأولى موضوع الجهاد ، وبيان أن الإيمان ليس كلمة تقال وإنما هو الصبر على المكاره والتكاليف..

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢.

(٢) صفوة التفاسير جـــ٢ ص٤٥٠.

ويمضـــى بعـــد ذلك السياق ليستعرض قصص نوح وإبراهيم وغيرهم من الأنـــبياء استعراضًـــا يصـــور ألوانـــاً مـــن العقبات والفتن فى طريق الدعوة إلى الإيمـــان(١). ويكشف السياق الهدف من ذلك كله وهو بيان التوحيد الذى يوحد بين الدعـــوات جميعـــاً وبيـــن دعوة محمد (ﷺ)، فكلها من عند الله وكلها دعوة واحدة إلى الله.

ونموذج الشخصية البارزة فى هذه المواقف نموذج فذُّ، فهى شخصية عملية فاعـــلة، عادلة، تقتحم الصعوبات ولا تبالى. صامدة على الحق ولو كان مصيرها المـــوت أو الإحـــراق.. ولقـــد غلب على هذا الجو السرد القصصى والإيجاز فى العـــبارة وقلة الحوار، لأن الهدف هو إبراز الفعل وتوضيح النهاية، والوصول إلى الهدف مباشرة، وهو مدى ما لقيه الأنبياء فى سبيل دعوة الأقوام إلى الإيمان بالله.. وفى ذلك كله تثبيت لرسول الله وإيناس له ومؤازرة لموقفه.

(١) فى ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧١٨.



الفصل الرابع

٤- السَّرْدُ القَصصى



القصة فى القرآن الكريم لها طبيعتها الخاصة وبناؤها المتميز، والذى يفرقها عن غيرها من القصص البشرية: انطلاقها من أن القرآن الكريم هو فى المقام الأول كتاب دعوة دينية، أخرج الناس من الظلمات إلى النور، فهو كتاب عقيدة وشريعة، ودستور كامل متكامل للحياة البشرية فى مختلف جوانبها الروحية والمادية.

ومن ثم فإن القصة فى القرآن وسيلة من الوسائل التى استخدمها القرآن لإبراز الغرض الدينى العام من تشريع ، وتوحيد ، وعقيدة، وصياغة الإنسان صياغة دينية سامية تسعى إلى بنائه بناءً متكاملاً، يتناسق والمعتقد الدينى ويتنامى مع المجتمع فى تعدد علاقاته وتشابكها.

ولقد حملت القصة القرآنية خصائصها الفنية المتميزة التى بها يتحقق هذا الغرض الدينى الكبير، وهى خصائص تتسم بجمال فنى أخاذ يؤثر فى النفس، ويتغلغل فى الوجدان..

فالقصص أحفل بالأسوة، وأعمل في النفس، وأبعث على الطمأنينة والرجاء. إنـــه أخـــف عـــلى السمع، وأرعى للانتباه، لا يأمر ولا ينهى، ولكن يقص الأنباء ويصـــف الأحـــداث، ويقرن العمل بعاقبته والجزاء عليها، فى بيان رائع وتصوير صـــادق، يجيش بالحياة والحركة، فتسرى الحكمة منه والموعظة إيحاءً وانفعالاً، لا طاعة لأمر ، ولا تأثراً بوعظ ، فينزل من أعماق النفس فى قرار مكين، حتى كأنه من نبع الوجدان وإشعاع الذات[1].

ولقـــد وصـــلت القصة القرآنية إلى هذا التأثير الوجدانى الفعال بطرائق فنية وجماليـــة خاصـــة بها.. وذلك عبر طريقة فذة فى العرض والسرد، ذلك العرض القصصـــى القـــائم على قانون الانتخاب فى اختيار الجزء من القصة الذى يتلاءم والسياق القرآنى فى الموضع الذى وردت فيه والغرض الدينى العام.

"فمعظـــم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كثيرة تكون فى مجموعها جسم القصة.. حتى إذا استوفت القصة حـــلقاتها عادت الإشارات هى كل ما يعرض منها"[2]. وأدى ذلك إلى تنوع طرائق التـــناول الفنى.. وهو تنوع ينسجم مع طبيعة القصة القرآنية.. وأهم ما يلفت النظر أن القـــرآن وهـــو يسرد القصة يقوم بعملية فنية تعتمد على الانتخابات من الوقائع والأحـــداث.. فـــي إجمـــالى لا يحتاج إلى تفصيل وهو مبدأ عرفته القصة البشرية حديـــثاً حيث عمد المؤلف إلى تنحية كثير من التفاصيل الواقعية التى تضر بالحدث وترهل جسم القصة.

ولا شـــك أن الحدث المسرود هو روح القصة يمنحها الحياة ويضفى عليها الحيوية، والحدث فى قصص القرآن بارز ومسيطر.. يقوم بدوره من حيث التأثير وتوصيل الغرض الدينى، وإبقاء جذوة التشويق آخذة بالألباب.

والقرآن الكريم يمسك بالأحداث ويحرك الأشخاص وينقل ما يقولونه مسبوقاً بقال.. فهو المهيمن على فنّ النص.. وهو من الفن القصصى المسرود الذى عرفته

---

(١) مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة. على النجدى ناصف . دار المعارف ص٢٣.
(٢) التصوير الفنى سيد قطب ص١٥٦.

البشرية فيما بعد.. ولقد سبق القرآن الكريم محاولات البشر فى الهيمنة على النص القصصى. يقول فورستر عن تحكم الروائى وعلوه وانتخاب أحداث نصه القصصى بما يحدث التأثير المطلوب من النص (يسير الروائى راسخ القدم فهو شخص ماهر، يجلس أعلى من عمله، يلقى شعاعاً من الضوء هنا أو يتحرك مرتدياً طاقية الإخفاء هناك، وهو يتفاوض مع نفسه كمبدع للشخصية عن أحسن تأثير يمكن أن يحدثه)(١) ولا شك أن سمو السارد وارتفاعه يمكنه من القبض على الحدث والشخصية ويساعده على التعرف على كنه الشخصية ومردوداتها على سرد الأحداث وتناميه..

ومن ثم يتلاءم أسلوب العرض القرآنى مع انتقاء الحدث المسرود فينحى تماما كل ما لا يمت للحدث بصلة، وما لا يتلاءم مع الهدف الدينى، ويخلص إلى التركيز حول محور الشخصية وجوهر الدعوة وردود الأفعال.

والقصة القرآنية قد التزمت "طريقة الرواية التى تؤذنك دائماً بأنك تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها فى التاريخ.. وأنها فى هذا الغرض إنما هى فى بعث جديد"(٢).

ولا شك أن ذلك يساهم فى تصفية الأحداث التاريخية مما علق بها من تحريف وتشويه ذلك أن هذه الأخبار "تجىء من جهة عالية عالمة، وسع علمها ما تحوى الأزمنة والأمكنة" وهو فى ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الغيبى فى القصة القرآنية..(٣).

ومما يلاحظ على القصة القرآنية وهى تسرد الحدث ذلك التنقل السريع فى تسلسل الأحداث والاعتماد على تتابع الأحداث تتابعاً سريعاً لخلق جوٍّ ملىء بالحركة وكأنما نحن أمام مسرح حافل بالنشاط فى مشاهد حيوية متتابعة"(٤).

---

(١) أركان القصة : فورستر ص١١٩.
(٢) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه. عبدالكريم الخطيب ١٩٦٤م ص٨٣.
(٣) نفسه ٨٤.
(٤) القصص فى الحديث النبوى الشريف ص ٢٤٥.

ولنأخذ نموذجاً لهذا التتابع فى سرد الأحداث الذى مال حيناً إلى التفصيل وحينا إلى الإيجاز.. ويدور النموذج حول قصة نوح.. وقد وردت فى سورة هود..

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ • أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ • فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ • قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ • وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ • وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ • وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ • قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(١).

وقصة نوح وردت مفصلة ومتعددة الأحداث فى هذه السورة – وجاء جانب الدعــوة أكثر تفصيلاً لما تحتاجه الدعوة من وقت ولما يكتنفها من صد واعراض ومن ثم كان الجدل أهم عنصر فني يتسيد الموقف..

والقــصَ القرآنى وهو يسرد موقف الدعوة والجدل فيها بدأ بالعبارة القرآنية الــتى تجعل المشهد حيًّا، وتجعل الواقعة التاريخية القديمة فى بعث حى جديد كأنها واقعــة حاضرة.. ومن ثم جاء الإيجاز الناتج عن حذف الفعل. قال: التى تتضمنها العبارة القرآنية ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. وهذا الإيجاز يلقى سريعاً بوظيفة الرسالة. وينــتقل الجــدل القولى الناتج عن فعل الدعوة – والذى هو حدث هزّ الثوابت من عقــائد القــوم – إلى تقرير شبهة وقرت فى نفوس الجاهلين من البشر وهى شبهة وُوجه بها الرسل جميعاً.. وتضمنت العبارة القرآنية ﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ هذا المعنى..

(١) هود : ٢٥-٣٢.

ويتوزع الجدل القولى – وهو يعكس الجدل الحدثى – إلى اتجاهين. الاتجاه الإيمانى الذى يمثله نبى الله نوح ومن معه، ولقد اقتضى هذا الاتجاه لإبرازه استخدام الأدلة العقلية لاستثارة مدركات الذهن الغائبة المطموسة لإدراك حقيقة الألوهية والوحدانية والتأكيد على أن نوحاً ما هو إلا رسول يبلغ الرسالة.. والاتجاه الثانى يتمثل فى نفور الكفرة وصدهم عن سبيل الله وتعاليهم حيث أخذتهم العزة بالاثم وقد يئسوا من مقارعة الحجة، فيأخذون بالحدث إلى منحى جديد، منحى التحدى.

ولقد كان طبيعياً أن يأتى الحوار على لسان الشخصيات عبر لفظة، قال، قالوا، ذلك أن القرآن يقوم بدور القص على ألسنة المتحاورين فينقل ما يقال وما تعبر به الشخصيات من كلام مسبوقاً بـ قال، أو قالوا .. وغيرهما.. قلت، قالت وهكذا.. وهو مرتبط فنياً بطبيعة السرد القرآنى انطلاقاً من الهيمنة على الحدث والنصّ.. وعكس التكوين الدلالى للاتجاهين نموذج الداعية فى سماحة القول، والتذرع بالصبر وقدّم درساً (فى مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد، دون استرضاء لتصوراتهم ودون ممالأة لهم، مع المودة التى تنحنى معها الرءوس)[1].

على حين عكس الاتجاه الثانى انطماس القلب وجمود العقل والاغترار بالجاه والسلطان.. وهذا المعنى الذى تجلّى فى الاتجاهين وفى الموقف القولى (الجلى) المسرود بين نوح وقومه، إنما هو للربط بينه وبين دعوة محمد (ﷺ) وموقف كفار قريش منه.. وهذا الالتفات يعمق سياق المعنى العام ويؤكد على وحدة الرسالة منذ آدم ومروراً بنوح وإبراهيم إلى محمد.. كما يؤكد على نفس الوسيلة التى يلجأ إليها الرسول فى بيان الدعوة، وما يواجهه من قومه من عنت ونفور..

لقد جاءت هذه الإشارة القرآنية فى ختام الحدث المسرود فى الآية ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.. جاءت لتربط الحدث التاريخى المسرود عن موقف الجدل بين نوح وقومه لتبعثه حياً ليقف

(١) الظلال جـ٤ ١٨٧٥.

موازيـــاً – فى إشارة قرآنية سريعة – مع ما يحدث بين محمد وقومه .. لقد التقى الماضى بالحاضر.. التقاء امتزاج، وتوحد..

﴿وَأُوحِـــيَ إِلَـــى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَـــانُوا يَفْعَلُونَ • وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ • وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ • فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾(١).

هـــذا موقف حدثي جديد بعد ما انتهى حدث الجدل والإنذار.. والآيات تنتقل مـــن حدث إلى حدث فى سرعة خاطفة وفى ترابط داخلى للحدث. فالأمر الموجه إلى نـــوح بصـــنع الفلك، حدث يقتضى التهيؤ له ليتحقق هو الآخر حدثاً مرتبطاً به وهو الاعتزال، اعتزاله عن القوم وترك الجدل... هذا الانغماس فى صنع السفينة، والعمل فيها ليل نهار، استوجب حدثاً آخر يرتبط به، وهو حدث أدخل إلى الجانب النفســـى، حـــدث فيـــه السخرية والقوم يرونه وقد انقلب نجاراً يصنع مركباً (إنهم يســـخرون لأنهـــم لا يـــرون إلا ظاهـــر الأمـــر، ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمـــر)(٢).. ولأن السخرية جاءت من الخارج تهكماً موجعاً، ولأنهم فى الحقيقة لا يعـــلمون الحكمة من وراء صنع السفينة، فقد جاء ردّ نوح عليهم رداً داخلياً.. ردًّا يحمـــل حديث النفس إلى النفس، (ويكاد هذا الرد يكون نوعاً من تيار الوعى فهى إجابة قد يقولها نوح بصوت مسموع أو يقولها لنفسه)(٣).

وتيـــار الـــوعى هـــذا لـــون من الأداء القصصى عرف مؤخراً فى النتاج الروائي.. تصبح فيه الأحداث مروية بحسب أهمية ورودها على ذهن الشخصية.. ممـــا يفقد العمل أحياناً تماسكه، ويؤدى إلى اختلاط أحداثه وأزمانه، ومن ثم فإننى أميـــل إلى أن نطـــلق عبارة حديث النفس على ما دار فى نفس نوح وهو يرد على

(١) هود آيات ٣٦-٣٩.
(٢) الظلال ص ٤ ١٨٧٧.
(٣) السرد القصصى. ثروت أباظة ص١٢.

سخرية القوم. ذلك لأنها تصل بالحدث إلى نهايته الطبيعية فى وضوح،فثمة ساخر من نوح وهو يعمل كنجار، ساخر جاهل بالحقيقة، وثمة نبى يصنع السفينة، ويرد على الساخرين فى حديث نفس يحمل الوعيد والتهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ .. ولأن العبارة وعيد فاحتمال ورودها النفسى قائم وكذلك احتمال التلفظ بها قولاً مجهوراً قائم أيضاً..

وحتى يتحول الحديث المسرود إلى موقف حى، جاء الفعل المضارع "يصنع" ليعطى للموقف فى سرده حضوراً قوياً أخاذاً، ثم الفعل "تسخر، تسخرون"، يجذب بأطراف الحدث فى حضور قوى مشتجر.

قال تعالى :

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ • وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ • وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ • قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ • وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

هذا مشهد حى زاخر بألوان الانفعالات والمشاعر، وممتلئ بالوصف والتجسيم، الأحداث المسرودة فيه معروضة عرضاً فنياً أخاذاً، يمسك بعضها برقاب بعض وينتج بعضها عن بعض نتاجاً سببياً عضوياً، يؤدى إلى التلاحم القوى.

فثمة حدث كونى يمحو سخرية القوم ويوقفهم على الحكمة من صنع السفينة.. فثمة فوران.. وهطول المياه من السماء وتفجر الأرض.. وهنا يتضح لنا الغرض من صنع السفينة.. إنها وسيلة انقاذ المؤمنين.. ولا شك أن الحرف الغائى (حتى) يفيد هذا المعنى فى إبراز الغرض والغاية من الصنع.

---

(١) هود آيات ٤٠-٤٤.

ويـــتداخل مع الحدث الكونى حدث بشرى سريع فيه الخوف وفيه الطمأنينة، حـــدث أمـــر به نوح ففعله فأضحى حدثاً مشهوداً، وهو يجمع فى السفينة من كل زوجين اثنين، وأهله ليحقق النجاة من الهلاك للبشرية، وما فيها..

وتمخـــر الســـفينة بمن فيها وما فيها وسط عباب الموج الهائل.. وهو حدث مادى مسرود عن طريق الوصف، فالموج متراكم ومتثاقل وعالٍ علو الجبال، يأخذ بمخاوف النفس وهذه المخاوف النفسية تنقلنا نقلة حديثة سريعة لتكمل سرد الموقف فى جانـــبه النفســـى، حيث تحكى المفاجأة التى حدثت بين نوح وابنه الضال، لتأتى نهاية العاصى عاصفة وسط الموج العاصف، إنه سقوط النفس الآثمة (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين).

ويـــأتى المشـــهد إلى نهايـــته فى نقـــلة سريعة فى النص طويلة فى الزمن والـــتاريخ.. ولكن السرعة تلاءمت مع تلاحق الأحداث المسرودة لتصنع لنا مشهداً دائـــرياً يحكـــم قبضته على الكون والإنسان.. بدءاً من جفاف الأرض التى تفجرت وانتهاءً بانحسار المياه لتجف الأرض ويستقر من بداخل السفينة على الأرض لتبدأ رحلة الحياة من جديد .

قال تعالى :

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَـــاكِمِينَ • قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَـــكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ • قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَـــا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ • قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

.. وهذا مشهد يتصل بالإنسان وعاطفته، إنه نوح وقد تلهف على ابنه الذى حـــال الموج بينه وبين النجاة، ولكن أمر الله مقضى، فالولد عاصٍ واللهفة لا محل لها ولا مكان. فالقرابة ليست قرابة دم أو نسب وإنما قرابة العقيدة والدين. ومن ثم

(١) هود آيات ٤٥-٤٨.

فــإن أداة الــتوكيد "إنَّ" جــاءت متكررة لتحمل التأكيد على هذا المعنى.. والآيات مواســاة للنبى، وإسكان لنفسه الوالهة على ابنه.. وينتهى الحدث الكبير بالحياة من جديد حيث تتتابع الأمم وتعيش حياتها ما بين متعة وعذاب.

والتــنقل الســريع فى تسلســل الأحداث لا يمنع أن تكون هناك فجوات هى المســاحات الزمــنية المتصورة بين حدث وآخر.. وهى فجوات قد يلجأ الذهن إلى تصور مجريات حدوثها من امتداد الحدث لاتصاله بالآخر. وهى فجوات لا تعطى للــبعد الحــدثى نمواً ومن ثم غفل القصُّ القرآنى عن سردها واكتفى بسرد جوهر الحــدث وتواصــله مع الأحداث الأخرى فى نقلات سريعة مؤثرة. فالأحداث هنا مــتلاحقة تشابكت وتآزرت منذ بدأ نوح (عليه السلام) دعوته وأنذر قومه مروراً بصنع الســفينة والاعــتزال، والسخرية، والحدث الكونى، وغرق الولد، ونجاة المؤمنين، ومــن ثــم الاســتقرار لبدء الحركة الحياتية من جديد.. كل حدث يلاحق ويلاصق الآخر..

إن هــذا التــتابع فى ســرد الأحداث يعطى للقصة تماسكها ويضفى عليها وحدتهــا الموضوعية، ويبرز ملامح الصراع فيها، ويكشف عن نمط الشخصيات أيضاً. وهذا الترابط المتتابع يؤدى إلى وحدة فى الأثر لدى المتلقى بصورة مركزة، ولا شــك أن (تــدرج تطــور الأحداث يمثل مظهراً جيداً لترابط بنائية الحدث من الداخل)(١).

.. ولا شك أن السياق الذى وردت فيه هذه الآيات الكريمة سياق سردى فى جوهــر الســورة ككل، وهى السورة التى أخلصت لحركة الأنبياء فى دعوتهم إلى الــتوحيد.. حيــث عرضت مواقف الرسل وهم يقومون بالدعوة وما وُجهوا به من إعــراض وتكذيــب وســخرية واستهزاء وتحد وغرور، وصبر من الأنبياء وثقة بــربهم، وفى نصــر الله لهــم. ولقد سردت السورة قصة نوح، كما أوردنا ، كما سردت قصة هود حين دعاهم إلى التوحيد فتكبر القوم وعاندوا، وصبر النبى عليهم وحذرهــم عــذاب الله ولكنهم ظلوا سادرين فى غيهم حتى حلّ عليهم العقاب. قال

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص٢٤٦.

تعــالى: ﴿وَلَمَّــا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾(١).

وفى قصـــة صــــالح يســـرد القـــرآن دعوة النبى إلى قومه ثمود بعبادة الله ويذكـــرهم بـــنعمه عـــليهم ويصبر على عنادهم ويأتى لهم بالناقة آية كبرى لعلهم يهتدون ولكنهم عتوا فى الأرض فحق عليهم عذاب الله.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾(٢).

وفى قصـــة شـــعيب يدعو النبى قومه إلى الإيمان بالله واحداً لا شريك له، ونبذ الوثنية التى وقعوا فيها، ونصحهم بالوفاء بالكيل والميزان ومراعاة حقوق الله فى خـــلقه، مستخدماً الوسيلة العقلية التى تذكرهم بنعم الله عليهم والوسيلة الوجدانية التى تثير فيهم عواطف الرحمة أو الخوف ولكنهم كابروا فحاق بهم عذاب الله..

قال تعالى :

﴿وَلَمَّــا جَــاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٣).

وفى قصة لوط حيث دعا النبى إلى التوحيد وإلى التمسك بما شرعه الله من أحكـــام والتخـــلى عن الخلق السيئ الذى يرتكبونه من دون خلق الله جميعاً، حيث يـــأتون الذكران، ولقد صبر النبى على فساد خلقهم لعلهم يهتدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا فى ضيف لوط.. فكانت العاقبة التى حاقت بهم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(٤).

والســـور القرآنية بهذا المنطق القرآنى السردى عبر قصص أخبار الأنبياء مـــع أقوامهـــم إنما تستعرض حركة التوحيد فى تاريخ البشرية، لتقرر أنها جميعاً

---

(١) هود آية ٥٨.
(٢) هود آية ٦٦.
(٣) هود آية ٩٤.
(٤) هود آية ٨٢.

قامت على التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى، والترغيب فى الجنة والترهيب بالنار، وإنذارهم بالوعيد الذى يستحقه الظالمون المعاندون، ثم تتشابه النهايات حيث يأتى أمر الله فيحيق العذاب بالكافرين. وجاءت العبارة القرآنية ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، لتستقطب حركة العذاب والعقاب الالهى الذى نزل بالأقوام على حين نجى الله رسله ومن آمنوا معهم. وهذا السرد القرآنى لقصص الأنبياء فيه تسرية لرسول الله (ﷺ) وتوجيهه (ﷺ) إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذى أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحى والرسالة.. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

(وهكذا نجد القصص فى القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية فى مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة، شأنه شأن بقية السورة التى يجئ فيها، ونجده فى الوقت ذاته متناسقاً مع سياق السورة وجوهرها وموضوعها، متوافياً مع أهدافها، مصدقاً فى عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وأبحاث تقريرية)(٢).

.. والسرد فى قصة نوح التى وردت فى سورة هود يختلف عن السرد الوارد فى سورة نوح .. ففى سورة نوح يقف السرد عند وسيلة الإبلاغ وطريقة المنهج فى التبليغ وطرائقه الداعية إلى الإيمان والاعتقاد السليم..

ولقد ورد ذلك كمشهد جزئى فى سورة هود، مشهد من أحد المشاهد المتلاحقة التى وصلت إلى النهاية المحتومة وهو العذاب والطوفان.. ولكنه فى سورة نوح ..هد ممتد، ومفصل تفصيلاً دقيقاً..

ولقد بدأت السورة بأمر التكليف ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾.. وينتقل السياق السردى مباشرة إلى موقف التبليغ.. هذا الموقف الذى

(١) هود آية ٤٩.
(٢) الظلال مجلد (٤) ص ١٨٤٣.

خلصــت لــه الســورة كـلها .. فيدعوهم إلى عبادة الله وتقواه وطاعة نبيه، فإن اســتجابوا فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ويؤخر حسابهم إلى أجل مضروب فى علم الله وهو اليوم الآخر.

ثم ينتقل السرد بعد ذلك إلى توضيح ما فعله نوح من جهود مضنية تواصلت زمانــاً طويــلاً فى دعوة قومه إلى الإيمان.. وكان حصاد الدعوة أن استجاب نفر قليل للدعوة فآمنوا بما جاء به، على حين أعرض الكثير وأصروا على الإعراض.

قال تعالى :

﴿قَــالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا، وَإِنِّي كُــلَّمَا دَعَوْتُهُــمْ لِــتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾(١).

ويمضــى الســرد القولى فى تفصيله لموقف التبليغ ليوضح الأساليب التى اتــبعها نوح في دعوته، حيث يجهر بالدعوة ويُسرها أحياناً، أو يزاوج بين الإعلام والإســرار حيناً آخر وفى أثناء ذلك وعبر الدعوة يرغّبهم فى خير الدنيا والآخرة، ويطمعهــم فى الرزق الوفير.. الحاصل من سلامة القلوب والاستقامة على الحق.. وهو سبب تعليلى يربط الأسباب بالنتائج، حيث استثارة المدركات العقلية لاستقراء الأحوال، واستثارة الوجدانات البشرية وإحياء الرغبات الفطرية فى الكسب وزيادة الرزق..

واســتثارة الملكات العقلية ترد حين وجه نوح نظر قومه إلى الكون ليتأملوا مــا فيه من سماء وشمس وقمر. كل مخلوق بحكمة، وإرادة ويلتفت بمداركهم إلى الأرض التى يعيشون فوقها ليتدبروا كيف خلق الله الإنسان.. وما خلق الإنسان إلا كمــا يخــلق النبات من الأرض (والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعــبير عجيــب مــوح.. وهى ظاهرة توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض)(٢).

---

(١) نوح ٥-٧.
(٢) الظلال مجلد (٦) ص٣٧١٤.

قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا، والله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾(١).

ولقد سلك نوح مع قومه لتوضيح دعوته شتى الأساليب فى صبر بالغ ودأب متواصل، ولكن كانت ثمرة هذا العذاب الطويل العصيان والنفور، حيث سار القوم فى ضلالهم المعهود فيهم، فيتوجه إلى الله بالدعاء عليهم بالويل والثبور.

قال تعالى :

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلا خَسَارًا﴾(٢).

وقال تعالى :

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾(٣).

وفى هذه الآية إشارة لنوع الهلاك الذى حاق بقوم نوح وهو إغراقهم بالطوفان. ولكن النهاية هنا جاءت إشارة لأنه لم يكن الهدف من السرد هو تفصيل الحدث الطوفانى وإنما تفصيل الدعوة وإبراز وسائل التبليغ للقوم.. والإشارة هنا (اجهاز سريع) للقوم وإبراز للنهاية فى إشارة سريعة مقتضبة تتلاءم مع السياق التفصيلى للدعوة..

.. وهكذا يرتبط السرد بمنهج السورة ككل فيأتى متلائماً مع السياق والهدف الدينى الكامن وراءه.

وتأتى سورة يوسف نموذجاً كاملاً للسرد القصصى فى القرآن، والسورة وردت بعد سورة هود التى أوردت بعضاً من المواقف القصصية فى سير الأنبياء

---

(١) نوح ١٥-١٨.

(٢) نوح ٢١.

(٣) نوح ٢٥.

والسابقين، ولعل المغزى الدينى فى قصص الأنبياء فى سورة هود هو مواجهة الرسل أقوامهم فى الدعوة إلى التوحيد ثم ما حلّ بهم من عقاب وما أنعم به الله على رسله والمؤمنين وبيان أن وسيلة الأنبياء فى الدعوة واحدة.. وهذا فيه إنذار لمشركى مكة وتسلية للرسول وإيناس له، وضرب المثل بالصبر والتحمل والإشارة إلى أن كلمة الله هى العليا.

وتختلف سورة يوسف عن غيرها من السور التى ورد فيها مواقف قصصية، تختلف فى أنها تقص قصة نبى واحد أبْعد عن قومه بفعل الحقد والكراهية إلى أن مكّنه الله فى قوم غير قومه.

ولقد توافر فى قصة يوسف ما لم يتوافر فى غيرها من القصص من حيث اكتمالها فى معرض واحد ومن حيث وقائعها المتصلة "اتصالاً بدأ بمقدمة أحداثها، وانتهى بخاتمها ، بحيث يستطيع قارئها أو سامعها أن يعرف كل حدث وتطوره ، وكل شخصية ودورها، دون أن يقطع السياق أحداث قصة أو نبأ سواها، ودون أن يتخللها تعليق طويل على مجرياتها يستخلص العبرة منها"[1].. وهو نوع قصصى يختلف مثلاً عما ورد عن قصة موسى التى توزعت حلقاتها على سور قرآنية كثيرة.

ولا شك أن هذا الاكتمال والاتصال فى الوقائع أعطى للقصة حركة التطور المستمرة والاتساع الحدثى المسرود بما تضمّنه من مفاجآت، وما تخلله من مواقف لأشخاص عدة لها نمط خاص بها..

والمشاهد وهى تنتقل من صورة إلى صورة ومن حركة إلى حركة حتى تأتى عليها جميعاً إنما تدل على أن "خيط الأحداث تمسك به العناية الإلهية من البداية إلى النهاية فقد بدأت القصة برؤيا يوسف فى عالم الغيب وختمت بتحقيق رؤياه فى عالم الشهادة.."[2].

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة فتحى رضوان ص١٣٨.

(٢) سيكولوجية القصة فى القرآن ص٥١٠.

وثمـة اتساق يحكم البداية والنهاية.. ففى بداية القصة تصريح بأن ثمة قصة يسـردها القـرآن. قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (١).

ويـأتى التعقيب على القصة فى قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾(٢).

وتبدأ أحداث القصة برؤيا رآها يوسف وهى مفتتح القصة ومفتاحها.

قال تعالى :

﴿إِذْ قَـالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْـتُهُمْ لِي ساجدين • قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(٣).

إنها رؤيا الغلام التى رآها فى المنام، وهى رؤيا ليست كرؤيا البشر، ولكنها تحمـل الرمـز الكامل للقصة والذى ستفضى بمعانيه الأحداث المتداعية.. ومن ثم حمـل التمهيد بالرؤيا قدراً كبيراً من التشويق. وهى سمة لازمة فى القصة المبهرة الـتى تـبقى على وجدان القارئ وتمسك بمشاعره.. خاصة أن الرؤيا تلعب دوراً بـارزاً فى مجـريات الأحداث حيث تتتابع – كجزء مكمل للشخصية – لتصل بين الموقف وليتكشف عن طبيعة الشخصية المحورية، شخصية يوسف الذى اجتباه الله وعلمه من تأويل الأحاديث.. ما يوحى بالاصطفاء للنبى..

وإذ كـانت الرؤيا هنا تمهيداً فإنها في ثنايا القصة أحد عواملها الفاعلة.. قال تعالى فى موقف منام آخر وقع فى السجن.

﴿وَدَخَـلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّـي أَرَانـي أَحْمِـلُ فَـوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

(١) يوسف آية ٣.
(٢) يوسف آية ١٠٣.
(٣) يوسف ٤، ٥.
(٤) يوسف ٣٦.

ولقد كانت الرؤية هنا فرصة مواتية لبث العقيدة الصحيحة، القائمة على التوحيد الخالص، فالذى يستحق أن يكون ربًا هو الله الواحد القهار ، وكان التأويل أحد الأسباب لخلاص يوسف من محنته، ذلك أن المعرفة بحسن تأويله للأحلام استدعى أن يقوم بتأويل الرؤيا التى رآها حاكم البلاد.. ومنها كان انطلاق يوسف إلى التمكين فى الأرض وتوليه أمور المعيشة فيها فضلاً عن أمور الدعوة والتوحيد.

قال تعالى :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (١).

وجاء تأويل يوسف للرؤيا الملكية فى وضوح وحسم وكشف عن الرمز المغلق للقوم.. والذى يدور حول البقر السمان والعجاف، والسنبلات الخضر، واليابسات.

قال تعالى :

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ • ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(٢).

لقد انتقلت الرؤيا وتفسيرها بيوسف نقلة جديدة حيث مكن الله له فى الأرض وأعطاه ما يستحقه من تكريم..

ولقد وظفت الرؤيا توظيفاً فنياً بحيث جاءت حاملة التشويق لسرد الأحداث كلها ثم جاءت لتصل الأحداث ببعضها.. وفى كل وشت الرؤيا باصطفاء الله لنبيه.. ونعود إلى سرد الأحداث مرة أخرى لنقف على الخيط الفنى الموصل بين المواقف والأحداث.

---

(١) يوسف ٤٣.

(٢) يوسف ٤٧-٤٩.

فلقد سارت الأحداث سيراً طبيعياً وفق السنن التى أرادها الله سبحانه.. وهى متسقة تماماً مع الوظيفة الفنية للقصّ والحكى (ذلك أن الطريقة الطبيعية لرواية القصة – كما نفهم في الأدب الإنسانى – أن نستهل العمل من البداية ثم نمضى إلى النهاية وذلك لكى نضفى على أحداث القصة التسلسل التاريخى المباشر كما حدث)(1). وكانت سورة يوسف بما حكت عن النبى خير نموذج يجب أن يقتديه الكتّاب فى تناولهم للقصص التاريخى.

وبعد التمهيد الذى أحدثته الرؤيا ينطلق السرد القصصى ليكشف لنا عن مشاعر انسانية بغيضة، تتمثل فى الحقد والكراهية ، وهى مشاعر فطرية ، ولكنها تتلبس النفوس المريضة..

فإخوة يوسف كبتوا فى أنفسهم حقداً على يوسف لمحبة يعقوب له وأنسه به. وهم بطبيعة الحال يجهلون كنه هذا الحب، فقلب يعقوب النبى يرى فى ابنه يوسف ما لم يره إخوته.. ولكن سيطرة الحقد جعلتهم يلجأون إلى المكيدة والتخلص من يوسف حتى يخلو وجه أبيهم لهم .. ووقعوا فى سبيل ذلك فى أكاذيب متتالية كشفها السياق القرآنى على لسان يعقوب.. كما أنهم – وقد وقعوا تحت الضغط النفسى – قاموا بتبرير فعلهم الخبيث ونسبوا الفعل للذئب.. وهذه المشاعر النفسية المريضة والمختلطة قد عبر عنها القرآن تعبيراً دقيقاً..

قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ • إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ • قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾(2).

لقد كاد إخوة يوسف له، وجاءت هذه المكيدة لتبقى على مشاعر الشوق الذى أحدثه التمهيد، لتجعله قائماً وموصولاً.. وهذا الفعل الكائد يكشف عن طبيعة

---

(1) عالم القصة. برناردى فوتو ترجمة د. مصطفى هدارة ص٢٦٨.
(2)يوسف آية ٧-١٠.

الشخصـــية الفاعـــلة، الشخصية المريضة. فنحن هنا أمام إخوة يتنافسون على حب الأب، ويـــرون أن الأب غير عادل فى مشاعره تجاه أبنائه.. ولكن الحيرة والشك والـــتردد الذى كشفه الحوار فيما بين ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ وبين ﴿لا تَقْتُـــلُوا يُوسُـــفَ وَأَلْقُـــوهُ فِـــي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ .. هو حوار قصصى يبرز طبيعة الشخصـــية كشفاً رائعاً وهو حوار جاء عبر السرد ليكمل الموقف القصصى ويأخذ به إلى منحى فعلى آخر.

وموقـــف الإخـــوة ممتد وموصول، حيث اسقطوا مشاعرهم وفضحوها أمام يوسف وهم لا يعرفونه. إذ أنهم ظنوه عزيز مصر.. وتبريرهم لوجود الصواع فى رحـــل أخيهم سحب من ذاكرتهم ما فعلوه بيوسف، وما كانوا يضمرون له من حقد وما حاولوا من إلصاق التهم الظالمة به وهم لا يدرون كنه الموقف أو حقيقته.

قال تعالى:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾(١).

ولقد تأثر يوسف بقول إخوته ومن ثم جاء الوصف ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾، ليدرأ عن نفسه التهمة، ويقرر ما تنطوى عليه نفوس إخوته من شر وفساد.

... ونعود إلى السرد بعد تنفيذ المكيدة فى نقلة جديدة ..

قال تعالى :

﴿وَجَـــاءَتْ سَـــيَّارَةٌ فَأَرْسَـــلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ • وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾(٢).

كـــان يوسف فى الجب، والجب مكان، ولكنه ليس كأى مكان، إنه جب ماء يقـــع عـــلى طريق القوافل السيارة من القوم.. فالمكان هنا مختار من بين الأماكن

---

(١) يوسف آية ٧٧.

(٢) يوسف ١٩-٢٠.

كـلها وكأنمـا كـان اتفاق إخوة يوسف على جريمتهم منفذاً لفتح عهد جديد. وقام المكـان بـتحقيق ذلك، ويركز الموقف هنا تركيزاً دقيقاً على حركتين حركة إدلاء الدلـو.. وحركة الصرخة المتعجبة.. وسكتت الآيات عن وصف يوسف فى الجب، وعن وصف مشاعره وهو ينجو من ظلماته، كما سكتت تماماً عن القوم السيارة.

وهـذا الانتقاء والسكوت من الأسس الفنية فى العرض القصصى لأنه يعتبر إهمـالاً لكـل مـا يخرج عن محور الحدث "فكل هؤلاء الأشخاص الذين التقطوا يوسـف وبـاعوه نكـرات مسرحية ولذلك لم تهتم القصة بذكر شأنهم .. لقد كان دورهم أن يصلوا بيوسف إلى مصر وقد فعلوا .. إنهم أداة الحدث"[1].

ولقد جاء التعبير بقوله : "وكانوا فيه من الزاهدين" ليكشف عن طبيعة الناس الذيـن عثروا على يوسف.. فهو لا يهمهم فى شىء.. ومن ثم باعوه بخساً.. وهذه الصـفة قـامت بدور الجب – المكان، فالزهد – الصفة ، باعث قوى على مداولة الفعل، وتواصل الحدث.

ويمـتد الحدث ويتواصل والقرآن يسرد القصة، لكنه ينتقل فجأة نقلة زمانية طويـلة، على حين سكت القرآن عن فترة الصبا واليفاعة فى عمر يوسف، وكيف كـانت نشـأته وتربيـته.. ويقـف بنا الحدث الجلل عند منحى خطير وهو حدث المراودة –

.. فـلقد اشـتراه العزيـز وشـب فى بيته ، ولقد كان فعل الشراء مرتبطاً بالمـراودة.. ذلـك أن الفـتى تربى على يد المرأة، ورأت فيه يوماً بعد يوم جمال الحسـن وجمـال الخلق. بهرها الجمال، وسيطر عليها الهوى وضعفت ولم تحكم مشـاعرها.. ومن ثم كان الحدث القصصى من نهاية العشق، العشق الذى ترسب فى الـنفس على مدى زمن النمو. إن نهاية العشق هو الإسفار فى المراودة وطلب الفعل..

(١) السرد القصص فى القرآن ثروت أباظة ص٢٣.

ولا شــك أن عرض القرآن لفعل المراودة جاء نظيفاً غاية النظافة، متلائماً مــع مــنهج القرآن فى عرض العواطف البشرية. ذلك المنهج الذى لا يهمل خلجة بشرية واحدة وفى الوقت ذاته لا يخرج بها إلى ما يخدش الفطرة السوية.

(لقــد ألمــت القصـــة بــألوان من الضعف البشرى بما فيها لحظة الضعف الجنســى ودون أن تــزيد فى تصــوير الــنفس البشرية بواقعيتها الكاملة فى هذه المواقف)[1].

ومــع صــدق التعــبير عن هذا النموذج البشرى الخاص وعن هذه اللحظة الخاصـــة. (فــإن الأداء القرآنى لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة حتى وهو يصور لحظة التعرى النفسى والجسدى الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها)[2].

ولــنأخذ حــركة الفعــل فى الحدث والمصحوب بالمفاجأة وكيد المرأة فى تصرفها..

قال تعالى :

﴿وَاسْــتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَــزَاءُ مَــنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْســي وَشَــهِدَ شَــاهِدٌ مِــنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَــاذِبِينَ • وَإِنْ كَــانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ • فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[3].

هــذا هــو نهايــة موقف الإغراء الطويل.. وقد صور السياق القرآنى هذا الموقــف بكل ملابساته وانفعالاته دون أن يجعله معرضاً للإثارة أو التلذذ الشبقى. وصــياغة الموقــف السردى تكشف عن تتابعات فى الحركة ، فالاستباق يقتضى حركة لإيقافه. والحركة أحدثت تمزيقاً لثوب يوسف من الخلف. وكان هذا التمزيق

---

(١) الظلال مجلد ٤ ص١٩٥٢.

(٢) نفسه ص ١٩٥٤.

(٣) يوسف ٢٥-٢٨.

بمثابة التمهيد لجو الحدث وشهادة الشاهد.. لإنقاذ يوسف من المفاجأة التى تترصده بجــوار الباب. فالمفاجأة أحدثت رد فعلها فى تغيير الموقف وتبديله وإظهار طبيعة الأنــثى فى ادّعاء العفاف وإسقاط مشاعرها على الآخرين . ومن ثم ألقت "التهمة جميعــاً عــلى يوســف فى ســرعة خاطفة"[1]. دون أن يرد فى السياق ما يوحى بتفكيرها، إنما هى طبيعة الأنثى فى مواقفها المأزومة.

ويتصـــل بهذا الموقف ويمتد ما أشاعه نسوة المدينة حول امرأة العزيز فى مــراودتها لفــتاها.. فالحركة النفسية فى الأنثى واحدة والموقف موصول ليكشف طــبيعة المرأة الأنثى لحظة اجتياح الهوى لمشاعرها ووجدانها، وحين تجْمع امرأة العزيز النسوة فى موقف الطعام والسمر، يكشف الموقف عن سر ظل طوال القصة خافيــاً، حتى فى اللحظة التى يستلزم وجوده فيها – لحظة المراودة، هذا السر هو الكشــف عــن جمال يوسف.. تلك النهاية التى تبرر فعلة المرأة فى البداية.. ولكن كشــف الجمــال جــاء عبر حركة مأخوذة ومرصودة بفعل النسوة المندهشات من جمال مصَفى.

قال تعالى :

﴿فَـلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

ولقــد قدمــت الآيــة الكريمة هذه الحقيقة فى حركة تصويرية أخاذة، تشى بــالدليل القاطع على الجمال المصفى الذى استلم به يوسف.. فها هى السكاكين فى ذهول النسوة من الجمال تمشى بإرادة مذهولة لتقطع الأكف بدلاً من قطع الفاكهة.

.. ومــن ثــم وردت العبارة القرآنية ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لتكشف عن طــبع الفطــرة المؤمــنة فى حالــة الركون إلى الفطرة نفسها.. والتعبير تنزيه لله وإفضاء تصويرى مندهش لروعة خلق الله.

(١) السرد القصصى فى القرآن ص ٢٧

ويرتبط بهذا المحور الحدثى فى قصة يوسف مشهد آخر يكمل هذا الموقف الطويل.. وهو المشهد الذى يوضح رغبة الملك فى رؤية يوسف هذا العليم بتأويل الأحــاديث، ويتضــمن المشهد كله براءة يوسف مما ادعته عليه زوجة العزيز من تهم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْــوَةِ اللاتِــي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ • قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُــفَ عَــنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْــحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ • ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ • وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

فيوســف فى هــذا المشهد المكمل لحركة المراودة – السبب فى سجنه – لا يــتعجل الخــروج.. فهو ليس بشراً عادياً يتلهف على هذه اللحظة، ولكنه يريد أن تتضــح قصــته التى من أجلها دخل السجن، كيف يسجن ، ثم يؤول الأحاديث بهذا الصفاء القلبى وتظل التهمة عالقة!!

إنـــه لا يــريد لمتناقض واحد أن يشوه صورته الحقة. فلقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، ولقد سكبت هذه التربية فى القلب سكينة وأمناً.. ومن ثم يجىء الرد اطمئناناً كاملاً، فليبحث الملك أولاً عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن وليعرف منهن حقيقة ما حدث!!

وفى هــذا الموقــف تــتقدم امرأة العزيز.. فلا مفر من قول الحق، فى هذا المشـــهد وعــلى المــلأ، وأمام الملك، تعلن بأنها هى التى راودته، واعترفت فى أســلوب يشى بانفعال، وبصدق ، وبإيجاز، وبإيحاء قوى مؤكد بصدق يوسف ﴿أَنَا رَاوَدْتُــهُ عَــنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.. وانظر إلى تكرار الضمائر الذى يؤكد المعــنى ويشمل صاحبه ويلصق به، وانظر إلى تكرار المؤكدات التى فى العبارة، لتزيل تماماً من النفس أية شبهة تلحق بيوسف..

(١) يوسف ٥٠-٥٣.

وانظـــر الإضـــافة التعـــبيرية التى تكشف عن تغيرات أصابت المرأة حيث تـــوحى بإيمـــان كـــامن فى القلب ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.. إنها الآن تحـــرص على أن تمحى من نظره صورة الأنثى الجامحة بالعاطفة، وتريد أن يبقى عـــلى احترام لها "وليعلم يوسف أنى لم أخنه فى حال الغيبة وجئت بالصحيح فيما سئلت عنه"(١) فالمرأة أحبت وأكبرت الرجل المؤمن الذى أحبته فهى لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه وإنها لتأمل العفو ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(وهكذا يتجلى العنصر الإنسانى فى القصة التى لم تسق لمجرد الفن وإنما سـيقت للعبرة والعظة، وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة. ويرسم التعبير الفنى فيهـــا خفقـــان المشـــاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً شفيفاً، فى واقعة كاملة تتناســـق فيهـــا جميع الواقعيات فى مثل هذه النفوس فى ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة)(٢).

... إن شخصية يوسف قد استقامت منذ النشأة ومروراً بالأحداث التى مرت بـــه والمحـــن التى ووجه بها، ولكنه مصطفى ، ومصنوع على عين الله، ومن ثم كانت التربية الربانية التى رعته حتى مكنت له فى الأرض بعد أن خرج من سجنه وثبـــتت بـــراءته، وأيقـــن الجميع أنه نبى صادق الوعد عالم بتأويل الحديث وأنه الصـــالح القادر على أن يقوم بتدبير أمور الحياة المعيشية والقابض بعون الله على مقاليدها.

وهـــنا يتجه الحدث المسرود اتجاهاً آخر، يركز فيه على النعم التى أنعم الله بهـــا على يوسف بعد المحن الطوال التى صبر فيها وتجلد ولم ينس ربَّه فيها لحظة من الزمان..

---

(١) الكشـــاف جـــ٢ ٢٦٢ ويرى المؤلف أن الكلام ليوسف عليه السلام "ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى حرمته ص (٢٦)

(٢) الظلال مجلد (٤) ص١٩٩٦.

.. ولعـــل محـــنة السجن ظلماً كانت من المحن الشداد.. ومن ثم كان اتجاه الحدث المسرود نحو التمكين فرصة ربانية هيأها الله ليوسف.. تعويضاً عن محنة السجن والمحن الأخرى.

ويصور الحدث فعل الملك حين علم حقيقة الأمر.

قال تعالى :

﴿وَقَـــالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِـــي الأَرْضِ يَتَـــبَوَّأُ مِـــنْهَا حَيْـــثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

لم يدع يوسف الفرصة تمر دون أن يحقق الهدف المرجو له. فهو الذى آتاه الله الحكمـــة والعلم. وهو الحصيف الفاهم للأمور كيف تجرى حسب السنن المراد لهـــا.. ومن ثم أسرع بالقول (اجعلنى على خزائن الأرض).. ولم يكن هناك وقت مناسب لإجابة هذا المطلب أفضل من هذا الوقت الذى تبدو الحاجة فيه إلى يوسف أكبر وأشد.

.. والسرد لا يهتم برد الملك حول هذا المطلب لأنه ردّ لا كيان له فى سير الأحداث وتطورها وإنما يكتفى السياق بإبراز النتيجة وهو التمكين.. والتكريم.

وينـــتقل الســـرد إلى حدث آخر فيه فجاءة الفعل غير المتوقع، ولكنه حدث يمضـــى عـــلى سنن الله التى يريدها.. حديث يعود بنا من جديد إلى تجديد العلاقة واستعادتها بين يوسف وإخوته، ولكن فى إطار واقعى متغاير.

إن اخـــوة يوســـف يـــأتون مـــن أجل الكيل والتبضع وهم يجهلون يوسف ويـــنكرونه ولكـــنه يعـــرفهم ، وألقى يوسف المفاجأة، فلقد اشترط لحصولهم على المئونة أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم..

---

(١) يوسف ٥٤-٥٦.

قال تعالى :

﴿وَلَمَّـا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ • فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ (١).

ولا شـك أن المفارقة فى موقف يوسف وإخوته يدعو إلى التشويق ذلك أنه يعـرف إخوتـه ويعرف طباعهم، وظلال ملامحهم لم تنمح من ذاكرته أما هم فقد أنكروه وجهلوه تماماً.. ومن ثم كان ردّ الفعل لمطلب يوسف أمراً مطاعاً لم يشكوا فيــه، الأمر الذى يجعلهم يختالون على أبيهم مرة أخرى بعد قطع العهود والمواثيق على أن يسمح بسفر الأخ الصغير معهم.

ولكـن كيف ألقى يوسف إليهم بهذا المطلب؟ وكيف ألقاه دون أن يثير فيهم الريـبة والشـك، هذا ما سكت عنه القرآن انطلاقاً من منهج القصة القرآنية الذى يميـل إلى الإيجاز وتنحية التفاصيل التى لا تثرى الحدث أو تنمو به.. فلا شك أن هنا فجوة، كغيرها من الفجوات التى يمكن للخيال أن يتصور حدوثها طبقاً لانسياق الحدث وتداعيه.. ولا شك أن هذا المطلب جاء بعد أن آنس الأخوة من أخيهم الود الذى يعنى إخباره عن الأحوال والأمور التى تخصهم ككل – فجاء المطلب – وهو يدرى – بعد أن أخبروه بما يدرى! ويعود الإخوة إلى أبيهم يعقوب ليجادلوا معه..

ونقف على الحدث عبر حوار يكشف عن نمط الشخصية.

قال تعالى :

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾(٢).

إن الشخصية هنا تمور بالحياة (تلك هى الشخصية المكتملة التى لا تجد فيها اضـطراباً فـنياً.. أو تناقضاً فى السلوك. إن الإخوة الطامعين الذين تخلصوا من

(١) يوسف ٥٩–٦٠.
(٢) يوسف ٦٥.

يوسف حتى يخلو لهم وجه أبيهم هم أنفسهم الذين يحاولون أن يصحبوا أخاهم الثانى ليزداد لهم الكيل. فهم غير راضين عما أصابوا)[1].

وتمضى الأحداث لتحقق فى سردها مفاجأة كبيرة دارت حول تحقيقها الأحداث السابقة التى دارت بين الإخوة ويوسف، والإخوة وأبيهم. فالإخوة يعودون طمعاً فى المال وزيادة الميرة، ويحتجز يوسف أخاه، ويلجأ إلى طريقة مشروعة حيث يجعل السقاية فى رحل أخيه.. ولا شك أن تلك الواقعة كان لها وقع المفاجأة.

قال تعالى :

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[2].

إنها مفاجأة قصصية، غيرت مسار الحدث تماماً، ومهدت به إلى منحى جديد ليحفظ الحدث خليطاً جديداً يقترب من نهاية القصة ككل.

ولكن القصة لها وقعها الآخر على نفسية يعقوب.. لقد أصابه الحزن واشتد به الألم والبكاء حتى فقد بصره..

قال تعالى :

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ • يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[4].

(١) السرد القصصى ص٣٥.
(٢) يوسف ٧٠.
(٣) يوسف ٨٤.
(٤) يوسف ٨٦-٨٧.

ويدعو يعقوب أبناءه أن يلتمسوا يوسف وأخاه وألا ييأسوا من روح الله .. وكلمة روح أدق دلالة وأكثر شفافية ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى)[1].

.. وعند هذا الحدث تصل القصة إلى القمة وتكتمل المأساة .. ولكنه فى الحقيقة وصول فيه قدر كبير من التوازن بين حركات الأحداث وتتابعها.. ذلك أن هذه النقطة هى انطلاق إلى إيجاد الحل وفك الحدث الأكبر، إنها ستصبح لحظة التنوير التى تضيء الحدث وتكشف غوامضه، وستره المحجوب.

ويسرع الحدث إلى حدة المواجهة والتعرف، وفك الغموض.

فيدخل إخوة يوسف مصر مرة أخرى طلباً للقوت بعد مجاعة طالت، وفى ضميرهم أن يستفسروا عما طلبه الأب منهم. وهم قد بدوا فى ذلة لرداءة بضاعتهم..

وفى ثنايا التعبير تتجلى معانى الاسترحام من الإخوة فضلاً عن الضيق الذى يبدو على ملامحهم ويظهر فى حالاتهم وكذلك الانكسار الذى يتبدى فى نبرة الذلة التى تشع من الألفاظ.

لقد كان الوصف الدقيق الموحى والمشع عن حال الإخوة هو مفتاح كشف الغموض الذى طال بالنسبة لهم، وهو المدخل إلى ترقيق قلب يوسف. على إخوته.

ويبدأ يوسف فى الترفق بإخوته ويأخذهم بعيداً إلى الزمان الماضى – ليذكرهم بما فعلوه بيوسف، وفجأة يدركون للوهلة الأولى.. أن وراء هذا الاستدعاء التاريخى هدفاً مقصوداً، بل لقد عرفوا المقصود وصاحوا عجباً فى نبرة واحدة – لكأنك أنت يوسف. ويتناسى الإخوة فى هذه اللحظة الانفعالية ما حدث ودار.. فلقد غفر يوسف لإخوته..

(١) الظلال مجلد ٤ ص٢٠٢٦.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ، قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(1).

ويطلب يوسف أن يذهب الإخوة بقميصه إلى أبيه فيرتد بصيراً، "وتلك مفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة"(2).. إنها خارقة من نبى كريم إلى نبى كريم.. إن توالى المفاجآت يتواصل حتى تأتى القصة إلى نهايتها.. وإن توالى هذه الأحداث بالسرد المعجز إنما يؤكد على معنى هام وهو "إن هذه القوة الخفية فى كيان الوجود إنما تحركها إرادة حكيمة مبدعة حسب نواميس خاصة وكل خطوة مقدرة بحساب"(3).

وما أروع أن تتتابع الأحداث بهذا القدر السردى المنسجم مع تفاوت فى درجة البسط والإيجاز، والتنقل بين حالة وأخرى، والقفز فوق فجوات لا تضفى جديداً لجوهر الحدث ونموه، وبناء الشخصية وتحولها – فى إطار زمنى متواصل ومتكامل. وهى فى كل حالة إنما تصف الحىّ من الأحداث. حتى إننا نستطيع أن نقول عن قصة يوسف إنها حكاية الحدث المتتابع والمتنامى فى جزئياته وكلّياته.

إن "رواية الحدث تهتم بوصف الأحداث الحية، ويمكن أن يكون للحادثة الصغيرة نتائج كبيرة حتى تتفرع وتتشابك ليأتى الحل بما فيه من عناصر المفاجأة أو الإثارة، والحدث هو العنصر الرئيسى الذى يدفع الشخصيات إلى أعمال تساعد على تعقيد خيوطه وقدرتها تبدو فى الاستجابة لمعطياته"(4).

.. ولقد وقعت المفاجأة، إنها حدث صغير بالقياس للأحداث الكبرى فى القصة ولكنه حدث أفرز نتائج هامة حيث أسرع بالنهاية وفك الرمز الكبير فى القصة.. رمز الرؤيا التى وردت فى بداية السورة القرآنية الكريمة..

---

(1) يوسف ٨٨-٩٠.
(2) الظلال مجلد ٤ ص٢٠٢٧
(3) سيكولوجية القصة ص ٣٥٤.
(4) بناء الرواية د. عبدالفتاح عثمان ص١٢٣.

وبعد أن عاد البصر إلى يعقوب الأب آن للجميع أن يمضوا إلى يوسف فى مصر..

قال تعالى :

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ • وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١).

إننا أمام مشهد حافل بالانفعال والخفقات والدموع، مشهد تحقق بعد يأس طال وألم نفسى امتد، وبعد امتحان تنوّع وشوق أضنى القلوب.

ولكنه موقف النهاية الذى يرتبط بمطلع القصة، إن القصة هنا تستدير فتعود نهايتها إلى أولها، وتفسر النهاية البداية، بحيث يصبح البدء والمنتهى وحدة مضفورة بحدث تام ممتد..

لقد كانت البداية فى ضمير الغيب. وأصبحت النهاية واقعاً حقاً..

فلقد سجد الأب والأم والإخوة الأحد عشر ليوسف، وانفك الغموض وكانت النهاية وخاتمة القصة..

والملاحظ أن قصة يوسف كما قلنا جاءت دفعة واحدة على غير القاعدة القصصية فى القرآن وذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء "فهى رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم ومرحلة بعد مرحلة فلا تتم العبرة بها – كما لا يتم التنسيق الفنى فيها – إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها. وإفراد حلقة واحدة منها فى موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله(٢).

(١) يوسف ٩٩-١٠٠.
(٢) الظلال مجلد (٤) ص ٢٠٣٧.

ومما يتميز به السرد القصصى فى قصة يوسف أنه سرد أفقى يبدأ من أول الحدث إلى نهايته مروراً بأحداث متتابعة تشغل جسم القصة بين البداية والنهاية..

ولا شـك أن كـل حـدث جزئى له وظيفته فى جسم الحدث الأكبر، بل هو يعتبر وحـدة وظيفيـة تقوم بدورها فى نمو خيوط الأحداث وتعقدها وانفراجها. "فالوحدة الوظيفية هى الوحدة القياسية التى نرد إليها أفعال البطل فى مراحل رحلته الزمانية . وتنظيم الوحدات الوظيفية فى أفعال متتالية وكلما تقدمنا فى العمل تكبر الوحدات المعبرة عن هذه الوظيفة"(١).

والقـرآن وهو يسرد قصصه إنما ينوع أحداثه ما بين واقعية أو خارقة غير مألوفة وما بين قضاء وقدر أو معجزات تتجلى.. وهى فى كل الحالات التى تسرد فيهـا تسير وفق ترتيب خاص بحيث يكون كل حدث فى مكانه وفى وقته المناسب وينمو حسب ميزان دقيق يحدد حركة انطلاق الحدث سرعة وبطئاً.

ويحسـن فى هـذا المقـام أن نذكر ما قاله أحد الباحثين حول هذه السورة القـرآنية الكـريمة. وحـول صاحب قصتها ومحورها.. إذ يرى الباحث أن قصة يوسـف "من حيث البناء القصصى أجود قصة فى القرآن ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص.."(٢)..

ووصف القصة بأنها "أجود" تعبير يتنافى مع كمال القرآن، فالقرآن ليس فيه قصـة جيـدة وأخـرى غير جيدة، فكله كلام الله موحى به إلى نبيه محمد (ﷺ). والقصـة تمـثل مساحة واضحة فى القرآن الكريم، وهى تقوم بدورها فى ترسيخ العقيدة، وإعطاء العظة والعبرة بضرب المثل وبذكر الأقوام السابقين ومواقفهم من الرسـل وما حاق بهم، كإشارة موجهة إلى مشركى مكة الذين يصدون عن الدعوة ويـؤذون الرسـول والمؤمنين، كما أن فيها الوعد بالنصر للرسول وللمسلمين كما نصـر أولو العزم من الرسل السابقين.. فضلاً عن الإيناس للرسول والتسرية عما فيه وتدعيم للموقف ودعوة إلى الصبر.

---

(١) نقد الرواية . د. نبيلة إبراهيم.

(٢) الفن القصصى فى القرآن . د. محمد أحمد خلف الله ص٢٥٢.

فعـبارة الـباحث جاوزت الصواب.. ذلك أن قصة يوسف جاءت على غير المـنهج القصصى للقرآن وليس معنى هذا أنها أجوده.. فالقرآن كلام الله.. لا تعلو فيـه سـورة عـلى أخرى ولا تفضل آيةٌ آية أخرى. وإنما الأمر أن قصة يوسف جـاءت دفعـة واحدة، مكتملة البناء والحلقات منذ البداية، فهى لا تحتاج إلى إعادة حلقاتها أو تكرارها – فتوالى الأحداث يتواصل منذ الرؤية التى تتحقق شيئاً فشيئاً، والتنسـيق الفنى لا يتم إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها .. فضلاً عن أن إفراد حلقة من حلقاتها كما يحدث فى قصص الأنبياء الآخرين لا يحقق شيئاً من هـذا التنسـيق ومن هذا الاكتمال.. من هنا كان لقصة يوسف هذه الميزة البنائية.. ولكـن ذلـك لا يعـنى أن توصف بما قاله الباحث لأن ذلك يعتبر تزيداً فى القول وخروجاً به إلى ما لا يليق موضوعاً وفنا.

وإذا كـانت شخصـية يوسف هى الشخصية المحورية فى القصة وأنها لب الأحداث وجوهرها، وأن الأحداث جرت وفق سنن الله سبحانه، إلا أن للباحث رأياً يراه فى أحداث القصة وشخصيتها المحورية يقول : "والأحداث فى هذه الشخصية أحـداث عاديـة تقـع لكـل شخص وفى كل زمان ومكان، فليس يبعد أن يرحل اسرائيلى من بلد إلى آخر وهو فقير معدم فتصير إليه مقاليد بيت المال، وليس يبعد أن تقـع هـذه الأحـداث لشـخص فيكون موقفه منها موقف يوسف، حتى حادث المراودة، ولا تستغرب إلا حالة إلقاء القميص على وجه أبيه وارتداده بصيراً فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء.."[١].

والـباحث لا يلتفت إلى نصوص القرآن الواضحة الالتفات الواجب، فيوسف ليـس كأى فرد، وإنما هو نبى مصطفى مصنوع على عين الله مكلوء برعايته، ثم إنـه لم يذهب إلى مصر بغية التجارة والبحث عن العمل، وهو لم يصل إلى مكانته وسـلطته نـتيجة نهضة اقتصادية يهودية.. وإنما كان يوسف ضحية غيرة إخوته لأبيـه[٢]. ومـرت به الأحداث حتى صار عزيز مصر وأميناً على خزائنها.. تلك

---

(١) الفن القصصى فى القرآن ص ٢٥٨.

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ أحمد محمد جمال ص ٢١١.

أحـــداث قصها القرآن.. والأحداث هذه .. حين توصف بكونها عادية تقع لأى فرد كـــان فى أى زمـــان ومكان .. ينفى فى معناه أن الأحداث تسير وفق سنن الله فى الأرض والعباد، كما تنفى رعاية الله وعنايته ليوسف النبى المصطفى فى كل حدث مـــرّ بـــه.. فكيف نفسر الرؤية ونحققها.. وهى محور الحدث الأول؟ وكيف نفسر السقوط فى الجب دون سواه من الآبار!

وبم نفسر الخروج منه ! أنفسره بالصدفة البحتة! الصدفة التى جعلت الإخوة يحقـــدون عليه! والسيارة ينتشلونه من الجب لمرورهم عليه بحثاً عن الماء! ولماذا هـــذا الجب بالذات؟ أليس ذلك بتوجيه إلهى مرسوم من أجل اكتمال خيط الأحداث وتـــتابعه؟ ثـــم كيف نفسر تأويل الأحداث وصدق تأويلها؟ وبم نفسر إبصار يعقوب النبى بإلقاء قميص يوسف الذى تنبعث منه رائحته! أهو مثير شرطى يحدث الهزة فى الـــنفس؟ وهـــل فى مكنة الإنسان العادى أن يقوم بهذا العمل لإبراء المريض؟ أليس هذا ما كان يفعله عيسى عليه السلام بإرادة الله؟

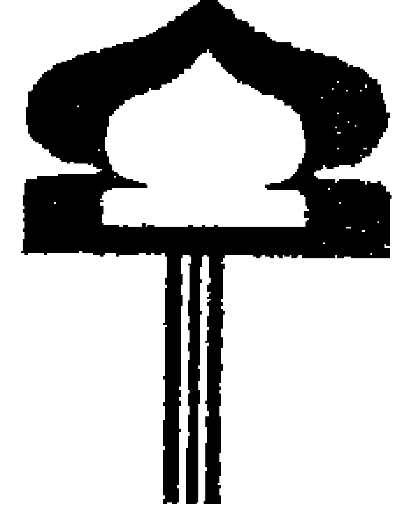
.. ومـــن ثم فإن التعبير بقوله عن ارتداد البصر بأنه قد يكون من خصائص الأنـــبياء.. التعبير يوحى بالتهوين من هذا الأمر. وهذا لا يليق بمكانة الأنبياء. ولا باســـتقراء الـــنص القـــرآنى. ثم بم نعلل هذا الترتيب التتابعى فى انسجام فنى تام وبـــتوقيت زمنى محسوب؟ فإن لم يكن ذلك كله وفق سنن كونية ورعاية خاصة.. فبم يكون؟.

الباب الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾

صدق الله العظيم



الفصل الأول

العرب والقصة



عرف العرب القصة من زمان طويل، والأدب العربى، حافل بكثير من الأنواع القصصية الدالة على أن العرب كغيرهم من الأجناس البشرية ذوو فطرة خلاقة، وخيال مبتكر، يدفع النفس إلى التأثر والإبداع والابتكار. فالنفس البشرية مفطورة على التحرر من القيود، والانطلاق بالخيال إلى آفاق رحبة، عريضة. والإنسان منذ أن بدأ يعى دوره فى الحياة، ويعمق من رسالته فى تعمير الأرض وإرساء أسسها فى البناء والتعمير والاستمرار، ومنذ أن شرع يسجل بقلمه. تراثه، وأحلامه، وآماله.. والرغبة فى الانطلاق من أسر المكان الضيق تلح عليه، والشعور بالحاجة إلى الترويح عن النفس، ونسيان الجهاد الشاق الذى يخوضه فى سبيل تأكيد ذاته وسط عالم محتشد بالعنف والصراعِ.. بل وربما محاولة اختراق المجهول الذى يتبدى حوله فضاءً هائلاً لا حدود له.. ولا أبعاد..

والإنسان العربى كغيره من البشر، خاض الصراع، ومع الصراع تحدث القصص وتتحقق المآسى وتحل النكبات، بل إن الصراع بين القبائل العربية فى الجاهلية أكثر هَوْلاً مما نقرأه فى أدب الإغريق من ملاحم وبطولات، ومآس. فلقد دامت الحروب فى العصر الجاهلى أكثر من أربعين عاماً كحرب البسوس مثلاً.

ولا شـك أن وراء ووسـط وخـلال هذه الحروب .. قصص وحكايات تروى ، وتحـكى .. وكان ذلك مدعاة لظهور شخصية درامية، كذات الشخصية التى نجدها فى المسـرح الإغـريقى.. وهى شخصـية "الراوى" الذى يعيد سرد الحكاية، فى أسـلوب أخـاذ شيق. بل إننا نستطيع أن نطلق على عصر ما قبل التدوين عصر الرواة، فى مجالات الرواية المختلفة، دينا، وشعراً، ونثراً، وقصصاً.

"فالرواية" ما هى إلا نقل لخبر ما . أو حديث ما، أو قصيدة ما، أو قصة ما. وهى وإن كـانت قـد اقتصرت فى صدر الإسلام الأول على رواية الحديث. فلا يعنى هذا امتناع ورودها بالمعانى السابقة.

ولا يفوتنا فى هذه الجزئية أن نورد عبارة للكاتب الأديب القصصى محمود تيمـور، يبرهن فيها بالدلالة اللفظية ، والمعنى اللغوى على معرفة العرب للقصة والحكاية.

وحديـث محمـود تيمور فى هذا المجال له دلالة، فهو أحد رواد القصة فى الأدب العربى الحديث، وله إسهامات فى الرواية والقصة القصيرة مما يَجعله رائداً بحـق، وتضيف إلى رأيه النقدى حرفة الصانع الأدبى، وذوق المبدع العربى، دون تعصـب أو افتئات. فالكاتب يرى أن الأمة العربية كغيرها من الأمم – وليس كما ادعى المستشـرق ارنست رينان من خلو الأمة العربية من الخيال الابتكارى – لها صياغتها التعبيرية الخاصة وقوالبها الأدبية المميزة، والذى منها الجانب القصصى المميـز. (فنحن الذين قلنا من غابر الدهر "قال الراوى" و"يحكى أن" و"زعموا أن" و"كـان مـا كان" إلى آخر تلك الفواتح التى يمهد بها القصاص العربى فى مختلف العصور لما يَسْرد من أقاصيص[1]).

ونظرة واحدة إلى ألفاظ اللغة، توضح لنا وجود الفن القصصى كأحد وسائل التعـبير، وكأحد أنماط تتبع الخيوط الروائية والحكائية. فوجود كلمة حكاية . تدل على أن ثمة شيئاً قد وقع، وبدأ الراوى يحكيه، أو يحاكيه، أو يضاهيه، أو يماثله، أو يحـكى عـنه.. وكـلها دلالات تتفرع وتصب فى نفس المصطلح "حكاية" فهو مصطلح لغوى لم يوجد عبثاً، أو لمجرد اشتقاق لفظى بَحْت. وإنما هو دلالة مؤكدة

(١) القصص فى الأدب العربى: محمود تيمور ص ٢٤ الجامعة العربية ١٩٥٨م.

عــلى الرغــبة، والوجود المحقق لها، وعلى العنصر القصصي. ومن منا لم يسمع عن (حديث خرافة). إن خرافة كما تعلمنا جميعاً وقرأنا رجلٌ راوية، استهوته الجن فعلمــته الغــرائب، ومن ثم بدأ يحكى من العجائب ما جعلها خارجة عن التصور العقلى، مما سميت تبعا لذلك بالخرافة.

وأيًا كان المعنى ، فإن الخرافة قصة جميلة محبوكة يرويها راوٍ قبض على ناصــية التعــبير، فشد أذهان الناس، واستقطب مشاعرهم، وأثّر فيهم، حتى دهشوا ممــا يســمعون عن عوالم غريبة وعجيبة لا تعترف بالزمان أو بالمكان. ولكنهم بالــرغم مــن استمتاعهم.. أدركوا أن ما يروى أمامهم.. شىء ليس له أساس من الواقــع، أو يسانده العقل.. وكان أن أطلقوا عليه بالمعنى، أو بالشخص ذاته.. اسم الخرافة.

ومــن يقــرأ الأمثال العربية المركزة، الموجزة، ذات الإيقاع الحاد والحاسم فســيدرك أن ثمة قصة وراء هذا المثل، ولأن العربى قادر على التركيز والإيجاز قدرتــه على الإطناب وتتبع الخيوط والأحداث، فلقد صاغ هذه القصة وجردها فى قــليل مــن اللفظ حتى يضمن لها الثبات ، والمداومة، والتسجيل. إن المثل العربى القديــم بالنســبة للقصــة أشبه "بالكود" الذى يستخدمه الحاسب الآلى. فما إن تأتى "بكــود" ســا يشــير إلى موضــوع ما، إلا وظهرت لك معلومات ضافية عن هذا الموضــوع. وكذلك المثل.. فما إن تقرأ المثل إلا وتستدعى القصة الرمزية، التى تدور حول الخير والشر، والوفاء والحرص والواجب.. الخ ومن يقرأ المثل العربى [كيــف أعــاودك وهــذا أثر فأسك] ويدرك القصة التى وراءها فسيقف على عمق ونــضج وخصــوبة العقــل العربى، ومن ثم يضحى اتهام العقل العربى بأنه عقل سكونى، اتهاماً باطلاً لا يستند إلى دلائل علمية بحتة، أو إلى استقراء فكرى وأدبى لــناتج العقــل العربى. ويبقى فى هذه الجزئية ، أن المستشرقين وهم يتحدثون عن الخيــال والقصة يقيسون ناتج العقل العربى القديم، بمستحدثات الفنون فى المسرح، أو الرواية.. أو الشعر التمثيلى. مغفلين، البيئة، ونوعية الصراع، وتركات الثقافة، والأداة التعبيرية السائدة.. ثم لماذا يقيسون على أدبهم هم؟؟ ومن الذى أعطاهم حق أن يقيســوا نــاتج العقل البشرى عموماً بناتج عقولهم هم؟ ولماذا نجْرى وراءهم، ونحــن نعلم أن كثيرين منهم يصدرون أحكامهم وهم يضعون أعينهم على الإسلام كمحاولة للنكاية به، والإساءة إليه؟

ولقد ورد لفظ (قصة) المشتق من "قَصّ" كثيراً فى ميادين الأدب والحياة نفسها كما جاء في القرآن الكريم باشتقاقاته الفعلية والاسمية. والقصة لغة من قَصّ الأثر أى تتبعه، وأصل القصص فى العربية هو اتباع الشيء كما يقول أبو هلال العسكرى ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (١). وسمى الخبر الطويل قصصا لأن بعضه يتبع بعضه فيطول، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص (٢).

ولقد ورد فى لسان العرب تحت مادة "قصص" دلالات لفظية منها : أن القاص الذى يأتى بالقصة على وجهها .. كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.. كما وردت معانى مختلفة منها أن القصة : الخبر، وهو القَصص : الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه. والقصص بالكسر جمع القصة التى نكتب، والقصة الأمر والحديث(٣).

ولقد شاع استعمال كلمة القصة ومشتقاتها فى القرآن الكريم، مما يدل على ذيوع عنصر القصة فى الأدب والحياة قبل الإسلام، ذلك لأنه إن كان قد جاء القرآن الكريم معجزاً فى اللفظ والمعنى والتعبير والصورة مما ألجم الشعراء، وجعل الناس ينصرفون عن الشعر إلى القرآن الكريم ليجدوا فيه الزاد والمتعة، والجمال والحق.. فضلاً عن العقيدة السامية.. فلقد وردت القصة فى القرآن الكريم للإعجاز أيضاً فى مجالها التعبيرى. فالقصة فى القرآن جاءت لترد على كل أنواع القصص الذى شاع وسط العرب الجاهلين، سواء كان صادقاً أو مختلفاً، .. لتبين وجه الإعجاز فى هذا المجال التعبيرى ولترسم النمط الصحيح للقصة الإسلامية التى يجب أن تسود المجالات الإبداعية، حتى تصير معلماً من معالم الأدب الإسلامى.

ولذلك فإن الآيات القرآنية الكريمة فرّقت بين النوعين، القصة القرآنية والقصة الشفاهية الجاهلية. فلقد وصفت الآيات الكريمة تلك القصص بالبهتان

(١) سورة القصص آية ١١.

(٢) قصص القرآن وقصص القصاص . د. أحمد محمد المجدوب ص٦٤ الوعى الإسلامى عدد ٢١٣ رمضان ١٤٠٢هـ.

(٣) لسان العرب ، ابن منظور الجزء الثامن ص ٣٤١/٣٤٣.

والضـــلال والخرافة والغواية ووصفتها بأنها أساطير مختلفة ، وهى دائماً توصف بأنها أساطير الأولين.. أى أباطيل وأحاديث الأولين.

قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(١).

[أى قـــالوا عـــلى سبيل الاستهزاء، ما أنزله ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين، وليس بكلام رب العالمين...](٢).

وهـــذا يعـــنى إدانة لكلمة الأساطير.. وهى تعنى فى الأدب نوعاً من القصة والحكايات والروايات ذات العجائب والأخبار الغريبة.

على حين جاء وصف القرآن الكريم للقصة القرآنية بأنها أحسن القصص.

وهـــذا يعـــنى أن القرآن يتضمن القصص ويعترف به فنا تعبيرياً يتحدى به عقـــول وقـــدرات العرب الإبداعية. ولكنه جاء به كنوع مغاير تماماً لما كان سائداً أيام الجاهلية.

قال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(٣).

(والمراد بالقَصصَ هى الأخبار التى قصّها علينا الله فى كتابه العزيز)(٤).

وهـــذه الأخـــبار إنما هى تحكى أخبار الأمم السابقين فى أسلوب معجز من البيان والجمال.

وقـــال تعالى فى مجال القصة : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾(٥).

والدلالـــة الـــلفظية تحمل النهى عن الإخبار أو الحكى، ولا شك أن الحكى عنصر من عناصر القصة.

---

(١) سورة النحل آية ٢٤.
(٢) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص١٢٢ ، ١٢٣.
(٣) صورة يوسف آية ٣.
(٤) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص٤٠.
(٥) سورة يوسف آية ٥.

وآيـــات كثيرات فى القرآن الكريم وردت بها لفظة القصة ومشتقاتها، دلالة ولفظـــاً وخبراً ومعنى. وهذا يعطينا دليلاً قوياً على وجود القصة كفن تعبيرى فى الأدب العربى، وفى حياة العرب أنفسهم.

والـــدلالات اللغوية حول مادة (قص) تعنى فى الأصل التتبع والاقتفاء وهو معـــنى ملحوظ فى القصة التى هى الجملة من الكلام المقصوص. والقصة تكتسب هـــذا الاســـم مـــن معنى فعْل القاص حين يمارس عمله فى قص الخبر فهو يأتى بالقصـــة عـــلى وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها، ويقتفى آثار أحداثها فى ترتيب بعضـــها على بعض، وكأنما القاص فى ذلك يحاكى قصاص الأثر وهو يتتبع آثار الأقدام على الأرض حتى يعرف مصير تلك الأقدام ويصل إلى النهاية، وهى صلة تنطبق على المعنى اللغوى للفظ (قصة) وعلى المعنى الفنى بوجه عامٍ، وذلك حين يقوم القاص وهو يكتب قصة بتتبع الحدث من البداية حتى النهاية مروراً بالوسط.

وكـــل هـــذه الدلالات اللفظية دليل قوى على أصالة العنصر القصصى فى تـــراث العـــرب ووعى العقـــلية العربية منذ القديم لألوان عديدة من أشكال التعبير القصصى[1].

فالقصـــة كفـــنٍ قولى تعبيرى، كانت معروفة فى الأدب العربى وفى الحياة العامـــة كما قلت سابقاً، لأن القصة كانت تعكس حاجة الإنسان إلى التطلع والمتعة والتسْـلية. وفى العصر الحديث نلاحظ التقدم الهائل الذى طرأ على القصة كعنصر أدبى، وفـــاق مـــا طـــرأ عليها كل خيال، وضرَبَ القاصُّ فى كل اتجاه، وأفاد من الـــتغيرات التى طرأت على البناء القصصى. ومهما ساهم القصاصون العرب فى هـــذه الجدة القصصية، فلا يمكن القول بأن العرب الأقدمين لم يعرفوا القصة. لأنه لا حاضـــر بـــلا ماض. ولا يصح القول بأنهم لم يعرفوا الفن القصصى لمجرد أن القصصِ التى وردت عنهم، لا تتلاءم ومقاييس الفن القصصى الحديث. فالقصة فن قولى يتسم بالدراما والصراع.. ومن ثم فهى حركة من حركات الإنسان طالما أن الإنســـان يـــدب عـــلى الأرض فى حركة، مبتعداً عن السكون. وعلى هذا فستبقى القصـــة ما دام هناك إنسان يتحرك ويتجادل. وكل ما فى الأمر أن الإنسان بزمانه،

(١) القصص فى الحديث النبوى ، ص٣٨، ٣٩ محمد بن حسن الزير. دار اللواء، الرياض.

وبيئته. فإنسان العصر الجاهلى ببيئته ليس كإنسان العصر الحديث. وكذلك القصة، فإنهـا تتغير وتتعايش مع كل زمان، ومع كل بيئة بشكل ملائم تماماً. إنها تغير من ثوبهـا الـذى ترتديه لفظاً ونسقاً وبناءً، تبعاً للتطور الحضارى. والقصة دائمة،.. لأنهـا تلبى حاجات الإنسان البشرية. ولهذا يجب أن نفْصلَ بوضوح بين فنيّة هذا القصـص الـذى يعتمد على الرواة الشفاهيين عن طريق سلسلة الإسناد المعروفة بالعنعـنة، والـذى يمكـن أن يعكـس الأخـبار والأيام والتاريخ، وبين القصص المعاصر. فالقصص الحديث يبدعه فنانون التزموا فنه، وأضافوا إليه. ولا يحق لنا أن "نستخدم نفس المعايير فى نقد وتقييم قصة للجاحظ فى بخلائه، وأخرى لمحمود تيمور فى إحدى مجموعات قصصه[1].

إن القصة والقصص ليست مصطلحاً حديثاً ، جاء عن طريق التأثر بالآداب الغربية الحديثة، وإنما هو مصطلح قديم، وتسمية ضاربة فى التاريخ. فقد وجد فى الجاهـلية قصـص كـثير تنوعت موضوعاته ودارت حول الحروب والغزوات، والحـب، والعشـق، والجان والسحر، والعادات العامة الثابتة والمخاطر.. والأمر الذى يجب أن يسجل ، هو أن ما قيل من قصص لم يكن يؤلف، ويُكتب، وإنما كان الـرواة يحفظـون أخـباراً وأحداثـاً، ويتناقـلونها ومن ثم لم تحظ هذه القصص والحكايات بالتسجيل والتدوين إلا متأخراً، مما أدى إلى وجود إضافات حول النص الـروائى الشفاهى الأصلى. وكانت هذه الإضافات تساير التطور وتلاحق العصر ومـتغيراته ممـا يوضح لنا مظاهر فنية طرأت على القصة مثل التعقيد، الإثارة، التشـويق، والمبالغة فى الوصف والتصوير. والقصص أيا كان نوعه يدخل فيه ما هو صالح فى موضوعه وعرضه، وما هو طالح فى موضوعه وطريقة صياغته، أو تحريف أصوله.

(أما قصص القرآن فهو القصص الحق وما عداه ليس كذلك.. إذ تتفاوت فيه نسب الحق " الباطل. بل وقلما يرجح فيه الحق على الباطل [2]).

وحيـن جـاء الإسلام حدث تغير فى العقيدة ، والسلوك ، والقيم الأخلاقية، وانقـلب المجـتمع الوثـنى إلى مجتمع إسلامى. ولقد أثر هذا الانقلاب أيضاً فى

(١) القصة القصيرة نظرياً وتطبيقيا. يوسف الشارونى ص٤١ دار الهلال . القاهرة، ١٩٧٧.
(٢) قصص القرآن وقصص القصاص. الوعى الإسلامى د. احمد محمد المجدوب، ص٦٧.

القصـــة، فاســـتحدثت موضـــوعات لـــم يتطرق إليها رواة ما قبل الإسلام، وكذلك الأحـــداث، مـــثل الموضـــوعات التى جاءت بها قصص القرآن نفسه. كما تناولت القصـــص أحداثـــاً جديدة تبرز البطولة الإسلامية وتعلى من الإيمان وحسن الخلق والمروءة.

ولقـــد كـــانت القصة القرآنية – فى مرحلة تطور القصة الشفاهية – نموذجاً رائعـــاً لما يجب أن يحتذيه الفنان الذى يمارس عملية الإبداع القصصى، فضلاً عن أن القصة القرآنية كانت تسجل أولاً بأول، فلم يكتنفها تأويل، أو تحوير أو خلط، أو إضافة، مثلما كان يفعل الراوى قديماً وهو يسرد القصة، أو الخبر، أو الحدث..

إن القصـــة تعـــد أقدر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق وتصوير العادات ورســـم خـــلجات الـــنفوس كمـــا أنها إذا شرف غرضها ، ونُبل قصدها، وحسنت موضـــوعاتها، تهـــذب الطباع وترقق القلوب وتدفع الناس إلى التمسك بالمثل العليا والقيم الكريمة والمعانى السامية، من إيمان وواجب وحق(١).

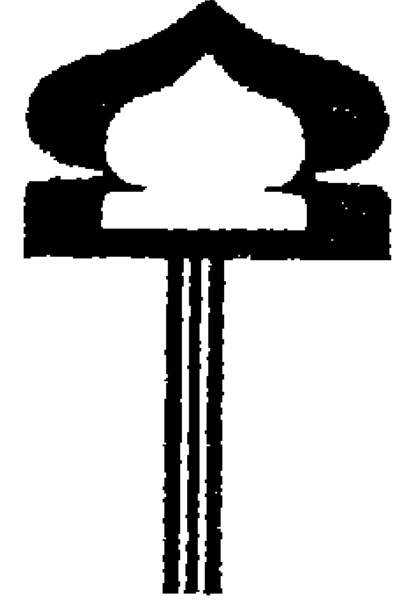
ومـــن هذا الدور الذى تقوم به القصة كانت لها ولا تزال الشأن الأسمى فى آداب الأمـــم المختـــلفة قديمها وحديثها، فهى قد وردت فى التوراة كما وردت فى الإنجيل، وزخرت بها آى الذكر الحكيم.

ولقـــد وردت القصة بتلاطمها وزخمها وغرائبها فى شعر الإغريق وملاحم الرومان وآثار المصريين القدماء، وفى التعاليم الآسيوية الشرقية. والعرب أيضاً.

وهـــذه القصص وإن كانت قد نجحت نجاحاً تاماً فى تصوير العصور التى وضعت فيها ورسمت لنا البيئة التى نبتت منها رسما دقيقا معبراً ونقلت لنا عادات وتقاليد وحضارة الأمم، إلا أن الكثير من هذه القصص مُبْهم القصد ، وثنى السلوك ووثـــنى الأداة ، كمـــا أن الأداة التعـــبيرية مـــن لغة وأسلوب ونسق عام يميل إلى الـــرداءة . والعـــرب من الأمم التى أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل وأُثِرَ عنها فيـــض مـــن ذلـــك الأدب الـــرفيع .. ولكنه برغم فنيته كان غارقًا في الأساطير والخرافات والأيام العربية الوثنية. وجاءت القصة فى القرآن لتكون لوناً جديداً فى هذا المجال التعبيرى الأخاذ.

---

(١) قصص العرب محمد أحمد جاد المولى وآخرون جـــ١ ص٤٢٣ دار إحياء الكتب العربية.



الفصل الثاني

القصة وسيط مؤثر



القصـــة الفـــنية نوع من الأدب الجميل، له جماله الخاص، وفيه متعته المميزة، والقصة لها عالمها الواسع العريض، الزاخر بـــالأحداث والأشخاص والتغيرات والصراعات بين القيم.. الخير والشـــر، الجمـــال والقبح، الصلاح والفساد، والجدل المشتجر بين المعتقد الدينى والتقليد الوثنى، وبين الأشخاص.. الرجل والمرأة، الطّاغيـــة والمصـــلح، المحب والكاره، الصادق والمنافق، الحاكم والمحكـــوم.. عـــالم تحتشد فيه الرؤى والأفكار والعوالم السحرية الـــتى تـــأخذ بالألـــباب. وهو فن يشغف به الصغار والكبار على الســـواء.. ويصـــبح له التأثير المؤكد على المتلقى إذا أُجيد تأليفه وأجيـــدت وســـائطه وأساليبه، وأحسن تلقيه. والقصة فى مجاليها المقروء، والمسموع، لها من التأثير بحيث تساعد على التحول فى الشخصية، أو الإيمان بمعتقد جديد وقيم أخلاقية جديدة، أو التخلى عن عادات مرذولة لا تتلاءم والفطرة البشرية السَّوية.

وفى المجـتمع الذى لا يعرف القراءة أو الكتابة – كحال المجتمع فى صدر الإسـلام – يصـبح للوسيط – الذى ينقل القصة إلى المتلقين دور حاسم فى إبلاغ القصـة، وتوصـيل المغزى للسامعين. فموقف الوسيط وسيطرته باللغة والصوت والإشارة، يعتبر تصويراً حيًّا للقصة المسْرودة، ولغة السّرد هنا قد تكون لغة منشئ القصـة وقد تكون لغة الوسيط نفسه. ويبقى على المتلقين المشاركة الوجدانية لما يسـمعون من حوادث، وتاريخ ، وصراعات، وأبطال، ومن ثم تحدث الرجفة، أو هزة الانفعال الدالة على التأثر ، وتواصل الأفكار وتحققها، سواء كان ذلك التحقق مع، أو ضد، فالأمر فى النهاية يعنى أن ثمة تحولاً حدث للمتلقين وهم يسمعون من الوسيط أحداث القصة.

وعـلى ذلـك نستطيع أن نؤكد على انتشار ظاهرة الرواة، وذيوع الرواية الشـفاهية قبل عصر التدوين، ذلك لأنها تلبى شغفاً حقيقياً فى النفس البشرية. فهى غـذاء للوجدان والعقل، حيث يجد السامع أو القارئ فى ثناياها، الفكرة، والمغزى والخيال والأسلوب، واللغة الراقية.

وفى سرد القصة جمال آخر يتمثل فى جمال التعبير (وهو فن إذا أجيد سما بالقصـة سـمواً عظيماً، وبعث فيها حياة جديدة، وزاد فى قيمتها وفى تمتع السامع بها[1]).

وسـرد القصـة – وتلك هى موهبة المنشئ للقصة ، ومهارة الوسيط.. فى نقلها للمتلقى، شفاهة.. – يبث فيها روحاً جديدة قوية تجعلها حيَّة ماثلة أمام السامع، وتحيـلها صـوراً واضـحة زاهية، وإيقاعاً جميلاً متناسقاً فى الألفاظ والحركات والعواطف، والانفعالات، وتعطى كل شخصية طابعها وصفتها الرئيسية.

ومـن ثـم يصبح للقصة – وقد تلقاها الفرد كأنما يراها مشاهد أمامه تحكى وتُـرى بخيـال ذهنه – متعتها الخالصة، وأثرها القوى الذى لا يضيع . وقصص القـرآن الكريم. تعتمد اعتماداً قوياً على السّرد، العالى الذى يأخذ بالنفس، ويصيب العقـل بالانـبهار. ولمـا كان المجتمع فى ذلك الزمان مجتمعاً غير قارئ ، كان الوسـيط الذى ينقل هذه القصص إلى المتلقين من المسلمين له أثره البارز، ومكانته العالية، خاصة وهو يجيد عملية السّرد.

---

(١) القصة فى التربية د. عبدالعزيز عبدالمجيد ص١١.

إن الوسـيط فى مثل هذه الحالة أشبه بالمربى الذى يستخدم القصة فى تعليم الصغار، لاستغلال الشغف الفطرى إلى الحكى والحكاية.

ولعـل إسـلام عمـر مثال بارز على تأثره بما سمعه من أخته وزوجها – بالـرغم مـن ثورته، فإن قراءة القرآن فى تلاوة جيدة، .. تأخذ بالألباب وتخترق القـلب مباشـرة. لقد جاءه القرآن عبر الوسيط الجيد، فأثر فيه وحول طريقه إلى الإسلام.

ولقـد سمع عمر أخته وزوجها وهما يقرآن آيات من سورة "طه".. ولا شك أن عمر (رضي الله عنه) أخذته الآيات بجرسها الصوتى، وجمالها الإيقاعى، وانتظام الآيات فى إيجازهـا المحكـم. ولكنه وهو ينتزع الأوراق من أخته وبدأ يقرأ واجهته – فضـلاً عـن الإعجاز اللفظى، والجمال التعبيرى الأخاذ، وموسيقى الألفاظ الأخاذة وتعانق الأنغام بعضها مع البعض الآخر – واجهت عمر (رضي الله عنه) قصة قرآنية، هى قصـة موسى. لقد تجسد التوجيه الإلهى فى ثوب قصة مؤثرة استحوذت على عمر ابن الخطاب وتملكت مشاعره، وأثرت فيه، وطهَّرتْ مشاعره، وجعلته فى النهاية يتحول تحولاً خطيراً، فيذهب ويعلن إسلامه. لقد عرضت سورة "طه" قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية الجبار، ويكاد يكون معظم السورة فى الحديث عنها، وبـالأخص موقـف المفاجـأة بين موسى وربه وموقف تكليفه بالرسالة، وموقف الجدال بين موسى وفرعون، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة. وتتجلى فى ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى، نبيه وكليمه وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين(١).

ولا جـدال فى أن المغـزى مـن الآيات قد وضح لعمر بن الخطاب وهو يدرك مساندة الله لأنبيائه، ومن ثم فلا جدوى من المكابرة والمعاندة.

ولقد أوردت الآيات الأولى تطيبياً للرسول، وتأكيداً على الوحدانية، وتسلية للرسول بذكر قصص الرسل السابقين.

قـال تعـالى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى • وَأَنَا اخْـتَرْتُكَ فَاسْـتَمِعْ لِمَـا يُوحَـى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(٢).

(١) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص٢٢٩.

(٢) سورة طه الآيات ١٢، ١٣، ١٤.

وتخيــل معى عمر بن الخطاب وهويتلقى هذه القصة بهذا الأسلوب المعجز اليقيــنى، والــذى يحمــل التوكيد على الألوهية.. الدلالة السائدة فيه. فتكرار (إن) والضمير (أنا) وأسلوب القصر الموجود فى الآية، كلها تأكيدات على وحدانية الله.. فمن خلال القصة، التى تسردها الآيات عن موسى يبرز الغرض الدينى وهو إفراد الوحدانية لله جلَّ وعلا. وتلك سمة بارزة من سمات القصة القرآنية. ثم انظر معى إلى الأمــر الإلهى الموجه إلى موسى المصطفى؛ "اخلع" إنه أمر "لموسى بضرورة التأدب فى مقام الهيبة الإلهية، ثم الأمر التكليفى (اعبدنى) إنه أمر بإفراد العبادة لله والعــبادة لهــا دلالة ومظهر، والصلاة إحدى مظاهر التعبد لاحتوائها (على الذكر، وشغل القلب واللسان والجوارح فهى أفضل أركان الدين بعد التوحيد[1]).

وعمــر بــن الخطاب وهو من فرسان العرب، ومتذوقيهم للشعر والأدب ، وأعــرفهم بأثــر اللفظ ، وتأثير العبارة، لم يفته هذا النغم السماوى المتساوق الذى يــثير فى النفس الرهبة، والرغبة. ولم ينصرف خياله عن أحداث القصة، ومساندة الله لنــبيه ومآل الكافرين الضالين.. وحدثت الهزة، وارتجف القلب، ووصل التأثير إلى نهايته.. وآذن عمر فراقاً لجاهلية عمياء، واتصالاً بدين الله المتين.

وانظــر معنا كيف تمازجت الآيات القرآنية وهى تسرد القصة، بالوسيط ثم بالمتــلقى، فيحدث الأثر المطلوب. إن القصة من هذا المنطلق التأثيرى تصبح أداة فعَّالــة ومؤثرة فى تشكيل الإنسان وتكوينه تكويناً فكرياً ووجدانياً. إن الإنسان مهيأ إلى أن تجذبه ما فى القصص من أفكار وخيالات وأحداث، وسرد جميل له طلاوة الــلفظ ورونــق التعبير. والقصة القرآنية تلعب هى الأخرى هذا الدور الخطير فى صــياغة الإنسان المسلم، وتكوينه تكويناً إسلامياً كاملاً. يجعله قادراً على تحمل ما يناط به من أمور الإسلام.

ولقــد أدرك رسول الله (ﷺ)، الدور الخطير الذى تلعبه القصة، فاستخدمها من أجل إبراز الهدف التربوى، باعتبارها وسيطاً مؤثراً فى الوجدان والفكر. حيث كــان (ﷺ) – وهــو يحتذى الهدف الدينى فى القصة القرآنية – يضمن القصص معــانى عظيمــة، تنهل من القرآن الكريم، كالأمانة، والعفة، والنزاهة، وحب الله، والحب فى الله، والعمل الصالح، والجهاد ، والصلاة، وغير ذلك من الموضوعات

---

(١) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص٢٣١.

الـــتى تناولتها القصة النبوية الكريمة. ورسول الله (ﷺ)، يصوغ المعنى والمغزى فى إشــارات تضمينية. يساعد على توصيلها إلى المتلقى.. روعة التصوير وجمال الســـرد، وإثارة التنبيه عن طريق التشويق مما يحقق الغرض الذى أنشئت من أجله القصة.

فالقصة لها تأثيرها الفعَّال لو أُحسن تأليفها، وأُجيدت صياغتها، وخاطبت فى نســق تعبيرى واضح، العقول، والعواطف. ومن ثم كان دورها الخطير فى مجال الـــتربية والتعــليم. وكأنمـــا القصـــة فى القرآن جاء استخدامها تربويًّا من الدرجة الأولى، وكذلك القصة النبوية، التى تأثرت بمنهج القصة القرآنية التربوى، لقد كان لـــلقرآن الكريم ولسنة الرسول الكريم فضل الريادة فى هذا المجال التربوى الهام، والذى لم يفطن إلى أهميته رجال التربية وعلماء النفس إلا مؤخراً.

وتســـتطيع القصة وهى تنهل من الدين الإسلامى وتغترف من ينابيعه الثرة، فَضْــلاً عــن تأسيها بالقصة القرآنية، وما ورد من قصص على لسان رسول الله، تستطيع أن ترسى قواعد منهجية ثابتة تدعو وتدعم وتساهم فى تربية الروح والعقل والوجــدان، وتــنزع من النفس سخائمها، وإحباطاتها، وحيرتها عن طريق ضرب الـــنماذج السَّــوية من البشر. وهذا دليل واضح ومؤكد على أن الإسلام يدرك تمام الإدراك الميل الغريزى أو الفطرى لدى الإنسان، الفطرة الصافية النقية، المنطلقة، المتخيــلة،.. فيســـتخدم القصة فى الدعوة والتربية وصياغة وجدان المسلم وعقله. ولكــنه وهــو يســـتخدم القصة كما وردت فى القرآن الكريم وسنة الرسول، يضع الـــنموذج الأمـــثل للقصـــة ، ويراعى فى الصياغة أن تكون متلائمة مع الغرض والهــدف الـــذى وردت مـــن أجله. فالقصة القرآنية قصة ملتزمة بالدين والتوحيد أساســـاً، وهو منطلقها ، وهو نهايتها أيضاً.. إنها قصة دائرية، يصبح مفتتح القصة هو قفلها أو نهايتها.

ولم يعد غريباً على القصة كوسيط مؤثر، أن تحظى بهذه المكانة العالية فى القرآن الكريم. فلا تكاد تخلو سورة من قصة ، أو إشارة إلى قصة، أو إبراز جزء مـــن قصة ، أو تسجيل هدف سريع لقصة سريعة. ولم يكن الأمر فى القرآن ناتجاً لمجرد السرد القصصى، وإنما لما تستطيع القصة أن تؤثر به كنهج تربوى يصوغ المسلم صياغة دينية أخلاقية كاملة...

إن للقصة سحراً ، ولها تأثيراً يتأتى من المشاهد القصصية، والمواقف الدرامية والأخيلة المنبعثة والمنطلقة، والتى تنطلق لتعيد فى الذهن التصور الذى يلمسه ويحسه ويشعر به وهو يقرأ أو يسمع القصة، إنه يلهث – الخيال – وراء كل شخص ويتتبع كل حركة، ويشارك فى كل حوار، ويعترض على الخطأ ويقف مع الصواب..

إنه يجرى وراءها من موقف إلى آخر، ومن حركة إلى شعور، أو مما يحس به من مشاركة وجدانية لشخصيات القصة أو بعضها بما تثيره تلك المشاركة من مشاعر وعواطف أو من انفعال المتابع بالموقف وهو يتغلغل فى المتابعة وكأنما هو فى داخل حركة القصة يشارك فى أحداثها.

كل تلك الأشياء جعلت للقصة ذلك الأثر القوى فى النفس الإنسانية. وتلك الجاذبية الساحرة التى ظلت تلازم الإنسان منذ فجره القديم إلى يومه الحاضر. ولا شك أنها ستسير معه عبر رحلته الطويلة فى هذه الحياة. فالقصة لها أثرها الحيوى فى تربية الإنسان وتوجيهه والأخذ بيده نحو الأفضل، وهو أثر نابع من الاستجابة الطبيعية التى يحس بها الإنسان وهو يتعامل مع تلك الوسائل لأنها تتجاوب مع إمكاناته النفسية وما جبل عليه من طبائع واستعدادات . وتوقع على أوتارها ما تنشده من غايات تربوية(1). والقصة القرآنية تربط فى اقتدار إعجازى بين الجانب البنائى الفنى المؤثر والجانب النفسى، بحكم أنها وسيط إلهى إلى المتلقى وهو الفرد المسلم. وهذا الارتباط التقاء مدروس لتحقيق الهدف الاعتقادى وهو التأثير الدينى. ودرس المؤشرات النفسية الدينية فى القصص القرآنى يكشف عن حقائق هامة فى علاقة الشعور الدينى بالعاطفة، وارتباط الجانب الإلهى بالنفس، ولما فى هذه القصص من إثارات متنوعة ومن تجارب دينية، كان الإنسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزت مشاعر الداعين والمدعوين، وتولد عنها صراع طويل المدى بين أهل الحق وأهل الأهواء.

ولقصص القرآن الكريم أثر بليغ فى توجيه العقيدة والسلوك، منشؤه شعور انفعالى دافع ، أو عامل وجدانى مؤثر . فتأثير بعض القصص الذى يصف ما نزل

---

(1) القصص فى الحديث النبوى ص٣٥٤.

بـالمكذبين لرسـلهم من أهوال العذاب يحدث شعوراً بالخوف من عاقبة العصيان. وهـذا الشعور بالخوف من العقاب الإلهى يتجدد فى نفس المؤمن كلما أثار انفعاله قصة من قصص القرآن الكريم(1).

إن فى القصـة سحراً يسحر النفوس ، ويؤثر فيها، وهو سحر مبعثه وسائل القصـة ووسـائطها مـن خيال يشاهد القصة ويتابعها موقفاً موقفا، ومن مشاركة وجدانيـة لمـا يقـوم ويحدث لأشخاص القصة، ومن انفعال نفسي بالمواقف حين يتصـور القـارئ أو السـامع ولو بالوهم مشاركة فى الفعل والموقف القصصى والحدث المسرود.

أيًّـا كـان الأمـر فسحر القصة قديم قدم البشرية وسيظل معها حياتها على الأرض، وقـارئ القصة أو سامعها، يتعامل مع القصة كما لو كان أحد أبطالها أو شخوصـها. والإسلام يدرك هذا الميل الفطرى إلى القصة ويدرك ما لها من تأثير عـلى القلوب، فيتعامل معها كوسيلة من وسائل التربية والتقويم والتهذيب والترويح الصافى النبيل.

ولقد كان أمراً طبيعياً أن تكون القصة فى القرآن موجَّهة خاضعة للأغراض الديـنية الـتى جـاءت لتحقيقها فليس القرآن كتاب قصص وإنما هو كتاب تربية وتوجيـه. ولكـن الدقـة فى الأداء ومـراعاة القواعد الفنية فيه يجعل القصة مع خضـوعها لـلغرض الديـنى طليقة من الوجهة الفنية، ويجعل استخدام القصص للتربية جزءاً من منهج التربية الإسلامية(2).

فقصـص القـرآن لم تأت مجرد حكايات يُتَسلى بها. وإنما يسوقها لإيضاح مـبدأ، وللدعوة إلى فكرة ، وللنهى عن منكر. ولقد جرت العادة فى القصة القرآنية أنهـا إذا حكت أمراً لا يُقره القرآن أو إذا ذكرت شيئاً يوهم غير المراد، أشار إلى الـبطلان ويأتى بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال(3)، ليؤكد مساهمة القصة فى إرساء قيم التربية الخلقية، وإبراز الأنبياء كقدوة للمربين وكمثل عليا للبشر أجمعين.

---

(1) القافـلة. رجـب ١٤٠٥هـ سيكولوجية القصة . تأليف ، التهامى نقرة عرض. عبدالجبار السمرائى.

(2) منهج التربية فى الإسلام. محمد قطب . ص ٢٤٠/ ٢٤١ دار الشرق.

(3) أصول التربية الإسلامية . د. سعيد إسماعيل على ص٤٣ دار الثقافة القاهرة.

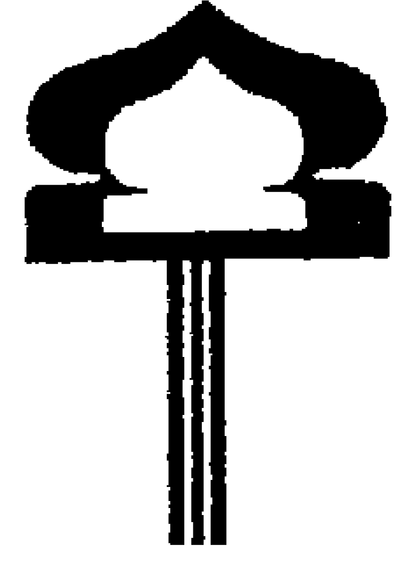
فالقــرآن الكــريم يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التى يشملها منهجه التربوى، تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم والتوقيع على الخطوط المتقابــلة فى النفس، والتربية بالقدوة، والتربية بالموعظة. فهى سجل حافل لجميع الــتوجيهات وهى كذلك على قلة الألفاظ المستخدمة حافلة بكل أنواع التعبير الفنى ومشخصـــاته من حوار، إلى سرد، إلى تنغيم موسيقى، إلى إحياء للشخص إلى دقة فى رســم الملامــح ، إلى اختيار دقيق للَحظة الحاسمة فى القصة[1]، وهى وسائل القصـــة القــرآنية ووســـائطها الفعَّالة فى التربية والتأثير والجذب والتشويق وذلك لتوجيه القلب والنفس والمشاعر والوجدان، إلى العبرة، وإلى المقصد الدينى، وإلى الغرض الذى ضُربت من أجله القصة..

إن القصـــة القرآنية إحدى وسائل التربية الإسلامية إلى غرس المفاهيم التى يرتــبط بعضها ببعض فى إطار فكرى واحد يستند إلى المبادئ والقيم التى أتى بها الإسلام، والتى ترسم عدداً من الإجراءات والطرائق العملية[2].. يؤدى تنفيذها إلى أن يسلك المسلم سلوكاً يتفق وعقيدة الإسلام السمحاء.

---

(١) التصور الفنى فى القرآن سيد قطب (فصل القصة فى القرآن).

(٢) أصول التربية الإسلامية ص ٥ .



الفصل الثالث

طبيعة القصة القرآنية



لا ينكر إنسان واع ومدرك للنشاط الخلاق لدى العقل البشرى أن القصة لعبت دوراً بارزاً فى الإعلام عن الذات البشرية، أفكارها وهمومها وأحلامها وسجلت منذ أن بدأ يعى ما تقع عليه المدركات البصرية، مما يدل على أن القصة لازمت الإنسان منذ وجوده، وهذا مما يجعل النفس الإنسانية تميل إلى القصة، وتسترسل معها، وتنطلق عبر الرؤى التى تنثال من هذا العالم السحرى. ولقد بدأت القصة منذ طفولة الإنسان، الطفولة الأولى من حياة البشر، ولما كان الإنسان تلخيصاً لمسرى التاريخ البشرى الطويل، فإنه فى طفولته عموماً كما هو فى شبابه ورجولته ميّال بطبعه إلى السماع إلى القصة ، أو الخبر المثير أو النادرة الطريفة. وللأهمية التى تكمن فى القصة بطبيعتها وعناصرها، استخدمت فى استبصار المعضلات الإنسانية ومعالجتها.

وثمـــة فارق هائل يفرق القصة القرآنية عن غيرها من القصص الإنسانى، ذلـــك أن الإسلام كدين هو منهج كامل متكامل من أجل الحياة، وهو كمنج ينعكس أثره وتأثيره على واقع الحياة الإسلامية ، فيلتزم به المسلمون التزاماً قوياً فى الفكر والســلوك، والقيم الحياتية التى تشكل حركة المسلم فى إطار من الجماعة. وإذا ما تمســك المســلمون بقيم الدين الإسلامى تمسكاً قوياً فإن ذلك سيصبح إشارة فاعلة على التأثير الإسلامى فى الفكر والفن والحياة. ويصبح العمل الإبداعى كالقصة له ملامــح خاصـــة تميـــزه عن غيره من أنواع الإبداع الأخرى. والقصص القرآنى يشـــتمل عـــلى قضايا نفسية تتضمن الترغيب والترهيب والتبشير والإنذار، فتتوجه الـــنفس الإنســـانية بما جبلت على الفطرة إلى الاتجاه الصحيح وتبتعد عن الطريق المعـــوج. وإذا ما أنعمنا النظر فى القصص القرآنى لوجدنا أنه لا تكاد تخلو قصة مـــن ترغيب يبعث على الرجاء أو ترهيب يثير الخوف. وهما محوران – الرجاء والخوف – أساسيان من قوى النفس البشرية. والإسلام وهو يستخدم هذا الأسلوب، تثبيت العقيدة، ونشرها، وتكوين المسلم وصياغته، يضع الصورة الصحيحة للمسلم بحيث يبدو، فى الموضع الصحيح الذى يعتبر فيه المسلم شخصاً متكاملاً، فإذا نظر المسلم وهو يتلقى عبر القصص تلك الأخبار التى تتحدث عن المصائب التى لحقت بالأمم السابقة، نتيجة ما اقترفت أيديهم، ونتيجة عنادهم وإصرارهم على الكفر، .. ازدجـــر واعتـــبر، وكذلـــك ما يناله المؤمنون الذين آمنوا بالله وتحملوا العذاب فى ســـبيل عقيدتهم، من جزاء وفاق عملهم وثواب من الله ورضوان. لقد كفل الإسلام الخير لبناء النفوس وتهذيب الأخلاق وتربية البشر تربية صالحة.

وكانت القصة القرآنية أهم تلك الوسائل التى كفلت ذلك الخير للناس.

والقرآن الكريم كتاب موحى به من السماء على خاتم البشر أجمعين، ليخرج الـــناس من الظلمات إلى النور، فهو كتاب دعوة إلى المعرفة الحق، والإيمان بالله، ورسم وبناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم بناءً إسلامياً كاملاً. ووسائل الدعوة إلى الله كـــثيرة ومتنوعة فى القرآن الكريم. والقصة إحدى هذه الوسائل التى استخدمها القرآن الكريم لإبلاغ الدعوة، وتوضيح أطوارها، وكشف الماضى والتاريخ السحيق

منها، وهي تتحدث عن الأمم السابقة، والأنبياء السابقين، وما لقوه من عنت وعذاب. وشأنها في ذلك شأن الوسائل التعبيرية الأخرى التي تدعو إلى الله عن طريق تصوير مشاهد القيامة، والجنة، والنار، والنعيم والعذاب، وكذلك شأنها في ذلك شأن الأدلة التي يسوقها الله سبحانه على الوحدانية، ومثل الشرائع التي فصلت، والأمثلة التي ضربت.. لنماذج من البشر، أو لمواقف تقتضي العظة والعبرة.

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[1]. والآية من سورة الأعراف .

و(سورة الأعراف، من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء وتقرير الوحي والرسالة)[2].

ولقد ورد في السور الكريمة قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة وهبوطه من الأرض، والقصة تعطي نموذجاً كاملاً للصراع بين الخير والشر والحق والباطل، وتعرضت السورة إلى بعض مشاهد يوم القيامة، حيث تسجل الآيات الكريمات اللعنة والطرد والحرمان، الذي يصيب الكفرة الجاحدين.

وتناولت السورة أيضاً قصصاً لأنبياء دعوا إلى التوحيد، وصارعوا الوثنية وقاوموا ضلال أقوامهم . مثل نوح، هود، لوط، شعيب وموسى . وكان الهدف من إبراز وإيراد تلك القصص هو إثبات التوحيد لله سبحانه وتعالى والإصرار على محاربة الكفر والضلال، وبيان أن معركة الحق مع الضلال معركة أزلية حتى ينتصر الحق وترتفع راية التوحيد عالية خفاقة.

(١) سورة الأعراف آية ١٠١.
(٢) صفوة التفاسير الجزء الأول ص٤٣٤.

فالقصـــة القـــرآنية، إذن ، هى إحدى وسائل الدعوة إلى الله وبيان وحدانيته والإقرار بالتوحيد عبر مواقف وأحداث وأشخاص وصراع وجدل وحوار، وأسلوب وتعبير، وتصوير وتنسيق، مما يعطى لها الأثر المكين فى النفوس. كما أن القرآن الكـــريم قـــد حفـــظ للقصـــة مكانتها، بحيث تصبح أداة فعّالة فى التوجيه والتربية والإعـــلام الإســـلامى، ذلـــك لأنها سجل كامل حافل بكل أنواع التعبير الأدبى من حـــوار وســـرد ووصـــف ، وتنغيم إيقاعى، وإيقاع موسيقى ظاهر وباطن، وإحياء للشخصيات وتصوير رائع لحركة الشخصية وجودة الرسم والدقة لتبيان الملامح.. ثـــم تـــأتى اللحظة الحاسمة فى القصة لتخترق القلب الإنسانى فتوجهه إلى الوجهة الإسلامية الصحيحة.

ومصداقاً لذلك فإننا سنقتطع آيات قليلات من قصة آدم، وهى تصفه وحواء وقد ارتكبا الإثم ووقعا فى الخطأ . لنرى كيف عالجت القصة القرآنية هذا الموقف، وكيف تضمن العلاج الطريق إلى الهداية، وإلى الله.

قـــال تعـــالى : ﴿فَوَسْـــوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ • فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَـــدَتْ لَهُمَـــا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ • قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)].

خـــرج إبليس من الجنة مذموماً مدحوراً. ومطروداً من رحمة الله. ورضى الله عن آدم وزوجه فأسكنهما الجنة. وأباح الله لهما أن يتنعما بكل رغائب ما يتاح فى الجنة، ولكنه جلّ وعلا لحكمة الخلق وعمارة الأرض قيّد تلك الحرية المنطلقة بقيـــد اخـــتيارى، بمعـــنى أن الله أمرهما ألا يقربا شجرة معينة. وهو قَيْد اختيارى يقصد به ابتلاء واختبار آدم وزوجه، وليس قيداً إجباريا على الحرية المتاحة لهما، وإلا لكان صرَفَهُما عن الأمر كله.

(١) سورة الأعراف آيات ٢٠-٢٣.

والنفس البشرية مجبولة على الفضول وحب المعرفة والانصراف عن المتاح للبحث عن غير المتاح، وتلك فطرة الله التى فطر الناس عليها. والقصة منذ البدء تؤكد على المعنى السابق كما توضح حين ترسى قواعد الأخلاق مبدأ تحمل المسئولية. ذلك أن القصة القرآنية لها سماتُها الخاصة فهى توحى بما تريد دون مباشرة. ولما كانت النفس البشرية مجبولة على الفضول فقد أصبح كل من آدم وزوجه مهيئين لأن يستمعا إلى وسوسة الشيطان بحكم الطبيعة البشرية. وقد ألح إبليس لعنه الله على هذا المفهوم مذكراً إياهما بأنهما بشر وليسا ملائكة أو مخلدين. ولكنه وهو يعلم ذلك يقلب المعنى الذى يعرفه إلى معنى يثير الرغبة، ويدفع إلى الانفعال والتحدى الذى هو نوع من العصيان، يقلب المعنى ليصبح إغراءً لفعْل.. فيبين أنَّ النهى الوارد إنما هو كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين.

ومَنْ مِنْ البشر لا يحب أن يكون ملكاً أو يكون من الخالدين؟.. كان ذلك هو المدخل الذى تسرب منه إبليس وسوسةً وإغراءً بالعصيان. وتمعّن كلمة "وسوس" لتدرك ما توحيه تلك الكلمة من هسيس صوتى يخدر النفس ويحتوى العقل، ولو تكررت الحروف وَ ، سْ لتتلاءم مع مداولة إبليس لإغراء آدم وزوجه لوقفنا على مقاطع صوتية متكررة تعطى إيقاعاً ذا طابع أزيزى، يخدّر، ويوقع الأذن فى خدر مرعوش .. وراجف.

وتلك الوسوسة هى المحاولة المستميتة لأعداء الله فى صرف البشر عن طاعة الله. وذلك هدف مبثوث أيضاً عبر القصة يوحى به الفعل ولا يصرح. وكعادة الأبالسة حين يحاولون صرف البشر عن طاعة ربهم بالإغراء والوسوسة، وإيهام الفرد بقوته، فإنهم يتبعون ذلك كله بالأيمان المؤكدة التى تعطى لما يهمسون به، دلالةالقوة. ومن ثم فإن إبليس لم يترك آدم وزوجه لما وسوس به بل أتبع ذلك باليمين، فحلف على ما قال ووسوس بأنه لا يخدع ولا يغش وإنما هو صادق النصح أمين فى نصحه. ولقد استخدم فى التعبير إنَّ، ولام التوكيد، ثم تكرار الضمير "لكما" لإبراز أهمية ما يقال لهما.

ويقــع آدم فى الفعــل، وتصور الآية الكريمة حركة آدم وزوجه المتوترة، القــلقة الــراجفة، والضَّالة. فلم يعودًا يعرفان شيئاً، لقد وقعا فى المحظور، وانتهى الأمــر وبــدآ يذهــبان هنا وهنا، يتخفيان من العيون ويخفيان سوءاتهما ، ثم تمتد أيديهما وتقصف ورق الشجر لتداري عريهما.. وهما يتلصّصان النظر هنا وهناك، هربًا من عين تراهما عريانين.. إن العرى هو فضيحة مؤكدة وكشف واضح للفعل الآثــم الذى حدث منهما. ومن ثم كان ذلك التوجيه إلى الإنسان أن يستر جسده لأنه كمال للمرء وزينة له.

وحــركة التخفى هذه حركة فى طبيعة البشر، فليس آدم بدعاً فيها، وإنما هو صــانعها وموّرثهــا، ولكــن عمّ يتخفون، عن الله سبحانه الخالق الآمر الناهى؟.. ونــادى الله آدم وزوجــه نداءً توبيخياً، مذكراً إياهما بتحذيرهما من الأكل من هذه الشــجرة. ومذكــراً بعــداوة الشيطان لهما. وهنا وبعد أن اخترق القلب الهدف من القصــة كــلها، قصــة الوسوسة الأولى، اعترفاً بالخطيئة، وتابا من الذنب وطلبا المغفرة.

هــذا الجــزء الصــغير من القصة يعتبر وسيلة من الوسائل القرآنية لبيان الدعــوة إلى الله، ولتوضــيح الصــراع الدائم والأبدى بين الخير والشر، والإنسان والشــيطان. ومــن خلال هذا الجزء البسيط من القصة يتجلى التوجيه الإلهى فى تــربية المســلم عــلى تحمل المسئولية وعلى حرية الاختيار والالتزام بنتائج هذه الحرية، ثم الرجوع عن الخطأ إن كان فى الفعل ما يشينه ويوقعه فى الخطأ. وبيان المبدأ الاعتقادى الأساسى بالالتزام بأوامر الله ونواهيه.

وعــلى هذا فإن طبيعة القصة القرآنية، طبيعة مغايرة لفنون القَصّ الأخرى. فالقصــة فى القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثــه. (وإنمــا هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الاصيل. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء. والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيــتها، شــانها فى ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة

التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات(١).

والأدب العربي بفطرته الأولى، أدب عرف للقصة القرآنية الصدق الذي تميزت به، مع إدراك الهدف الذي ينثال عبر القصة، وذلك قبل أن يتجه الأدب العربي إلى الأخذ من الآداب الغربية وتماثله في القصة، ووسائطها التعبيرية.

ولقد كان الإسلام حريصاً على أن يعيش المسلم واقعه، في إطار من الخيال المستحب المتسامي البديع الذي لا يغرق في الشر والإباحة أو يتخذ وسائل الخداع المخدرة.

ولذلك فقد قدم القرآن القصة ذات الصدق الموضوعي والشعوري بعيدا عن الخلط بين الحقائق والأهاوم. فالقصة القرآنية صادقة كل الصدق، ذلك لأنها تتناول – عبر الوحي الإلهي – موضوعات وأحداثاً وتاريخياً وأشخاصاً ليس لنا بها دراية. وإنما نحن في إطار التلقي أمام هذا النسق الإبداعي المعجز مبهورين ومشدوهين.

القصة القرآنية قصة صادقة بابتعادها عن الأساطير والخرافات والخيال الوثني والوهم، والاقتراف من الواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة، وبعيدا عن تلفيق الوقائع أو اختلاق الأخبار المكذوبة.

ولعل من أعظم ما أعطى الإسلام للأدب العربي عمق المعرفة التي تدور على تحرير الأدب من الأساطير والخرافات، وإيقافه عند الحقيقة دون مبالغة في تصوير الواقع على النحو الذي كان يعرفه الشعر الجاهلي أو الملاحم اليونانية. ولقد ظل الأدب العربي يحاذر من أهواء رجال الفن والشعراء والقصة الذين يعطون لأنفسهم من الحرية ما يدفعهم إلى تجاوز الحقيقة وتجاوز القيم الخلقية(٢).

---

(١) التصور الفني في القرآن سيد قطب ص١١١ طبعة بيروت.
(٢) معلمة الإسلام أنور الجندي ص٣٩٤.

والقــرآن الكــريم يتـــناول القصة بريشة التصوير المبدعة ، فتصبح القصة حادثـــاً كأنمـــا يقع أمامك ، ومشهداً تراه عينك، لا قصة تُروى ولا حادثاً قد مضى وانتهى. إنها تحمل الماضى المستمر عبر الحاضر إلى المستقبل.

والإبــداع القصصى فى القرآن لا يتأتّى إعجازه وجماله وصدقه من ناحية الـــلفظ أو من ناحية المعنى، أو من ناحية الحدث، أو من ناحية النسق العام، ولكن يتأتى من المنهج الكامل الفريد، المتمازج، الذى يذوب كل عنصر من عناصره فى قلب العنصر الآخر.

إن استحضـــار المشـــاهد فى القصـــة القرآنية، والتعبير الموجه يبدو وكأنه مشـــهد حاضـــر مؤثـــر ، فكيف لعقل بشرى أن يؤدى تعبيرياً ما يعبر عنه الأداء التعبيرى القرآنى؟

قـــال تعـــالى فى مجـــال استحضـــار مشهد غرق فرعون. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

الآيـــة الكـــريمة تستحضـــر مشهد غرق فرعون وتؤكد أن ذلك جاء نتيجة طغيانـــه وظلمه، وأن إيمانه لم يفده لأنه إيمان المضطر. وانظر إلى الحركة التى تصـــورها الآيـــة، حـــركة الهـــروب الكبير الذى قام به موسى (عليه السلام)، وحركة المطاردة العنيفة التى يقودها فرعون. قطبان للصراع.. وحركة الصراع لا تستقيم بهـــذا الشكل، فقد رحل موسى بقومه ، ودينه إلى مكان آخر، ولكن الإصرار على تصفية الدين، وخفض راية التوحيد أمر لا يتلاءم مع الدعوة إلى الله. فكان أن أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. والآية تبين أن الله ناصرٌ دينه، ومعزٌ لرسوله.

(١) سورة يونس آية ٩٠.

وتخيـل مسـعى فرعون وهو يشهق شهقة الموت والماء المالح يتخلل حلقه منسرباً شيئاً فشيئاً، وذراعه تتخبط هنا وهناك ، وفى اللحظة التى يأخذه فيها الموج ودواماته إلى اسفل ، يعلن إيمانه.. وأى إيمان هذا الذى أقدم عليه هذا الطاغية؟

ويأتيـه الـنداء الإلهى تقريعاً وتوبيخاً ﴿ءَآلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِـدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[1].

لقـد حكت الآية السابقة مشهد الغرق، ثم ها هو الخطاب الموجه فى مشهد حاضـر ، ذلك بيان بأن فرعون قد استحق العقاب بما عصي، ولقد جعله الله عبرة، وعظة لمن يعتبر من البشر ، حيث أخرجه من البحر بجسده الذى لا روح فيه ، فها هو الجبار الطاغية، الفرعون الظالم جثة هامدة لا روح فيها ولا دماء . إنَّ إخراج الجـثة عبرة لغيره من الجبابرة حتى لا يطغوا مثل طغيانه: (قال ابن عباس : إن بعـض بنى اسرائيل شكوا فى موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه)[2].

وبعـد هذا الخطاب، وبعد هذه الآية الدالة على العظة والعبرة، تعود الآيات للتعقيب على هذا المشهد الذى يستحضره المشاهد رؤيا العين.

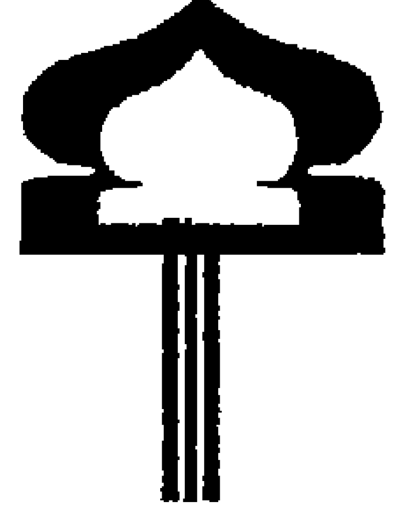
قـال تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ وهنا يصبح التعقيب توجيهـاً ونصحاً وإرشاداً وتربية، وتلك طبيعة القصة القرآنية، حيث تبرز الهدف من إيراد المشهد ، وتؤكد على التذكير وإفاقة العقل من غفلته، ليتدبروا آيات الله.

هـذا مـنهج مكتمل تؤديه القصة القرآنية فى نسق بديع وأداء معجز، حيث تضـافر الغـرض الدينى والإعلام التربوى بالفن القصصى. وكلاهما يضيء من مشكاة واحدة هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ القلب سكينة وصفاءً وإيماناً.

(١) سورة يونس آية ٩١، ٩٢.
(٢) صفوة التفاسير الجزء الأول ٥٩٧.

وقيمـــة الأثر الفنى – كالقصة – لا يكمن فى جماله الشكلى، بل فى سحره الـــبيانى وتأثيـــره النفسى، وبما يحمل من قيم روحية واتجاهات جديدة فى الحياة. ومصـــدر الجمال فى الأثر الفنى – كالقصة، ذلك الشعور الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنى. ومن أجل ذلك كان لابد للفن الأصيل أن يكون قائماً على قواعد الأخلاق(١).

(١) القافلة رجب ١٤٠٥ص١٥.



الفصل الرابع

أغراض القصة القرآنية



القرآن الكريم دستور المسلمين، ووحى الله إلى رسوله محمد (ﷺ)، وهو كتاب دعوة إلى الله أولاً وقبل كل شيء، والقصة لم ترد فيه لمجرد المتعة أو لمجرد الإخبار عن تاريخ مضى، بل هى كما ذكرنا إحدى الوسائل الهامة لتبليغ هذه الدعوة إلى الله، توحيده، وإفراد العبادة له. ومن ثم فالقرآن قد حفظ للقصة دورها الفعَّال فى شرح العقيدة وترسيخها، وفى التأثير النفسى على الوجدان الإنسانى من منطلق أن القصة وسيط تربوى مؤثر، مما يؤدى إلى تحويل الشخصية أو تحول المعتقد أو تطهير الذات. ولقد حملت القصة القرآنية تبعاً لذلك الهدف المرسوم – التوجيه والتعليم والتربية والوعظ والإرشاد، والتقويم والتسلية والإخبار عما مضى، والعبرة بما حدث، وإبراز الوحدة الكلية التى تنبثق منها الرسالات.. مما يُحدِّدُ للقصة القرآنية إطارها الخاص، وأغراضها التى تتناولها وموضوعاتها التى توصل أهدافها ومجرياتها إلى الناس.

وحـــتى تصـــل إلى لحظة الإقناع المؤثرة فإن لها أدواتها الخاصة بها التى تصـــل بهـــذا الإقناع إلى درجة التأثير والفعل. فهى سجل حافل لكل أنواع التعبير الجميـــل، ولكـــل أنواع الفن العجز الراقى، من شخصية درامية تكفل للقصة حدة الصراع المستمر، إلى الحوار والسرد الذى يأخذ بالألباب، والإيقاع الموسيقى الذى يهز النفس طرباً واهتزازاً، إلى القدرة الفذة فى رسم الموقف الذى يبدو كما لو كان حيـــاً يُشاهَد، إلى لحظة الاختيار الدقيق التى هى هدف القصة. وهو إبراز الغرض الدينى الذى من أجله سيق ذلك كله.

ولا يصـــح أن تحكِّم مقاييس الفن القصصى فى الأدب البشرى بصورة آلية مطـــلقة على ما جاء فى القرآن الكريم (فهو ليس كتاب أدب، وقد ابتدع فيه الخالق مـــنطقه كمـــا ابتدع فنه. والقصص القرآنى قصص دينى قبل كل شىء، فلا يمكن الـــنظر إليـــه من زاوية أدبية صرف وقد جاء لخدمة أغراض متنوعة. فلا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظرية واحدة [1]).

ومـــن أجـــل أن تحـــدث القصة الأثر المطلوب فلقد برز عنصر التصوير كأســـلوب موصِّل إلى تحقيق الغرض الدينى من القصة. فهو يعبر بالصورة الحية المحسوســـة، عـــن الموقـــف، والحالـــة النفسية، وعن النموذج الإنسانى، والطبع البشرى، حتى تبدو الصورة المحسوسة حياة شاخصة متجددة الحركة ، فضلاً عن نبض وسخونة القصص بحوادثها ومشاهدها ومناظرها، وحوارها.

فمـــا يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل المستمعين نظارةً، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مســـرح الحوادث الأول، الذى وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحـــركات، وينســـى المستمع أن هذا كلام يُتلى ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعـــرض، وحـــادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبثقة من المواقف. المتساوقة مع الحوادث وهذه كلمات تـــتحرك بها الألسنة ، فتنِّم عن الأحاسيس المضمرة. إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة[2].

---

(١) سيكولوجية القصة فى القرآن. د. التهامى نقرة ص١٧٠.

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص٢٩.

ولقد تعددت أغراض القصص فى القرآن الكريم، وكذلك موضوعاتها تعدداً يفى بجميع حالات العقيدة والإعلام عنها، وترسيخ أصولها. وتلك الأغراض من الوفرة والتعدد بحيث لا تخلو منها قصة واحدة، بل قد تتضمن القصة عدداً ضخماً من الأغراض الدينية مثل إثبات الوحى، والوحدانية، ووحدة الأديان وغيرها.

وسنحاول أن نستعرض فى هذا الفصل بعضاً من هذه الأغراض الدينية الكثيرة التى وردت بالقصة القرآنية :

◈ أولاً : العِبْرة :

قال تعالى فى محكم كتابه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

إن القصص القرآنى فيه العبرة، وما ذكرت قصة إلا إذا كان معها عبرة أو عبر وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرّهم الغرور، والجبابرة الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد والله من ورائهم محيط(٢).

وسنقتطع جزءًا من قصة إبراهيم (عليه السلام) ، يتناول تحطيمه للأصنام. ذلك أن إبراهيم (عليه السلام)، يرتبط بالعرب ارتباطاً قوياً، فهو بانى الكعبة ولقد شَرُفَ بالبيت الحرام العربُ أجمعون واعتزوا به اعتزازاً كبيراً، فهو مثابة للناس وأمنا، ولقد بناه وولده اسماعيل، كى يعبد فيه الله واحداً لا شريك له. ومن ثم فلا يمكن أن يستسيغ عقل بشرى ناضج أن يمتلئ البيت الحرام بالأصنام التى تعبد من دون الله. وإبراهيم هو بانيها ورافع أعمدتها.. وهو محطم الأصنام، ومبرز ضلال الوثنية، ومبين فساد العقيدة التى تتخذ من الأصنام آلهة لا تنفع ولا تضر.

ولقد سيق هذا الموقف من قصة إبراهيم، لبيان إثبات العجز للأصنام بالدليل القاطع كإشارة إلى ما يفعله كفار قريش من عبادة الأصنام والكفر بعقيدة الدين

---

(١) سورة يوسف آية ١١١.
(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٨٧.

الجديـــد الـــذى يدعو إليه محمدٌ. فها هو القرآن يصور قصة تحطيم الأصنام التى عجزت عن دفع الأذى عنها.. لعل الكفار يعتبرون بها.

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ • قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ • قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ • وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ • فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْــهِ يَـــرْجِعُونَ • قَـــالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ • قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُـــرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ • قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ • قَالُوا أَأَنْـــتَ فَعَـــلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ • قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

الآيـــات الكريمة تسجل اعتراض إبراهيم على قومه وهم يعبدون الأصنام. وكعـــادة الأمم الضالّة جاءت إجابتهم، لتوضيح تقليد الضلال المتّبَع، فأدانوا أنفسهم بالجهل والحمق والبعد عن العقل. ولقد أبرزت الآيات الحوار الذى دار بين إبراهيم وقومه. وكانت أداة الحوار تتراوح بين "قال" و"قالوا" وفى هذا الحوار يبين إبراهيم أن الله هو المستحق للعبادة، وأتبع ذلك بالدليل البرهانى الذى يستثير الذهن وكوامن العقـــل. فالله خالق السموات والأرض، وهو المستحق للعبادة، وأنا – أي إبراهيم – شـــاهد عـــلى الوحدانيـــة. ودبّر أمر تحطيم الأصنام، وأثبت عجز الأصنام بالدليل القـــاطع والـــبرهان الساطع، فقام إلى الأصنام وحطمها إلا كبيرهم. (قال مجاهد : تـــرك الصـــنم الأكـــبر وعـــلّق الفـــأس الذى كسر به الأصنام فى عنقه ليحتجَّ به عـــليهم)(٢). وتـــلك قمـــة السخرية التى قام بها إبراهيم ازدراء بالأصنام واحتقاراً للعقول الضالة. وهنا يستشيط القوم غضباً، ويصل الانفعال بهم إلى مداه. وغالباً ما يصـــبح انفعـــال الجاهل غضبة عنيفة مدمرة، وأصروا على محاكمته أمام الملأ،

---

(١) سورة الأنبياء آيات ٥١–٦٤.

(٢) صفوة التفاسير ٢٦٧.

وتنعقد المحكمة. ويبدو لنا رأى العين هؤلاء الظلمة وهم يحاكمون إبراهيم وتنهمر الأسئلة ويواجههم إبراهيم فى ثقة المؤمن بربه ووقوفه بجانبه. ويتوالى الحوار.

- هل حطمت الأصنام يا إبراهيم ؟
- بل حطمها الصنم الكبير. ألا ترون الفأس فى عنقه ؟
- أتسخر منا ؟
- ها هى آلهتكم أمامكم فاسألوها تجبكم.

وكيف يسأل القوم الحجارة؟ وهل إذا سألوا ستجيبهم الحجارة؟ ورجعوا إلى عقولهم، وأعلمهم إبراهيم أنهم بذلك ظالمون لأنفسهم. ويبلغ الانفعال مداه، فيقررون حرق إبراهيم. ولكن الله ينجيه من مكرهم.

والعبرة هنا أن الله هو المعبود لذاته وأنه المتفرد بالوحدانية، وأنه وحده الذى يضر وينفع، وأن الأصنام حجارة اتخذها الضالون من دون الله لجلب النفع ودفع الضر، وكانوا فى ذلك واهمين. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

وسورة الأنبياء مكية، وهى كغيرها من السور المكية، تهتم بشئون العقيدة الإسلامية، من توحيد الله، وإفراده بالوحدانية.. وحفلت بذكر الأنبياء، وهم يدعون فى كل دياناتهم إلى التوحيد والواحدنية، ونبذ الشرك ومظاهره كعبادة الأصنام. وهى نفسها دعوة الرسول (ﷺ).. إنها وحدة الأديان، ووحدة العبرة وموضوعيتها.

وفى هذا المجال تتحدث السورة نفسها عن موقف كفار قريش من محمد (ﷺ)، وكأنما هو استدعاء بالتماثل للعبرة لموقف إبراهيم وقومه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(١).

والآية تشير إلى أن كفار قريش كانوا يهزأون من رسول الله (ﷺ)، ومن دعوته مشيرين إليه فى إنكار أن يكون هو الذى يسبّ آلهتكم ويسفه أحلامهم. إنهم

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٦.

يســخرون بالرســول رغــم ضلالهم. إن المشركين يعيبون على منْ يجحد آلهتم ويــنالونها بسوء، فى الوقت الذى هم فيه يرتكسون فى قمة الضلال حين يجحدون ألوهية الله، وهم فى ذلك فى جهل جاهل.

- لقــد تشــابه الموقف، فتأكدت العبرة لمن يعتبر. وهى عبرة فى مجال التوحيد الإلهى..

وقصــة إبراهيم نفسها متعددة العبر، كثيرة العظات . وكل جزء من القصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها.

- وطــبيعة القصــة القرآنية أن تتوزع أجزاؤها ومواقفها، على مساحات مــتعددة، ومواقف متغايرة، لتتحقق العبرة، ويتأكد الغرض الدينى. ومن ثــم ترتــبط القصة بملمح رئيسى لها وهو التكرار. فالتكرار يتحقق فى القصة القرآنية بسبب تعدد العبر التى هى المقصد الأول من القصص. ولابــد منْ إزالة لبس قد يتوهمه القارئ للقرآن فى مجالات القصة، من معانٍ مكررة أو ألفاظٍ مرددة.

ولكــن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضــع، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة. ولو اجتمعت فى مكان واحد لاختــلطت العبرة بالقصة الخبرية، وما تميزت كل عبرة تميزاً يجعلها كوناً مستقلاً مقصــوداً بــالذات [1]. وبقيــة الأجزاء التى تتوزع على مدار السور القرآنية إنما تعطى العبرة الفعَّالة فى مجالها الخاص.

ولقــد توزعت العبر فى سورة إبراهيم بتوزع القصة فى سور القرآن حيث وردت فى الســور الآتيــة. (البقرة، آل عمران، الأنفال، الأنعام، مريم، الزخرف، الأنــبياء، الصــافات، الشــعراء، الحج، النساء، إبراهيم، هود، الحجر، الذاريات، النحل، الممتحنة، ص، النجم، العنكبوت، والتوبة)[2]، وورود القصة جاء على هيئة إشــارات دالــة، أو عــلى هيئة مواقف، وأحداث جسام أو كان المجئ لمجرد ذكر الاسم فقط.

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص١٦٩.

(٢) تفصيل آيات القرآن الحكيم .. ترجمة محمد فؤاد عبدالباقى ص٦٤، ٤٦٩.

والعــبرة تدخل فى مجال التربية، وخاصة حين تجيء نتيجة قصة تتناول ما حــاق بــالأمم الضالة السابقة، تفيض بالعظة، المؤثرة والعبرة البالغة. ولا شك أن تأثير العظة يكون أشد وأنفذ إلى القلب حين تبدو عبرتها من خلال عرض قصصى مشوق يربط السامع بأحداث القصة وشخصياتها من خلال مشاركته الوجدانية لهم، وانفعالهم بمواقفهم تعاطفاً معهم أو ضدهم.

- والقــرآن الكريم فى حديثه عن الماضين من أهل الكتاب وغيرهم سلك طــريق القصة لأنها أكثر قدرة على حمل العبرة ونقلها إلى السامعين. ولقــد كانت العبرة والعظة فى تلك القصص الماضية فى القرآن الكريم غرضاً رئيسياً نص عليه القرآن صراحة فى محكم تنزيله(١).

والموعظـــة دائمـــاً من أعظم الدوافع فى تربية النفوس وأقواها فى تحريك رواسبها وإثارة صحوة القلب فيها، وتوجيهها إلى السير فى الطريق الصحيح تأثراً بمـــا تعرضـــه القصـــة من تجارب ماضية تهز أعماق الوجدان وتؤثر فيه. ثم إن الموعظـــة تلبى حاجة النفس الفطرية الدائمة إلى التوجيه والتهذيب، ومن هنا كان تعهد القرآن الكريم بالتربية عن طريق الموعظة الحسنة والعبرة البالغة.

ولقــد جعلت القصة القرآنية من أخبار الأمم والأنبياء.. وخاصة فيما يتصل بأخــبار بــنى إسرائيل مادة طيبة ذات مقاصد تربوية هادفة، وجعلت منها دروساً ومواعظ لاستخلاص العبرة(٢).

ومـــن ثم يتضح لنا أن العبرة غرض دينى هام من أغراض القصة القرآنية. ونذكـــر نموذجـــاً آخر للعبرة، مجرد نموذج؛ لأن تتبع أنواع العبر يحتاج إلى جهد إحصائى كبير يخرج عن إطار هذه الدراسة التذوقية.

ولا شــك أن غرق فرعون عبرة لمن لا يعتبر من الظالمين. وفرعون جاءه موسى (عليه السلام) بآيات الله يدعوه إلى الإيمان والتوحيد، والنزول عن عرش ألوهيته الكاذبـــة إلى مستوى العباد، فيكون من عباد الله المؤمنين. ولكن فرعون الطاغية، أبى أن يســـتجيب لتـــلك الدعـــوة الراشدة، الهادية إلى الطريق الحق والمنقذة من

(١) القصص فى الحديث النبوى ص٣٦١.
(٢) نفسه ص٣٦٢.

الضـــلال الـــذى يقع فيه، فيركب رأسه ويمضى سادراً فى غيّه وضلاله، ويتحدى الله، ورســوله موسى، وقومه أجمعين. تلك اللحظة الحاسمة التى يؤخذ فيها الضال بضـــلاله، والكافـــر بكفره. إنها اللحظة التى لا يدرك فيه الضال – لشدة ضلاله – الهاوية السحيقة التى يدفع بنفسه إليها.

وقـــال تعـــالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَـــاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ • قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ • وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَـــدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَـــا مِنَ الْمُسْلِمِينَ • آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ • فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِـــي يَـــا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِـــنَ الْكَـــاذِبِينَ • وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُـــرْجَعُونَ • فَأَخَذْنَـــاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ • وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ • وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٢).

وفـــرعون الطاغية، وككل طاغية، يذكر جنوده دائماً على أنّهم يوالونه فى طغيانه ويمالئونه فى عدوانه. وحين جاءه الغرق لم ينقذه أحد، ولم تمتد إليه يد، بل استحق عقاب الله، وأخرجه جثة حتى يكون عبرة لكل طاغية جبار.

ولقد مدّ الغرور له حبله إلى غايته، حين لم يجد – خوفاً منه – ككل طاغية، مـــنْ قومه منْ يقف فى طريقه. ونادى قومه وجمعهم ليؤكد لهم أنه ليس هناك من إلـــه غيـــره. وكم فى الحياة من فراعين لم يجدوا من أقوامهم أهل الرشاد. إنهم لو فعلوا ووقفوا فى وجه هذا السفه من هؤلاء المتسلطين عليهم لما قام فيهم منْ يلبس

(١) سورة يونس آيات ٨٨–٩٢.

(٢) سورة القصص آيات ٣٨–٤٢.

لـــباس فرعون. فالظلم والعدوان طبيعة من الطبائع الحيوانية، المندسّة فى الإنسان، وهى تطلب دائماً المنافذ لها فى أحوال شتى من أحوال الناس. وجاء القرآن الكريم منـــبهاً إليها ومحذراً منها حتى لا يقوم لها سلطان على الإنسان فيظلم نفسه ويظلم الناس من حوله(١).

ولقد وجهت الآية نظر محمد (ﷺ) إلى وجه العبرة والاعتبار فى القصة، أو بالأحـــرى فى الجـــزء مـــن القصـــة وهو غرق فرعون ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّـــالِمِينَ﴾. فالآيـــة توجـــه نظر الرسول إلى مآل الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات. لقد استحق هؤلاء اللعنة فى الحياة الدنيا وهم فى الآخرة مطرودون من رحمة الله.

ونـــتيجة لما سبق قوله فإن القصة القرآنية لم تقصد لذاتها، بل للعبرة. ولما كـــانت العبرة لا تساق دفعة واحدة وإنما هى مبثوثة فى تضامين السّور والمواقف، فإنـــه لا يوجد فى القرآن الكريم قصة نبى كاملة فى سورة واحدة إلا قصة يوسف (عليه السلام).. وفى كل جزء مبثوث من القصة يستشهد بحادثة من الأحداث فى حياة النبى لإبراز عبرة أو لتوضيح موقف أو للتأثير العام(٢).

◈ ثانياً : التوحيد :

لا يســـاق القصـــص القرآنى للعبر فقط، وإنما يساق أيضاً لإبراز أغراض دينية أخرى مثل الحقائق الإسلامية، كالتوحيد.

وإننا نلمس البراهين على التوحيد من خلال السياق القصصى، والتأكد على أنّ الله وحـــده هـــو الخالق وهو المستحق للعبادة وحده، فلا معبود سواه. (وسوق الأدلـــة عـــلى التوحيد فى سياق القصة يجعله يسرى إلى النفس من غير مقاومة، وتكرارها يجعله يخط فى النفس خطوطاً، وتتعمق الخطوط فيكون الإيمان(٣).

(١) الإنسان فى القرآن الكريم ص١١٣. عبدالكريم الخطيب دار الفكر العربى.
(٢) مجلة "الهلال" عدد ديسمبر ١٩٧٠. عبدالحميد جوده السحار.
(٣) القرآن المعجزة الكبرى ص١٩٠.

ولا يعنى أن القصة تتضمن العبرة أنها لا تتضمن الدعوة إلى التوحيد فليس هناك انفصال أو تجزىء بين الأغراض الدينية، بل هى كلها تجتمع أو تفترق حسب المراد والغاية. فكما رأينا فى الجزئية السابقة والخاصة بالعبرة، ما فعله إبراهيم بالأصنام لعل ذلك يكون عبرة لكفار قريش، فلقد تضمنت الآيات الدعوة إلى التوحيد وسوق الأدلة على وحدانية الله، فليس فى الأغراض الدينية انفصال. فهو حين حطم الأصنام إلى جذاذ بيَّن عجزها، ودعا إلى عبادة الله الواحد القادر الفرد الصمد. وهو جلّ وعلاً الذى انجاه من مكيدتهم فجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

وفى قصص الأنبياء بلا استثناء تبرز الدعوة إلى التوحيد، ففى قصة يوسف (عليه السلام) دعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، بل لقد جعل يوسف سلواه وهو فى السجن الدعوة إلى الوحدانية، وسوق الأدلة.

يقول يوسف (عليه السلام) لصاحبيه فى السجن ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ • مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

نداء موجه إلى صاحبيه، يحمل دلالة التساؤل الإنكارى. أيهما أنفع يا صاحبى آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر كالأصنام أم عبادة الواحد الأحد. والاستفهام وإن جاء للإنكار فهو للتعيين ليضع صاحبيه فى موضع الاختيار. ذلك لأن الاختيار يتولد عن اقتناع كامل. ومن ثمّ تتحدد المسئولية. يا صاحبَّى إن ما تعبدونه، اختَرعْتُمُوه وأطلقتم عليه أسماء لا تملك القدرة أو السلطان. وكيف لجماد يا صاحبى أن يكون إلهاً، ما الحكم يا صاحبى إلاّ للواحد الأحد. إن ما أدعوكم إليه لهو الدين الحق الذى لا عوج فيه.

ولقد تدرج (عليه السلام) فى دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على عدم استحقاق آلهتهم للعبادة، ثم

---

(١) سورة يوسف آية ٣٩، ٤٠.

نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد. وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، حيث قدّم الهداية والإرشاد والنصيحة والموعظة[1] وهو يتحدث عن البراهين والأدلة على وحدانية الله، حتى يصبح للدليل تأثيره في القلوب ، وأثره في النفوس.

والقصص القرآني وهو يثبت استحقاق الله للعبودية، وينفي بطلان عبادة الأوثان التي هي أسماء سمّوها هم وآباؤهم ، لِيُؤَكِّدُ على إثبات الوحدانية أمام الذين يتخذون الأشخاص آلهة، مثلما يدعون ألوهية المسيح مثلاً.

قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ • لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ • مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2].

لقد وضحت القصة الفرية التي افتراها بنو اسرائيل على عيسى (عليه السلام) فنفت الدعوى من أصلها، وبينت أن المسيح لا يدعيها وإنما كان الداعية إلى التوحيد والنافي للشرك بربوبية الله. وأن المسيح مخلوق كسائر الناس وأن الله ربُّ الناس أجمعين كما هو ربُّه. وجاءت القصة بالدليل القاطع الذي لا يحتمل الشك أو التأويل، فبيَّن أن عيسى وأمه ليس إلا شخصين يعيشان كما يعيش الناس، ويأكلان كما يأكلون. ولقد أدانت الآية ادعاء التثليث وأكدت على وحدانية الله، واحداً فرداً صمداً. لم يلد ولم يولد.

إن نفي التثليث وإثبات بطلانه بالدليل جاء في ضمن قصة، فكان تصريفاً في الاستدلال، إذ إن سَوْق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سرياناً في النفس وانسياباً في جوانبها.

---

(١) صفوة التفاسير ص٥٢ الجزء الثاني .

(٢) سورة المائدة آيات ٧٢-٧٥.

(والـتوحيد كـان هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول. والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها ويكررها فى قصة كل رسول كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين)(1).

والـتوحيد هو المقوم الأول فى التصور الإسلامى وهو الحقيقة الأساسية فى العقيـدة الإسـلامية، كمـا هو الحقيقة الثابتة فى الرسالات السماوية جميعها. إنه الخاصـية البارزة فى كل دين جاء به من عند الله رسول. فالدين كله من عند الله. مـن عهـد نوح إلى عهد محمد. وإن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد ربُّ الجميـع. وكـثيراً مـا وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة فى سورة واحدة معروضـة بطـريقة خاصـة لتؤيد هذه الحقيقة. ولما كان هذا غرضاً أساسياً فى الدعـوة وفى بناء التصور الإسلامى فقد تكرر مجيء هذه القصص على هذا النحو مـع اختلاف فى التعبير لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها فى النفوس (2). قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (3).

وقـال تعـالى : ﴿ وَنُوحًـا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَـرْبِ الْعَظِـيمِ • وَنَصَـرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (4).

لقد دعا نوح قومه إلى التوحيد فأبوا فاستحقوا عقاب الله.

وقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى • إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْـتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى • فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَـى • إِنِّـي أَنَـا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى • وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى • إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(5).

---

(1) خصـائص التصـور الإسلامى ومقوماته. سيد قطب ص٣٠٩ . وزارة المعارف المكتبات المدرسية.

(2) التصوير الفنى فى القرآن. سيد قطب . ص١١٣.

(3) سورة الأعراف آية ٥٩.

(4) سورة الأنبياء آية ٧٦، ٧٧.

(5) سورة طه آيات ٩-١٤.

وقـــال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْـــنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ • قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ • قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾(١).

فـــالدعوة إلى دين الله الواحد الأحد، وإلى التوحيد، وإفراد الله بالعبادة وهو جوهـــر العقيـــدة الإســـلامية، غرض كبير من أغراض القصة القرآنية. والقصة القرآنية وهى تتناول هذا الغرض الدينى الكبير تستخدم الأسلوب التصويرى حيث تعـــرض المبدأ الاعتقادى فى صورة متحركة، مرتبطاً بالمواقف وبدرجة الصراع، فيؤثـــر فى الحيـــاة والناس، فيبعث الحياة فى قلوب الناس ويوقظ فيهم حركة العقل لعلهم يتعظون. والقصة تمتاز بالقدرة على تصوير نواحى الحياة المختلفة وعرض الشخصـــيات بمـــا تحمله من اتجاهات ومبادئ وقيم فتؤدى إلى التجاوب مع الخيِّر مـــنها، والنفور من الشرِّير. ومن ثمَّ ينغرس فى النفوس المبدأ الاعتقادى وتتجاوب القلوب مع جمال العبرة وروعة الموعظة.

◈ ثالثاً تأييد الرسول وتسليته وإيناسه :

تـــلقى رســـول الله (ﷺ) الـــوحى، وهـــو الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وأُمر بالقراءة . ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ . ولقد أجاب الرسول على الـــوحى بقوله مَا أَنَا بقارئ إيحاءً بعجزه عن التلقى عن طريق القراءة. ولقد كانت الأميـــة هـــذه ســـبباً فى انصراف الناس عن تلبية الدعوة.. لقصور عقلهم وضآلة تفكيـــرهم، وســـيطرة الجاهلية على مشاربهم ومنازعهم، وطمس الوثنية لبصيص النور الذى يمكن أن يجاهد فيهديهم.

وقـــد يـــرى الـــبعض أن ثمـــة تعارضاً بين "اقرأ" و"ما أنَا بقارئ". ذلك أن الرسول حين تحدث أخذ بالأسباب البشرية على حين جاء الأمر الإلهى "اقرأ" أخذًا بالأسباب العلوية الإلهية.

(١) سورة الأحقاف آيات ٢١-٢٣.

(أى يا محمد أنت ستقرأ ، ولكنى لن أرسلك إلى معلم، أو إلى مدرسة لتتعلم فيهــا القــراءة ولكنك ستقرأ باسم ربك. أى العلم الذى سيأتيك هو منْ الله سبحانه وتعــالى وهــو عــلم يحيط بعلوم البشرية كلها، ولكنه لا يحتاج منك إلى أن تتعلم القراءة والكتابة لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيعلمك ما لم تعلم)[1].

فمحمــد لم يكن كاتباً أو قارئاً، ولم يعرف أنه اتصل بأحد يعلمه. أو يخبره بأخــبار الأمم السابقة مما يعنى أن القصص القرآنى الذى يتناول ذلك كله إنما هو وحى يوحى، ولقد نزل بلسان عربى مبين.

ولقد أوردت القصص القرآنية أصل الخلق، ورجعت فى الزمان بعيداً حيث ســوّى الله آدم وخلقه من طين. ورسول الله يتلقى ، ويخبر الناس، ويمسك فى يده دليل الوحى. فكيف له وهو الأمى أن يعرف كيف خلق الله الكون؟ وكيف خلق الله آدم؟.

قــال تعــالى: ﴿قُــلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ • رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ • قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ • أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ • مَــا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ • إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ • إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ • فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِــي فَقَعُــوا لَهُ سَاجِدِينَ • فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ • إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

تســجل الآيــات عــلى كفار قريش كما سجّلت على الأمم السابقة، الغفلة، والجحــود، وتــبين أن الرسول لم يكن له علم باختلاف الملائكة فى شأن خلق آدم لــولا الوحى المنزل على الرسول. (قال ابن جزى: والقصد.. الاحتجاج على نبوة محمــد (ﷺ). لأنــه أخــبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك. والإشارة إلى اختصام الملائكــة هــو ما جاء فى قصة آدم حين قال تعالى لهم : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ حسبما تضمنته قصته[3].

---

(١) من حديث للشيخ الشعراوى. مجلة اليقظة عدد ١٩٨٥/١٢/١٩ ص٢٢.

(٢) سورة ص آيات ٦٥-٧٤.

(٣) صفوة التفاسير جزء ٣ص٦٥.

وسورة "ص" مكية تعالج أصول العقيدة، فتحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين، ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام، تسلية للرسول وإيناساً له، كغيرها من السور التى ورد بها قصص القرآن .. فهى تؤنسه مما يقوم به الكفار من استهزاء وتكذيب، وتخفف عنه الآلام والأحزان، فتذكر قصص أنبياء أمثال داود وسليمان وما جمع لهما الله من الملك والنبوة، وما حدث لهما من فتنة وابتلاء وكذلك قصة النبى أيوب (عليه السلام) وابتلائه ومعاناته الشديدة من المرض.. وغير ذلك، مما توضحه القصص، من أن لله سنة فى ابتلاء أنبيائه وأصفيائه. وإلاّ فكيف يُعرف الحق؟ إن الخير لا يتحقق إلا بمعاناة وآلام وتطهير للنفوس.

إن القصص القرآنى فيه إيناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه من الرسل الكرام. فلقد كانت هذه الأخبار لا تعلم إلاً لمن شاهد، وما شاهد أحداثها، ولكنه تلقاها وحيا مرسلاً.

قال تعالى وهو يذكر قصة مريم ويؤكد على تلقى الرسول للوحى ليثبت فؤاده. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(1).

وقال تعالى فى خبر موسى وقصته ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(2).

والقصص القرآنى ذاته فيه من مظاهر الإعجاز الكثير، وهو إعجاز إخبارى عن أمم سابقة جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب إذ هو النبى الأمى الذى لم يشاهد الوقائع ولم يقرأها. فكانت القصص تثبيتاً له، وتأنيساً . والقرآن وهو يعرض فى قصصه أحداث الأمم السابقة، يهدف من ذلك إلى إبراز أغراض دينية متعددة كالعبرة ، والتوحيد، والتسلية، والتوجيه ولنأخذ نموذجاً يتمثل فى قصة صالح وثمود.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ

(1) سورة آل عمران آية ٤٤.
(2) سورة القصص آية ٤٦.

وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ • قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ • فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ • فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ • فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (١).

والآيات الكريمة تبين موقف المعاندين من صالح ، وهو موقف يواجهه كل نبى ورسول ومن ثم يضحى للإيناس والعبرة والتسلية للرسول، دورها الفعَّال المساند له، والقصة تبدأ بدعوة صالح لقومه بعبادة الله وحده لا شريك له، وتوحيده، وكعادة المعاندين طلبوا معجزة خارقة حتى يصدقوا صالحاً، فأخبرهم صالح بأن المعجزة هى ناقة الله، وقد أضافها إلى الله تشريفاً وتذكيراً بالمعجزة. ومجال المعجزة أنها خلقت بلا واسطة، ومن ثم كانت حياتها مغايرة لحياة النوق الأخريات. حيث طلب صالح من قومه أن يتركوها تأكل من رزق الله، وذكرهم صالح بنعم الله عليهم حيث أسكنهم أرضاً بنوا فيها القصور الشاهقة، ونحتوا من الجبال سكنهم. وواجب القوم عندئذ أن يشكروا الله على ما تفضل عليهم من نعم والبعد عن الفساد فى الأرض. وانقسم الناسُ إزاء دعوة صالح إلى قسمين. قسم مستكبر، لم يصدق بنبوة صالح، وهم أشراف القوم وعليتهم وقسم مستضعف آمن به، وصدّقوا بدعوته. واعتدى الكافرون على الناقة فعقروها وتحدوا صالحاً أن ينزل بهم العقاب الذى وعدهم به إن فعلوا ذلك. ولأنهم فى هزئهم وسخريتهم وكفرهم وضلالهم قد بلغوا المدى، فلقد حقّت عليهم الغضبة الإلهية. فأخذتهم صيحة من السماء فهلكوا، وجاءت كلمة "جاثمين" لتصور موقفهم أروع تصوير. فلقد ماتوا وهم ملتصقون بالأرض، على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر (٢).

---

(١) سورة الأعراف آيات ٧٣-٧٩.

(٢) صفوة التفاسير الجزء الأول ص٥٥٥.

ولقــد أدبــر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدتهم، وقال متفجعاً، لقد بلغتكم الرســالة، ودعوتكــم إلى الــتوحيد وحذرتكم عذاب الله، ولكنكم أبغضتم ناصحيكم فاستحققتم العذاب.

والقصــة فيها كل أغراض القصة القرآنية وأسلوبها فى الحكاية عن أخبار الأمــم السابقة لتسلية الرسول. والقصة تكشف عن أسباب هلاك ثمود. ولقد جاءوا بعــد قوم عاد. ثم طويت صفحتهم بعد ما أخذتهم الرجفة لبغيهم وظلمهم، فأصبحوا أثرًا بعد عين.

فــالمحور الأساســى الذى تدور حوله القصة هى دعوة الرسول إلى الله، ثم إعراض قومه عنه، وتحديهم لهذه الدعوة الجديدة، ثم إبراز سوء العاقبة. إنها تمثل صراعاً بين الخير والشر، والإيمان والكفر.

والغــرض الذى تتضمنه القصة هو تسلية الرسول وإيناسه، فهو نفسه يدعو قومــه إلى الإســلام، وانقســم قومه قسمين، مستضعفين يؤمنون به، ومستكبرين كافــرين. والمغــزى أن الرســول ليــس بدعاً بين الرسل، فالكل يدعو الله والكل يواجهــون بالــتحدى، وليــس على الرسول إلا الصبر والتحمل والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. كما تتضمن أيضاً تحذير المكذبين لرسول الله (ﷺ)، والمتحدِّين لدعوته أن ينزل عليهم العقاب الذى نزل على ثمود.

والقصة تثير الرهبة والخوف، كما تثير الإحساس بالأمان فى كنف الدين.

ولقــد جــاء التصوير فى القصة مبدعاً، ومعجزاً، فتصوير الفاجعة تصوير موجــز ومــوحٍ ليعطى لنا عمق الإيناس للرسول، وتحذير المتحدّين والاعتبار بما ســبق للأمــم الماضية. وهو يبقى فى النفس تأثيراً قوياً، يجعل القلب يرتجف وهو يعلم مصير صاحبه الظالم الكافر الذى تسيطر عليه نوازع الشر، كما يطمئن النفس المؤمنة إلى المصير الطيب الذى وعدت به.

وفى هذا المجال فإن هذا الغرض الدينى الذى تبرزه القصة القرآنية يتضمن أن الله ينصــر أنــبياءه ورســله فى نهايــة الصراع والتحدى وأنه يهلك المكذبين الضالين والعصاة الكافرين.

وفى ذلــك تــأييد للرسول وتثبيت له، وتأثير فى نفوس الأتباع الذين يعانون مــن جبروت الكافرين وظلمهم، فيقبلون على الدعوة ويؤمنون بها دون خوف ولا وجل.

وتــبعاً لهــذا جــاءت قصــص الأنبياء مجتمعة ومتفرقة مختومة بمصارع المكذبيــن . ويصبح تكرار القصص تأكيداً على هذا الغرض وتثبيتاً للرسول (ﷺ) قال تعالى ﴿وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

وقال تعالى فى مجال ما حدث للرسل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ • فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٢).

وأنزل الله عليهم عقابه، فقال تعالى فى نهاية القصة : ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٣).

وهكــذا يقــف الله مــع أنــبيائه ورسله يؤازرهم وينصرهم وينزل غضبه بالمكذبين الجاحدين. إن الخير والحق ينتصران ولو طال أمد الشر.

◈ رابعاً : الدعوة إلى الخير وحسن المعاملة والعفة :

لا شــك أن القصــة القــرآنية وقد قامت بتأييد الرسول (ﷺ) وإيناسه فى وحشــته وتســليته، فإنهــا أيضاً أدت دوراً هاماً للتسرية عن المسلمين، وتخفيف الضــغط عــنهم والناشئ من قسوة المجتمع الجاهلى عليهم، فقد كانوا يلاقون أشد أنــواع التعذيب وأزرى أنواع المعاملة، حتى لقد بلغ الأمر بالمسلمين أن طلبوا من الرسول أن يستنصر لهم ويدعو أن يرفع عنهم هذا العذاب.

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٤، ١٥.

(٢) سورة العنكبوت آية ٢٨، ٢٩.

(٣) سورة العنكبوت آية ٣٤.

فالقصـــة القـــرآنية قـــامت بدورها الفعَّال فى تخفيف الضغط العاطفى عن الرسول وعن المسلمين تثبيتاً لأقدامهم وتقوية لعزائمهم.

ومـــن ثـــم جـــاءت القصـــة القرآنية لترسم النموذج الكامل للمعاملة الطيبة والسلوك النموذجى الذى يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم. فبينت أن دعوة الأنبياء دعـــوة إلى الخيـــر، وإلى حسن التعامل، وإصلاح العمل، وتقويم النفوس وتهذيب الأخلاق، وعمارة الأرض، والتحذير من إفساد الحياة وتخريب النفوس.

وإذا وردت هذه القيم الأخلاقية كلها ضمن قصة، تغلغلت إلى النفس وتمكنت مـــنها. وفى قصـــة "شـــعيب" مـــع قومـــه نموذج لهذه الدعوة الكريمة إلى الخير والصـــلاح. فقد دعاهم إلى التوحيد - وإلى الوفاء فى الكيل والميزان، وإعطاء كل ذى حق حقه والبعد عن الفساد.

قال تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْـــرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(١).

ولقـــد تضـــمنت القصة حواراً يدور بين النبى الداعية والقوم المبعوث إليهم ودار الحـــوار حـــول التوحيد ، ثم أنواع من الخير، وحسن المعاملة كإيفاء الناس حقوقهـــم، والأمانة، وعدم الجلوس فى الطرق لتخويف المؤمنين وتهديدهم بالقتل، (قـــال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون منْ أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه، على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ (٢)).

ولـــم يَيـــأس شعيب من قومه فهو حريص على إصلاح الفساد فى نفوسهم ومعاملاتهم فكرر الدعوة ولكنهم قاوموه وأصروا على المقاومة وعلى الشر. فحق

(١) سورة الأعراف آية ٨٥-٨٦.
(٢) صفوة التفاسير الجزء الأول ص ٤٥٨.

عـليهم العذاب. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ•قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١).

وفى هـذه الآيات ضرب المثل بالقدوة. ففى مجال النصيحة وحسن المعاملة تصـبح القدوة مفتاحاً إلى القلوب المغلقة، والنفوس المطموسة. ومن ثم فقد وضح شـعيب لقومه أنه لا يعقل أن ينهاهم عن شىء ويرتكبه، وإنما هو يأمرهم بما يأمر بـه نفسـه . وهو حين يأمرهم بالتوحيد وبترك البخس فى أموالهم وموازينهم إنما يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ثم حذرهم من العذاب، وضرب لهم نمـاذج من الأمم السابقة حق عليهم العذاب. كقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وتمادى القوم وظلوا على سوء حالهم وفسادهم وضلالهم ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وهكذا أخذت صيحة العذاب القوم لبعدهم عن الدين وابتعادهم عن المعاملة الطيبة، والأمانة.

والآيـات تبين مراعاة الأمانة وضرورة توفرها فيما يتصل بالشئون المالية، خاصـة إن كانوا قوماً للمال فى حياتهم دور كبير، وهم فى ذلك يشبهون أهل مكة وسـراتها مـن التجار والأثرياء فى عهد رسول الله. وكانوا يتعاملون فى أموالهم بالـبخس والربا، فكان إيراد هذه القصة تسرية للمسلمين عن سوء المعاملة، وبياناً للمسـلك المـالى الخـاطئ الذى يسلكه كفار قريش، فشئون المال لها صلة وثيقة بالدين.

ولقـد ضـرب شـعيب المثل والقدوة. ذلك أن الاستجابة إلى من يدعو إلى الخير تقتضى أن يكون الداعى عاملاً به مستجيباً له.

واذا مـا نظـرنا إلى القـرآن وهو يسوق قصة (يوسف) (عليه السلام) نجد أن القصـة تحتوى على عظات بالغة، كما أنه يدعو وبالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصـام بالعفاف والشرف والأمانة. ففى جزء من أجزاء القصة الرائعة، يتواجد

(١) سورة هود آية ٨٧-٨٨.

يوسف مع امرأة العزيز فى موقف، قلما ينجو منه إنسان إلاً منْ عصم الله. موقف يوضـــح صراع الخير مع الشر، الجمال مع القبح، الرفعة مع الدنية، الإنسانية مع الحيوانية، الأمانة مع الخيانة، العفة مع الابتذال.

قـــال تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ • وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ • وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَـــزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ • وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ • فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُـــرٍ قَـــالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ • يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (١).

الآيـــات الكـــريمات تحـــكى قصة النفس البشرية حين يسيطر عليها الهوى ويجـــنح بهـــا إلى مهـــوى الإثـــم. إنّها اللحظة، التى تبدو فيها الأمور مهيأة للفعل وللسقوط فى الفحشاء، والتأثير لدوىّ المرأة وهى تلح فى همس ونعومة ومخادعة. فامـــرأة العزيز تجملت ودعته وأحكمت أسبابها. ويوسف (عليه السلام) يرتجف مستعيذاً بـــالله مـــن هول الفعل. (قال أبو السعود: وهذا إشارة(معاذ الله) إلى أنه منكر هائل يجـــب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لما أراه الله من البرهان النيّر على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء(٢).

وانظـــر كيف يقف يوسف موقف الكرام الذين تجسّدت فيهم مكارم الأخلاق جميعهـــا. يقـــول يوســـف : سيدتى كيف أقدم على هذا الفعل الشنيع؟ كيف أخون سيدى؟ كيف أنتهك عرضه الكريم: وهو الذى ربَّانى وأحْسَن رعايتى؟ ولكنّ المرأة تفنَّـــنَتْ فى أساليب الإغراء وتوسلت بكل أسلحة الأنثى حتى كادت تنشب عواطفها

(١) سورة يوسف آية ٢٣-٢٩.
(٢) صفوة التفاسير جزء ٢ ص ٤٦

فى قلــبه، فى قوة، وتصميم . ولكن الله حفظ يوسف (إن همّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميْلاً جبلياً لا أنه قصدها قصداً اختياريا، ألا يرى إلى ما ســبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظــالمين. وهــل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه تسجيلاً محكماً [1]. لقد صــرف الله عــن يوسف الزنا، ومنحه من موجبات العفة والعصمة ما جعله بعيداً عن هذا الفعل الذميم.

والآيــات الكريمات تصور حالة التغير والتبدل التى تعترى المرأة فى مثل هــذه المواقــف إذا ما جابهتها المفاجأة. إنها تتحول وبمهارة فائقة لتقلب الوضع، ليصبح المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً، والبرىء متّهما. ولكن الزوج يدرك الحقيقة فيطلب من يوسف كتمان الأمر ويصف ما فعلته زوجته بأنه من كيد النساء.

وهــنا يتــبدى لنا أن العزيز قليل الغيرة ممن أرادت خيانته وتدنيس فراشه بالإثم والفجور.

يقــول ســيد قطــب فى الظلال. (وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية فى المجــتمع الجاهــلى، رخــاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية وميل إلى كتمانها عن المجــتمع، فيلتفت العزيز إلى يوسف البرىء ويأمره بكتم الأمر وعدم إظهاره لأحد ثــم يخــاطب زوجه الخائنة بأسلوب اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العــروق. ويــرى . أن تلك صورة من صور الترف والحضارة المادية التى كان عليها أهل القصور)[2].

لقــد قوبــلت دواعى الغواية بدواعى العفاف. مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان ووضعتهما أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان.

لقــد جــاءت القصة مزيجاً حلواً سائغاً شرابه يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية.

---

(١) صفوة التفاسير جزء ٢ ص ٤٧.

(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب جزء ١٢ ص٢٣١/ ٢٣٢.

والقصص القرآنى الكريم وهو يعرض قصص "الفاحشة" لا يعرضها لإثارة تـلذذ القــارئ أو السامع بمشاعر الجنس المختلفة الانحراف والمشارب، كما يفعل أصحاب القصص فى العصر الحديث. فلحظة الجنس لا تستحق التوقف عندها فهى ليســت الحيــاة وإنمــا وسيلة من وسائل الحياة، إنه عارض وينتهى فاسحاً المجال للتصور الإيمانى الكبير للكون والحياة والإنسان.

إن القصـــة هنا تدعو إلى إقامة مجتمع نظيف مُبَرّأ من العلل، دون فتنة أو انحـــراف. فالفـــتن فى عرض لحظة الجنس إسراف فى المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية. وتحويل للوسيلة حتى تصبح غاية.

(تلك قاعدة مرعية فى كل قصص القرآن عن (الفاحشة)، وهى كذلك ينبغى أن تكـــون مرعية فى كل القصص الإسلامى. إن الإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنســية، نظيفة كانت أو غير نظيفة، ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف. ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض، لحظة ضعف لا لحظة بطولة ولحظة عابرة يفيــق مــنها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يظل دائراً فى حلقتها المرتكسة على الدوام[(١)].

◈ خامساً : أصل الأديان واحد ووسائل الدعوة واحدة :

الديـــن لله، والله وحده هو الذى يهدى خلقه إلى الطريق الصحيح، فالإنسان بمـــا ركب من مادة وروح، معرض للخطأ والخطيئة، فهو حين يسفل تسيطر عليه المـــادة، وحيـــن يشـــف يصبح كائناً روحانياً، أقرب إلى الشفافية منه إلى الجمود والثقل.

والقـــرآن الكـــريم، يتحدث عن الإنسان، منذ أن خلق وكيفية خلقه جنيناً فى بطـــن أمـــه ثم استخلافه فى الأرض وعمارته للكون، واستحقاقه للثواب والعقاب. والقـــرآن يرشـــد الإنسان إلى مواقع الخير ويدعوه إليها وعن وجوه الشر ويحذره منها، هذا الإنسان المختار هو الذى صنعه الله على يده ونفخ فيه من روحه وسواه خـــلقاً آدميـــاً كريماً وأمر الملائكة أن تسجد له إلى أن وسوس الشيطان، فنزل إلى الأرض من جنة الله الخالدة.

---

(١) منهج الفن الإسلامى . محمد قطب . ص ١٦١-١٦٢ دار الشروق.

وحـب البقاء طبيعة فى كل حى وهو فى الإنسان طبيعة وإرادة معاً، طبيعة تدفعـه إلى حفـظ نوعه والإبقاء على ذاته أطول عمر ممكن، ففي ذلك دعم لبقاء نوعـه وتوكيد لحفظ هذا النوع، وحب البقاء فوق ذلك هو إرادة تخلقت فى الإنسان مـن اتصاله بالحياة واختلاطه بالأحياء واشتباك مصالحه بهم، وانفساح آفاق آماله بينهم وامتداد آثاره فيهم.

ولقـد كشـف القرآن الكريم عن هذه الإرادة الصارخة فى الإنسان إلى حب الحيـاة والتعـلق الشديد بها، فقال تعالى وهو يتحدث عن طبيعة اليهود فى حياتهم مخاطباً الرسول لتوعيته وتحذيره. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (١).

وفى كـلمة حياة ، وقد جاءت نكرة، إشارة معجزة على أن هذه الحياة التى يحـرص عـليها اليهـود أشـد الحرص هى حياة تافهة يعيش فيها صاحبها أشبه بـالحيوان بـلا عقل ولا قلب، إنها حياة مجرد حياة، يتحرك فيها الجسد بلا إدراك ولا وجدان(٢).

ومتاع الحياة الدنيا قليل. قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٣).

وتختلف نظرة المؤمنين بالله واليوم الآخر إلى الدنيا وتعاملهم معها عن أهل الضلال، فهم لا يفزعون من الموت ولا يفرون منه بل يقبلون عليه راغبين فيه فى مواقـف الدفاع عن دين الله والاستشهاد فى سبيله قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِـنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤).

وحيـن يخـتل التوازن فى الإنسان بأن يسيطر الجانب المادى الحياتى على عقله ووجدانه وتفكيره وسلوكه ويصرفه عن عبادة الله، ووحدانيته، ويرمى به إلى

(١) سورة البقرة آية ٩٦.
(٢) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٢٢٥.
(٣) سورة آل عمران آية ١٨٥.
(٤) سورة التوبة آية ١١١.

مهاوى الضلال، فنطمس الفطرة السليمة، وتظلم النفس الإنسانية وتتحول الحياة إلى ساحة وثنية، ليتصارع البشر حول المادة ويعبدون المادة التى يصنعونها. ويعلو الضجيج الوثنى وتتوارى كلمة الله فى قلوب المؤمنين المرتجفين بإيمانهم.. حين يحدث ذلك يرسل الله إليهم رسله بالهداية ودين الحق. وكل الأديان، التى نزلت على رسل الله إلى خلقه تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ولكنهم بما جبل فيهم من المعاناة والمكابرة، تأخذهم العزة بالإثم فيقبضون أيديهم عن هذه اليد الكريمة الممدودة لهم بالنجاة، وعندئذ يحق عليهم عذاب الله، فيسوء مدبرهم، وتحل عليهم لعنة الله.

ولهذا كله كان من أغراض القصة القرآنية بيان الأصل المشترك بين الإسلام كدين ختم به الله الرسالة إلى البشر وبين الأديان جميعاً. فالدين لله وحده. ولقد أبرزت القصة القرآنية هذا الغرض إبرازاً قوياً وواضحاً فى مجال رسالات السماء، وصراع الرسل مع أقوامهم لهدايتهم إلى التوحيد طريق النجاة من العذاب.

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى • إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى • صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾(٢).

وفى قصة هود إلى قومه نموذج إلى أن الدين واحد، وإلى أن دعوة الرسل إلى أقوامهم واحدة.. وما "هود" إلا نموذج واحد لعشرات الأنبياء والرسل الذين حملوا الدعوة إلى الله.

ولقد أبرزت القصة القرآنية أن وسائل الأنبياء فى الدعوة واحدة وأن استقبال أقوامهم لهذه الدعوة متشابه. فضلاً عن أن الدين من عند إله واحد وأنه قائم على أساس واحد. وتبعاً لذلك كانت ترد قصص كثيرة عن الأنبياء، مكررة فيها طريقة الدعوة(٣).

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥.
(٢) سورة الأعلى آيات ١٦-١٩.
(٣) التصوير الفنى فى القرآن ص ١١٦ طبعة بيروت.

قــال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْــرُهُ إِنْ أَنْــتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ • يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَــرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ • وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ • قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْــنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ • إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِــنَا بِسُــوءٍ قَــالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ • مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ•إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِــذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ• وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ• وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ•وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(١).

هــا هــو هود (عليه السلام) يدعو قومه "عاداً" إلى عبادة الله. إنهم ارتكسوا إلى الوثنية واغتروا بقوتهم ومنعتهم ورزقهم الواسع، وكذبوا هودًا. وتبدأ الدعوة وهود أحــد أفــراد عاد، ولكن الدعوة تنتهي وقد افترق عنهم حيث يقف الله مع المؤمنين ضد الكافرين. ولقد تودد إليهم داعياً إياهم إلى التوحيد. ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْــرُهُ﴾. وهى قولة واحدة جاء بها كل رسول، كدعوة خالصة وصادقة لإخراجهم مما هم فيه. ويطلب هود من قومه أن يستغفروا حتى يمن الله عليهم بالمطر. ولقد ردّ القوم عليه بأنه لم يأت ببينة، ومن ثم فهم متمسكون بآلهتهم وكافرون بما يدعو إليه هود. وتبرأ هود من قومه، وأشهد الله على ذلك ويشهدهم هم بأنفسهم على هذه الــبراءة كى لا تــبقى فى أنفســهم شبهة. والإنسان يدهش لرجل فرد يقتحم قوماً غلاظــاً. إنهــا طــريقة الرسل أجمعين وهم يقتحمون أقوامهم ويتصارعون معهم بالحكمة والموعظة الحسنة (إن هذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة فى نفسه لا تــدع مجــالاً للشك فى عاقبة أمره ولا مجالاً للتردد عن المضى فى طريقه. إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة(٢).

(١) سورة هو آيات ٥٠-٦٠.

(٢) فى ظل القرآن جزء ١٢ ص ٩٨.

إن أصـــحاب الدعـــوة إلى الله لابـــد أن يجدوا حقيقة ربِّهم في نفوسهم حتى يستعلوا على قوى الجاهلية الطاغية من حولهم.

إن الدعـــوة تـــبدأ مـــن رسول جاء إلى قومه هو، يدعو فيها إلى عبادة الله وحـــده، ويطلب من القوم التوبة، والرجوع إلى الحق والابتعاد عن الفساد. ويواجه الرســـول من قومه بالعناد والغلظة والفساد. فيتبرأ منهم الرسول، بعد أن ييأس من إصلاحهم. ويحيق عذاب الله بالقوم ويصبحون عبرة وعظة لغيرهم.

وتـــلك هي الخطوط الرئيسية التي تتناولها القصة القرآنية في مجال الوسائل الـــتي يـــلجأ إليها الرسل في دعوتهم. وهذه القصص القرآنية تدل على وحدة الدين ووحدة الوسائل.

◈ سادساً : الحث على العدل والبعد عن الهوى :

أبـــرزت القصة القرآنية أهمية العدل في سياسة الأمم والناس. ووصف الله نفسه بأنه الحكم العدل. وأكدت القصص على أن المقياس الحقيقي للحكم العادل هو إدراك الحـــق. وألا يكون للهوى سلطان في الحكم، ذلك أن الهوى جامح يؤدي إلى الشطط في الأحكام، واحتمال الابتعاد بها إلى الوقوع في مظلمة الناس. ولابد لمن يقـــوم بالأحكام والتقاضي أن يكون عالماً مؤمناً مدركاً للحق بعيداً عن الهوى. وأن يكـــون حكمه واحداً في حالتي الرضى والغضب، ذلك أن الانفعال سريع التحوّل، دائم التغيرّ، وهو أمر لا يتلاءم مع درجة العقل والحكمة التي يجب أن يتصف بها من يقف في موقف إصدار الأحكام.

وحيـــن تورد القصة هذا اللون من السلوك، يكون له تأثير قوي في المتلقي حيث إن المتلقي والمشاهد لمجريات التقاضي والمحاكمة، يضحى واعياً تماماً بكل حـــركة وبكـــل حكـــم بل وبكل إشارة، وعينه مصوبة، وسمعه مشدود مما يكون للانفعـــال أثره القوي في النفس.. من حيث تطهير المشاعر وإعلائها أو الانحطاط بها إلى مدارج لا يحق للنفْس أن تصل إليها.

وفي قصة "داود" نموذج لهذا الغرض الديني الذي تتضمنه القصة القرآنية.

قـــال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخصْم إِذْ تَسَوَّرُوا الْمحْرَابَ • إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَـــزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خصْمَان بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْـــطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاط • إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَـــةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخطَاب • قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَـــى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ وَقَـــلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ • فَغَفَـــرْنَا لَـــهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب • يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَـــاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(١).

وفى هـــذه القصـــة يحســـن التأكيد أولاً على أن داود كان نبياً وملكاً، قوياً وعزيـــزا، وكان يسوس ملكه بالحكمة والحزم معاً ويقطع برأى حاسم، ولقد بينت الآيـــات أن داود أوتى الحكمـــة وفصل الخطاب. ومن ثم كان هذا الموقف اختبارا لداود فى حكمه وقضائه.

وبدئـــت الآيـــات بالاســـتفهام ثـــم بضمير المخاطب، وهو ضمير يقصد به محمد (ﷺ)، وهو من هذه الناحية يعتبر تسلية وإيناسا للرسول، والاستفهام قصد به إثـــارة الانتباه، وتفتح المدارك وتهيئها لما يقال ، والتشويق إلى سماع هذا الموقف العجيب الذى حدث لداود.

إن داود يتعـــبد فى محرابه، وتلك عادته، فكان يخلو فيه ولا يدخل عليه أحد حـــتى يخرج هو إلى الناس. ثم تأتى المفاجأة التى لم يتوقعها حيث فوجئ بخصمين بداخل محرابه ففزع وأضمر فى نفسه شيئاً. وطمأناه بأنهما خصمان، وبدأ الأول فعرض الخصومة. وأجاد الأول فى شرح مظلمته، وهو يشير إلى الآخر، وبيّن أن خصمه عنده تسع وتسعون نعجة، (والنعجة يكنى بها عن المرأة) وأنه يملك واحدة، وأراد خصـــمه أن يجعـــل نعجـــته تحت كفالته، ويضيفها إلى ما عنده حتى يصبح المجموع مائة نعجة. (وانفعل داود حين سمع هذه المظلمة الصارخة ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا ولم يطلب إليه بياناً ولم يسمع له حجة ولكنه مضى يحكم بقوله

(١) سورة ص آيات ٢١-٢٦.

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ .. فعاتبه الله على ذلك ونبّهه إلى ضرورة تثبت القاضي من حكمه وسماعه للخصم الآخر(١).

والقصة هذه تتضمن ثلاثة أمور فى الإشارة إلى كل واحد منها تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل فى الأحكام.

أولاً : أنه سبق إلى الحكم دون أن يستمع إلى الخصم، وذلك قد يكون مدعاة إلى الظلم.

ثانياً : لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة، ذات الظروف الخاصة والملابسات المحددة بل عمَّم الحكم. والقضاء يكون فى القضية المدروسة فقط ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ .

ثالثاً : الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة، والحكم الظالم هو ما يقع تحت سلطان الهوى والشهوة. ومصدر الشر هو الأهواء ومن يتبعوا أهواءهم فيما يحكمون، يظلموا، ويسنوا قوانين ظالمة، ويطبقوها تبعاً لأهوائهم.

فإذا نهى الله نبيه داود عن ذلك، فإنما ينهاه عما يؤدى إلى فساد الحكم، وبهذا يتبين أن الحكم بالهوى مدخل إلى الظلم.

وذكرْ ذلك فى قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبييناً وتأكيداً. ذلك أن ذكر أى موقف فى قصة ما يجعله يسرى فى النفوس ويدخل إلى الضمائر فيوقظها وينبهها.

وتصبح القصة القرآنية فى هذا المجال مرشدةً وهادية إلى أقوم السبل(٢).

◈ سابعاً : تقويم المشاعر الإنسانية وتعديلها :

بسط القرآن الكريم الحديث عن النفس الإنسانية، وبين أن عمل الإنسان من خير أو شر إنما يرجع إلى النفس، وإليها يكون الثواب والعقاب، وللنفس حضورها

---

(١) صفوة التفاسير جزء ٣ ص٥٥.

(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص١٩٦.

في الجـنة والـنار والثواب والعقاب ذلك لأنها ذات شأن عظيم في سلوك الإنسان وفي هديه وضلاله.

والـنفس هي جوهر الإنسان ، وإليها وبها يكون صلاح الإنسان أو فساده. فمن نفس الإنسان توجد أنسام الطمأنينة والخير والراحة النفسية. ومنها أيضاً تثور الأعاصير المهلكة.

ولقـد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة : هي النفس المطمئنة وهي الـنفس الـتي تؤمن بالله وتستحضره في كل موقف. وهذا الذكر الدائم يفيض على النفس أمناً واطمئناناً.

فالـنفس المطمئنة هي التي سكنت ريح أهوائها وما تسول به لصاحبها من وسـاوس السوء ونزعات الشيطان فيأمن الإنسان معها من أن تضطرب به سفينة حياته.

يقـول جـلَّ وعلا : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(1).

والنفس الأمارة : هي النوع الثاني المقابل للنفس المطمئنة، فهي تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيناً. إن أعدى أعداء الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه فهي مدخل الشـيطان إليـه، بوساوسه ومغرياته، إنها الوحش الضاري لا تأنس إلى خير ولا تـأوي إلى أنيس. "فهي نزاعة للشر، داعية إلى العدوان متهجنة على الحرمات"(2). ومـع ذلك فإن لهذه النفس الأمارة علاجها وتطبيبها من دائها. ولا يكون العلاج إلا بذكر الله والرجوع إليه. قال تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (3)

والنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربَّه. (والـنفس اللوامة لا تسكن إلَّا قلب المؤمن بالله المراقب لجلال سلطانه وما يخشى

---

(1) سورة الرعد آية ٢٨.
(2) الإنسان في القرآن الكريم ص ٩٥.
(3) سورة يوسف آية ٥٣.

مـــن ســـطوة عذابـــه ســـبحانه، يوم يقوم الناس لرب العالمين فى موقف المساءلة والمحاسبة وفى مقام الثواب والعقاب)[1].

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [2].

فالنفس اللوامة لا تزال على شىء من الفطرة السليمة ونقائها فإذا طاف بها طـــائف مـــن الإثم هاجت، ولا يقر لها قرار ولا يسكن لها حال حتى تتخلص منه وتعود إلى رحاب الله نقية كما كانت صافية كما خلقت.

ولقد عالجت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكها المريضة، حتى تضرب للبشـــر العبرة، وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الإنسانية بين الخير والشر، وهما قوتان تتصارعان منذ أن همس ابليس لآدم أن يعصى ربّه.

كمـــا عـــالجت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها وضربت لذلك نماذج للـــنفس الخيّـــرة الكريمة، التى تعلو على مفاسد الدنيا وأهواء الذات البشرية، فتعلو ويعلو معها الخير، وتورق وتثمر معها أغصان الحياة فضائل ومكارم أخلاق.

ومـــن خـــلال هـــذا الضرب من القصص القرآنى، تأتى الأحكام التشريعية لتعديل السلوك وتقويمه. وضبط العاطفة وكبح الانفعال.

ويجـــدر بالذكر التأكيد على أن (أول صورة للعاطفة الأخلاقية هى الشعور بالممـــنوع والمكروه. فقد كانت الأشياء فى الجماعات الابتدائية منقسمة إلى ممنوع ومطـــلوب، وحـــرام وحلال. فأدى وجود الممنوعات والمحرمات إلى إيقاظ شعور الإنســـان بشخصـــيته وإرادتـــه. لقد كان هذا المنع فى الجماعات الابتدائية منعاً خارجيـــاً، فـــلما ارتقت الحياة الاجتماعية أدى ارتقاؤها إلى استبدال الرادع النفسى بالمانع الخارجى، وصارت النفوس تردع عن غيّها ، لا خوفاً من عقاب، ولا طمعاً فى ثواب، بل لأن لها منها زاجراً)[3].

---

(١) الإنسان فى القرآن الكريم ص٩٧.
(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١.
(٣) علم النفس دكتور جميل صليبا ص ٢٨٧ دار الكتاب اللبنانى بيروت ط٣.

وهذا التبدل يعنى أن شيئاً ما يتحول ويتبدل من السئ إلى الأحسن، ومن ثم فإننا نلمس حساً أخلاقياً نامياً وراء هذا التبدل والتغير فى السلوك. وقد ينشأ هذا التغير من موقف عنيف أدى إلى الزجر والرفض والتهديد، وقد يستمر الأمر دون تغير ملموس مما يستدعى وجود الرادع الخارجى حتى تتربى النفس على تنمية رادعها بداخلها.

ووراء النفس البشرية حياة متلاطمة الأمواج قليل منها يظهر والكثير مؤلف من نزعات خفيّة وأهواء دفينة وأحلام مكبوتة. وذلك كله مطمور تحت قشرة رقيقة فى المخزون النفسى الذى يشبه البركان الخامد . ولا شك أن لهذه التراكمات المكبوتة آثارها على الذات والسلوك، من قلق وألم وقهر ويأس إلى الإصابة بالعقد النفسية، والأمراض العقلية العصبية.

ولنذكر فى هذا المجال أن قصة قابيل وهابيل ولدى آدم نموذج فذٌ – موجز غاية الإيجاز، قيل دفعة واحدة ولم يتكرر كعادة القصص القرآنى – على حدة الصراع بين قوتى الخير والشر، أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء. قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ • لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ • إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ • فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ • فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(١).

القصة تبدأ بالأمر الإلهى إلى رسوله بقص قصة ولدى آدم إلى اليهود الذين يحسدون على المسلمين دينهم ورسولهم. القصة تتحدث عن عاطفة بشرية مريضة هى عاطفة الحسد. فلقد قرب كلٌ منهما قرباناً إلى الله فتقبّل من هابيل ولم يتقبل من قابيل. فازداد قابيل حسداً وتوعده بالقتل. وكان أصل الصراع ومداره هو الأنثى .. المرأة.. مما يوحى بأن العاطفة غير الناضجة تجاه الأنثى تؤدى بصاحبها إلى

---

(١) سورة المائدة آيات ٢٧-٣١.

الهلاك وبمن معه أيضاً. وشرع قابيل يهدد أخاه في عنف وحدة وشراسة تنبئ عن وقوع نفسه تحت سيطرة الهوى والجموح الانفعالي والحسد الذى هو مرض نفسى، على حين لم يرفع هابيل تجاه أخيه قابيل يداً أو يقوم بحركة عنيفة، فهو الرجل الخيّر ذو النفس المطمئنة. وواجه أخاه قائلاً: لا أمد يدى إليك لأنى أخاف الله ربَّ العالمين. وإن فعلت ذلك، وقادتك نفسك الشريرة إلى فعل هذا الجرم الشنيع فإنك سترجع بإثمين إثم قتلى، واثم نفسك الهالكة. وانطمست النفس ورجعت إلى بدائيتها الأولى، وطغى الحسد والحقد وتملكت النفس الأنانيةُ والغيرةُ، فأقدم قابيل على قتل أخيه ثم حار ماذا يفعل به بعد قتله؟. فأرسل الله إليه غراباً أفهمه – بما فعل – كيف.. يحفر في الأرض ليوارى جثة أخيه. فقام وستر جسد أخيه في التراب. إننا هنا أمام انفعال عنيف يجتاح النفس فيؤدى إلى جريمة نكراء وهى قتل النفس البريئة التى حرّمها الله.

والأنانية ترتكز عليها النفوس المريضة، والإنسان الذى تسيطر عليه الأنانية كشعور مرضى يعمل على هدم نفسه وهدم غيره أيضاً، ويتآمر على نفسه كما يتآمر على غيره، فيصبح عدو نفسه وعدو غيره من البشر. ومن ثم يصبح الرادع الخارجى المتمثل في الحكم التشريعى الخاص بتعديل السلوك وتجريمه والقصاص من مرتكب الجريمة، زاجراً لأصحاب النفوس المريضة، ووسيلة إلى إقامة التوازن بين قوى الخير والشر، والإعلاء من الخير وأهله والنيل من الشر وأهله. ولذلك كان القصَاص في الإسلام لمثل جريمة قابيل هى القتل.. (النفس بالنفس). وذلك لإحياء البشر واستمرار الحياة.

والنفس كما تنطوى على الشر تنطوى على الخير وأكثر أفعال الإنسان تلقائية وطبيعية تنشأ عن الغريزة تارة وعن العادة تارة أخرى.

وهذه الأفعال التلقائية الناشئة عن الغريزة أو العادة لا تخلو من عناصر الخير. ومن هنا وجب علينا إعلاء هذا الجانب والسمو به، حتى يضحى نموذجاً ثابتاً ومتحركاً ومقتدى به.

وقصة ولدى آدم وردت بسورة المائدة، وسورة المائدة مدنية طويلة تناولت جوانب التشريع الإسلامى لتمكين الإسلام في الأرض، وإلى وضع المنهج الربانى للدولة الإسلامية الجديدة. ولا شك أن جريمة القتل من الجرائم التى تهز البناء

وتؤثــر فى المــنهج وتقضــى على الاستقرار. ولقد جاء القصاص حاداً وحاسماً ليتلاءم مع عنف الجريمة وبشاعتها.

وهــذه القصة تبين بالدليل أن الغيرة والحسد فى النفس المريضة يؤديان إلى العداوة والاعتداء على النفس ولا علاج للحسد – وهو يحدث بين الإخوة كما حدث هــنا، وكمــا حــدث فى قصــة يوسف. وهو مرض دفين يتملك من النفس – إلا بالمواجهــة والبتر، إذا طغى الحسد من القلب وفاض هلاكاً للناس. ذلك لأن الهدف هــو صـــلاح الجماعة، وصلاح النفوس، وصلاح الدين . ولذلك فقد أعقبت القصة آيات التشريع الخاصة بالقتل.

قــال تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْــسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًــا وَلَقَــدْ جَــاءَتْهُمْ رُسُــلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (١).

وفى مثل هذا النوع من القصص القرآنى يرتبط فيه الحكم التشريعى بالسبب الــذى أدى إليــه. فــفى قصة ولدى آدم. ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربــة لفطــرة الأخوة ورباطها الوثيق، إذ هى مخالفة للطبائع السليمة. والطبع الســليم الــذى فطــر الله الإنسان عليه، لا يقدم على قتل الأخ. إن ذلك يعنى افتقاد الرحمة، والرأفة والحنان.

وإذا كــان قــابيل قد ندم حين رأى الغراب أكثر حناناً منه على أخيه، فإن أمور الناس لا تترك فوضى يجرم الإنسان ويرتكب جريمته ثم يندم.. إن ذلك يعنى فســاد الأرض وحيوانيتها. ومن أجل ذلك كانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الإنسان فى الحياة.

وذلــك يــدل دلالة قاطعة على أن القصاص قانون إلهى أزلى. ولقد وردت أحكامه فى الشرائع السماوية لأنها إحياء للأمة وللناس.

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢.

قـال تعـالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُـرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ • وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

◈ ثامناً : التضْحية من أجْل العقيدة :

أورد القـرآن الكريم الكثير من مواقف التضحية فى سبيل العقيدة، وضرب لـنا نماذج إنسانية فى الاتصاف بقوة العقيدة، والدفاع عنها والاستشهاد من أجلها، وتـلك الـنماذج وقـد وردت، تهدف إلى عرض العقيدة الإسلامية، عرضاً قوياً، والدفـاع عنها دفاعاً مستميتاً، دفاع من يرغب التضحية بنفسه من أجلها مثلما فعل أصحاب الأخدود.

ومـثل هـذه القصص تحث على الاهتداء، بنور الله والالتزام بما أوحى به والاعـتقاد بـأن الفلاح والنجاة فى التمسك بالعقيدة. وهى تتحدث أيضاً عن قضية الثبات على العقيدة والتمسك بها وعدم التنازل عنها. وإن كلف ذلك صاحبها الآلام والصعاب، تلك الصعاب التى قد تؤدى به إلى التضحية بالنفس، فى سبيل أن يبقى كما هو ثابتاً على مبدأ يقتنع به، وهو الحق، وفيّا لعقيدته، مخلصاً لدينه.

(وهـذه القضـية ذات أهميـة بالغة، وذات حيوية خالصة بالنسبة لما كان يواجهـه المسلمون من مشكلات إزاء استمساكهم بدينهم وثباتهم عليه وبخاصة فى الأيام الأولى من ظهور الإسلام فى مجتمع مكة(٢)).

ولا شك أن تكرار نماذج التضحية من أجل العقيدة يؤدى إلى ترسيخ العقيدة فى نفـوس المسلمين فتستقر فى وجداناتهم، فتضىء لهم الطريق وهم يواجهون ما يواجهونه من أنواع الاضطهاد والتعذيب، وذلك بسبب ما يعتقدونه وما يؤمنون به.

وقصـة أصحاب الأخدود وردت فى سورة "البروج". وسورة "البروج" من السور المكية، وهى تتعرض لحقائق العقيدة الإسلامية.

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٨-١٧٩

(٢) القصص فى الحديث النبوى ص ٣١٢.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاء ذَات الْبُرُوج • وَالْيَوْمِ الْمَوْعُود • وَشَاهد وَمَشْهُود • قُتلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود • النَّارِ ذَات الْوَقُود • إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ • وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بالْمُؤْمنينَ شُهُودٌ • وَمَا نَقَمُوا منْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمنُوا بِاللَّه الْعَزِيزِ الْحَميد • الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ • إِنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمنينَ والْمُؤْمنَات ثُمَّ لَمْ يَتوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ • إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالِحَات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي منْ تَحْتهَا الأَنْهَارُ ذَلكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾(١).

ولقد جاء فى حديث رسول الله تفصيل هذه القصة التى جاءت هنا موجزة أشد الإيجاز، كأنما هى لمحة خاطفة، جاءت لإبراز الغرض ومضت وقد أبقت تأثيرها فى النفوس.

وخلاصتها أن ملكاً ظالماً كافراً أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشق فى أفواه السكك، وأضرمت فيها النيران ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه فليلقوه فيها ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أماه اصبرى فإنك على الحق(٢). ولقد جاء تفصيل ذلك فى كتب الصحاح.

والسورة بدئت بالقسم والقسم من المؤكدات فى أساليب اللغة. والتأكيد هنا إبراز مظاهر القدرة الإلهية، ولقد أقسم الله سبحانه بمنازل السماء، وبيوم القيامة، وبالأنبياء الشاهدين على أممهم، على استحقاق أصحاب الأخدود للّعن والطرد من رحمة الله. وفى ذلك تشويق للقارئ أن يتعرف على أحداث القصة. فيثور فى ذهنه سؤال؟ من أصحاب الأخدود؟ ولماذا استحقوا هذا العذاب كله؟ لابد أنهم ارتكبوا جرماً خطيراً. وهذا التشويق إثارة لحواس الإنسان، فيتهيأ للتلّقى ويتأثر بما يتلقى. وبناء الفعل للمجهول يعطى دلالتين، دلالة وقوع العذاب والطرد من الرحمة، ودلالة التشويق وحب الاستطلاع لمعرفة هذا المجهول المضمر فى الفعل. فماذا فعل هؤلاء القوم. لقد شقوا الأرض طولاً وجعلوها أخاديد، ثم أضرموا فيها النار.

---

(١) سورة البروج آيات ١-١١.

(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص٥٤١.

هذا هو المشهد الأول الذى ورد مركزاً غاية التركيز. فهاهم هؤلاء يحفرون ويوســـعون من الحفر، وكلما حفروا، قست قلوبهم، وانطوت على غلٍ شديد لهؤلاء الذين سَيُلْقَى بهم فى تلك الأخاديد.

وهـــا هى الـــنيران مشتعلة، وها هو الأخدود أشبه بالأتون المحمى، والقوم يريدون أن يروا نتائج ما فعلوا .. إنهم يريدون أن يشفوا غليلهم، وأن يريحوا قلوباً أُجْهِــدت مـــن كثرة حفر أصحابها. ومن أجل تحقيق تلك الرغبة العنيفة، رغبة أن يتــلذذوا بإحـــراق البشر، جلسوا حول النار وتحلقوا حافة الأخدود، وذلك ليشتفوا بإحـــراق المؤمـــنين فيها، ويشهدوا ذلك الفعل الشنيع. ولك أن تتخيل الفجوة هنا – هى فجـــوة تصور مشهد المؤمنين وهم مساقون إلى مصيرهم وكلهم ثبات، وكلما عرضوا على نار الأخدود استهزأوا به، لأنهم ثابتون على عقيدتهم مؤمنون بدينهم وبـــربهم، فجوة تتصور فيها، القوم الكفرة وهم يطلبون من المؤمنين الرجوع عن الديـــن، وعـــن العقيدة، ولك أن تتصور وسائل الترغيب والترهيب بما يتلوها من تـــلون فى حركة الوجوه وملامحها، وذلك لصرف المؤمنين عن عقيدتهم، ولكنهم يـــبوءون بالفشـــل، حيث يضحى المؤمنون بأنفسهم، ويستقبلون النار كما لو كانوا يستقبلون روضة من رياض الجنة.

- والغـــرض من هذا المشهد المخيف هو تخويف كفار قريش، ذلك لأنهم كانوا يعذبون من أسلم من أقوامهم بألوان العذاب، ومنها الحرق والكى بالـــنار، وذلك من أجل صدهم وإرجاعهم عن الإسلام. ومع ذلك فضّل المسلمون الشهادة عن الرجوع عن الدين.

إن قصة أصحاب الأخدود علاوة على أنها نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيـــدة، فـــهى أيضاً وعيد للكافرين وتسْلية للمؤمنين. وتوضح الآيات أن ســـبب ذلك التحريق البشع هو إيمانهم بالله الواحد الأحد، وليس الإيمان بالله سبباً لاستحقاق العقوبة. ولكن الطغيان والطاغوت لا يعرفان ذلك.

ومن ثم تقرر القصة كما وردت بأن الله غالب على أمره، وأنه قادر وعزيز لــه المــنعة ولــه الحمد. وأن مصير الكافرين الجبابرة نار جهنم، ومصير المؤمنين الفوز بالجنة.

- وفى هــذا المجــال أيضاً فإن قصة (مؤمن آل فرعون) نموذج للبطولة المشــرفة فى وجه الطغيان، وهذه البطولة إنما هى نتاج مبارك وعظيم للتمســك بــالعقيدة. ذلك أنه نصح قومه، وهو يعلم أنّ مصيره قد يكون المــوت، ولكــن قوة الإيمان تيار من النور يهدى أصحابه إلى الطريق الحق، والكلمة الحقة، والنصيحة الحقة.

قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُــولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ • يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَــا أُرِيكُــمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ • وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَــافُ عَــلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ • مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ • وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ • يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (١).

فمؤمــن آل فرعون لم يستجب لدعوة فرعون الضالة ولم يقبله إلها كما قبله غيــره. حيث استجاب لدعوة موسى فآمن بالله، وكتم هذا الإيمان. وها هو الرجل الحكيــم يــجىء إلى فرعون فى ثوب الناصح الأمين طالباً ألا يقتلوا رجلاً مؤمناً يقــول ربى الله. وبين لهم أن يدَعُوه فإن كان كاذباً عاد إليه كذبه بالويل، وإن كان صادقاً فإن خيره سيعم.

لكن الطاغية فرعون ينكر ما يقول ويرد عليه فى تكبر ممقوت بأن رأيه هو الصــائب فىُ قتل موسى عليه السلام. ولكن مؤمن آل فرعون لا ييأس بل يمضى يحذرهــم الويلات، كالتى حلت بأقوام سابقين أنكروا الدين واتبعوا أهواءهم، كقوم

(١) سورة غافر آيات ٢٨-٣٣.

نـــوح وعـــاد وثمـــود، حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. ومع انسياق فرعون فى ضـــلاله وكـــبره وعناده فإن الرجل المؤمن لم يمسك لسانه عن الجهر بكلمة الحق حـــتى يعـــذر لنفســـه ويقدم الحجة على فرعون والملأ من حوله. وفرعون يطغى ويشتد جبروته، حتى أنزل الله به العذاب. ونصر الله أولياءه والداعين إليه.

وتـــبرز هذه القصة – فضلاً عن التمسك بالعقيدة – أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى باب الإيمان والعقيدة. وذلك لأنه منهج تكافلى يقى المجتمع الشرور والفساد.

وهـــذه القصـــة تضـــع لنا مبدأً تربوياً هاماً وهو أن يجعل المسلم من نفسه حارســـاً أميناً على الحياة فى مجتمعه. ويكون يقظاً يستشعر واجبه فى العمل على وقايـــة المجتمع من خطر الضلال وشر الفساد، ومن ثم فلا يكون هناك خطر على الحيـــاة الاجـــتماعية من أن يتفشى فيها الفساد، أما حين يهمل هذا الواجب، واجب الأمـــر بالمعـــروف والنهى عن المنكر، المنبثق من التمسك القوى بالعقيدة، وينسى كل إنسان نفسه وغيره، تاركاً نفسه وغيره للفساد والضلال، فإن المفسدين يزدادون والضالين يكثرون فيعم البلاء والشر الجميع بلا استثناء.

◈ تاسعاً : التعارض بين الحب والواجب :

مـــن الأغراض الدينية العظيمة التى قامت عليها وأبرزتها القصة القرآنية، غـــرض خاص بعلاقة الآباء والأبناء. أو تعارض مشاعر الأبوة مع واجب البنوة، أو مـــا يمكـــن أن نســـميه بلغة العصر حنان الأب وتمرد الابن، وتلك قضية هامة وحاســـمة فى مجـــال علاقـــة الأجيال، وتلقى الجيل عن الآخر دعوات الإصلاح والصلاح.

ولا شك أن موقف نوح من ولده أثناء الطوفان خير نموذج قصصى للتعبير عن هذا الغرض.

قال تعالى مصوراً هذا الموقف الهائل بين نوح وابنه العاصى المتمرد.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَـــنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ • وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ

الـلَّه مَجْـرَاهَا وَمُرْسَاهَا إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ • وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَال وَنَـادَى نُـوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ • قَالَ سَـآوِي إِلَـى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ • وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيـضَ الْمَـاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • وَنَـادَى نُـوحٌ رَبَّـهُ فَقَـالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَـاكِمِينَ • قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَـكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ • قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

فى هـذا الموقف العصيب والمشهد الرائع، يفور التنور وتغرق الأرض فى طوفـان هـائل جبار، وجاءه الأمر الإلهى بأن يحمل من كل زوجين اثنين.. وأن يـركب معـه أهلـه المؤمنين به، ومن آمن به من الناس. وأسلمت السفينة نفسها للمشـيئة الإلهيـة فى جـريانها ورسوها. وخاضت السفينة أمواجاً عاتية كالجبال ولكنها محروسة بإرادة الله.

والهول فى هذا الموقف هوْلان. هول فى الطبيعة الصامتة، وهول فى النفس البشـرية، هـوْلان يلتقيان وهى تجرى بهم وسط هذه الجبال المائية. ويبصر نوح (عليه السلام) فى هـذا الوقـت العصيب، أحد أبنائه بعيداً عنهم وتسيقظ فى كيانه الأبوة ويهتف بولده. اركب معنا. ولكن البنوة العاقة لا تأبه بالأبوة الملهوفة، ويغتر الابن العـاق المـتمرد بفتوته وشبابه فيتعالى صوته. إنى سآوى إلى الجبل، ولكن الأب العاقل النبى الحكيم يدرك حقيقة الأمر فيخاطبه قائلاً لا عاصمَ من أمر الله. ليس لنا فى هذا المجال إلا أن تدركنا رحمة الله. وتختلط الأمواج وتضطرب وتعلو الأمواج وتـتكاثف، ويحول الموج بين نوح وابنه.. ونُوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو الـنداء والفـتى المغـرور يأبى أن يجيب والده والموجة العتية تحسم الموقف فى سـرعة خاطفـة وينـتهى كل شىء. إن الهول كما كان فى الطبيعة كان فى نفس الإنسـان. ثـم يـأتى مشـهد آخر من القصة، فها هو الطوفان ينحسر، ويتمشى

(١) سورة هود آيات ٤٠-٤٧.

الاستقرار على الأرض والحياة كما يتبدى فى الألفاظ والإيقاع. ويأتى الأمر الإلهى إلى السماء والأرض فتبلغ الأرض ماءها وتكف السماء عن انهمار المطر. وترسو السفينة بعد هذا الهول الشديد على جبل الجودى وينتهى كل شئ.

وتستيقظ فى نفس نوح اللهفة على ولده، بإحساس الوالد المفجوع. ويتضرع إلى الله. إنَّ ابنى من أهلى. وقد وعدتنى بنجاة أهلى، وجاءه الرد بالحقيقة التى غفل عنها فالأهل عند الله وفى دينه وميزانه ليسوا قرابة الدم إنما هم قرابة العقيدة وهذا الولــد لم يكن مؤمناً. جاء الرد فيما يشبه التقريع والتأنيب، إنه ليس ابنك، إنه منْبَتّ مــنك ولا رابطة بعد ذلك، فالحقيقة الكبرى فى الدين هى عروة العقيدة التى تربط بيــن الفــرد والفرد وليس – فقط – عروة النسب والقرابة. وجاءه الخطاب الإلهى واعظــا إياه خشية أن يكون جاهلاً بحقيقة الروابط بين الناس فى العقيدة، أو بحقيقة وعد الله له بنجاة أهله، فلقد نجا أهل نوح على الحقيقة.

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن، ويخشى أن يكون قد زلّ فى حق ربّه، فيلجأ إليه مستعيذاً طالباً الغفران ، إنى أعوذ بك... وتدرك رحمة الله نوحاً فيطمئن قلــبه، وتــباركه والصـــالح من نسله وتأتى الخاتمة بشرى لمن يؤمن من ذريته ، ووعيداً لمن يبتغى متاع الدنيا(1).

وفى قصـــة نوح مع ولده نلمح هذا المعنى المصور تصويراً حيًّا كأنه أمر محســـوس. إنه حنان الأب ورفقه بولده، فقد رأينا فى النبى المجاهد عاطفة الأبوة تعـــلو فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء فى مشهد من مشاهد الأبوة ثم نجد الابن وقد غــرّه غرور الصبا والابتعاد عن التصديق، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق، إذ اعتصـــم بجبل آوى إليه، فكان من المغرقين والأب تنفطر نفسه فتغلبه شفقة الأبوة عـــن رؤيـــة أمارات الموت ويتجه إلى ربه باكياً حزيناً إذ نجا أهله إلا ابنه، فيقول وكأنـــنا مـــن فـــرط التصوير نسمع أنين الأب بعد أن نجا كل من فى السفينة وقد اســـتوت فى طريقها وهلك الظالمون. ولكنه يعلم أن ابنه داخل فى عموم الكافرين لأنه كفر، والذى نجا هم المؤمنون.

---

(1) ظلال القرآن الجزء ١٢ ص٦٤-٦٧،

وتلك القصة الحوارية بين نوح وابنه، ثم بين نوح وربه، لتعطى لنا حقيقة الغرض الذى سيقت من أجله، وهو التعارض بين الحب والواجب. فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق نوح بما نطق، فنبهه الله إلى الواجب، والله لم ينبه غافلاً، ولكنه نبه يقظاً مؤمناً ضارعاً وإن كان نوح فى موقف الهول الشديد، موقف الطوفان كان قد ناجى ربه بصوت البشرية وحنانها وعاطفتها(١). ولكنه يتوب حين يدرك المغزى والهدف ﴿وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى ذكر امرأة نوح. ذلك لأن لها ارتباط نشأة بابن نوح الذى أثار فى والده عاطفة الخوف عليه لمشاعر الأبوة البشرية التى طفت فى هذا الموقف العصيب.

فلقد ذكر القرآن الكريم السفيهات من النساء اللائى غلب عليهن الهوى الفاسد فاستحوذ عليهن الشيطان وألقين بأنفسهن فى مهاوى الضلال والكفر بالرغم من أنهن أصحاب بعولة نبوية تتلقى الوحى والدعوة. فهن إذن قريبات ولصيقات من أصحاب الرسالة.

فامرأة نوح واحدة من هؤلاء، تخالط نوحاً النبى الكريم وتسكن إليه وتتفيأ ظلال النبوة فى بيته وتشهد أنوارها فى أيامها ولياليها. وكان من الطبيعى والمرجو أن تكون هذه المرأة أول المستجيبين له والمؤازرين لدعوته، ولكن العكس كان هو الصحيح فوقفت فى عناد وتكبر مع المخالفين له، والمتحرشين به، والمستهزئين بما يقوم بفعله كصنع السفينة. واستحقت هذه المرأة عقاب الله وعذابه، فأضحت مع المغرقين الهالكين من قوم نوح.

ولقد صارت امرأة نوح مثلاً مضروباً لكل من يضل عن الهدى ويركب الطريق الضال وبين يديه وفى بيته المصباح الموجّه إلى مسالك الحق والخير والأمان والإيمان(٢).

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص٢٠٧.

(٢) الإنسان فى القرآن الكريم ص ١٣٢-١٣٣.

قـــال تعـــالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١).

والجديـــر بالذكر.. أن الخيانة هنا ليست خيانة ترتبط بالعرض أو بالشرف، وإنما هى خيانة فى الدين وإذا كان البعض قد أسند إلى امرأة نوح الفاحشة فهذا لا يجـــوز لأن الله أكـــرم أنـــبياءه أن تـــتعاطى واحدة منهن الفجور بل هن شريفات مصـــونات لحـــرمة الأنبياء وقد قال ابن عباس ما بغت امرأة نبى قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين(٢).

وكـــون أنهما امرأتان لنبيّين، فإن ذلك لم يدفع عنهما العذاب. وقال القرطبى ضـــرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغنى فى الآخرة أحدٌ عن قريب ولا نســـب إذا فـــرّق بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب الله (٣).

ومـــن حكمة الله فى مجال الطوفان وقصته التى نحن بصددها أن يكون ابن نـــوح من طبيعة أمه فكفر بأبيه كما كفرت أمه ويغرق مع الغارقين. فهذا الابن إن يكـــن ولـــد نوح النبى فهو أيضاً ولد امرأته الفاسدة، ولقد نزع الولد إلى عرق أمه فجاء على صورتها فى طبيعتها النكدة.

◈ عاشراً : ذكر النّعم وأغراض أخرى :

مـــن الأغراض التى حرصت القصة القرآنية على إبرازها وتجليتها غرض يتحدث عن بيان فضل الله ونعمته على أنبيائه وأصفيائه. وذلك فى قصص سليمان وداود وإبـــراهيم ومريم.. وغيرهم، فلقد وردت فى قصص هؤلاء جميعاً، مظاهر النعم التى تجلت عليهم فى مواقف كثيرة متنوعة، حيث ارتبطت نعمة الله بالموقف الذى جاءت فيه.

---

(١) سورة التحريم آية ١٠.

(٢) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٤١١.

(٣) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٤١٢.

ولنأخذ قصة واحدة كنموذج لذلك الغرض المتعدد القصص، وهى قصة يونس عليه السلام ونعمة الله عليه.

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ• إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ• فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ• فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ• فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ• لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ• فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ •وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ• وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ• فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ • فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

يدعو يونس نبى الله قومه إلى الإيمان، فيواجه بقوم غلاظ، فيضيق صدره بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب شديد. وخرج من بلده غاضباً من قومه، مغاضبا لهم، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم. وقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، وهبت العاصفة ولعبت الرياح والأمواج بها، وقال الملاحون إن بالسفينة عبْدا آبقاً من سيّده ولابُدّ لنجاة السفينة من إلقائه فى البحر، فاقترعوا واستخدموا فى قرعتهم السهام، وخرجت القرعة على يونس فكان من المدحضين، أى المغلوبين، فألقوه فى البحر فابتلعه الحوت.

وتبين الآيات أن يونس ظن – وقد هرب غضباً من قومه ولم يصمد ويواجه القوم فى الدعوة إلى الله – ظن أن الله لم يضيّق عليه بالعقوبة، وأنَّ الأمر سيمضى دون عبرة وموعظة. ويونس يُلام فى الآيات لتخلّيه عن المهمة التى أرسله الله بها، فترك قومه دون إذن من ربّه.

ونادى يونس ربه وهو فى هذه الظلمات، ظلمة البحر، والليل وبطن الحوت، نادى ربه بأن لا إله إلا هو، تنزه عن الظلم، ويعلن يونس فى هذا الموقف العظيم

(١) سورة الصافات آيات ١٣٩-١٤٨.
(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧-٨٨.

توبته وندمه، فكشف الله عنه المحنة وأنعم عليه بنعمة عظيمة وهى النجاة من الموت، ومن الضيق الذى كان فيه، ومن الكرب الشديد الذى شعر به وهو فى بطن الحوت.

وألقى الله يونس من بطن الحوت على الساحل بالأرض العراء التى لا شجر فيها ولا نبات، فأنبت الله فوقه شجرة من يقطين لتظله وتقيه حرّ الشمس، وحين خرج يونس من بطن الحوت كان جلده رقيقاً لا يتحمل شيئاً لمكوثه فترة وسط المياه فى بطن الحوت، فتلاءم أن تكون الشجرة من نبات اليقطين الذى يمنع اقتراب الذباب الذى يضايق الإنسان فى مثل هذا الموقف.

واستكمل يونس عافيته وقوته فعاد إلى قومه الذين هرب منهم فآمنوا بعد أن رأوا علامات العذاب، فمتعهم الله فى الدنيا(1).

إنَّ القصة تظهر العواطف البشرية إزاء المواقف الصعبة، كما تبرز النعمة الكبرى التى ينعم بها الله على أنبيائه وأصفيائهم، فالله معهم وناصرهم، ومؤيدهم.

كما أن القصة عالجت قيمة من القيم الدينية الثابتة وهى متضمنة فى مبدأ التوبة. ذلك أن الإنسان خلق مكون من نفخة الروح العلية ومن قبضة الطين السفلى، ومن ثم يمكن أن يدركه الضعف – ولو كان نبياً – مثلما حدث ليونس، ولكن سرعان ما يتغلب الإنسان المؤمن صاحب الدعوة على لحظة الضعف هذه ليعود مرة أخرى إلى الصعود على مدارج الروح العلية.

والتوبة علاج حاسم للآلام النفسية التى يولدها الضعف فى الموقف الذى يواجهه الإنسان، وهو بذلك يتحرر من الضغط النفسى الذى يحتويه. ففى التوبة راحة تامة وتنفيس طبيعى وحياة جديدة.

فقصة يونس وإن أبرزت نعمة الله على خلقه، قد قدمت لنا قيمة دينية عظيمة ممثلة فى مبدأ التوبة.

---

(1) انظر صفوة التفاسير جـ ٣ ص٤٤، جـ ٢ ص ٢٧٣.

- وللقصة القرآنية أغراض متفرقة لبيان قدرة الله وعظمته فى مجال الخوارق كقصة الخلق وميلاد عيسى وقصة إبراهيم والطير.. والذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها وقد أحياه الله بعد موته مائة عام..

كما كان من أغراض القصة القرآنية بيان عاقبة الطيبة والصلاح وعاقبة الشر والفساد كقصة صاحب الجنتين وقصص بنى إسرائيل وكذلك بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة والحكمة الكونية البعيدة الآجلة (١). مثل قصة موسى والعبد الصالح.

◈ كلمة أخيرة :

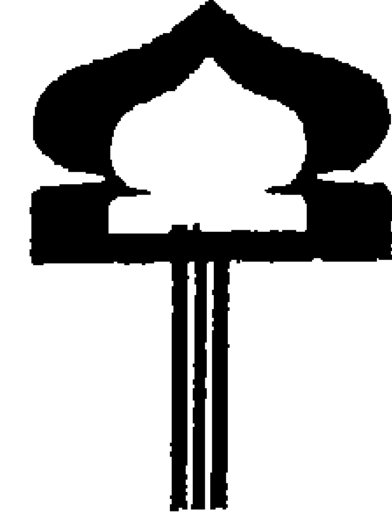
يتضح مما سبق أن الأغراض التى تناولتها القصة القرآنية من النوع الذى يثير فى السامع أو القارئ على السَّواء كثيراً من الانفعالات ويحرك فيه شتى العواطف والمشاعر، ويجعل الإنسان أكثر ارتباطاً وشوقاً إلى مواصلة القصة ومتابعة أحداثها حتى النهاية. وذلك لما يتضمنه بناء القصة القرآنية من قوة العرض والسرد، وجمال الوصف والتصوير، وحركة الأشخاص وصراعها فيظل الغرض القصصى عالقاً فى الذهن ومؤثراً فى النفس.

ولا شك أن الغرض فى القصة كان وراء طريقة بناء القصة وتكرارها، وطريقة الأداء الفنى الذى اتخذته القصة القرآنية وسيلة للإبلاغ والتوصيل من تفصيل فى العرض أو إيجاز فيه، أو اكتفاء بالسرد أو استعمال الحوار أو المزج بينهما، أو تعقيد الموقف، أو تبسيطه، فضلاً عن تخير المواقف المثيرة بما تتضمنه من مفاجآت وحلول.

فالغرض الذى تبرزه القصة القرآنية يتمثل أمام القارئ أو السامع عبر بسط، وسرد، وانفراج وتعقيد حافل بعناصر الانفعال والجذب الانفعالى. وهذا مما يعمق هذه الأغراض فى النفوس.

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص١٥٥ طبعة دار الشروق.



الفصل الخامس

التكرار فى قصص القرآن

الذى يتصفح القرآن الكريم ويتملى من القصص الدينى والواقعى الذى ورد فيه، يلمس ظاهرة تثير انتباهه، وهى ظاهرة التكرار فى كثير من السُّور القرآنية.

والقرآن الكريم دستور المسلمين، وهو أيضاً دليلهم إلى التربية الإسلامية الحقة لهم ولغيرهم من الأجناس البشرية. إنه كتاب تربية دينية وأخلاقية ومسلكية للإنسانية العاقلة جمعاء. ولا شك أن التكرار من الوسائل التربوية لتأكيد المبدأ وترسيخ المعتقد حتى يصبح له الفاعلية المؤثرة، إنه وسيلة القصص القرآنى إلى الصقل والتوجيه والتهذيب والموعظة.

والتكرار يرد فى كثير من السور التى تتناول قصص الأنبياء والأمم الماضية. ولا يعنى التكرار تشابهاً للمواقف ولا للمعانى، فالسور القرآنية منها ما هو مكى ومنها ما هو مدنى، وكل سورة لها موضوعها ووحدتها الخاصة، وما جزء القصة المحكى إلا تنوع للموضوع وإبراز لغرضه.

ومـن الأغـراض الدينية التى ذكرناها آنفاً ندرك أن التكرار فى القصص القرآنى مقصود لذاته، ذلك أن القصة فى القرآن ذات هدف دينى بحت هو المدخل إليها وهو النهاية أيضاً.

والـتكرار من الأساليب البيانية القرآنية وهو يختلف عن الإطناب، ذلك لأن الإطـناب تـزّيد فى التعبير وإيراد المعنى، أما التكرار فهو تنويع مقصود لتوجيه الـنظر، ولمناسـبة الموقف والمقام. ذلك لأن التوجيه إلى النظر فيما يسمعون أو يقرأون أو يشاهدون إنما هو مقدمة إلى إبراز الوحدانية ومواجهة معارضيها.

ولأن مبدأ الوحدانية من المبادئ الكلية الأصولية فى الرسالات جميعها كان التكرار فى القصص والآيات توجيهاً تربوياً لترسيخه وتأصيله.

والـتكرار من تصريف القول وهو وجه من وجوه البيان القرآنى الذى قصد إليه القرآن الكريم.

فـفى كـثير مـن الأحيـان ترد القصة القرآنية مكررة فى مواضع متعددة ومواقـف مختلفة. وهذا التكرار لا يتناول القصة دفعة واحدة، فى أغلب الأحيان، وإنمـا هو يورد بعض حلقاتها. ومعظم التكرار إشارات سريعة إلى موضع العبرة والعظـة. أمـا جسْـم القصـة ذاتها فلا يكرر إلا نادراً. وحين نقرأ هذه المواقف القصصـية المجـزّأة نلاحـظ ارتباطها الوثيق بالسياق الذى وردت فيه، لاعتبار واضـح ومحسوم وهو (أن القرآن الكريم كتاب دعوة دينية وأن التناسق بين حلقة القصـة الـتى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم، وهذا يتوافر دائمـاً. على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً فى عرض الحلقات المكررة مـن القصة الواحدة. فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شـيئاً فشـيئاً ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن فى مجموعها جسم القصة. وقد تستمر الإشـارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها، كانت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها[1]).

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم ص ١٥٦.

ولقــد لمســنا مــن خـــلال عرضنا لأغراض القصة القرآنية، أن من أهم الأغــراض هــو إثبات الوحدة الكلية، وحدة الله والدين والأنبياء، وطرق الدعوة، والــنهاية. ونشأ عن هذا الغرض الرئيسى، عرض قصص الأنبياء والرسل والأمم السابقة فى شريط ممتد عبر السور كلها غالباً، ولكنه شريط انفرطت أجزاؤه لتكرر فى مواقــف جديــدة ومــتجددة بتــنويعات جديدة وبمعانٍ متناسقة مع هذا التنوع والتجزىء. وهذا التنوع التكرارى متعدد العبر فى مواقف الرسل مع أقوامهم. كما أنه تجديد للمعنى لغاية أخرى ومقصد آخر.

وهذا التكرار لأجزاء القصة ومواقفها ينشئ من ناحية العرض والنسق الفنى مبدأً فنياً ثابتاً وجميلاً. حتى ليخيل لسامع القصة أو قارئها أنه يتعامل مع نبى واحد وإنسانية واحدة، فثمة تشابه عام فى النسق الفنى والهيكل العام حتى ليبدو الأمر أننا أمام نبى واحد يتحدث بلسان الأنبياء وأمة واحدة تمثل جميع الأمم. فكل نبى يدعو إلى الــتوحيد ويقول كلمته لأمته المعارضة ثم يمضى ليأتى نبى يدعو إلى التوحيد ويقول كلمته لأمته المعارضة وهكذا..

وتجــدر الإشـــارة هــنا إلى أن القصة القرآنية فى طريقة عرضها وتكرار أجزائها تختلف اختلافاً بيناً عن القصة فى التوراة والإنجيل.

فالــتوراة تسرد فى تفصيل وتتابع قصص الأنبياء ودور المرأة فى حياتهم، والصـــراع بين قوى الخير والشر. فقصة كل نبى تبدأ غالباً بمولده وتنتهى بوفاته وتــروى مــا كــان من أحداث بين البداية والنهاية. ولما كانت تلك القصص تهتم بــرواية أفعال النبى فقد أطلق على أسفار العهد القديم أسماء الأنبياء، أو منْ قاموا بخدمات جليلة لإسرائيل[1].

أمـــا القصـــة القرآنية فلا تقصد لذاتها وإنما للغرض الدينى الذى سيقت من أجله ، ولذلك لا يوجد فى القرآن الكريم قصة نبى كاملة فى سورة واحدة إلا قصة يوسف.

(١) الهلال عدد ديسمبر ١٩٧٠م عبدالحميد جودة السحار.

ولقـد توزعت قصص الأنبياء على كثير من سور القرآن، حتى لتزيد عن أربعيـن سـورة قـرآنية. وأكـثر قصـص القـرآن تكراراً وتوزعاً هى قصة موسـى (عليه السلام) مع قومه. وقصص بنى إسرائيل عامة من أكثر القصص تكراراً فى القرآن كله. وكان ذلك لتوضيح معنيين كبيرين :

الأول هو بيان ما كان يلقاه بنو إسرائيل من عذاب على يد فرعون وأتباعه وفى ذلـك تأسـية للمسـلمين فى مكة. حيث كانوا يلقون العذاب والاضطهاد من قريش، فتكون قصة بنى إسرائيل عزاءً للمسلمين.

والـثانى بيان أن بنى إسرائيل أمة قامت حياتها على كتاب من عند الله. ولم يستقيموا على ما جاء به بل خرجوا عليه.

لذلك كثر ورود قصة بنى إسرائيل فى العهد المكى وكذلك فى العهد المدنى تحذيـراً للمؤمنين من أن ينحرفوا كما انحرف بنو إسرائيل وتهاونوا فى كتابهم كما تهاون بنو إسرائيل.

والقـرآن الكـريم اتخذ من أنباء الرسل وسيلة لبيان أغراض القرآن وبسط مقاصـده وتقريبها للفهم.. ومن ثم جاء التكرار لتثبيت المعنى المراد، ولقد أصبحت هـذه الأسماء لكثرة تكرارها مألوفة لدى المسلم فتتداعى المعانى والمثل المصاحبة لهـا إلى ذهـن المسـلم، فأصبحت أسماء مثل نوح، وإبراهيم، وموسى، ويوسف، وعيسى.. عناوين لمبادئ وقيم يستحضرها الذهن بمجرد نطقها[(١)].

وتكرار القصة فى القرآن الكريم وثيق الصلة بمنهجه القصصى إذ هو يخدم غرضـين فى آن واحـد. أمـا الغـرض الأول فهو غرض فنى، يتمثل فى تجدد الأسلوب وتجديد العرض وطريقة السرد إيجازاً وبسطاً، إشارة أو تجسيداً، ووسيلة الأداء التعبيرى والتصويرى.

والغرض الثانى غرض نفسى له اتصال بالنفس البشرية ومجال التأثير فيها، ذلـك لأن الشىء المكرر سواء كان مشاهداً أو مسموعاً ينطبع فى شعور الإنسان

(١) الإسلام والمذاهب الحدثية فتحى رضوان ص١١٦ اقرأ ١٩٧٦م.

مما يؤثر على مسالكه ومشاربه ومما يؤدى إلى نوع من التطهير والتعديل فى القيم والمشاعر والسلوك.

وللتكرار فى قصص القرآن طريقة يتفرد بها عن غيره من مجالات التكرار.

فمن طرق القرآن الكريم فى تكرار القصة أن يعيد ذكرها فى منتهى الإجمال والإيجاز، كما ورد فى سورة المزمل فى قوله تعالى ....

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً • فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾(١).

وسورة المزمل تتناول جانباً من حياة رسول الله محمد (ﷺ) ولقد أمرت الآيات فى السورة رسول (ﷺ) بالصبر على أذى المشركين، كما توعدت الآيات المشركين بالعذاب الشديد. ومن ثم كان تكرار قصة فرعون مع موسى بهذا الإيجاز الشديد إشارة موجزة إلى تسلية الرسول وإيراد العبرة، وتحذير الكافرين. حيث أوجز القصة فى آيتين. والهدف هو إبراز النهاية، نهاية الطغاة. وبيان أن محمداً مثل موسى كليهما بعثا لهداية الخلق (وإنما خُصّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الرسل لأن محمداً آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه رباه (٢). وفى الآية الكريمة تنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك.

والتكرار فى القصة القرآنية مرتبط – كما قلت – بالغرض الدينى للقصة، ومن ثم فقد جاء الجزء المتكرر من القصة متناسقاً مع الوسط الذى عرضت فيه. فأدى إلى وجود تناسق فنى. فكأنما التكرار يؤدى إلى التناسق الفنى، وإلى جمال التصوير، وإلى ارتباط الأداة التعبيرة بالموقف والمعنى والغرض فى وحدة واحدة لا انفصام بينها.

---

(١) سورة المزمل آية ١٥-١٦.

(٢) صفوة التفاسير جـ٣، ص٤٦٨.

فهذا مشهد من قصة إبراهيم وهو يبنى الكعبة مع ابنه اسماعيل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

وفى هذا المشهد من قصة إبراهيم مع ولده اسماعيل، يحدث الانتقال من الخبر إلى الدعاء. وهذا الانتقال أحيا المشهد وجعله حاضراً. فالخبر أن إبراهيم يرفع قواعد البيت (كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد. البيت. وإبراهيم وإسماعيل يدعوان هذا الدعاء الطويل. وكم فى الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء.. من إعجاز فنى بارز يزيد إعجازاً لو فرضْتَ استمرار الحكاية، ورأيتَ كم كانت الصورة تنتقص لو قيل وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا .. إلخ إنها فى هذه الصورة حكاية، وفى الصورة القرآنية حياة، وهذا هو الفارق الكبير. ان الحياة فى النص لتثب متحركة حاضرة، وسر الحركة كله فى حذف لفظة واحدة(٢).

والتكرار قد يكون فى بعض أجزاء القصة القرآنية بحيث يتمم جزءٌ جزءاً آخر فى موضع آخر، بحيث كلما تكررت حلقة ذكرت فيها معانٍ جديدة، وذلك بسبب استخدامها كوسيلة من وسائل التأثير فى غرس العقيدة (٣). ويحدث ذلك بأساليب مختلفة وعبارات متنوعة تجعلنا لا نكاد نشعر عند قراءتها بتكرارها.

وللتكرار مواطنه . وموطنه الأساسى هو أنه جاء تجاوباً مع بيئة الدعوة وأهدافها وأغراضها، متناسقاً معها متجاوبا مع مواقفها وتطوراتها . ومن ثم لم تستوعب القصة ككُل وإنما جاءت اختياراً جزئياً لتفى بالغرض.

---

(١) سورة البقرة آيات ١٢٧-١٢٩.
(٢) التصوير الفنى ص٥٧.
(٣) سيكولوجية القصة القرآنية ص ١٣٩.

قصة إبراهيم .. نموذج تطبيقي



قلنا إن خصائص القصة القرآنية.. التكرار. والتكرار حين يرد فى قصص القرآن فإنما ليجدد المعنى ويبرزه لغاية جديدة ومقصد جديد. فلا تأتى حلقات القصة دفعة واحدة وإنما على أجزاء ترتبط بغايات دينية متجددة، ومن ثم يتأتى لنا أن نقرر أن أجزاء القصة، تتوزع على سور القرآن، ويأتى هذا التوزع متراوحاً بين الإجمال تارة وبين التفصيل تارة أخرى وبين الإشارة تارة ثالثة..

والحكمة الإلهية تتجلى واضحة من وراء هذا التكرار وتوزيع أجزاء القصة على السور القرآنية، ذلك أن التفوق فى مواضع مختلفة ومواقف متغايرة ومتجددة يربط العبرة والهدف الدينى بالموقف الإخبارى المسرود فى القصة. ولو اجتمعت الأجزاء كلها فى قالب واحد لتماثلت مع القصص الدينى فى التوراة والإنجيل، وقصص الأقدمين، ولانتفت منها العبرة والغرض الدينى الذى هو محور القصة القرآنية وعمودها الرئيسى..

وليس فى القصة القرآنية ذلك التكرار المطلق، فالتكرار يأتى ليلائم السياق الذى ورد فيه. والقصة القرآنية وهى تتكرر ليس من هدفها السرد التاريخى، فالقصة فى القرآن لا تتحدث عن تاريخ ولا تهتم كثيراً بالزمان الطولى الممتد للشخصية، وإنما هى انتقاء لموقف فى حياة محور الشخصية سواء كانت الشخصية نبيا، أو شخصية بشرية واقعية.

ولنأخذ نموذجا على ذلك قصة إبراهيم (عليه السلام) كما وردت وتوزعت على سور القرآن الكريم.

لقد كانت الدعوة التى قام بها إبراهيم عودة إلى الفطرة السليمة التى خلق الله الناس عليها. فأساس الدين الفطرة، وجوهر الفطرة هو التوحيد. ومن ثم كان التوحيد أساس كل الأديان.

إن ما قام به إبراهيم هو فتح جديد فى تاريخ العقيدة. فلم يبدأ إبراهيم عقيدة التوحيد، ولم يبدأ عقيدة الفداء، ولم يبدأ عقيدة البقاء ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهود الكهانات والهياكل. وكان توحيد إبراهيم إيمانا بإله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء، ويتساوى عنده الخلق جميعاً، لأنه أعلى من كل عالٍ فى الأرضين أو فى السماوات ولكنه قريب من كل إنسان.

إن هذا التوحيد قد رفع مكانة الإنسان فى ميزان الخليقة فليس فى الكون إلا خالق ومخلوق، وهو أشرف مخلوق عند الله، بفضيلة واحدة، وهى فضيلة الضمير الذى يميز بين الخير والشر، وعمل الخير هو وسيلته إلى الله[1].

ولقد وردت قصة إبراهيم ودعوته إلى الفطرة السليمة وإلى التوحيد فى سور كثيرة تتراوح بين الإيجاز والتفصيل، فى بيان معجز ، وأسلوب تعبيرى بلغ غاية الكمال.

وتلك هى المواضع التى وردت فيها قصة إبراهيم (عليه السلام).

- جاء ذكر إبراهيم فى سورة البقرة مفصلاً وموزعاً على السورة كلها.. ولم يأت فى السورة دفعة واحدة لأغراض دينية واضحة. ولقد ورد الذكر فى الآيات الآتية. سورة البقرة آيات ... ١٢٤-١٣٤. من قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وجاء ذكر إبراهيم فى آية "٢٦٠" من سورة البقرة أيضاً كما تكرر فى آية "٢٥٨" من سورة البقرة أيضاً.

- وفى سورة آل عمران ورد ذكره فى آيات "٦٥" – "٦٨" وفى آيتى "٣٣ -٣٤"، وفى آيتى ٩٥، ٩٦.

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ، عباس محمود العقاد ص٣٠٩ دار الكتاب العربى ــ بيروت.

- وورد ذكر إبراهيم (عليه السلام) فى سورة النساء فى آية واحدة هى آية رقم "١٢٥".
- وفى سورة الأنعام جاء ذكره مفصلاً ومكرراً، وورد معه بعض الأنبياء من ذريته، وذلك فى آيات "٧٤، "٨٩".
- من قوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

وتكرر الذكر فى نفس السورة فى آية رقم "١٦١".

- وفى سورة التوبة جاء ذكره فى آية واحدة وهى رقم "١٢٤".
- وفى سورة هود وردت قصة إبراهيم (عليه السلام) مع الرسل الذين بشروه بإسحاق وذلك فى آيات "٦٩"، "٧٦".

من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ إلى قوله تعالى ﴿.. إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

- وفى سورة إبراهيم جاء ذكر الآيات مرتبطاً بموقفه من هاجر وابنها فى الآيات "٣٥"-"٤٠".

من قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

- وفى سورة الحجر آيات تتناول موقف إبراهيم وضيفه. وذلك فى آيات "٥١"، "٥٦".

من قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾

- وفى سورة مريم جاء ذكر إبراهيم فى آيات "٤١"، "٥٠" من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إلى قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

- وفى سورة الأنبياء ورد ذكره مفصلًا فى جانبى الدعوة ونجاته من النار، وذلك فى الآيات "٥١"، "٧٣".

من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

- وفى سورة الحج ورد ذكره فى مجال الحج فى آية واحدة رقم "٢٦".
- وفى سورة الشعراء جاء ذكر إبراهيم فى إسهاب وذلك فى مجال الدعاء من آيات "٦٩"، "١٠٢".

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

فى سورة العنكبوت جاء ذكر إبراهيم فى آيتى "١٦"، "١٧" وآيتى "٢٤"، "٢٥"، وآية "٢٧".

- وفى سورة الصافات ورد ذكر إبراهيم فى مجال تحطيم الأوثان وذلك فى آيات "٨٣"، "٩٩".

من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

- وفى سورة الصافات أيضاً ورد ذكر إبراهيم (عليه السلام) فى مجال الفداء بإسماعيل ذبحا ونجاته بإنزال الكبش رضىً من الله ومنًّا. وذلك فى آيات "١٠٠"، "١١٣".

ومن قوله تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

- وفى سورة (ص) ورد ذكره فى آيات "٤٥"، "٤٧".
- وفى سورة الزخرف ورد ذكره فى آيات "٢٦"، "٢٨".

- وفى سورة الذاريات جاء ذكر إبراهيم فى آيات "٢٤"، "٣٧" من قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.
- وفى سورة النجم ورد ذكر إبراهيم فى آيتى "٣٦"، "٣٧".
- وفى سورة الممتحنة ورد ذكره فى آية رقم "٤".
- كما جاء ذكره فى سورة النحل فى آيات "١٢٠"، "١٢٣".

فضلاً عن الإشارات السريعة التى يذكر فيها إبراهيم ضمن الأنبياء والرسل.

- وفى هذا الإطار الإشارى ورد ذكره فى سورة البقرة آيات "١٣٥"، "١٤٠".
- وفى سورة آل عمران آية "٩٧".
- وفى سورة النساء آيات "٥٤"، "١٥٣".
- وفى سورة التوبة آية "٩٠". ..
- وفى سورة الأعلى آية "١٩".

والمغــزى الإشــارى هــذا يعــنى أنه ما كان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة الــتوحيد وتفرغ منها فى عمر رجل أو عمر جيل وإنما هى نبوة بعدها نبوات. فما مــن عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة وما من عهدين من عهود الإيمان إلا وبيــنهما تمهيــد وتعقيب، ولكن الأمانة التى اضطلع بها الخليل إبراهيم حادث جديــد، ذلــك الحادث هو أمانة الرسالة النبوية، أمانة نفس حيَّة تخاطب نفوساً حيَّة باسم الإله الذى يتوجه إليه عباده فى كل مكان.

وهــذه الدعوة تستلزم وجود إبراهيم متصلاً بمن بعده . هذه الدعوة الحنيفية قال عنها رسول الله (ﷺ) (بعثت بالحنيفية السمحة).

- وفى مجال التطبيق. سنختار من قصة إبراهيم أربعة مواقف أساسية وثابتة، وهى المواقف التى ورد ذكرها بالقرآن الكريم. وهى مواقف خاصة بمجال الدعوة إلى التوحيد وبناء البيت. ذلك أن قصة إبراهيم

سكتت عن حياته الخاصة وزمنه الخاص من حيث الولادة والتطور فى النمو، والوفاة، وغير ذلك مما يطرأ على الشخصية فى مجال الحياة وتيارها، انطلاقاً من طبيعة القصة القرآنية، المبنية على قاعدة الاختيار والانتقاء لما يلائم الغرض الدينى.

◈ الموقف الأول :

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ • وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ • فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ • فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ • فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ • إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ • وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

لقد اختلطت العبادات قبل إبراهيم وفى زمانه اختلاطاً شديداً حيث غاب عن الناس التوحيد وعبدوا الشمس والقمر، أو أحدهما، وجهلوا التوحيد فعبدوا الأصنام، وعبدوا الملوك..

- ولقد أقام القوم الجاهلون للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم إذا غابت الكواكب فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل(٢). ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

ولقد كان للقمر منزلة بينهم ذلك أن عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس خلافاً لبادرة الظن الأولى إذ يسبق إلى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يُبْدَأ بها فى العبادة(١).

---

(١) سورة الأنعام آيات ٧٤ – ٨٠.

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء ص٢٨٠.

وفى الآيات القرآنية السابقة دليل واضح على اختلاط العبادات ووجودها فى وطن واحد، كعبادة الأصنام، وعبادة الكواكب، وعبادة القمر وعبادة الشمس وعبادة الملوك.

أمـا عـن عبادة الملوك فى بابل القديمة وهو الموطن الذى بدأ منه إبراهيم (عليه السلام) دعوتـه (فـإنهم كـانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفـان، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا عن الأحافير. وادعاء الملوك أنّهم آلهة يملكون زمـام الحيـاة والمـوت)[2].. وارد فى القـرآن الكريم فى قوله تعالى فى مجال المواجهة بين إبراهيم وملك القوم ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

فى هذا الجو الوثنى المختلط بأنواع العبادات وأشكالها جاء إبراهيم بدعوته. وهـا هـو إبراهيم بعد أن دخلته جذوة الإيمان يبصر حواليه فيجد الأصنام حوله، تماثيل للكواكب والآلهة تملأ الأماكن وتُقدم إليها القرابين، وتحاط بطقوس كهنوتية غامضـة. ولقـد أدرك إبراهيم حقائق الفضائل الكبرى واهتدى إلى الحقيقة الأولى الـتى يجـب ألاَّ يختلف عليها أحد، واعتزم أن يصحح العقيدة الفاسدة التى شاعت بيـنهم عن الله.. فأعلن أن الله واحد، وأن الله هو خالق الكون، وإذا وُجد كائن آخر ينفع الناس فإنما يفعل ذلك بإذن من الله وليس بقُدْرَة من عنده[3].

- ويـبدأ إبـراهيم موقفـه الإيمانى المجابه للعبادة الوثنية المختلطة، بأن يحـاور أبـاه آزر مـنكراً عـليه وعلى قومه أن يتخذوا آلهة أصناماً يعـبدونها. فكيف يا أبى تفعل هذا وتجعل من الصنم ربًّا تعبده دون الله الـذى خـلقك وسواك ورزقك؟ إنك يا أبى وقومك قد ضللتم عن الحق وانحرفتم عن الطريق الصحيح.

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص٢٧٩.
(٢) إبراهيم أبو الأنبياء ص٢٨١.
(٣) إبراهيم أبو الأنبياء ص١٥١.

إن فطــرة إبــراهيم السليمة تنكر ابتداءً أن تكون هذه الأصنام آلهة فما هى بالــتى تستحق أن تعبد، لقد أحس إبراهيم بفطرته ضلال قومه فاستنكر ذلك، واشتد على أبيه الحليم. ولكن العقيدة تسمو فوق مشاعر الأبوة والنبوة.

واستحق إبراهيم بفطرته السليمة وبإنكاره لعبادة قومه، أن تتكشف له حقيقة المــلك، مــلك السموات والأرض حتى يتصل قلبه وفطرته بدلائل الهدى فى هذا الكون.

- وتمضـــى القصـــة لتبين لنا صورة لنفس إبراهيم وقد ساورها الشك فى عــبادة قومــه، وهى تميل إلى العزلة فى الليل ليعيش إبراهيم مع نفسه وتأملاته ومع الجديد الذى غزا وجدانه ومشاعره..

وهــا هــو الليل يسدل أستاره والظلام يطمس كل شيء وإبراهيم فى عزلته يهمــه هاجســه الفطرى الدينى، ويرى الكوكب لامعاً مضيئاً فينجذب إليه ، ويقول هذا ربى إنه أعظم شأناً وأكثر ارتفاعاً من الأصنام، ما أعظم بهاءه. ولكن إبراهيم يفاجــأ بأفولـــه فيمضـــى عنه، إذ كيف يكون ربّاً للخلائق ويغيب عنها؟ وتتكرر التجربة مع إبراهيم فها هو القمر يسطع ليلاً ويسكب نوره الفضى على الكون كلّه، ويترقرق قلب إبراهيم مع الضياء الغامر، إنه قمر يستحق أن يكون ربًا. وظل يمتع النفس والقلب بالضياء.. ولكنه كغيره أفل وغاب وترك الكون مظلماً. ومضى عنه. إذ كيف يكون ربّاً للخلائق ويغيب عنها؟ ويحتار إبراهيم.. من يستحق العبادة؟ إنه يحـــتاج إلى العون، وطلب الهداية من ربّه. وتتكرر التجربة مرة أخرى مع كوكب ضخم هو الشمس، إنها تبدو فى عينه أعظم الكواكب وأكبرها – إنها تستحق العبادة بضـــوئها ودفـــئها وجرمها أن تكون ربًّا! ويفاجأ كما فوجئ بأن هذا الجرم الضخم يمضى إلى الأفول، ويمضى عنه.. إذ كيف يكون ربًّا للخلائق ويغيب عنها؟

وهـــنا تـــدرك إبراهيم شرارة الإيمان الحق بعد أن نظر فى أمور الكواكب واســـتدل مـــن أفولها أنها مخلوقات وراءها خالق واحد هو خالق الكون كله، فتبرأ إبـــراهيم مـــن قومه وعبادتهم وأصنامهم. واستطاع بذلك أن يجادلهم مجادلة حسية ومشـــهودة، وأن يـــبين خطـــأ العبادة وارتكاس العقيدة. وتوجه إبراهيم إلى فاطر

السموات والأرض، فلا تردّد ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التى فى الضمير.

لقـد اطمأن واستراح وزال قلقه بعدما رأى الله فى قلبه وعقله وفى الوجود من حوله.

وهـا هـم قومه يأتون إليه ليجادلوه فى اليقين الذى استقر فى قلبه وضميره وحـاجوه فى دينه، وخوفوه آلهتم وحذروه عذابهم وهو يواجههم فى رسوخ إيمان، وثـبات عقيدة. ويستنكر إبراهيم من قومه أن يتجرأوا ويجادلوه فى الله، وهو الذى هـدانى وغمـر ضميرى ووعي والكون كله. إنى لا أخاف منكم ولا أرتجف من آلهـتكم المزعومة التى لا تنفع ولا تضر ولا تبصر ولا تسمع. إلا أن يشاء ربى، لقد أحاط علمه بكل شىء.

وهكـذا ناظـر إبراهيم قومه لإقامة الحجة عليهم فى بطلان عبادتهم، وهى حجة ألهمها الله لنبيه ليدحض بها حجتهم التى يجادلونه بها(١).

وهـذا الموقـف مـن القصة يعالج غرضاً دينياً أصيلاً من أغراض القصة القـرآنية وهـو الدعـوة إلى الـتوحيد الخالص لله، ونبذ الشرك والضلالة، وترك الأصـنام والأوثـان، ولقد عولج الموقف فى أسلوب قصصى باهر، حيث رسمت الآيـات الكريمة مشهداً رائعاً للفطرة السليمة وهى تبحث عن إله الحق الذى تجده فى أعماقها بينما هى تصطدم فى الخارج بانحراف العقيدة وانطماس القلوب.

وفى القصـة أيضـاً إيناس للرسول وتسلية له، فهو أيضاً يواجه قومه وقد اختـلطت فيهم الأديان، وعبدوا الأصنام والأوثان، وارتكست قلوبهم. كما فيها بيان لتدرج النفس الإنسانية فى الاتجاه إلى طلب الحقيقة الإلهية.

وإذا كـانت القصـة قد تكررت فى مواضع كثيرة فإن التكرار هنا لا يعنى الـتماثل الـتام. بـل إن هذا الجزء من القصة متمم للأجزاء الأخرى ومتناسق مع

---

(١) انظـر فى ظـلال القـرآن الجـزء السابع من المجلد الثانى ص ١١٣٧/ ١١٤٢ طبعة دار الشروق وكذلك صفوة التفاسير الجزء الأول ص ٤٠٠-٤٠٣.

الموقف الذى جاء فيه. إن المتكرر فى أجزاء القصة على مدار السور القرآنية هو شخصية إبراهيم نفسه. حيث بدأ بنفي عبادة الأصنام. وبيان أن العقل الضال وراء ذلـك. وبيـن أن طريق اليقين يبدأ بالشك إلى أن يصل إلى اليقين.. وتلك مناظرة عقـلية بحـتة تناسقت مع جو سورة الأنعام كلها. وهى السورة التى تعرض حقيقة الألوهيــة فى مجال الكون والحياة، فموضوعها منذ البدء إلى المنتهى هو موضوع العقيدة.

* الموقف الثانى :

قــال تعــالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ • إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ • قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ • قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ • وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ • فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ • قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ • قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ • قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ • قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ • قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ • فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ • ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ • قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ • أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ • قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ • قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ • وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾(١).

هكذا حمل إبراهيم بعد اطمئنان القلب.. الاستعداد لتحمل الأمانة، فانتقل من القول إلى طور الفعل. فالفعل هو محور هذا الموقف. وهو موقف ينبنى على جدل واضــح، بيــن الحــق والــباطل، وبرز فى هذا المجال معجزة خارقة اختص بها إبراهيم، حيث علا الحق وظهر، وسفل الباطل وانطمس.

---

(١) سورة الأنبياء آيات ٥١-٧٠.

ومــن اليسير أن نتخيل حنكة الأب وثورة الفتى إبراهيم، فالأب يتابع سادات القوم فى وقتهم وعصرهم ويجرى معهم فيما يجرون، فهو من عشيرة بادية تطغى عــليها عشــيرة أقوى، حيث طغت على مدينة (أور) العشائر القوية. وإذا كان هذا موقــف الأب فإن الإبن يأبى إلا ما اعتقد وينفر من المراء والرياء(١)، ويحفزه أمل فى صلاح العقيدة.

والموقف الذى نحن بصدده يصور هذا الصراع المشتجر بين إبراهيم وأبيه وقومه.

يــتوجه إبــراهيم إلى أبيه وقومه ساخراً من التماثيل التى يعبدونها، فهى لا تعــدو أن تكون أحجاراً صماء لا تعى ولا تحس. ولم يجد القوم جواباً إلا ما يردده الــتابعون الذى يلغون عقولهم ولا يفكرون، لقد قالوا إنهم عبدوا تلك الأحجار تقليداً واتــباعاً للآبــاء والأجداد. وقولتهم دلالة على التحجر العقلى والجمود النفسى. لقد تكبلوا بالماضى وبالحجر. والتوحيد تحرير وانطلاق إلى الله.

وواجههــم إبــراهيم فى قولته الصريحة بأنهم هم وآباؤهم قد ضلوا الطريق الصحيح، الطريق إلى الله الواحد الأحد. ولأن عقول القوم معطلة ونفوسهم مظلمة، تســاءلوا فى شك يزعزع ما عندهم من ضلال.. إن كانوا على الهدى يريدون أن يمضوا. أأنت يا إبراهيم جاد فيما تقول؟ لا نخالك إلا لاعبا!. وإنك لتمزح فى أمور لا يجب فيها المزاح.

ولكن إبراهيم متيقن مما يقول عارف بربه واثق به فيرد عليهم فى ثقة قائلاً إن مــن يســتحق العبادة هو الله. رب الناس ورب السموات والأرض. وهو واثق عــلى ذلــك، ذلــك أن كــل ما فى الكون ينطق بوحدانية الخالق الذى يدبر الكون ويصرفه.

ويقرر إبراهيم أمامهم فى هذا الحوار الحاد أنه سيكيد للأصنام، ونفذ إبراهيم مــا قــرره، وتحــول القــول إلى فعل، ومضى إبراهيم ثائراً غاضباً إلى الأصنام

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٢٩٣.

مستهزئاً بهـا، متعجباً من قومه كيف ينحدرون بعقولهم هذا المنحدر الهابط فى مجـال العـبادة. إن الأصنام – الآلهة – أمامه أحجار مكدسة على أشكال وهيئات يـلعب ويعبث ولا حركة ولا نأمة. وتحولت الأصنام على يديه إلى قطع صغيرة ، ثـم تـرك الفـأس معـلقة فى رقـبة كبير الأصنام ، الآلهة، إمعاناً فى السخرية والاستهزاء.

وكـان الطبيعى أن يراجع القوم عقيدتهم الوثنية، ولكن سيطرة الخرافة على عقولهم جعلتهم يثورون عندما رأوا هذا المشهد وتساءلوا عمن يمكن أن يفعل ذلك بآلهتهم؟

– من فعل بآلهتنا تلك الفعلة القاسية؟

وينبرى من القوم من يلقى بالأمر على إبراهيم.

– لقد سمعنا إبراهيم ذلك الفتى يذكرهم بالسوء.

وينفعل القوم، وتأخذهم العزة بالإثم وهم يرون الأصنام جُذاذاً لا تنطق وقلل القـوم مـن شأنه حين قالوا، إنه فتى صغير يقال له إبراهيم. وبلغت الثورة مداها، واشتد الغضب بالقوم وانطمست عقولهم وتجمدت نفوسهم. ولم يخطر على بال أحد أن يسأل إذا كانت هذه الآلهة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أذى فكيف تعبد إذن؟

– إذن إئـتُوا بـه، وعلى رءوس الأشهاد، فمن يفعل فعلته يشهر به قبل أن ينزل به العقاب.

وكأنمـا الأمـر كـان مواجهة حاسمة، أو كأنما نحن فى ساحة للقضاء هم يحكمون ويصدرون الأحكام وينفذونها، بلا ضمير ولا رادع.

– هل حطمت الآلهة يا إبراهيم ؟

وتخيل معى نظرة إبراهيم إليهم، تلك النظرة التى تدل على السخرية والتهكم من أقوام لا تدرى ماذا تفعل ولا ماذا تقول.

ويشير إبراهيم إلى الصنم الأكبر الذى علقت برقبته الفأس.

– بل فعله كبيرهم.

ولأول مـرة يحسـون باهتزاز، فرجعوا إلى أنفسهم لعلهم يتدبرون، ولكنهم سرعان ما انقلبوا على رءوسهم فلا عقل ولا تفكير.

ويعنف إبراهيم بهم. فليس هناك من دليل محسوس ومشهد مشهود أبلغ مما يرونه ويتحاورون حوله.

– إنكم طغاة جبابرة، تعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم، أفٍّ لما تفعلون.

إنكم لا تعقلون قبيح ما تصنعون.

ولجأ القوم إلى القوة الغاشمة وصاحوا.

احرقوه، احرقوه، أشعلوا النار وألقوه فيها.

- وأُلْـقى بـه، وجـاء الأمـر الإلهى إلى النار فكانت برداً وسلاماً على إبـراهيم ولقـد نـجى الله إبراهيم من كيد قومه، وباءوا هم بالخسران المبين.
- ويَنْـبغى أن نـلمح شـيئاً يستوقفنا فى قصة إبراهيم، ووعيد الدولة له بالإحراق إن لم ينته عن تسفيه أربابها، وأصنامها وتماثيلها.

فمـن المسـلم به أن الإحراق عقوبة مقررة فى شريعة بابل، وأن الناس لم تكـن مجهولة فى بلد من بلاد الأنبياء الآخرين، ولكنهم لم يتعرضوا للإحراق فى غير أرض بابل، ولم يرد خبر قط عن نبى غير إبراهيم توعده قومه بإحراقه. فلقد انفرد إبراهيم بعقوبة الإحراق دون سائر الأنبياء(1).

ولقـد وقعـت المعجزة لإبراهيم. وحين تقع المعجزة يجب أن يكون الناس بُصَـراء بحقيقـتها. فمقياس المعجزة ليس أن تسأل أهى ممكنة أم لا ؟ بل المقياس الحق أن تسأل عن الحكمة منها. فالذى يدبر الكون كله يتنزه عن العبث فلا يصنع

---

(1) إبراهيم أبو الأنبياء ص٢٩٥/٢٩٦.

شـيئاً لغيـر حكمـة. ولا تفوت هذه الحكمة إدراك الناس ما داموا هم المقصودين بإدراكها. فأعمال الله خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

ولقـد جاءت قصة إبراهيم متلائمة تماماً مع سياق سورة الأنبياء، فموضع السـورة هو ميادين التوحيد وربط العقيدة بالنواميس الكونية. ومن ثم توجه الآيات الأنظـار إلى الوحدة التى تربط بين النواميس جميعها، والتى هى دلالة على وحدة الخـالق المدبر. ومن ثم يستعرض السياق القرآنى فى السورة الكريمة أمّة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضاً يطول أو يقصر لإبراز هدف واحد هو إدراك الحـق الأصـيل فى العقيدة التى جاء بها محمد (١). ووحدانية الله فى كل الأديان، ومواجهة الأنبياء لأقوامهم، وتماثل وسائلهم فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته.. ثم إن فيها إيناساً للرسول وتسلية له.

ولقـد تحدثت الآيات عن قصة إبراهيم فى أسلوب مشوق فيه نصاعة البيان وقوة الحجة والبرهان، ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة فى خنوع واستسلام، ومن ثم فـفى قصته عبر وعظات . ولقد جاء الحوار شديداً قوياً ليتلاءم مع الموقف الثانى وهـو تحطيـم الأصنام وإلقاء إبراهيم فى النار، ليتم التناسق بين الموضوع وأداة التعبير.

وفى هـذا الجزء من قصة إبراهيم فإننا لا نلمح فيها التكرار بمعنى التماثل وإعادة المعنى مرة أخرى. فالموضوع واحد تكرر لأن إبراهيم هو محور الأحداث جميعاً، ولكن الموقف حين يتكرر يحمل معنى جديداً وهدفاً جديداً، وغرضاً جديداً، وأسـلوباً جديـداً، وإيقاعاً جديداً، يتلاءم مع جو السورة وموضوعها وإيقاعها العام الـذى ورد فيه. إنها قصة واحدة وزعت فى سور شتى لأن النسق القرآنى اقتضى ذلك التوزع، إذ يكون كل جزء مكوناً لقصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها، فهى قصة واحدة الموضوع فى قصص متعددة العبر (٢).

---

(١) فى ظلال القرآن الجزء ١٧ المجلد رقم ٤ ص ٢٣٦٥.
(٢) لقرآن المعجزة الكبرى ص١٦٧.

◈ الموقف الثالث :

(أ) قـال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا • إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا • يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا • يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا • يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا • قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا • قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا • وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١).

فى هـذا الجزء من قصة إبراهيم نرى الوداعة والحلم واللطف وهو يتوجه إلى أبيه بدعوته بعد أن اطمأن قلباً.

وكعادة قصص الأنبياء تبدأ القصة بتنبيه إلى رسول الله (ﷺ) لإدراك العظة والعبرة من سياق القصة وورودها على هذا النسق ضمن الموقف الذى جاءت فيه.

ولقـد وصـفت الآيـة الأولى إبـراهيم بأنه صديق ونبى، ومجال الإشارة التنـبيهية هنا، تذكير العرب بفضل إبراهيم وبيان دعوته إلى الوحدانية ومهاجمته للأوثـان والأصنام الآلهة. والعرب ينتسبون إلى إبراهيم، ومن ثم تصبح المفارقة أمـراً مثيراً للفكر وللتعقل. إذ كيف ينتسبون إليه وينسون دعوته ويعودون إلى ما كـان يهاجمـه ويحاربه؟ ويقفون من محمد الرسول هذا الموقف المزرى؟ ويتوجه إبـراهيم إلى أبيـه متلطفاً فى خطابه يحاول أن يهديه إلى الخير مستميلاً إياه نحو الهدايـة.. يا أبتِ لم تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لك نفعاً أو يدفع عنك ضـراً؟.. إننى يا أبتِ لا أتحدث إليك من تلقاء نفسى إنما هو العلم الذى جاءنى من الله فهـدانى، وليـس هناك يا أبتِ من غضاضة أن تتبعنى، فإنما أنت تتبع الهدى والخيـر وتمضى إلى الطريق الحق. إنك إن أطعتنى نجوت من المهالك. يا أبتِ لا تطـع الشيطان فالشيطان عصى الله، وهو يعصى عباده، إنما أنا أهديك إلى طريق الرحمن، والشيطان يدعوك إلى طريق الباطل.

---

(١) سورة مريم آيات ٤١-٤٨.

ويمضـــى إبراهيم فى حديثه إلى أبيه وقد تدرج معه فى حالته بألفاظ رقيقة وبعـبارات مهذبــة، وبحرص شديد على عدم إغضاب أبيه بل يسوق النصيحة فى لطف وتهذيب حرصاً منه على أبيه. فهو يحب أباه، والنسق القرآنى حريص على إبــراز هذا الحب. فتكرار كلمة "يا أبت" إنما هو إشعار بالتودد والحب والرغبة فى صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب. وقد رتّبَ إبراهيم الكلام فى غاية الحسن لأنــه نبه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان ثم أمره باتباعه فى الاستدلال وترك التقليد الأعــمى ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق(1).

ولكـــن الدعوة بأرق الألفاظ وألطفها لا تصل إلى قلب الأب. فها هو يواجه إبراهيم بالاستنكار المصحوب بالتهديد وفى قول فيه غلظة وعناد . أنت تكره آلهتنا يـــا إبــراهيم، وتـــتجرأ عــليها وإن لـــم تبتعد عن ذلك وأصررت عليه لأرجمنك بالحجارة، ثم لتغرب عن وجهى.

بهــذه الجهالة تلقى آزر الدعوة إلى الهدى، وبهذه القوة قابل القول المؤدب المهــذّب، وكذلـــك شأن الكفر مع الإيمان، وشأن القلب الذى هذّبه الإيمان والقلب الذى أفسده الطغيان.

ولـــم يغضـــب إبـــراهيم ولم يفقد بره وعطفه بأبيه، إذ قال لأبيه سلام منى عليك، فلن ينالك منى أذى ولا مكروه، ولا أقول لك ما يؤذى حرمة الأبوة ولكننى سأدعو الله سائلاً الهداية والغفران لك. وإذا كان وجودى إلى جوارك ودعوتى إلى الإيمـــان تؤذيـــك فإنـــنى سأعتزل القوم جميعاً. واعتزل إبراهيم قومه وهجر أهله ودياره، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب الله له ذرية وعوضه خيراً.

وهاجـــر إبراهيم إلى أرض الشام ووهب الله له إسماعيل ثم اسحاق.. ومن بعد اسحاق يعقوب ، وكانت سلسلة النبوة التى ختمها رسول الله محمد (ﷺ).

---

(1) صفوة التفاسير جـــ 2 ص219.

إنـــنا فى هـــذا الجزء من قصة إبراهيم نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان النـــبوة فى عباراتها. وفى نغماتها الهادئة، وفى معانيها العاطفية ولا يوجد فى أى لغـــة عبارات تفيض برفق الدعوة والعطف والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العزيز الحكيم.

وبمقدار ما فى عبارات الابن من رفق واسترضاء كانت عبارات الأب مليئة بالجفـــاء والغلظة. والآيات توضح أنه ليس له أن يستغفر لأبيه لأن كل امرئ بما كســب رهيـــن، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وعفا الله عن إبراهيم وأمره بالبراءة منه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ .

(ب) قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَـــالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَـــأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وهـــذا نوع آخر من الحوار يختلف عن الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه إنـــه نـــوع من الحوار الذى يتحدى فيه إبراهيم، الملك. ملك القوم الذى كان يعيش مَعهـــم والذى تقول عنه بعض الروايات إنه النمرود (٢). ولقد جادل الملك إبراهيم (عليه السلام) فى وجـــود الله. وكـــان أولى بذلك الملك أن يحمد الله سبحانه على نعمة المـــلك التى أنعم الله بها عليه، ولكنه واجه ذلك بالكفر والطغيان. وهذا سر العجب فى قوـــله تعـــالى ﴿أَلَـــمْ تَرَ﴾. والكلام موجه إلى رسول الله وإلى المؤمنين معه، ليـــأخذوا العـــبرة ممـــا حدث للأمم الخالية، وليأتنس الرسول بما يُقص له، تسلية وإيناساً . ويبدأ الحوار حول وجود الله واستحقاقه للعبادة والوحدانية.

يقول إبراهيم وهو يواجه الملك المتعنت الرافض للدعوة، فى مجال الإعجاز والـــتعجيز، وهـــو يتحدث له عن ظاهرتين مكرورتين معروضتين لحس الإنسان وعقلـــه؛ إنهمـــا ظاهرة الإحياء والموت.. يقول إبراهيم: الله ربى، خالق كل شيء

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨.

(٢) انظر إبراهيم أبو الأنبياء ص ٦٤-٦٥.

وهـو يحي ويميت. وإبراهيم يتحدث وهو يعى تماماً أن صفة الموت والحياة إنما هى صـفة خاصـة بـالله لا يشاركه فيها أحد. ولكن إبراهيم يصاب بالعجب حين يجادل الملك فى تلك الحقيقة السرمدية.

والملك وهو يسمع إبراهيم يورد حجته، يرى نفسه حاكماً وملكاً وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت، إنه كما يرى عقله القاصر.. المتصرف فى شئون القوم فهو إذن، حسب المنطق المعكوس، الرب الذى يجب الخضوع له. ولقد علمنا سابقاً أن عبادة الملوك كانت إحدى أنواع العبادات السائدة فى ذلك الزمان.

يقول الملك : وماذا فى ذلك، فأنا أيضاً أحيى وأميت.

وأشـار بيده كما تقول الروايات[1]. فجىء برجلين حكم على أولهما بالموت وترك الثانى حيا، وأشار إلى إبراهيم ساخراً، انظر هأنذا أحيى وأميت. وحين رأى إبـراهيم هـذا العـبث والتضـليل، وذلـك الادعاء فى إيراد الأدلة وذلك الخداع والمماطلة، ألقى عليه بدليل لا يحتاج إلى خداع أو إلى مواربة.

يقـول إبـراهيم : هأنذا أتحداك بدليل محسوس، تشاهده صباحاً ومساء وإذا كـنت تدعى الربوبية، وإذا خيّل لك ذهنك أنك قادر على الإحياء والموت كما يفعل الإلـه الواحد الأحد، فها هى الشمس أمامك تطلع كل صباح من المشرق مضيئة، مرسـلة دفـئها إلى الكون، فأت بها أنت من المغرب ولو لمرة واحدة تظهر فيها سلطانك وقوتك.

وبهـت الملك، وهو يرى هذه الحجة الدامغة التى توقفه عند حجمه الطبيعى وتوضـحً له مدى عجزه الهائل. ووقف ساكناً حائراً مندهشاً لا يعرف كيف يجيب على هذا التحدى الدامغ، وحقت كلمة الله على القوم الظالمين.

- إن هـذا الجـدل الذى يعرضه الله على نبيه محمد (ﷺ) وعلى جماعة المسـلمين مـثال للضلال والعناد، وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين.

(١) صفوة التفاسير جـ١ ص١٦٥.

(جـ) قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وذلك موقف آخر من قصة إبراهيم، وحوار من نوع آخر تماماً، إنه حوار مع ربِّه، أليس إبراهيم خليل الرحمن؟ إنه حوار المتأدب الخاشع، الراغب فى المعرفة، فقلبه مطمئن ووجدانه مترع بالإيمان بالله، ولكن الحس المشاهَد يحب أن ينعم باليقين وبالظاهر معاً. والله لا يبخل على خليله بمطلبه.

إن إبراهيم يتشوق إلى سرّ الصنعة الإلهية. وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأواه الحليم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لسرّ الصنعة الإلهية فى قلوب أقرب المقربين(٢).

وهو تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان، ولا يرتبط ببرهان على وجود الله ووحدانيته وإنما هو شوق روحى إلى ملابسة السرّ الإلهى.

- يقول إبراهيم مناجياً ربه: إلهى جلّت حكمتك.. أنشدك اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ، واطمئنان التذوق للسر المحتجب وهو ينكشف. إلهى أرنى بمشيئتك، كيف تحيى الموتى؟.
- وجاءه النداء الإلهى فى صيغة عتاب مرضّى عنه: أو لم تصدق بقدرتى على الإحياء؟
- وينتفض إبراهيم خاشعاً، متضرعاً ويقول : بلى آمنت وآمنت ولكننى أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب برؤية ذلك.

ويستجيب الله لهذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم. وأمر الله إبراهيم أن يختار أربعة من الطير، وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة به ثم يدعوهن. فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى وترتد إليهن الحياة ويَعُدْن إليه ساعيات.

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .
(٢) فى ظلال القرآن المجلد الأول الجزء الثالث ، ص ٣٠١.

ورأى إبـــراهيم الســـر الإلهى يقع بين يديه، طيور فارقتها الحياة، تدب فيها الحياة مرة أخرى.

إنه أمر الله ، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

- إن هــذا الجــزء مــن قصة إبراهيم ، هو قصة النفس البشرية فى نبى الفطرة إبراهيم (عليه السلام)، إذ النفوس ولو كانت مؤمنة تتمتع بكثرة الدليل لــتزداد إيماناً وإن كان أصل الإيمان قائماً، فزيادة البينات تزيد المؤمن إيماناً وتزيد الجاحد كفراً وعناداً[1].

(د) قــال تعــالى ﴿وَقَــالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ • رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّــالِحِينَ • فَبَشَّــرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ • فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَــنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ • فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ • وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّــا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ • وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ • وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ • سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [2].

تــلك هى الآيــات الكــريمة الــتى تحكى جانباً من قصة إبراهيم مع ولده إسماعيل. إنها قصة الذبح والفداء. وفيها تبرز الطاعة ويتضح الاستسلام لله. حيث أمــر الله إبــراهيم أن يذبح ولده اختباراً لقوة إيمانه ومقدرته على تحمل التضحية والصبر على البلاء المبين.

وهــا هو إبراهيم المقطوع من الأرض والوطن والأهل والقرابة. يتجه إلى الله يســأله الذرية الصالحة المؤمنة، ويرزقه الله فى كبره وهرمه بغلام حليم. وما أن يــأنس إبراهيم بولده حتى يرى فى المنام أنه يذبحه. وتلك كانت إشارة من الله إلى إبراهيم بالتضحية. وقبل إبراهيم الأمر فى قبول ورضى وطمأنينة. فلم ينزعج ولم يجزع. ويتوجه إلى ابنه فى اطمئنان ووثوق لأداء الواجب.

---

(١) لقرآن المعجزة الكبرى ص ١٦٤.

(٢) سورة الصافات آيات ٩٩-١٠٩.

يقول إبراهيم : بُنَى .. إسماعيل.. لقد أمرت فى المنام أن أذبحك فانظر فى الأمر . وقل لى ما رأيك؟

ويتــلقى إســماعيل الأمر فى رضى واستسلام وفى يقين. وبالرغم من شبح الذبــح الــذى يطوف بالذهن فإن إسماعيل وهو يخاطب أباه لم يفقد أعصابه، فقابل أمــر أبيه بالمودة والقربى حين ناداه بكلمة يا أبت ثم هو أدب كامل مع الله، حيث طلب من ربه الاستعانة على الأمر والصبر عليه.

يقــول اسماعيل : يا أبت إبراهيم امض لما أمرك الله، وقم بذبحى وإن شاء الله ستجدنى صابراً.

وينــتقل الموقــف العصيب إلى خطوة حاسمة، لقد مضى الحوار بين الأب وابنه وجاء وقت التنفيذ.

ومــرة أخرى تتبدى الطاعة فى قمتها، وها هو إبراهيم فى طمأنينة الرضى يكُب ابنه على جبينه استعداداً للذبح، والغلام يستسلم لقدره فلا يتحرك إمتناعاً. ولم يبق إلا أن يذبح ويسيل الدم وتزهق الروح.

وهكــذا يقع الابتلاء ويتم الامتحان، ويجىء النداء الإلهى قد صدقت الرؤيا وحققــتها والله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره.

والحكمــة فى هــذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخــلة، فامتــثل أمر ربه وقدم محبته على محبة ولده فلا ينبغى أن يضن الإنسان بشــئ فى سبيل العقيدة. ولا ينبغى أن يبطل القربان بالإنسان لا لأن الله لا يستحقه كمــا استحقته أوثان الجهالة بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله فهو أعظم وأكرم من الإنسان.

وارتفـاع الإنسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه. ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف وسمو بالرحمة وبالعبادة إلى أعلى عليين(١).

◈ الموقف الرابع :

قال تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ • وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود • وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود • وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ • وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

إن هـذا الجزء من قصة إبراهيم يرتبط بالعرب، وما كان شرف العرب به وهـو بـناء الكعبة. فقد ذكر هذا البناء الذى قام به إبراهيم وعاونه ابنه اسماعيل، وبإبـراهيم وإسـماعيل تشرف العرب بأنهم من سلالتهما، وبالبيت الحرام اعتزوا وعلوا على العرب إذ كان مثابة للناس وأمناً.

ولقـد بيـن هـذا الجـزء من قصة إبراهيم بعث النبى (ﷺ) وأن ذلك كان استجابة لدعوة إبراهيم. وبذلك تتأكد الصلة بين الإسلام ودعوة إبراهيم.

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٣١١.

(٢) سورة البقرة آيات ١٢٤-١٢٩.

فـــالحديث عن إبراهيم وإسماعيل تقرير عن حقيقة دين إبراهيم وهو التوحيد الخــالص وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين. إن هذا الجــزء من القصة يوضح ويقرر وحدة دين الله، واطراده على أيدى رُسله جميعاً. وبيـــان أن وراثـــة هذا التراث الدينى لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة.

فنشـــأة الأمـــة المســـلمة المؤمنة برسالة محمد (ﷺ) كانت استجابة من الله لدعـــوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام فاستحقت وراثة هــذه الأمانـــة دون ذرية إبراهيم جميعاً. وعندئذ تسقط دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام لأنهم قد فقدوا حقهم فى وراثة بانى هذا البيت بانحرافهم عن عقيدته.

إن التصـــور الإســـلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل. فعرب الشرك شىء وعرب الإسلام شىء آخر.

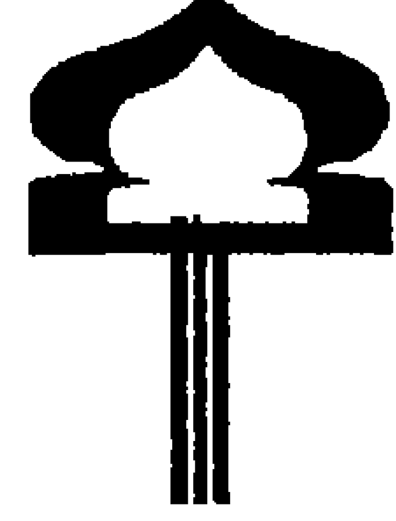
ويـــتعالى الدعـــاء، وتنساب نغمة الدعاء وموسيقى الدعاء وجو الدعاء كلها حاضـــرة كأنهـــا تقـــع اللحظة حية شاخصة متحركة، رُدّ المشهد الغائب الذاهب، حاضـــراً يسمع ويرى ويتحرك ويشخص وتفيض منه الحياة.. إن فى ثنايا الدعاء أدب النـــبوة وإيمـــان النبوة وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود وهو الأدب والإيمـــان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء وأن يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم.

حين قام إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة كانت دعوتهما أن يكونا مسلمين لله، وأن يجعـــل الله مـــن ذريـــتهما أمـــة مسلمة وأن يبعث فى أهل بيته رسولاً منهم فاســـتجاب الله لهما وأرسل من أهل البيت محمداً بن عبدالله وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله والوراثة لدين الله[1]. ومن ثم تواجه الآيات الذين ينازعون الأمـــة المسلمة الدين والإمامة وينازعون الرسول (ﷺ) النبوة والرسالة ويجادلون فى حقيقة دين الله، تواجههم الآيات بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة إبراهيم.

---

(١) فى ظلال القرآن ص ١١١-١١٦ مجلد (١) جزء (١)

تــلك قصـــة إبـــراهيم أخذنا منها بعض المشاهد. ولقد اقتضت حكمة العليم الخـــبير ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضع مختلفة، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصـــة. ولـــو اجتمعت هذه الأجزاء المتفرقة فى مكان واحد وتتابعت مشاهد القصة خبراً وراء خبر لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية وما تميزت العبر.



الفصل السادس

لمحات فنية



من خلال ما عرض من النصوص القصصية القرآنية نلاحظ أن القصة القرآنية وقد أوفت بالغرض الدينى والإعلامى تماماً، فإن لها سمات فنية خالصة تجعلها ذات تأثير فى المتلقين. فالقصة فى القرآن ذات هدف دينى فى المقام الأول ولكنها مع ذلك قد حققت من خلال السياق والنسق القرآنى المعجز مطالب الفن القصصى وخصائصه وعناصره المميزة.

وهذه العناصر من شخصية وحدث وحوار وصراع قد تحقق فى صورة مميزة ومتشابكة بحيث لا نستطيع أن نفصل عنصراً عن آخر، فكل عنصر يتحقق وجوده من خلال العناصر الأخرى المتضافرة معه، فلا شخصية بلا حدث ولا صراع بلا حوار، ولا فعل بلا تشابك فى خيوط الحدث وأفعاله.

فالحدث يؤثر فى الشخصية كما تؤثر فيه الشخصية دفعاً إلى الحسم أو هروباً إلى البعد عنه خوفاً، ولم يخل موقف من مواقف الدعوة والجدل الذى تتضمنه قصص الأنبياء من حوار هادئ حيناً، أو مشتجر حيناً آخر، أو معجزٍ متحدياً حيناً ثالثاً، فالحوار له الـدور

الحاسم فى بلورة الشخصية وكشف الكثير من أبعادها النفسية والفكرية والعقائدية.

ومع ذلك فهذا التمازج بين العناصر الفنية المكونة للقصة القرآنية لا يأتى على نمط واحد، وعلى قدر واحدٍ من التساوى أو التوازى بل قد تختلف مناسيب كل عنصر تبعاً للموقف الذى يدور حوله الموقف القصصى الخاص.

والقصص القرآنى يثير فى النفس الانفعال ويحرك فى القلب العواطف ويجذب القارئ أو السامع إلى متابعة الموقف القصصى إلى النهاية، فيبدو الموضوع القصصى – الذى يحمل الغرض الدينى عالقاً فى الذهن، وحيًّا فى النفوس مما يؤدى إلى حالة من التطهير أو من التحول، أو من الثبات، ولكنه فى كل الحالات يُبقى شيئاً ما مؤثراً.

ولا شك أن موضوعات القصص القرآنى يمنحها عمقاً وأصالة وتأثيرًا أَنْ تتناول الجانب الهام والأساسى فى الدين كله وهو العقيدة الخالصة والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، مستخدمة فى ذلك كل البراهين الحسية الدالة على هذا المعنى، وفى طرائق فنية تستميل القلوب وتستجيش النفوس. ولقد لوّن هذا الغرض العام والكبير من أغراض القصة القرآنية طرائق الأداء التعبيرى ووسائله الفنية الخاصة به كقصص قرآنى متفرد فى الأداء وفى النسق، وذلك من حيث الإطناب أو الإيجاز، ومن حيث التكرار أو الإشارة العابرة، وكذلك من حيث استخدام الحوار، أو الاكتفاء بالسرد، فضلاً عن التنقل بين الأحداث، ثم العودة إلى جوهر القصة.. ولم تكتف القصة القرآنية – وهى تستخدم هذه الأدوات الفنية – بهذا الغرض الدينى الكبير، بل تناولت كثيراً من الموضوعات التى تعالج قضايا البعث والحساب وقضايا الإنسان ومشاكله مع نفسه وغيره من بنى الإنسان.

ومن أبرز الخصائص التى يتميز بها القصص القرآنى عن غيره من القصص هو عنصر التصوير الفنى. والقرآن الكريم وهو يتناول القصة إنما يعالجها (بريشة التصوير المبدعة التى يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التى يعرضها، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجرى لا قصة تُروى ولا حادثاً قد مضى) (١).

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٩٠.

والتصوير الفنى يجعل الشخصية شاخصة حيَّة معبرة، والطبيعة البشرية مجسدة أمامنا تروح وتجيء، تمتلئ بالحركة وتتدافع بالصراع، وتتواجد بالحوار الحيّ الخلاّق. و ثمة تناسق معنوى ونفسى بين القصص التى يعرضها القرآن الكريم والسياق الذى يعرضها فيه وانسجام عرضها فى هذا السياق مع الغرض الدينى والمظهر الفنى.

وهذا التصوير الفنى الرائع وذلك الجمال الأدبى الأخاذ، المتمازجان فى نسق فنى متميز، قد يتكرر كلما اقتضت الدعوة ذلك، أو كلما جاء الغرض الدينى الذى يدعو إلى ذلك، والتصوير حين يتكرر إنما يأتى فى صورة تختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً وتنفى بذلك وهم التكرار بلا قصد إلا التكرار. والتكرار يسير مع الجمال الفنى بالتنويع الدقيق الملحوظ.

إن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن. فليس هو حلية أسلوب ولا فلتة تقع حيثما اتفق إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة وخصيصة شاملة وطريقة معينة، يفتَنّ فى استخدامها بطرائق شتى وفى أوضاع مختلفة ولكنها ترجع فى النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة : قاعدة التصوير. واللغة أداة التصوير الأولى (وباللغة تنطق الشخصيات، وتتكشف الأحداث وتتضح البيئة ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة[1].

واللغة لها قدرة هائلة على التشكيل، فهى بعيداً عن كونها وسيلة اتصال أو إخبار مباشر فهى تعدُّ جهازاً للتوصيل غير المباشر، وهو ما نسميه الوظيفة الجمالية للغة. وهذا التوصيل غير المباشر يتأتى من خلال استعمال اللغة بقدرتها التشكيلية، ويكون التشكيل من خلال التصوير . إنه التشكيل التكوينى المبنى على أساس المعرفة الشاملة، وفى هذا يكون العمل الأدبى وحدة واحدة من التشكيل[2].

واللغة فى التصوير الفنى تستخدم اللون والحركة والخيال والنغمة والإيقاع والوصف والحوار والجرس الصوتى للكلمة وموسيقى السياق حتى يتحقق الهدف

---

(١) بناء الرواية د. عبدالفتاح عثمان . ص ١٩٩ . مكتبة الشباب . القاهرة.

(٢) نقد الرواية د. نبيلة إبراهيم ص ٣٩. الرياض.

من التّصوير. إنه تصوير حى منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة، وخطوط جامدة. تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر، والوجدانات. فالمعانى تُرسم، وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حيّة أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة(١).

◈ .. أهل الكهف .. نموذج للجمال الفنى ..

قال تعالى :

١- ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا • إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا • فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا • ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا.

٢- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى • وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا • هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا • وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا.

٣- وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا • وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا.

٤- وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

(١) التصوير الفنى سيد قطب ص ٣٧-٣٨.

فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا • إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا.

٥- وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا • سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا • وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا • إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا.

٦- وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا • قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (١).

- والآيات الكريمة التى تحكى قصة أصحاب الكهف وردت فى سورة الكهف والتى سميت بهذا الاسم تخليداً لذكرى هؤلاء الفتية، ولما فيها من إعجاز إلهى. وسورة الكهف سورة مكية، والعنصر القصصى هو الغالب على هذه السورة، والقصص التى وردت من روائع قصص القرآن، ولقد أبرزت هذه القصص الأهداف والأغراض الدينية الثابتة والأساسية مثل رسوخ العقيدة، والتضحية فى سبيلها والبعث بعد الموت ثم التواضع من أجل العلم والإيمان بالغيب والبعد عن الجدل فيه، فضلاً عن المعانى العامة التى تتناول مظاهر رسوخ العقيدة فى النفوس مثل الحق الذى يرتبط بالعقيدة وليس بالثراء والسلطان أو الآثار المدمرة للتكبر والغرور أو غنى الفقير لاعتزازه بعقيدته وغناه بها.

---

(١) الكهف آيات ٩-٢٦.

وقصة أصحاب الكهف هى إحدى القصص التى وردت بسورة الكهف وهى تبرز عرضاً دينياً كبيراً سبق الحديث عنه وهو التضحية فى سبيل العقيدة، فضلاً عن الإشارة إلى البعث والنشور.

وخلاصة القصة أن ملكاً ظهر بعد زمن عيسى (عليه السلام) كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل من لا يستجيب لدعوته. فلما رأى الفتية أن الفتنة قد عظمت حزنوا حزناً شديداً ووصل خبرهم الملك، وتوعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان، ولكنهم أظهروا إيمانهم، فأمهلهم إلى الغد، ولكنهم هربُوا ليلاً. فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنوده ، وطلب الملك أن يسدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين فيه زمناً طويلاً ثم أيقظهم الله وقد ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا يوماً أو بعض يوم. وشعروا بالجوع فبعثوا بأحدهم ليشترى طعاماً مع الحرص والتخفى والحذر. وحين ذهب إلى البلدة وجد المعالم تغيرت ولم يعرف أحداً. واشترى طعاماً ولما دفع النقود، جعل البائع يقلبها فى يديه، فقد كانت غريبة، ونظر القوم إلى النقود وتعجبوا ، وعلموا أنها من عهد قديم، وحكى لهم الفتى أنهم جماعة هربوا إلى الكهف من بطش الملك.. ثم استيقظنا بعد نومنا، وشعرنا بالجوع فنزلت لأشترى الطعام، ووصل الخبر إلى ملك البلاد، وأدرك أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى عليهم الله النوم وقبض أرواحهم، فقال الناس لنتخذن عليهم مسجداً (١).

- إن قصة أهل الكهف من أروع القصص القرآنى فى صدقه وسرد حقائقه. إنها آية فى التصوير الفنى القصصىّ الصادق، فهى فى كل مشهد من مشاهدها تصور الأمر كأنه مُشَاهَدٌ بالحس، وكأن الإنسان يعاين الوقائع.

١- ففى المشهد الأول : خطاب موجه إلى الرسول بأن قصة أصحاب الكهف ليست أعجب آيات الله فالكون ملىء بالعجائب والغرائب. ولتذكر يا محمد

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص١٨٣، ١٨٤.

أنهم فتية آمنوا بالله فآووا إلى الكهف لصيانة عقيدتهم من الضلال. فروا من الوثنية إلى الوحدانية وارتضوا جوار الله.

لقد سكن الإيمان وعاء القلب فاستمسكوا به واعتصموا بربهم. وناموا فى يقينهم الدينى ثم بعثوا فاختلف فيهم الناس وتجادلوا.

إن من خصائص القصة القرآنية هو تنوع العرض ذلك أن عرض القصة لا يأتى على نمط واحد، بل هو متعدد الطرائق. ففى المشهد الأول من قصة أصحاب الكهف قد وردت القصة ملخصة فى إيجاز شديد يحتوى جوانب الحدث كله، الإيمان، الذهاب إلى الكهف، الدعاء بالرشاد، النوم، البعث، حيرة الناس :

وهذا التخلص الموجز الذى بدأت به القصة إنما جاء لضرورة فنية ذلك أن التلخيص ما هو إلا مقدمة شيقة تثير الذهن، وتجذب بالألباب، وتثير الانتباه والمسامع إلى التفصيلات المتتابعة بعد هذا الإيجاز.

٢- وبعد هذا التلخيص المشوق يبدأ المشهد الثانى فى تفصيل القصة اليقينية. فهم الآن فى كهفهم بعيداً عن قومهم نراهم رأى العين قد ربط الله تعالى على قلوبهم حتى أصبحت قلوباً ثابتة راسخة، وهم حين آووا إلى الكهف قطعهم الله عن لغو الوثنية وظلم أهلها فاجتمع لهم الانزواء عن الناس والبعد عنهم بالحس فلا يرون الناس ولا يسمعون عنهم.

إن أصحاب الكهف ليسوا رسلاً إلى قومهم ليواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها إنما هم فتية تبين لهم الهدى وسط ظلام الكفر. إنهم يستروحون فى ضيق الكهف وخشونته رحمة الله. ويحسونها ظليلة فسيحة ممتدة. إن لفظة "ينشر" تلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح فى فضاء الكهف وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها لتشملهم بالرفق واللين والرخاء.

إن تلك اللفظة الواحدة فى هذا السياق التصويرى الرائع وهو يقوم بنقل حركة القلب واطمئنانه، لتدل على أن هناك عالماً آخر فى جنبات القلب مغموراً بالإيمان، مأنوسا بالرحمن، تظلله الرحمة والرضوان.

٣- وفى المشهد الثالث تصوير رائع لنومهم وحركة نعاسهم. فها هى الشمس تميل عن الكهف عند طلوعها وغروبها كرامة من الله حتى لا تؤذيهم، وها هم رقود يبدون فى غيبوبة النوم كأنهم الموتى وتظنهم أيقاظاً وهم رقود، وهم فى نومهم يتقلبون. يقول ابن عباس: لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ولو أنهم لا يقلَّبون لأكلتهم الأرض. ورؤيتهم - وكلبهم على عادة الكلاب باسط ذراعيه يحرسهم - يثيرون الرعب والخوف والرهبة. إذ إن منظرهم يثير الدهشة، فهم نيام كالموتى ولكنهم أيقاظ وهم يتحركون تقلباً من جنب إلى جنب ولا يستيقظون . إن ذلك كله من تدبير الله.

إن المسرح بكل ما فيه من وسائل تعبيرية، يكاد يعجز عن تصوير الحركة المتماوجة، حركة الشمس وهى "تزاور" عن الكهف، عند مطلعها فلا تضيئه وتتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم، إن أسباب الحياة مهيئة لهم وهم رقود. إن لفظ "تزاور" تصور مدلولها وتلقى ظل الإرادة فى عملها.

٤- وفى المشهد الرابع ، تدب فيهم الحياة، ويستيقظون بعد رقدتهم الطويلة التى تشبه الموت. وكان أول ما يسألون عنه كم لبثتم؟ فيكون الجواب لبثنا يوماً أو بعض يوم، ونحن المتلقين للقصة نعلم أنهم لبثوا سنين عددًا. أما هم فجاهلون لما حدث، ولكنهم يشعرون بالجوع وهم يتخوفون أن ينفصح أمرهم وهم يوصون الرسول منهم أن يتلطف حتى لا يعرف القوم مقرهم فيؤذوهم. ولكننا المتلقين نعرف أن لا أحد هناك يردهم عن دينهم.. إننا هنا أمام خيطين متوازيين خيط معلوم، يعلمه المتلقى وخيط مجهول يفعله فتية الكهف، إن ذلك مدعاة إلى معايشة المتلقى عليهم، إنهم يتتبعون طريقهم ويتلمسونه وعيون المتلقين ترصد خطواتهم.

وبالرغم من اختلافهم فى الزمان وحيرتهم، فتلمسهم للحياة عن طريق طلب الرزق تصوير بشرى بحت. فها هى النقود معهم ولا يحتاجون إلا المضى إلى البلدة للشراء، مع الحذر والسماح والبعد عن الجدل.. وكانت النقود هى رمز الكشف عن طبيعة هؤلاء الفتية الذين ظلوا سنين طويلة رهناء للكهف. لا يدرون أن الأعوام كرّت وعجلة الزمان دارت. وأن المتسلطين على عقيدتهم قد دالت دولتهم.

٥- وفى المشـــهد الخامس يعثر الناس على أمرهم بعد أن أدركوا قدم النقود وعـــرفوا حقيقـــتهم، وكان إلهام الله بذلك ليعرف الناس حقيقتهم وتكون حياتهم فى الكهف وقدرتهم فيه دليلاً محسوساً على أن وعد الله تعالى بالقيامة حق.

وفى هـــذا المشـــهد يـــبرز الغـــرض الدينى من القصة. التضحية فى سبيل العقيدة، والبعث بعد الموت، ويوم القيامة حيث الجزاء والحساب.

ولقـــد قبضـــهم الله بعد استيقاظهم ليكونوا عبرة وعظة ومثلاً حياً محسوساً للـــناس. ولقد تجادل القوم حول مدتهم واختلفوا حول عددهم، ففريق رأى أن يبنى بنياناً عليهم، ليكون علماً عليهم، وفريق آخر رأى أن يبنى مسجداً يعبدون فيه الله، وكـــل مـــن الفريقين فى قوله ورغبته دلالة على الانبهار بالمعجزة التى شاهدوها عياناً، والإشارة من القول علامة فقط على المعجزة.

أمـــا الاخـــتلاف فى العدد فجاء متأخراً، فمن قائل إنهم ثلاثة، أو خمسة، أو ســـبعة مـــع إضـــافة الكلب إلى كل عدد. واليهود يجادلون رسول الله فى عددهم، وتخـــاطب الآيـــة الرسول إلى أن الأكرم والأكمل أن يترك أمر العدد كله إلى الله، فليس الهدف هو عددهم، وإنما المغزى الدينى الذى يمثلونه.

والآيـــات تنهى عن الجدل فى غيب الماضى كما تنهى عن الحكم فى غيب المســـتقبل. ومن ثم جاء النهى عن ذلك (ولا تقولن لشيء.. الخ) وعلى الإنسان أن يفكر ويشعر أنه يفكر بتيسير الله. وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير وذلـــك مـــن الـــتوجيهات الدينية، وتأتى كلمة "عسى" وكلمة (لأقرب) للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه فى جميع الأحوال.

٦- وفى هـــذا المشـــهد الأخير الذى يأتى تعقيباً على قصة أصحاب الكهف نعـــلم الذى كان مجهولاً هو الزمان الذى استغرقه الرقود - اليقظ فى الكهف. فها هـــو فصل الخطاب الذى يقرره خالق السموات والأرض. فهو جلّ وعلا المختص بعـــلم الغيـــب. وفى هـــذه الجزئية من التصوير وتناسقاً مع السيّاق، يرد التعجب متلائماً تماماً مع موضعه السياقى وتناسقه التعبيرى، إنه دلالة على إدراك الخفيات كإدراك الظاهريات. ما أسمعه! وما أبصره! لقد اجتمعت حواس الإدراك الأساسية

الـــتى لا غنى لعلم أو معرفة عنها، البصر والسمع.. وإذا كانت الآيات الكريمة قد تحدثت عن العدد كما تحدثت عن الزمان.. فإن القرآن الكريم لم يترك من الصورة المكانية شيئاً إلا بينه وصوره، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم وهو بالوصيد، وهو فجوة بالجــبل الــذى فيــه الكهــف. لقد صورت الآيات الكهف تصويراً دقيقاً، بفجواته ومســـارب هوائه واتساعه ورحابته. إن التصوير القصصى كامل تماماً حتى ليرى القـــارئ المكان صورة عيانية محسَّة، وكأنها مصورة بصورة باهرة، نتعرف فيها عـــلى ملامحها وجنباتها وأركانها وزواياها، وليست كلاماً يقرأ.. ولكن الفرق هو فى درجـــة التصـــوير الربانية التى تعلو على كلّ أداة تعبيرية لديها الطاقة الهائلة على رسم الصور وتكوينها..

إنه كلام الله تعالى العزيز الحكيم المبدع المصور (١).

---

(١) انظر حول هذه القصة .

(أ) فى ظلال القرآن مجلد ٤ جزء ١٥ ص ٢٢٥٦/٢٢٦٦.

(ب) القرآن المعجزة الكبرى ٢٠٨-٢١١.

(جـ) صفوة التفاسير. جـ ٢ ، ص ١٨٣-١٨٨.

(د) التصوير الفنى ١٨١، ١٩٠-١٩٥.

الباب الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

صدق الله العظيم

مدخل



القصـــة فى القــرآن الكـــريم عـــلى جانب كبير الأهمية فهى قالب تربوى وإعـــلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها. وإلى النفوس فتنفضها، وهى تحتشـــد بعوالـــم زاخرة وبحيوات متغيرة، وبأشخاص متنوعة، وبصراع يدور بين خير وشر، وعدل وظلم، فتثير فى النفس العواطف، وتجذب القلوب وتهيئ العقول إلى التقرب والتلقى فى الفعل والمسلك.

وإذا كانت القصة فى القرآن تنطلق من منطلق دينى وعقائدى، فإنها قد وفَّت بمتطلـــبات الفـــن القصصى وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وتنوعه وأهم ملامحه.. ولكن ذلك كله جاء على طريقتها الخاصة ووفق المنهج القرآنى فى إيراد القصـــص، والـــنظام القصصـــى فى حلقاته ومواقفه وملاءمته مع السياق القرآنى وموضوعات السور القرآنية.

فالقصـــة القـــرآنية تتوزع على سور القرآن الكريم توزعاً يربط القصة أو الجزء من القصة بالغرض الدينى. وهذا الربط متناسق مع الموقف السياقى للقصة. ذلك أن القصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً بذاته وإنما هى إحدى وسائل القرآن لتقديم العقيدة. ومن ثم فهى أداة تعبيرية تمتزج امتزاجاً عضوياً بين الغرض الدينى والغرض الفنى.

والإنســـان مهيـــأ إلى أن يجذبه ما فى القصص من أفكار وخيالات وأحداث وســـرد جميل له طلاوته ورونقه التعبيرى، مما يجعل القصة أداة فعالة فى تشكيل الإنســـان وتكويـــنه تكويـــناً فكـــرياً ووجدانياً وعقائدياً، على نحو مقصود الهدف والغـــرض. والقصـــة القرآنية لعبت وتلعب هذا الدور الخطير فى صياغة الإنسان المســـلم صياغة جديدة ومتجددة، بحيث يتقبل – فى ثقة قادرة مطمئنة – ما يناط به من أمور دينية.

وقــد أدرك رسول الله (ﷺ) الدور الخطير الذى تقوم به القصة، فاستخدمها من أجل إبراز الهدف الدينى والتربوى باعتبارها وسيطاً مؤثراً فى الوجدان والفكر والســلوك، وقد كان (ﷺ) يضمن قصصه معانى عظيمة ومثلاً عليا وقيماً أخلاقية رفيعــة.. فى إشارات تضمينية يساعد على توصيلها إلى السامع أو المتلقى روعة التصــوير وجمــال الســرد، وإثارة التشويق والقبض على أحداث القصة وأنفاس السامع معاً..

والقصة كوسيط مؤثر حظيت بمكانة عالية فى القرآن الكريم، فلا تكاد تخلو ســورة من قصة أو من جزء من قصة، أو من إشارة إلى قصة – أو تسجيل هدف ســريع لقصــة إشــارية ســريعة.. وهى فى جميع الحالات تراعى فى الصياغة التعــبيرية حســن الملاءمة بين الغرض الدينى الذى وردت فيه وجاءت من أجله وبيــن الموقــف القصصى. ودراسة الإشارات النفسية والدينية فى القصة القرآنية يكشــف عــن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة وارتباط الجانب العقيدى بالنفس، لما تتضمنه القصة من إشارات متنوعة، وتجارب دينية مختلفة كان الإنسان محورها، ومــن دعــوات سماوية استنفرت مشاعر الداعية والمدعوين على السواء – وتولد عــنها صراع طويل بين الحق وأهله، والباطل وناسه، وكانت عينُ القصة القرآنية تســجل وترصــد، وتــؤازر الحق وأهله، وتصور ما حاق بالكفر وناسه. والقصة القرآنية من أقدر الفنون على تصوير المعانى المجردة فى وقائع محسوسة، وصور مجسمة، ومشاهد مصورة، مما تؤدى إلى التفاعل فالتأثر الوجدانى العميق.

ولقــد ســجلت القصــة القرآنية وحدة الرسالات السماوية وجوهر الديانات ومحورهــا الأكــبر وهو التوحيد وإقرار العبودية لله وحده، فضلاً عن بيان الأثر الفعَّــال فى سلوك الإنسان بوصفه مجالاً لحركة القصة ومقصدها.. ومن ثم تسجل جــانب الخير والتناسق المنسجم مع سنن الله فى الكون، من حيث الفطرة الصافية، والــتوجه الديــنى الصحيح، وكذلك تسجل فى الجانب المقابل.. الضلال وانطماس الفطرة المؤدى إلى النهاية المؤلمة..

ولقد جاءت القصة القرآنية فى أنواعها وتنوعها – لترصد فى صور مجسمة تلك المعركة الأبدية بين الخير وقادته، والشر وأهله.

وسواء جاءت القصة على هيئة المثل أو جاءت فى نسق تاريخى، أو عبرت عـن الجـانب النفسـى فى الإنسان، أو وشت بجوانب تعليمية تصقل العقل وتفتح الإدراك، أو إشارت رمزية سريعة إلى قصص كانت خلف الرمز، أو سيقت لهدف العظـة والعـبرة.. فهى فى كل هذه الأنواع أداة راصدة لحركة الفعل البشرى بين حركـتين كـبيرتين، حـركة الإيمان وما يقابلها من حركة الكفر.. كما أن طرائق التنوع فى الشكل القصصى من إبراز المشاهد الحسية، ومن إجمال وتفصيل وبسط وإيجـاز، وطـول فى القصص وقصر، وطريقة التعامل مع القصة من حيث زمن البدء وتناميه مع موضوع السورة والسياق، وإبراز الخوارق والمفاجآت فى الإطار التعـبيرى المـتوحِّد، فضلاً عن الإثارة والتشويق، والرمز، والفجوات المتصورة عقـلاً.. وغيـر ذلـك .. مـن ألـوان التنوع.. بسطته القصة القرآنية فى مجاله الموضـوعى والدينى، ليتضافر ذلك كله فى وحدة فنية كاملة، تفى بالغرض الدينى والفنى معاً.

والدراسة تتناول أنواع القصة وتنوعها فى إطار البحث والتحليل عبر السرد والحـوار وإبـراز الصورة وتوضيح العظة والعبرة. مما ينمى طاقة الفرد المسلم النفسية والروحية وتمنحه متعة فنية خالصة.

والله أسـأل أن يتقـبل منا، وأن يجعل مما نكتب ضياءً نستكشف به بعض الفيض من كنوز القرآن الكريم، كتاب الله، ودستور المسلمين.

أنواع القصة القرآنية



ساق القرآن الكريم قصصه للعبرة والعظة، وفى ذلك السياق يتجلى الصراع بين الخير والشر وتتضح الوسائل الفاعلة لتغليب الخير، ولإبراز الهدف الدينى الكلى وهو وحدة الأديان، ووحدة الرسالة الإلهية، ذلك أن جوهر ذلك كله هو التوحيد، وخلوص العبادة لله مبرأة من الشرك، والخرافة والوثنية.

والقرآن الكريم كتاب دعوة إلى معرفة الحق وهو الإيمان بالله. ووسائل الدعوة إلى الله كثيرة ومتنوعة والقصة إحدى هذه الوسائل الفعالة التى استخدمها القرآن الكريم لإبلاغ الدعوة وتوضيح أطوارها وكشف الماضى السحيق منها. والقصة القرآنية شأنها شأن الوسائل التعبيرية الأخرى التى تدعو إلى وحدانية الله عن طريق تصوير مشاهد يوم القيامة، والجنة، والنار، والنعيم والعذاب، وكذلك شأنها شأن الأدلة على البعث والجزاء، وعلى القدرة الإلهية، وعلى تفرد الله بالخلق والموت والإحياء.. وكذلك الشرائع التى فصلت والأمثلة التى ضربت..(١).

وهى فى مجملها مواقف تقتضى العظة والعبرة، وتدعو إلى التأمل والتفكير وتبعث على الاقتناع الكامل وتؤكد على وحدانية الله ووحدة الرسالة الإلهية.

والقصص فى القرآن فيه إيناس لرسول الله ومؤازرة له وتثبيت لقلبه عبر قصّ أخبار الأنبياء والرسل فى صراعهم الضارى ضد قوىٰ الطغيان والوثنية والشرك.

وهى من هذه الوجهة – وجهة القص التاريخى – يتحدى القرآن بها العرب، كما تحداهم بإعجاز القرآن فى أسلوبه ونظمه، وهى أيضاً دليل قطعى على أن القرآن وحى من الله.. فما كان الرسول (ﷺ) يدرى شيئاً وهو فى بطن الغيب عن

---

(١) نظرات فى قصص القرآن جـ١ ص٣٩.

تلك الأخبار والقصص الصادقة التى تناولت الأنبياء والأمم. ولقد أورد القرآن تلك الحقيقة.. فى آيات كثيرة.. منها قوله تعالى : فى سورة آل عمران ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1].

فالقصص شعبة جليلة من شعب القرآن الكريم، اختصه الله منه بنصيب كبير، لمكانه من الدعوة، وحسن بلائه فى المعاونة على أدائها. فإن تكن شعبه الأخرى هدى وإرشاداً وشرعاً ونظاماً وتقويماً وإصلاحاً – فإن القصص هو الزاد الإلهى الذى يمد الله به رسوله فى رحلته البعيدة المدى، الكثيرة الهموم، الثقيلة الأعباء، تحف من حولها المكاره والشرور[2]. ولقد تعرض (ﷺ) إلى أزمات نفسية وعصبية بلغت حدّ المساومة فى الوحى وإنكاره، علّهم يفتنونه أو يؤثرون فى موقفه الإيمانى الراسخ. ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف فقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3].

ولأن القصص أحفل بالأسوة وأعمل فى النفس وأبعث على الطمأنينة والرجاء فقد وردت على أنواع، يخاطب كل نوع جانباً من جوانب النفس البشرية – حيث يقرن العمل بالجزاء، فيسرى الهدف الدينى والموعظة الحسنة سرياناً حيًّا، فيتكمن المغزى من القلب ويختلط بمشاعر الوجدان.

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٤.
(٢) مع القرآن الكريم دراسة مستلهمة ص١٩.
(٣) سورة الكهف آية ٦.



الفصل الأول

القصة المثل



المثل نوع من التعبير الأدبى، يبرز المضمون فى صورة حسية. كما يقرب المعنى، ويكشف الحقائق، ويجمع المعنى الرائع فى عبارة موجزة، تثبت فى الذهن.. وتدفع إلى الإقناع والتأسى وإلى العظة والعبرة.

ولقد ورد المثل فى القرآن الكريم على نوعين كبيرين :

الأول يوجه النظر إلى حقائق الوجود، وإلى ملكوت الله ومخلوقاته. وهو إذن يضرب كإشارة رمزية لإبراز الحقائق التعبدية للتأثير فى فهم القارئ وإيضاح المقاصد له(١).

والأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس، وتكشف عن الحقائق، وتقرب المعانى إلى الإفهام وتعرض الغائب فى معرض الحاضر (وتجمع المعنى الرائع فى العبارة الموجزة السهلة، وتثبت المعنى فى الذهن وتسهل طرق الوعظ والتأسى، وتدفع إلى الإقناع بأوجز سبيل)(٢).

ولا شك أن الأمثال القرآنية سبيل من سبل القرآن الكريم إلى العظة والعبرة.

---

(١) القرآن كتاب أحكمت آياته أحمد محمد جمال جـ٣ ص ١٦٤.
(٢) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٢٨ د. بكرى شيخ أمين.

ولقد ذكر الله سبحانه فى القرآن أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق.

وضـــرب الأمـــثال تقرب الحقائق وتوضح المعانى الكلية بالمشاهد الجزئية وتستدل بحال الحاضر على الغائب.

ومـــن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

والآيـــة تبرز اختلاف الناس فى تلقى الدليل.. فريق يصغى إلى الحق ويأخذ به وفريق يصيبه العناد والضلال.

ويـــأتى المـــثل فى مجـــال الـــتحدى حيث يظهر عجز الأصنام الآلهة ومن يعبدونها. على حين يؤكد على القدرة الالهية فى كل شىء..

قـــال تعـــالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ • مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

فالدليل واضح وقاطع على إقامة الوحدانية. فالقدرة هنا واضحة، أما العجز فواضـــح فى جـــانب الوثـــنية، فـــإنهم عاجزون عن خلق حشرة ضعيفة مستحقرة كالذبابة، بل إذا سلبتهم الذبابة شيئاً فهم عاجزون عن رده.. إنهم والذباب سواء فى الضـــعف والعجـــز والحقارة. ومن ثم يثير المثل التساؤل الملح على العقل الواعى (كيـــف يكـــون الذيـــن يدعونهم آلهة، أمام قدرة الله؟ وكيف يعبدونهم معه، وهم لا وجـــود لهـــم.. وهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلاً قوياً، إن كانوا طلاب حـــق يلتمسون الدليل عليه، وإن كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل، لا يزيدهم الدليل إلاّ كفراً(٢).

.. ولا شـــك أن ضـــرب المثل تمثيل يقرب الحقائق فى صورة حسية وفى نسق تعبيرى أخاذ يأخذ باللب، ويوضح المعنى وضوحاً كاملاً.. مما يوحى بأن ثمة

---

(١) سورة الحج آية ٧٣-٧٤.

(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص٣٥٩.

تحديـــاً فى سوق الدليل، وإفحاماً للمعارضين، وإرشاد المدركين إلى الحق وتوجيه النظر إلى الحقائق..

ومن الأمثال التى تساق مساق الدليل.. قوله تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ويوضـــح المـــثل حـــال رجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء لأنه ممـــلوك لغيـــره، فلا مال له، ولا حرية له، وعجزه عن التصرف واضح، وحال الـــرجل الغنى، الذى رزقه الله رزقاً وفيراً.. وبين المثل أن الحالتين لا تستويان.. إن التســـوية غيـــر معقولة بيْن من له مال يعطى منه غيره أو ينفق منه فى الخير ســـراً وجهـــراً. وبيْـــن المملوك الذى لا مال له. وإذا كانت التسوية غير معقولة، فتســـوية أولئك المشركين بين الأحجار التى لا تضر ولا تنفع، فى عبادتهم مع الله تعـــالى.. الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول.. وذلك برهان على بطلان الشرك كله(٢).

كمـــا أن هـــذا المـــثل ضرب أيضاً للحرية والعبودية المعنويتين (فهنا قيود الجهـــل والوثنية والشهوات، وهناك انطلاقات التوحيد والمعرفة والأخلاق الفاضلة تنفع وتنتفع)(٣).

ولعلنا نلاحظ أن كلمة "مثلاً" وردت فى صدر الآيات، وهى صيغة صريحة تـــدل على المعنى منذ البدء. ذلك أن الغاية من ضرب المثل هو الإبانة عن موقف مـــن المواقـــف، أو صورة من الصور، أو مسلك من المسالك.. أو غير ذلك.. فى إطـــار محســـوس مـــن الدلائل الحسية. يكشف عن معنى دينى عميق. وثمة أمثلة مرسلة تتضمن كلمة (مثل).. وهى نوع يشبه المثل السائر الذى ورد قديماً وحفلت به كتب الأدب والذى يتصف بالإيجاز وإصابة المعنى..

---

(١) سورة النحل آية ٧٥.

(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٦٢.

(٣) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ ص١٦٥.

ومثل هذا النوع فى القرآن اكتسب صفة المثل "لشيوعه فى الناس بعد زمان طويل من نزول القرآن.. وهى أمثال تحمل مبادئ خلقية ودينية مركزة"(١).

من ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقوله ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾. وهو نوع ليس له من سبيل فى دراستنا.

أما النوع الثانى من المثل فهو أدخل إلى فن القصة. وهو موضوعنا الذى نتناوله، حيث يغلب على "القصة المثل" اتجاه موضوعاتها إلى السلوك الإنسانى إزاء رسالة الله ودعوته إلى التوحيد، وحث النظر إلى التأمل فى ملكوت الله ومخلوقاته ووحدانيته إنها "قصص وقعت وأخبار حدثت وهى صدق وحق"(٢).

والقصة القرآنية تبنى أحداثها ووقائعها على الصدق والحق مبتعدة فى ذلك عن الوهم والمبالغة، وهذا الصدق إما أن يكون واقعياً وهو ما يتصل بالجانب التاريخى وإما أن يكون موضوعياً وهو ما يتصل بالجانب التمثيلى فى القصة المثل.

وتأثير القصة المثل يكمن فى صدقه الموضوعى والفنى وفى تشخيص المعانى المجردة والتوجيات التربوية التى تضمنها فى شكل عملى تطبيقى يمكن من تصورها وإدراكها. وتتبدى الوجهة الموضوعية فى التمثيل بأشخاص غير معينين لم تذكر القصة أسماءهم فى واقع التاريخ ولكن وجود أمثالهم فى واقع الحياة ممكن، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التى تمليها نوازع نفسية راسبة فى شعور الإنسان لأنها من طباعه وفى غرائزه(٣).

... وتأتى قصة (أصحاب القرية) كنموذج "للقصة المثل".. ولقد وردت فى سورة يس.

---

(١) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٢.
(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ ص١٦٥.
(٣) سيكولوجية القصة فى القرآن ص٢٤٧.

قـــال تعـــالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ • إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ • قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَـــرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ • قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُـــمْ لَمُرْسَلُونَ • وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ، قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْـــرِفُونَ، وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَـــنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ • وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ • أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُون • إِنِّـــي إِذًا لَفِـــي ضَلالٍ مُبِينٍ • إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون • قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(١).

هـــذه الآيات الكريمة تحكى قصة أهل القرية مع الرسل.. وهى وردت فى ســـورة يـــس. والسورة مكية تناولت قضيتى الإيمان بالبعث، والأدلة على وحدانية الله، ومـــن هـــاتين القضيتين الكبيرتين ساق القرآن الكريم "القصة المثل" لبيان أن الطغـــاة الوثـــنيين فى كل عصر وأوان ومنهم طغاة مكة ووثنيوها يواجهون رسل الحق بالتكذيب والقتل، والعناد والمنافرة، وهى فى سياقها تحذير من عاقبة التكذيب بـــالوحى والرسالة، كما أنها عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر بما حدث لمن سبق من المكذبين، فضلاً عن أنها وسيلة نفسية، لمؤازرة الرسول (ﷺ) فى موقفه الوجدانى إزاء كفار مكة وجهلائها.

والقـــرية مـــورد المـــثل هـــنا.. هى قـــرية "انطاكية".. كما ورد فى كتب المفسرين.

وكـــان أهلها يعبدون الأوثان، الأمر الذى جعلهم يتشاءمون من دعوة الرسل إلى التوحيد الخالص، واعترضوا على الرسل ببشريتهم. وهو اعتراض متكرر فيه ســـذاجة وقصور ادراك ذلك (أن الرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية. وحياة الرسل

---

(١) سورة يس الآيات ١٣-٢٧.

هى النموذج الواقعى للحياة وفق ذلك المنهج الإلهى. النموذج الذى يدعو قومه إلى الاقــتداء به. وهم بشر. فلابد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه)[1].

ولقد كان الرسول (ﷺ) يواجه ذلك الاعتراض وذلك التكذيب نفسه.

ومن ثم جاء التوجيه إلى الرسول ليضرب لقومه هذه "القصة المثل".. لعلهم يتعظون..

فتــلك القــرية الكافرة، الجاحدة بنعم الله، العابدة للأوثان، أراد الله أن يخرج أهلها من الظلمات إلى النور فأرسل إليهم رسولين يحملان دعوة الله إلى الوحدانية. فووجها بالتكذيب والعناد، فآزرهما الله برسول ثالث..

.. وكــان الحــوار الذى دار بينهم يحمل فى طياته أبعاد الموقف.. موقف الإيمان وموقف الكفر، فى صراعهما وجدلهما المرير.. إلى أن ينتصر الحق.. أو تنزل لعنة الله على الكافرين..

- ها نحن يا قوم رسل ربنا إليكم لنخركم من الظلمات إلى النور..

وتبدو العقلية الجاهلية جلية واضحة، فى ردها على الرسل.

– كيــف ، وأنــتم بشــر مثلنا.. إنكم تدعون الكذب .. فالله ينزل وحياً وأنتم كبشر لا تفضلوننا فى شيء..

ويخرج الخطاب من الخبر إلى التأكيد، أمام هذا الانكار وهذا العناد.

- إن الله يعــلم أنــنا رســله إليكم، وليس علينا إلاّ أن نبلغ رسالته.. تلك الرســالة الــتى تدعوكم إلى نبذ الوثنية وعبادة الله وحده لا شريك له.. ويتأفف أهل القرية بما طبع فيهم من جهل وحمق وسفه وعناد ووثنية.

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٥ ص ٢٩٦١. الشروق.

وهم لا يأخذون البلاغ مأخذاً يقينياً، ولا يطيقون الدعاة فتأخذهم العزة بالإثم ويصرخون فى وجوه الرسل..

- إننا نتشاءم منكم ونتوقع الشر من دعوتكم .. وإن لم تنتهوا نعذبكم..

إن القـول بالتشـاؤم خرافة من خرافات الجاهلية. وهؤلاء الرسل يظهرون لقومهـم خرافة هذه الدعوة. وأن الخير والشر لا يأتيهم من خارج أنفسهم بل هو معهم يصحبهم أينما ذهبوا وحلوا..

- إنكـم قوم مسرفون فى العصيان والضلال.. فأنتم تتشاءمون بمن يجب أن تتبعوهم فى دعوتهم إلى التوحيد.

وإلى هـنا يتـبدى الموقف على الحقيقة. فهؤلاء القوم يعاندون ويستكبرون ويتشـاءمون ومـن ثـم يرفضون الدعوة.. ويُظهر الحوار طبيعة الدعوة بالحكمة والموعظـة الحسـنة، ويكشف عن طبائع الرسل النيرة، المنيرة، وعن طبائع أهل القرية المظلمة، القاسية الظلمة.

وينـتقل سياق القصة إلى موقف آخر، موقف مؤازر للرسل، موقف المؤمن المهتدى، وهو موقف يتضاد تماماً مع موقف أهل القرية الذين ضلوا وينتقل السياق مـن الحوار إلى السرد، ليضيف للقصة حدثاً جديداً يجدد الموقف ويدفع بالصراع الدائر إلى نهايته.

فهـا هـو رجل يستجيب لدعوة الحق، إنها استجابة الفطرة السليمة، وكان رجـلاً مأزوماً فى نفسه أو فى أهل بيته(1)، ويواجه الرجل المؤمن قومه قائلاً : يا قـوم إنى أنصح لكم، فآمنوا بما جاء به الرسل واتبعوهم.. وكأنما يلمح فى عيون

---

(1) قيـل إنـه حبيب النجار وإنه كان مجذوماً فبرئ من مرضه فآمن. وقيل إن ابنه كان مريضاً فعُوفى وآمن، وقيل إنه كان نحاتاً للتماثيل، وقيل إنه كان يحيك الثياب.. وعن رسول الله أنه قـال : **سُـبّاق الأمم ثلاث لم يكفروا بالله طرفة عين : على بن أبى طالب. وصاحب يس. ومؤمن آل فرعون.** والقرآن لم يتعرض لذلك كله. وإنما سيقت للعبرة.
انظر : الكشاف جـ ٣ ص٢٨٣، الظلال مجلد ٥ ص٢٩٦١. صفوة التفاسير جـ٣ ص١١ وكذلك القرطبي وابن كثير.

القوم نظرة دهشة وتعجب، تحمل إنكاراً لهذا الموقف – نظرة تعرض به وبشرفه، فيسرع قائلاً.. وناصحاً.

– إنهـم والله صادقون فى دعوتهم، لا يطلبون أجراً ولا مغنماً.. إنكم تربحون معهم خير الدنيا والآخرة.

ويـبدو أن الـرجل كان فقيراً فى قومه، وكأن نظرة القوم الساخرة المباغتة فيها إدانة للرجل.. وكأن لسان القوم يقول : ما الذى حملك على ذلك؟ أهو فقرك : أهى حاجة تحتاجها! أم أنهم أعطوك فتملكوك بما أعطوا؟...

والسـياق يدعو إلى هذا .. فيسارع الرجل المؤمن إلى القول.. وهو يحسنه، وهـو يؤمِّـل ألا يـنزل عليهم منزل سوء.. فيستاءون منه.. وتضيع الحكمة من الحوار.

– مـا الـذى يمنعـنى يا قوم من أن أعبد خالقى الذى أبدع صورتى: إنه الله الواحـد الـذى إليه مرجعكم يوم القيامة.. يا قوم ما أقبح ما تفعلون، كيف تتخذون أصناماً آلهة لا تضر ولا تنقذ أو تشفع من عذاب الله..

ويواجه القوم حاداً حاسماً، مؤمناً قوياً، يعنى نفسه، وهو يقصد قومه.

– إننى يا قوم لو فعلت ذلك لكنت من الضالين، وحاشاى أن أفعل ذلك.

..هـا أنذا أعلن إيمانى.. يا أيها الرسل .. إننى أومن بدعوتكم.. أومن بالله واحداً لا شريك له – فاسمعوا ما أقول.. إننى أشهدكم على ذلك..

.. ويـنقل السياق السردى إلى موقف آخر.. موقف النهاية.. حيث لم يمهل القوم المؤمن.. فقتلوه. وها هو الستار يسدل على الدنيا ويفتح على العالم الآخر.. لنطلع على ما ادّخر لهذا الرجل المؤمن الصلب الشهيد فى الحق.. إنه الفوز بالجنة وهـو فى النعيم يتمنى لو أن قومه يرون النعيم الذى يحفل فيه ليتعرفوا إلى الحق ويؤمنوا به.

وإذا كـــان ذلك هو جزاء الإيمان فإن الطغيان وُجه بصيحة واحدة أخمدت أنفاس الطغاة. فما كانت عقوبتهم إلاّ صيحة واحدة صاح بهم جبريل فإذا هم ميتون لا حراك بهم. قال المفسرون. وفى الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم(١).

تــلك قصـــة تاريخيـــة جاءت على هيئة المثل.. لاحتمال وقوعها، ومن ثم بــرزت فيها العظة والعبرة التى تتجدد بتجدد مناشط الإنسان فى نظرته إلى الكون والحياة، وابتعاده أو قربه من العقيدة.

ولقــد ضـــرب الرجل المؤمن مثالاً فريداً فى التضحية بالنفس والشهادة فى سبيل المعتقد الدينى، مثله فى ذلك مثل أصحاب الأخدود. وإذا كان الموت لابد منه كمـــا يقــول إبن تيمية فى الجواب الصحيح، فالموت الذى تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل(٢). وأوجب وأدخل إلى الإيمان والفوز بالجنة.

ومضـــرب هذه "القصة المثل" موجه إلى مشركى مكة الذين كذبوا الرسل، وفيها إنذار بالعذاب مثلما حدث لأصحاب القرية.

ومن محاسن التنزيل الحكيم وبلاغته الخارقة، الإيجاز فى القصص والأنباء والإشـــارة إلى روحها وسرّها لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار، ولهذا لم يذكـــر فى القصـــة اســـم البلدة ولا اسم الشخص الذى دعاهم إلى الله ولا الرسل الكرام، لأن كل ذلك ليس هو الهدف ُمن القصة(٣). وعدم إفصاح القرآن عنها دليل عـــلى أن التحديد لا يزيد شيئاً فى دلالة القصة وإيحائها، ومن ثم مضى إلى صميم العبرة ولبابها(٤).

---

(١) صفوة التفاسير جـــ٣ ص١١.
(٢) سيكولوجية القصة ١٥٨.
(٣) صفوة التفاسير جـــ٣ ص١٣.
(٤) فى ظلال القرآن مجلد ٥، ص٢٩٦١.

والتعبير القرآنى يؤلف بين الغرض الدينى والغرض الفنى فيما يعرضه من الصور والمشاهد القصصية. ذلك أن قصة "أصحاب القرية" جمعت بين لونين فنيين مؤثرين فى الوجدان، السرد وجاء عرضاً متمثلاً فى حضور الرسل ومجىء الرجل المؤمن مع فجوات لاحظناها تثير الذهن وتستحوذ على مخيلة المتلقى، والحوار الذى يعطى حيوية وتأثيراً يشدان السامع إلى المتابعة ومن ثم الجدل والمحاورة. ولقد كشف الحوار – علاوة على الهدف الدينى – جوانب الشخصيات المتحاورة، شخصية الداعى والمؤمن والكافر الجاحد – بحيث تتبدى لنا الشخصية معبرة عن نفسها وعن موقفها.. (فالفن والدين صنوان فى أعماق النفس وقرارة الحس، وإدراك الجمال الفنى دليل استعداد لتلقى التأثير الدينى)[1]..

- ولنضرب نموذجاً آخر من "القصة المثل" يتجه إلى التوجيه والتأديب والإرشاد وتقويم السلوك..

وهو نموذج يتضمن قصة "صاحب الجنتين" وقد وردت الآيات فى سورة الكهف. قال تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا • كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا • وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا • وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا • وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا • قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا • لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا • وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا • فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا • أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا •

(١) التصوير الفنى ص ١٤٣/ ١٤٤.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـا لَيْتَـنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا • وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ (١).

ولعلـنا نلاحظ أن الأمر موجه إلى محمد (ﷺ) ليضرب هذه القصة المثل، لكفـار قـريش عامـة وأغنيائها خاصة. إنها قصة رجلين، أنعم الله على أحدهما بحديقـتين ممتلئتين بالأعناب ومحفوفتين بأشجار النخل والمياه تجرى فينبت الزرع وينضـج الثمر. وتأخذ الرجل الغنى الغفلة، ويسيطر عليه الكبر ويحتويه الجحود، فـتاه بغناه وما له وأنصاره وتصور – وهو يكفر بنعم الله – أن ذلك الغنى أبدى لا يـزول، وتمادى فى ظلمه لنفسه، فادعى بأن القيامة لن تكون وإن كانت فسيجازى خيـراً أكثر مما عنده. وهنا يتقدم صاحبه محاوراً إياه مبيناً له أصل خلقه الترابى حـتى يـرتدع ويتواضع ويشكر الله على نعمه، ويضرب المثل بنفسه، فهو الرجل الفقيـر مـالاً وولـداً، ومع ذلك فإنه يرجو الله أن يمنحه ما هو خير من الجنتين، وينـبهه – وهو المؤمن – بعذاب من الله يتمثل فى إرسال الصواعق على الجنتين فتصـبح ملسـاءَ لا حياة فيها ولا ماء.. ولقد تحقق ما أنبأه به المؤمن الفقير، فهلك المـال، وحلّ الخراب والدمار، وتحسر الغنى وهو يرى ما آلت إليه الجنتان، وظل يضـرب كفاً بكف حسرة وأصبح وحيداً لا معين ولا مؤازر، وأدرك فى النهاية أن القوة لله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

- وإنها لقصة بديعة لما فيها من تشخيص حىّ للمشاهد يقصر عنه التعبير فى أى أسلوب آخر غير الأسلوب القصصى.

ولقـد ضـرب الله القصـة مـثلاً للكفار من قريش الذين افتخروا بأموالهم وأنصـارهم على فقراء المسلمين. فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار، لاحـتمال أن يصير الفقير غنياً، والغنى فقيراً. أما ما تحق المفاخرة به، فطاعة الله وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبيَّن ذلك بضرب هذا المثل الذى كانت فيه العاقبة المحمودة للمؤمن(٢).

---

(١) سورة الكهف آيات ٣٢-٤٣.

(٢) سيكولوجية القصة ص ٢٥٠.

إن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان وإنما هو مرتبط بالعقيدة. فثمة قيم زائـلة وقيـم باقية. والقصة ترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة والـنفس المعـتزة بالله، وكلاهما نموذج لطائفة من الناس. صاحب الجنتين نموذج لـلرجل الثرى. تذهله الثروة وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى.

وصـاحبه نمـوذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[1].

ولقد اختلطت الأداة الفنية بالغرض الدينى التربوى، فأثرت القصة ثراءً فنياً وأبـرزت الجمـال فى أسـلوب تعـبيرى أخاذ.. أدى إلى "عمق المعنى وجمال التصوير"[2].

ولقد تمثلت الأداة الفنية فى عنصرين أساسيين : هما السرد والحوار.

أمـا السرد فشمل الوصف وتهيئة المدخل إلى جوهر القصة.. وإثارة الحس الجمالى فى المتلقى، ولقد رسمت الآيات الجنتين فى ازدهار وفخامة وجمال أخاذ.

فها هو شجر العنب محمل بعناقيده اللذيذة، يمتع العين وتشتهيه النفس. وتلك أشـجار النخيل السامقة تنغرس كالسياج تحيط بالبستان، تلقى بالظل، وتنعقد حباتها الحمراء فى عراجينها الصفراء، فتبدو أكثر جمالاً ورونقاً، وهذه المياه المنسابة فى رقرقة جميلة وخرير هاش يحمل النماء للزرع والنبات.. صورة طبيعية جميلة فى إطار من الإبداع الرائع.

كمـا يـبين السـرد أيضاً حالة التعالى والافتخار، والزهو والبطر. وكأنما يحادث نفسه – بطراً وتعالياً – وهو يتجول وسط هذا المشهد الطبيعى الأخاذ.. بأن ذلك ثابت لا يزول.. وأخذته النفس التياهة فوقع فى براثنها، وسقط فى الكفر..

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٤ ص ٢٢٧٠.
(٢) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٠.

والعنصر الثانى هو الحوار.. تلك الأداة الفعالة التى كشفت طبيعة الشخصية - شخصية الغنى الكافر الجاحد بنعم الله، وشخصية الفقير المؤمن بربه الطامع فى ثوابه.

ولقد حملت ألفاظ الحوار تلك الدلالة، فبينما كانت ألفاظ الأول تشى بحقيقته ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا...﴾ ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ...﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ جاءت ألفاظ الثانى لتوضح تلك الطبيعة المؤمنة المتواضعة ﴿...أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا﴾ ﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ . لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ﴾.

وهكذا جسمت هذه القصة ما تضمنه الحوار فيها من المعانى الكلية المجردة فقربت حقائقها إلى الأذهان بما ضربت من مثل بليغ مؤثر، أبان أن القيم الحقيقية ليست فى اللذائذ المادية.. وعلى الإنسان أن يذكر ربه الذى أنعم عليه وذلك بطاعته والتواضع له والإنفاق فى سبيله وإعانة ذوى الحاجات عملاً بقوله (ﷺ) **(الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)** وعندئذ يأمن من أن يستحوذ عليه الخوف اللاشعورى المتأصل فى أعماق الإنسان من غرور النجاح المطرد والغنى الواسع(١).

ولا ينسى القوة المطلقة التى تسيطر على حظوظ الناس فى الحياة ، فمهما يبلغ الإنسان من سعة الرزق والسلطان فليس بخارج عن مشيئة الله وملكوته.

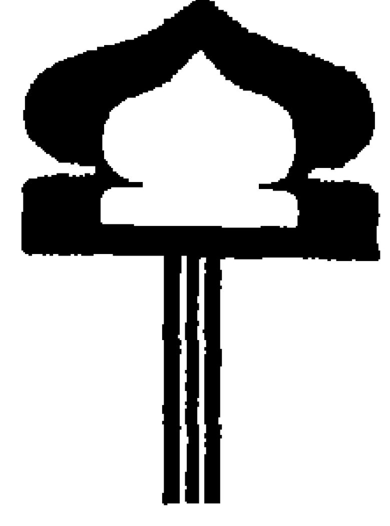
ويجب أن نلاحظ فى القصة هذا الطابع الواقعى الذى يترقرق من نسيج القصة. فالأحداث - وهى صفة أساسية فى القصة المثل - تكاد تكون من الوقائع الحياتية التى نمر بها فى الحياة، فضلاً عن أن نماذج الشخصية لها ما يشابهها ويضاهيها فى واقع الناس ومسالكهم. فالوقائع تتشابه ، والأشخاص تتماثل ، ومن ثم يتبدى الغرض الدينى الكامن وراء القصة، حيث يملؤنا اليقين بأن القوة لله جميعاً..

(١) سيكلولوجية القصة ص ٢٥٣/ ٢٥٤.

فالقصـــة مشـــاهد رهيبة تتنامى فيها الأحداث مع النتائج فى انسجام تام. إذ يُطالع القارئ خلال القصة "مسيرة الأحداث والأشخاص حتى النهايات الضرورية، التى تعلمه وتقوّمه وتصحح نظره إلى الحياة.."[(١)].

إن القصـــة المثل خير إطار تعبيرى لتمثيل القضايا الدينية، والحقائق العقلية وذلـــك بتجســيد تلك القيم الدينية والعقلية فى قالب قصصى محسوس، بحيث تجعل المتـــلقى أكـــثر قدرة على الفهم والاستيعاب وأكثر قدرة على تمثل المعنى الدينى والعبرة الخلقية ، مما يؤكدها فى النفس ويعمقها فى الإحساس.

(١) قصص وعبر ص ١٦٥.



الفصل الثاني

القصة التاريخية



إن القصص القرآنى حافل بالتاريخ، وكل الوقائع والأحداث التى حدثت وجاءت فيه صحيحة تاريخياً، لا يدخلها شك أو وهم.. والشخصية الدينية لها إلى جانب الوجود المادى الذى يعنى به التاريخ العام والذى تتمثل فى الميلاد والوفاة والموطن والعمر، والمظهر والمزاج والعلاقات الشخصية وجود روحى يتمثل فى الفكرة والدعوة والأثر فى الناس، توجيهاً وتغييراً وإلهاماً.. فالشخصية الدينية لا تكسب قليلاً أو كثيراً من إحاطة المؤرخ أو الناس بمظاهرها المادية وعلاقاتها الدنيوية، لأنها موجودة فى الفكر الذى دعت إليه، وفى العقيدة التى بعثها وفى التطورات التى أدخلتها فى حياة الأفراد والأمم)[1]..

وقد يرى البعض ممن جنح بهم التفكير إلى أن القرآن الكريم تصرف فى الحقائق التاريخية انطلاقاً من استغلال الأدب للتاريخ.. مما يوحى بعدم الالتزام بالصدق والدقة التاريخية ومما يعنى إسقاط القرآن لتفصيلات جزئية لها طابع الحقيقة فى القصة الواردة،

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٥٤.

مستندين فى ذلك إلى الخلاف الذى طرأ حول تاريخية القصص مثل أصحاب الكهف وعددهم والزمن والمكان الذى شهد الواقعة.. منتهين إلى القول بأن القصص جاء للعظة والعبرة فقط. وإن ما قصده (المفسرون القدامى والمحدثون من قولهم إن القصص القرآنى جاء للاعتبار والتوجيه الدينى، واستنباط الحقيقة الدينية منه، هو ألاّ يلتفت المسلمون عن هذه الغاية السامية إلى البحث عن تفاصيل هذه القصص كلون كلب أهل الكهف وعددهم وأوصاف ذى القرنين وأسماء بعض الشخصيات التى لم يذكرها القرآن، والأزمنة والأمكنة التى حدثت فيها هذه الأحداث.. ولكنهم لم يقصدوا أن الحقائق التاريخية للقصص القرآنى قابلة للنقد وللخلاف والإنكار)[1].

وثمة ملحوظة دقيقة يجب التأكيد عليها وهى أن هناك فرقاً بين ما يرويه القرآن من مزاعم المشركين والمبطلين ويفضحها ويرد عليها، ويعظ المسلمين بها، وبين ما يقصه هو من عنده من قصص الأنبياء والصالحين وما ينبئ بحدوثه مستقبلاً من عبر وعظات..

ولقد وردت آيات كثيرة ترد هذا الافتراء وتفضح هذه الأباطيل.. منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا • قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2].

والأساطير قصص التبس فيها الواقع بالخيال، وأضاف الخيال الشعبى من عنده إلى الحقيقى إضافات تراكمت على مر الزمان والعصور حتى أضحت الخرافة والباطل هى سمة هذا النوع من الأنباء وطبيعة هذا الحكى عن تلك القصص . ومن ثم انسحب خيط الحقيقة فأضحى واهناً لا يبين.

ولقد زعم البعض[1] أن فى قصص القرآن أساطير من أنباء الغابرين وأن القرآن ببنائه القصة الدينية على بعض الأساطير قد جعل الأدب العربى يسبق غيره من الآداب العالمية فى جعله القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب..

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ص ١٦٨ جـ٣.
(٢) سورة الفرقان آية ٥، ٦.

وهو ادعاء فيه كثير من البهتان.. لأن القرآن كتاب الله يهدى إلى الحق عن طـريق الأحكـام والتشـريع وعـن طريق الأخبار التى يرويها عن أحوال الأمم الغابرة. وهى رواية لا باطل فيها..

ذلـك أن الـبطلان صـفة من صفات الأساطير، ولقد ورد فى المعاجم أن الأسـاطير بمعنى الأباطيل والمفرد أسطورة (٢)، وهى حكايات خيالية عن القرون الغابـرة : ولقـد عقب القرآن الكريم على ادعاء المشركين بأن القرآن الكريم من أسـاطير الأوليـن بأنـه وزر وضلال وبأن جزاءه النار وشديد العذاب. ولقد أكد القـرآن الكـريم فى مثل هذه الآيات التى ورد فيها هذا الادعاء. أكد على أن الذى أنـزل القـرآن الكريم أحكاماً وأمثالاً وقصصاً هو الله سبحانه الذى يعلم السر فى السـموات والأرض.. وهو دليل على أن كلمة أساطير تعنى الأباطيل وأن القرآن الكريم هو الحق والصدق والخبر اليقين(٣).

وإذا كانت الواقعة التاريخية لبنة من بناء يصنعه عقل إنسان ليفسر جانباً من حيـاة طائفـة مـن الناس لفترة محدودة (٤) فإن الواقعة القرآنية تعلو على الزمان والمكـان.. وتتمـثل فى فكر الإنسان – الشخصية المحورية للقصة أو الواقعة وما جاء به من دعوة أو عقيدة.

ولقد أخضع القرآن فى قصصه الوقائع التاريخية إلى الحقائق الدينية إذ ليس فى مجـرى هـذه الأحداث ما يحصل بمحض الصدفة أو بتأثير الظروف المادية وحدهـا، وإنمـا تـأتى وفق السنن التى تساير الإرادة الإلهية فى الثواب والعقاب، والبقاء والفناء.

ولقـد أورد القـرآن كثيراً من ألوان العذاب الذى لقيته الأمم الغابرة نتيجة عنادها وجحودها وكفرها بربها.. وتعدَّد العذاب وتنوع .. من طوفان يغرق البشر، ومـن صـواعق تجعـل الناس كأعجاز نخل خاوية، ومن صرخة واحدة تصيبهم

---

(١) ممن زعم هذا الزعم الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتابه (الفن القصصى فى القرآن).
(٢) مختار الصحاح ص ٢٩٨.
(٣) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٢ ص ١١٠/١١١.
(٤) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٥٥.

بـــالموت جـــاثمين، ومـــن صيّب فيه رعد وبرق لا يبقى ولا يذر ويجعل كل شئ كالهشيم المحتظر.

وقـــد يرى البعض أن تلك مظاهر وكوارث طبيعية لا ترتبط بالعقاب الإلهى وهم دعاة المذهب المادى الذى يبعد الحركة التاريخية عن المنطق الدينى وأحكامه. ذلـــك أن تعذيـــب بعض الأقوام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح لا يمنع أن يكـــون كل نوع من أنواع هذا التعذيب قد حصل بتوفر أسبابه الطبيعية التى تجرى وفق السنن الإلهية والتى هى جزء من المخطط الإلهى(١).

ونحن حين ندرس نموذجاً للقصة التاريخية نقرر أن القرآن وهو يحكى عن أمة من الأمم، لم يلتزم فيما انتقى من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه، كذكر زمـــان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمنى، وإنما انتخب الوقائع لتحقيق الهدف الدينى وصاغ ذلك فى أسلوب تعبيرى غاية فى التأثير والقوة والإعجاز.

- ولـــنأخذ نموذجـــاً للقصـــة التاريخية يتمثل فى أهل مدين.. ولقد وردت القصة فى سورة هود.

قال تعالى :

﴿وَإِلَـــى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُـــوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ، وَيَـــا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ، قَالُوا يَا شُـــعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِـــي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِـــثْلُ مَـــا أَصَـــابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ، وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ، قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا

(١) سيكولوجية القصة ص ١٧٩.

تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِـي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، وَيَـا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ، وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾(١).

هذه قصة تاريخية تتناول أهل مدين ونبيهم شعيب. وهذه القصة شأنها شأن القصص الأخرى التى تناولت قصص الأنبياء مع أقوامهم.. ولقد اختلف المفسرون حـول مديـن، فـهى قرية من أرض معان من أطراف الشام وهى مدينة عرفت بالقبلية ، وقوم مدين الذين وردوا فى هذه الآيات قيل إنهم غير أصحاب الأيكة التى وردت فى آيات سورة الشعراء فى قوله تعالى :

﴿كَـذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٢).

ولقـد ورد عن الرسول مرفوعاً **(أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبى عليه السلام)**.

وهـذا الاختلاف فى المكان ينفيه هذا التوافق فى النسق القرآنى وهو يصف طبيعة هؤلاء القوم .. بالفساد حيث يطففون الكيل والميزان مما يدل على أنهم أمة واحـدة، ولكـنه تعـالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها .. ففى سياق القصـة فى سـورة الأعـراف أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريـتهم أو ليعودنّ فى ملتهم فقال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة . وفى سورة هود ذكر القرآن الكريم أنهم أخذتهم الصـيحة فأصـبحوا فى ديارهم جاثمين لأنهم قالوا للنبى شعيب على سبيل التهكم والاسـتهزاء ﴿شُـعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فناسـب أن يذكر

(١) سورة هود آيات ٨٤-٩٥.
(٢) سورة الشعراء انظر آيات ١٧٦/ ١٩١.

القــرآن الصيحة التى هى كالزجر عن هذا القول القبيح . فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم(١).

وكما اختلف المفسرون حول مدين، فلقد اختلفوا حول شعيب أيضاً. فقيل إنه ابــن ميكيــل بن يشجن، وقيل إنه شعيب بن يشخر إبن لاوى بن يعقوب وقيل إنه ممــن آمن بإبراهيم يوم أُحرق بالنار، وورد عن الرسول (ﷺ) فى رواية أبى ذر (**أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر**).. ووصف بعض السلف شــعيباً بأنــه خطيب الأنبياء(*) ولقد سكت القرآن عن ذلك كله، وأكد على أن أهل مديــن قوم كافرون يعبدون الأيكة ويقطعون السبيل ويبخسون الكيل والميزان وأن شعيباً النبى رجل منهم بعثه الله إليهم رسولاً داعياً إياهم إلى الوحدانية وناهياً إياهم عن القبح والفساد فآمن البعض وكفر الأكثرون حتى أحل الله بهم البأس الشديد(٢).

والقصــص التاريخى هو أكثر قصص القرآن، وهو وإن خلا من التفاصيل أو تحديد الزمان أو المكان إلاّ أنه يتصف بالصدق وصحة الخبر، ذلك لأن القرآن ليــس تاريخــاً يروى أو قصصاً تحكى، وإنما هو كتاب هداية وموعظة. فالقصة الــتاريخية لــم تذكر لمجرد سرد لتاريخ الحدوث وتسجيل تفاصيل الأحداث، وإنما للــتأكيد عــلى العظــة والعبرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾.

وتحــكى القصة أن أهل مدين كفروا بالله وأشركوا به، إذ عبدوا الأيكة من دون الله وطففوا فى الكيل والميزان ولقد بعث الله فيهم شعيباً يدعوهم إلى عبادة الله وحــده، وأمــرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وحذرهم من عاقبة الظلم والفساد، كما نهــاهم عــن قطع الطريق، وذكرهم بنعم الله وآياته الكبرى عليهم.. فلقد كانوا قلة فأصبحوا كثرة، وفقراء فأصبحوا أغنياء.. ولقد تلطف شعيب مع قومه حين دعاهم إلى الحــق بالطــريق المبين، فلم تبد منه جفوة بل أحسن الجدل واستمالهم باللين. وذكــرهم بمــا بينه وبينهم من صلة، وأوضح لهم أن ظهور البينة بالنبوة والرسالة

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٨، ٢٩٨، ٢٩٩.

(*) وقيل عن شعيب عنه كان بعد يوسف. وعن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم / ابن كثير ص ٣٠٢.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠.

وكـثرة نعـم الله عليه تحول بينه وبين طريقهم الضال ودعوتهم الفاسدة، وهو لم يكـرههم على اتباع دعوته ولا يأمرهم بشيء إلاّ رضيه لنفسه، وهو مشهور بينهم بالحلم والرشد، إنه لا يريد إلاّ الإصلاح ما استطاع . ولكن شعيباً رأى فيهم النفور والعـناد وتلك طبيعة كل الأقوام من الفجار الذين خالفوا الأنبياء، ولكنه دأب على النصـيحة والدعوة إلى الله فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً واعية وآمن به نفر قليل وظل ينهاهم عن ارتكاب الإثم ، فارتكاب الإثم لا يمنع من الإيمان بالله ومن ثم التوبة والنجاة من العذاب.. ولكنهم توعدوه حين رأوا الأتباع يكثرون يوماً بعـد يـوم.. توعدوه ومن آمن معه بإخراجهم من القرية.. إلا أن يبرأوا من دينهم الجديـد ويعودوا إلى ملتهم الأولى. ولما يئس شعيب منهم دعا الله أن يجزيهم على كفـرهم وجحودهـم، والقـوم لا يبالون بما يقول. لاهون عن الحق، مقبلون على الدنيا.. مسرفون في فحشهم وفجورهم وظلمهم ، بل بلغ بهم الأمر أن تحدوا شعيباً أن يحـل بهـم العذاب كما يردِّد، أو تسقط عليهم كسف من السماء. واستجاب الله دعاءه وآزره بنصره وابتلاهم بحر شديد، لا يرويهم فيه ماء، ولا يظلهم ظل، ولا تحميهـم المـنازل والـبيوت. وفروا من قضاء الله إلى قضاء الله، حيث استظلوا بسحابة تقيهم من وهج الشمس وحرارتها، حتى إذا تجمعوا واكتملوا رمتهم السحابة بالشـرر والشـهب، وجاءتهم الصيحة من السماء وزلزلت الأرض تحت الأقدام.. وكـانت الفاجعة(١). ولقد جمع الله عليهم أنواعاً من العذاب وأشكالاً من العقاب. لما اتصـفوا بـه من قبح وفساد، فسلط عليهم الرجفة الشديدة التي أسكنت الحركات، والصـيحة العظيمـة التي أخمدت الأصوات ، والظلة التي رمتهم بالشرر والشهب من جميع الجهات(٢).

وهذه القصة التاريخية وردت في سورة هود، وهي سورة مكية، ولقد نزلت في فترة حرجة من حياة الرسول (ﷺ) حيث تجرأت قريش عليه بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها..

وقـال المقريـزي في إمتاع الأسماع : (**فعظمت المصيبة على رسول الله بموتهمـا وسماه عام الحزن**) وقال : "**ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات**

---

(١) قصص القرآن . محمد أحمد جاد المولى ص ١١٠.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٧ – ٣٠٢.

أبو طالب" لأنه لم يكن في عشيرته حامياً له غيره. ولقد جاءت السورة بما ورد فيه لتثبيت الرسول والذين معه ومؤانسته والتسرية عنه.. وهو هدف من أهداف القصة التاريخية التي تتناول قصص الأنبياء وقصص الأمم الغابرة، حيث استعرضت الآيات الكريمة حركة العقيدة في التاريخ البشري من لدُن نوح حتى محمد.. مؤكدة على التوحيد والديانة لله وحده.. وموضحة أن الأقوام قد تلقوا ذلك عن طريق رسل الله، هداة البشر إلى الحق والصواب.. مشيرة إلى أن الدنيا دار بلاء واختبار، وأن حرية الاختيار هي محور هذا الابتلاء(١).

والآيات الكريمة وهي تسوق قصة مدين تبين مراعاة الأمانة وضرورة توفرها فيما يتصل بالشئون المالية، خاصة إن كانوا قوماً للمال في حياتهم دور كبير. وهم في ذلك يشبهون أهل مكة وسراتها من التجار والأثرياء في عهد رسول الله، وكانوا يتعاملون في أموالهم بالبخس والربا، فكان إيراد هذه القصة تسرية للمسلمين من سوء المعاملة، وبياناً للمسلك المالي الخاطئ الذي يسلكه كفار قريش، فشئون المال لها صلة وثيقة بالدين)(٢).

ومن سنن الله في الأمم أنه إذا استشرى فيه االفساد وانغمس حكامها في الترف ولم يأبهوا لمصالح شعبهم ولم يأخذ العقلاء فيها على أيديهم كان المصير عذاباً شديداً يحيق بهم ويزلزل حياتهم. وذلك مصداقاً لقوله تعالى في ختام السورة وبعد إيراد قصص الأنبياء مع أقوامهم .. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ • وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾(٣).

وعود إلى صدق القرآن في روايته للقصص التاريخي، ندرك أن القرآن يقرر هذا الصدق، وهذا الإعجاز التاريخي.. في أسلوب قاطع بعيد عن الشك لا يحتمل التأويل أو الاجتهاد مع النص.. ذلك أنه يقص على رسول الله في زمان مغاير ومكان متباين وبعد آماد طويلة سحيقة، يقص قصص الأمم الغابرة وقصص الرسل الكرام أولي العزم والقوة والصمود، مبيناً أن تلك أمور من الغيب يوحى بها

---

(١) الظلال مجلد ٤، ص١٨٤٠.
(٢) نظرات في قصص القرآن جـ١ ، ص٧٥.
(٣) سورة هود الآية ١٠٠، ١٠١ .

الله إلى رسوله مثلما يوحى بغيره من الآيات القرآنية الأخرى، ويمن عليه بسرد هذه الأنباء عبر الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قاصداً فى الوقت نفسه: تقرير الإعجاز بهذا العلم التاريخى الذى سماه المبطلون "أساطير الأولين")[1].. ويحسم القرآن هذه القضية فى آيات كثيرة : منها قوله تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

لقد جعل الله سبحانه بقاء الأمم ونماءها فيما تتحلى به من الفضائل ومكارم الخلق، انطلاقاً من الإيمان والتوحيد. والعمل بهذا الإيمان هو مناط الفعل الذى يؤاخذ عليه الإنسان ثواباً أو عقاباً، وهو نفسه الوسيلة التى تترقى بها الأمم إلى درجة من الصفاء القلبى والطهارة فى المسلك والمقصد. ومن ثم لم يكن عجيباً، أن ترتبط الدعوة إلى التوحيد بالعمل الصالح فى مناحيه المختلفة وتعدد أنماطه فى الحياة والسلوك وهو تلخيص لما قاله (ﷺ) **"قل آمنت بالله ثم استقم"** فهذا الحديث الموجز لخص حركة التاريخ كلها وحركة العقيدة التى تحملها الرسل وأبلغوها إلى أقوامهم.. الإيمان والعمل به.. ولأن الإيمان اجتثاث من الجذور الوثنية وزرع لبذرة التوحيد، وُوجه دائماً بالصد والمعاناة والضلال والمكابرة ومن ثم جاءت سنة الله المتواترة فى أنه جعل زوال الأمم واضمحلالها فى التخلى عن الإيمان، وعن العمل الصالح، والخلق الكريم، وتلك سنة لم تختلف من أمة إلى أمة أو من زمان إلى زمان. إنها سنة لا تتبدل بتبدل الزمان والأجيال.

- وإذا ما أخذنا نموذجاً آخر.. لقوم عاد.. فإننا نجد أن تلك السنة الإلهية ثابتة، لم تتغير.. فقوم عاد وموقفهم من رسولهم.. مثلهم فى ذلك مثل قوم نوح، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى ، ومحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

قال تعالى :

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ • يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ ص ١٧٢ . .

(٢) سورة هود آية ٤٩ .

تَعْقِلُونَ • وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ • قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ • إِن نَّقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ • مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ • إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ • فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ • وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ • وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ • وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(١).

وقال تعالى فى مجال العذاب والعقاب ونوعه.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ • سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٢).

ويتبدى فى هذه القصة نفس المنهج القرآنى فى التاريخ.. المنهج الذى سبق فى قصة مدين وشعيب، وهو منهج قائم على الانتخاب والخلو من التفاصيل مع إبراز الهدف الدينى مقصد القصة وهدفها..

ولقد اختلف فى عاد.. كما اختلف فى هود..

فعاد قبيلة عربية سكنت الأحقاف ما بين عمان وحضرموت وكانوا يسكنون بيوتاً ذوى أعمدة ضخام.. ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ المكان الذى عاشت فيه عاد. زعم البعض أنها تارة فى الشام وتارة فى اليمن وتارة فى الحجاز.. وكذلك هود..

وهذه الاختلافات لا تضيف جديداً أو معانى متجددة، فليس الهدف من سرد القصة، هو الجرى وراء المكان بتضاريسه، ولا الزمان بتتابعه وأحداثه، ولا الشخصية بملامحها المادية.. وإنما القصة جاءت فى القرآن انتخاباً لوقائع محددة لتحقيق الهدف الدينى.

(١) سورة هود آيات ٥٠-٦٠.
(٢) الحاقة آيات ٦، ٧.

وعــاد قوم عبدوا الأصنام بعد الطوفان. ولقد كانوا جفاة كافرين فأرسل الله إليهــم هوداً وهو من نفس القبيلة.. ورجل منهم، يدعوهم إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة، ولكنهم كذبوه فأخذهم الله بعذاب شديد ..

ولقــد اســتخدم عاد مع قومه وسائل الإبلاغ الواعية، الهادئة، فنصح لقومه وأشــفق عــليهم.. وحرص على هدايتهم، وإبلاغهم الدعوة باللين والهوادة، فهو لا يبــتغى أجــراً. ولا يطلب مغنماً، ولكنه مخلص لله، وداع إلى الوحدانية، وحريص عــلى قومه ألاّ يضلوا ويضيعوا بعدما حباهم الله بنعمه الوفيرة والخيرات الجليلة، مــن عيون تجرى بالمياه وأرض تتيه بزرعها ونباتها وبساتينها، وبيوت كالقصور فى البهاء والضخامة.. إنه يذكرهم بأن خير الدنيا والآخرة بيد الله، وأنهم عليهم أن يــتوجهوا إلى الله بالشــكر. ليــزيدهم من نعمه وفضله، ولكنهم عتوا وأفسدوا فى الأرض، فنحــتوا من الأحجار أصناماً يعبدونها ولجّوا فى وثنيتهم ونسوا الله الذى أحيــاهم ويميــتهم، والذى مكّن لهم فى الأرض.. وتوجه إليهم هود داعياً وناصحاً ومحذراً أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الأمم السابقة وأمرها ليس بعيداً عنهم – وككــل طاغية جبار، قالوا فى عناد، كيف تريد منا أن نعبد الله من دون آلهتنا، ما أنت إلاّ سفيه وطائش، ويصر هود على موقفه، داعياً إلى عبادة الله. نافياً عن نفسه تهمــة الســفه والطيش وهو المشهور بينهم بالحلم والعقل والرزانة.. وأشهدهم أنه بــرىء مما يعبدون ومما يفعلون، وأشهد الله أنه بلغ الرسالة ما قصر وجاهد وما أحجم، وآمن به قلة . ظلوا يتحملون الألم والعذاب من جبابرة عاد الوثنيين.. حتى جاء أمر الله، فسير إليهم سحاباً أسود يعترض السماء فخف القوم لرؤيته متصورين أنــه ســحاب عارض ممطر، وتهيأوا لاستقباله وفجأة تهب الرياح فى عنف وشدة أخذت فى طريقها كل شىء.. فداخلهم الخوف والفزع وهربوا إلى بيوتهم الضخمة ذات العماد.. علها تقيهم من هذا الهول.. ولا فائدة ، فالرياح العاتية ظلت سبع ليال وثمانيــة أيام حسوما .. حتى أصبح القوم فى النهاية كأنهم أعجاز نخل خاوية (١).. أما هود ومن آمن معه، فقد ظلوا آمنين مطمئنين فى مكانهم.. حتى هدأت الريح.. وسكنت العاصفة المدوية..

---

(١) شــبهوا بأعجاز نخل لأنّ الريح كانت ترفع الفرد إلى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيصبح جثة بلا رأس.. قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١٦٦.

وهكـــذا اســـتحقت عاد لعنة الله فى الدنيا والآخرة ﴿أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ولقد بينت هذه القصص وغيرها طبيعة هذا الدين وخطه الحركى كما يقول الشهيد ســيد قطب.. فالدعوة إلى الله تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصــر القربى والدم والنسب ثم تنتهى بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد أمة مسلمة وأمة مشركة[1].. فدعوة التوحيد تصر على التحرر من الدينونة لغيــر الله والــتمرد عــلى سلطان الأرباب الطغاة.. فلقد خلق الله الناس أحراراً لا يديــنون بالعــبودية لأحد من خلقه ولا ينزلون عن حريتهم لطاغية فإن لم يصونوا ذلك فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة.

والقيــم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية فى حياة الناس وهى جوهر الحديــث الــذى ورد عن رسول الله (قل آمنت بالله ثم استقم) وأى خلل فى ذلك يوجب عذاب الله وعقابه. وتلك سنة الله فى كونه.

وعلى طريقة القرآن الكريم فى انتخاب الأحداث والاكتفاء بمواطن العبر من مشاهد القصة، فإن أجزاء هذه المشاهد تختلف من سورة لأخرى.. إذ يأتى العرض بمــا يناسب السياق.. وتلك قاعدة أساسية فى المنهج القرآنى. ففى سورة هود جاء العــذاب مجهّــلاً لا نعــرف نوعــه، وطبيعته.. ولكننا نعرف أن ثمة عذاباً حاق بالظــالمين مــن قوم عاد.. ولقد أشار القرآن إلى أن ذلك بكلمة فيها الحسم، وفيها العقاب إنها كلمة "أمرُنا".. إنها كلمة تحتمل أنواعاً عديدة ومتنوعة من العقاب.. إنه الأمــر الــذى يصــحبه العقاب والويل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ..﴾.

ولكــن العذاب فى سورة الأحقاف قد ورد محدداً، لقد وضحت الآيات نوع العــذاب الــذى حــاق بهــم إنه الريح التى تحمل العذاب الأليم.. وهذا العذاب قد استبشــروا بــه لجهــلهم حقيقــة العارض الذى اعترض السماء وأملهم فى مطر يمطرهم بعد جفاف.. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [2].

---

(١) الظلال مجلد / ٤ ص ١٨٩٦.
(٢) سورة الأحقاف آية ٢٤.

قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ثم تضربهم على الأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم[1].

واكتفت سورة (المؤمنون) بذكر دوى هذه الريح التى أتت بالعذاب الأليم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

ولقد أخذتهم صيحة العذاب المدمر، وهو عقاب عادل يستحقه هؤلاء القوم الجاحدون، وأصبحوا هلكى كغثاء السيل. قال المفسرون: صاح جبريل بهم صيحة رجفت بها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاء كغثاء السيل الذى يضرب به المثل في التفاهة والحقارة، وفي الشيء التافه الذى لا ينتفع به.

وصورت سورة الحاقة هذا العذاب في تفصيل واضح، إذ ترينا هذه الريح الهائلة، إعصاراً مستمر الهبوب ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ وكل من هذه المشاهد (يحتل مكانه الملائم من سياق القصة حتى كأنه لا يصلح له سواه.. وفيما عدا هذا تتكرر النقاط الرئيسية في كل هذه المواطن إما باللفظ وإما بالمعنى لأنها المحاور التى يدور حولها المحتوى، وبها تنبثق العبرة المنشودة. ففى تكرارها والحالة هذه عملية تثبيت من شأنها أن تعمق موقعها من القلب الواعى فيحتفظ بأثرها حياً فعّالاً..)[3].

إن الاتجاه إلى الإيمان بالله الواحد هو أساس انطلاق الإنسان إلى تأصيل بنائه على أسس عقيدية مكينة.. وهو جوهر دعوة الرسل جميعاً سعياً إلى تحرير الإنسان ليكون قادراً على مواجهة الشهوات والغرائز الدونية.. وكذلك فإن قصة هود تؤكد على أهمية الاعتبار بتجارب الآخرين.. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾. إن التجربة ... التأمل فيها أحد الوسائل المستخدمة

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ١٩٩.

(٢) سورة المؤمنين آية ٤١.

(٣) قصص وعبر . محمد المجذوب ، مكتبة الرياض الحديثة .

فى الدعــوة، وهى تــؤتى النــتيجة الفعّالــة إذا جاء استخدام العقل على مستوى التجربة.. هذا العقل الفعال وسيلة إلى استنباط العبرة من التجربة وحركتها (ومن لا يعتبر من واقع مجرب وأثر مؤكد ، يلغى عقله، وينكر فطرته المتميزة، ويدخل نفسه بإرادته فى درك الحيوانات والبهائم)(١).

ويجب أن نوضح فى هذا المجال أن القرآن لم يذكر شيئاً عن صفة عاد ولن يــتحدث عــن بيوتها ومساكنها كما لم يذكر شيئاً عن الجدل والحوار.. وذلك حين أورد القرآن الكريم موضوع عذاب القوم فى سورة القمر فى قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ • فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(٢).

ولقــد ترك القرآن كل تلك التفصيلات وأسرع إلى وصف العذاب، ذلك أن مناســبة نــزول الآيات تتلاءم مع العهد الذى اقتضى أن يبث القرآن فيه طمأنينة الــنفس، كمــا يحذر من العذاب، بأن يرسم له صورة فنية رائعة تثير الخوف فى نفــوس المعاندين وتبعث الطمأنينة فى نفوس المؤمنين.. فثمة ريح صرصر، ويوم نحــس، وهــناك قوة الريح التى تنزع الناس وتجعلهم أعجاز نخل منقعر. وتنتهى الآيات بالأسلوب الإنشائى الذى يفيد هول عذاب الله، الذى يقع على الكافرين.

وهــذا التناول القرآنى لهذه الحلقة من قصة عاد. لا تعنى أن القرآن قد غفل عــن الجــانب التاريخى فى القصة، أو أنه ضحى بالتاريخ من أجل القصد الأدبى وأنه حين يعدل عن التفاصيل بقصد الموعظة والعبرة فلا يؤرخ لأفراد أو جماعات أو أمــم.. فإن ذلك لا يكون بحال من الأحوال على حساب الصدق التاريخى الذى هو سمة القصة التاريخية فى القرآن.

وممن تناول هذا الموضوع مؤلف كتاب "الفن القصصى فى القرآن" إذ يرى "أن هذا اللون من قصص القرآن قصص أدبى تاريخى، يأخذ القرآن مواد القصص فيــه من أحداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها عرضاً أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً

---

(١) منبر الإسلام مايو ١٩٨٦ د. عمارة نجيب ص ١٠.
(٢) القمر آيات ١٨-٢١.

يـبين المعـانى ويؤيد الأغراض ويؤثر بها التأثير الذى يجعل وقعها على الأنفس وقعاً استهوائياً خطابياً يستثير منها العاطفة والوجدان"(١).

كمـا يرى المؤلف فى هذا الجانب أيضاً أن "أحداث التاريخ التى وردت فى القصـص القـرآنى قـد رتـبت ترتيباً عاطفياً وبنيت بناءً يقصد به تحريك الهمم والنفوس. ومعنى ذلك أنها لون من ألوان القصص التاريخى الفنى، وأن العمل فيه فنى يُقدَّر بموازين الفن القولى لا بموازين المؤرخين"(٢).

ومن ثم فهو يرى فى النهاية أن المسألة فى القصة القرآنية هى مسألة بيانية ومن ثم فهى لا توصف بتصديق أو تكذيب وإنما هى العرض الأدبى(٣). ويرى أن من حق العقل البشرى أن يهمل هذه المعانى التاريخية أو يخالفها أو ينكرها"(٤).

.. وهذا يعنى أن ما جاء من عنصر تاريخى فى القصص القرآنى يميل إلى الخيال والوهم الأدبى.. وهذا خلط كبير.

وعنصـر التاريخ وارد فى كل قصص القرآن مما يجعله ركيزة أساسية فى بـناء القصـة.. وانطلاق القصة فى هذا الجانب انطلاق واقعى ونفسى، فالواقعى يعـنى صـدق الجانب التاريخى صدقاً موضوعياً فى الزمان والمكان.. ويجب ألا نقيس تاريخية القصة القرآنية بمفاهيم علماء التاريخ.. فالتاريخ القديم ليس له طابع الثـبات، وموقـف العلماء من الحادثة الواحدة قد يتباين ويتغير ويتبدل حتى يضيع جوهـر الحادثة التاريخية وسط هذا الخلاف. والواقعة التاريخية إذن ليس لها طابع الثـبات فقـد تـروى حسب وجهات النظر المختلفة.. ووقائع التاريخ فى القصص القـرآنى وقـائع منتخبة صادقة جاءت لتفى بالغرض الدينى وليس المقصد الأدبى فقـط.. والقرآن الكريم ليس كتاباً فى التاريخ يؤرخ لحركة البشر والأحداث، وإنما هـو فى الأسـاس كتاب دعوة إلى الحق والتوحيد وتنظيم شئون الحياة على أساس

---

(١) الفن القصصى فى القرآن ص ١٤١ د. محمد أحمد خلف الله.
(٢) المصدر السابق ص ١٤٧.
(٣) المصدر السابق ، ص٥٨.
(٤) المصدر السابق ص ٥١.

ديـــنى سليم.. ومظنة الخلاف فى هذا الأمر راجع إلى مقارنة القرآن الكريم بالكتب السـماوية الأخـرى الـتى جرى عليها التحريف، وكثرت فيها الحوادث المختلفة. والمقارنـــة هذه غير واردة، إذ كيف نقارن بين وحى الله الثابت وبين وضع البشر وخلطه بالدين؟!

والإشـــارات القصصية حول الرسل والأنبياء، والتى لم يرد فيها إلاّ صور العـذاب، لا يعـنى أن إغفالهـا لعنصـر الجدل والحوار، وجوانب التاريخ.. أنها صـيغت صياغة أدبية وكفى .. فالتنوع القصصى منهج رئيسى فى القصة القرآنية وطـريقة العـرض متنوعة.. فقد تأتى القصة فى نهايتها لمقصد محدد، وهو نشر العـذاب وإلقاء الرعب والتخويف، وقد تأتى متصلة فى حلقة أخرى فتلقى أضواء عـلى المكـان والزمان وطبيعة البشر، وقد تأتى جدلية صرفة فيسود الحوار حول الدعـوة إلى التوحيد بما يعتورها من عناد وضلال وكفر من جانب، وإيمان وجهاد وصبر من جانب آخر.

والقرآن وهو يعْدل عن الجزئيات والتفصيلات إنما هو يتسق مع منهجه فى القصة، فالقصة القرآنية لا تحفل بالجزئيات والتفصيلات، وإنما تسعى إلى الغرض الديـنى، وتـورد من الأحداث ما يتلاءم مع الغرض الدينى.. وإسقاط القرآن لهذه التفصيلات لا يعنى أن ما ورد فيها خيال، يحتمل التصديق والتكذيب، وإنما هو - صـادق كل الصدق - فيما أورده من قصص وأحداث تاريخية. دون أن نلجأ إلى كتب التاريخ لنقول : هل ورد الأمر فيها أو لم يرد؟ ودون اللجوء إلى المقارنة مع كتب الديانات الأخرى.

فالتـنوع طـريقة بنائية أساسية فى القصة القرآنية - فثمة إجمال وتفصيل وبسـط وإيجـاز وإشـارة وحوار ولفتة وتجسيد .. ويأتى ذلك كله ملائماً للسياق القرآنى.. وللغرض الدينى.

فحـلقات القصة قد تأتى متقدمة ، أو متأخرة، من حيث الإجمال أو التفصيل [illegible] الأحداث وفق هذا المنهج.. وقصة موسى مثل على ذلك.. فلقد وردت أول [illegible] كإشارة قصصية فى بداية الدعوة، لتؤكد على العذاب الذى حاق بفرعون

وأهلــه.. ثــم بــدأت تتضــح حــلقاتها، من الميلاد ، فالهجرة إلى مدين، فالدعوة والمواجهة، فمواقف السحرة، وشق البحر، ثم نجاة موسى وغرق فرعون..

ويرد ذلك كله وفق خاصية الإيجاز المعجز الذى يتسم به القرآن الكريم فيما أورده من أنباء وأخبار الرسل والأمم الغابرة.

(لقد جاءت الأنباء والأخبار والأحاديث فى القرآن الكريم، نموذجاً من نماذج الإيجــاز الذى تخرج الجمل منه: قصيرة غاية القصر، سريعة غاية السرعة، ومع ذلك فهى مليئة بالوقائع من جهة، وفياضة بالحركة من جهة أخرى)[1].

ومــن ثم فإن رواية الوقائع تأتى فى القرآن موجزة ومنتخبة، وإيجازها هذا لا يعــنى بعدهــا عن الواقعية أو الصدق التاريخى.. بل هذا الإيجاز جعل قصص القــرآن مــتفرداً بهــذه الخاصية، وأية مقارنة بين قصة نبىّ فى القرآن والتوراة توضــح ذلك تماماً.. والقرآن الكريم ليس ككتاب أدبى يؤلفه البشر.. يخلط فيه بين الوقــائع ويوظــف التاريخ توظيفاً أدبياً حتى يجنح به إلى مخالفة الوقائع الحقيقية لتحقيق غرض أدبى..

فمــا كان كتاب الله الكريم ليقف أمام هذه التفاصيل الصغيرة، التى هى فى ذاتهــا نمــوذج لما يشغل به القاص أو المؤرخ. ويهيئ نفسه إذ وقع عليها وعلى أمــثالها ممّــا يُعــد مــن الطرائف التى تزيد إقبال السامع أو القارئ على متابعة الحكايــة. أما الرواية الإلهية، فلا تحفل بها ، ولا تقف عندها، لأنها لا تحقق كثيرا ولا قــليلاً من الغاية التى نزل من أجلها الكتاب، ولا المقصد الذى رُويت من أجله الواقعة[2].

ومــن ثــم فــإن التلاؤم الفنى بين منهج الإيجاز التعبيرى وطريقة العرض القصصــى، يســاعد عــلى إيــراد المعنى كاملاً وواضحاً، ومؤثراً التأثير الدينى المقصــود فى ألفــاظ قليــلة، وصورة باهرة، كما أنه يسقط كثيراً من التفصيلات

(١) القصة القرآنية ص ١٤.
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦.

الجزئية التى تبعد ذهن السامع أو المتابع عن إدراك جوهر القصة، والخلوص إلى عرضها الدينى المحدد.

وهـذا الإيجاز وراء الانتقال من حلقة إلى أخرى دون اللجوء إلى مقدمات، أو تـلخيص للحـلقة السـابقة.. ممـا قد يبدو للمتابع عدم الترتيب فى الأحداث.. فالأحداث تأتى وفق السياق والغرض الدينى.

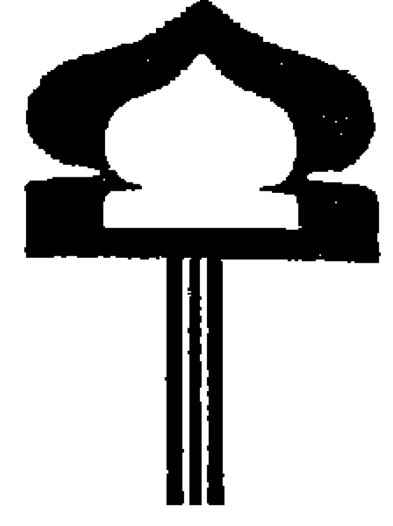
ويـرى الأسـتاذ "العقاد" أنه من الواجب أن نذكر أن قصص القرآن جميعاً تسـاق للموعظة والتعليم وحسن القدوة، وأنها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سـياق، أو مقصـد يعنى به الدين، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين، وليست كلمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس.

وإذا كـان عـلماء التاريخ قد شكوا فيما ورد من أنباء حول الأنبياء والأمم الغابـرة.. فـإن حـركة الـبحث والتنقيب والاكتشافات الحفرية قد أثبتت الصبغة الـتاريخية لتـلك الأخـبار والأنـباء وثبت أن علماء التاريخ قد ساعدهم فى هذه الاكتشـافات مـا عـرفوه من أنباء وحوادث استقوا معلوماتهم عنها من المصادر الدينية.

ولقـد شـكوا فى وجود عاد وثمود كما شكوا فى أصحاب الفيل والزلازل والـبراكين والطوفـان والجوائح والحروب التى سيقت مساق العبرة فى القصص القـرآنى وانفردت بها كتب الأديان السماوية.. إلاّ أنهم حين حققوا الآثار تبين لهم أن عـاداً وثموداً من أخبار بطليموس وأن هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم وأن المدن التى ساخت فى الأرض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل فى صـدقها عن حقائق طيبة وطروادة وأنهم فى إنكارهم قد أبدعوا للعصر صورة من صور الخرافة.. وهى خرافة العالم الذى ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر. ويظن أن كلمة التحقيق وحدها سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والإنكار[1].

---

(١) انظر المعانى الثانية فى الأسلوب القرنى . د. فتحى عامر ص ٢٦١.



الفصل الثالث

القصة التعليمية



القصص القرآني له طبيعته الخاصة ومنطقه المميز، فهو قصص ديني في المقام الأول يخدم أغراضاً دينية تدور حول التوحيد والعقيدة والشهادة من أجل الحق ومؤانسة الرسول ومؤازرة المؤمنين ضد أعداء الإسلام في مواقفهم وصراعهم الدائر ضد الكفار الوثنيين.. وهذا التفرد ينفي خضوعه للمقاييس المعروفة في الأدب الذي يبدعه البشر.

وقصص القرآن متناسق في منهجه مع المنهج التربوي في القرآن فهو تطبيق بالحكي والقص والسرد والحوار عن هذا المنهج، ذلك أن القرآن بعقائده وتشريعاته، وأحكامه وحدة متناسقة، وإن تنوعت طرقه في التبليغ والتعليم قصد الإمعان والتأثير وتجديد نشاط النفس بتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر[١].

والمنزع التعليمي في القرآن قائم على أنه يحيي شعوراً عميقاً في الإنسان بما بينه وبين الكون من وشائج ومن علاقات سامية، تترفع عن الوثنية والخضوع لغير الله، كما أنه يوقظ في الإنسان

(١) سيكولوجية القصة ، ص ٥٤٣.

الروح التجريبية واستقراء المرئيات حيث يوجه الأنبياء والأقوام إلى آيات الله فى الكون ليثير فى القلوب إيماناً قائماً على التجريب والمشاهدة.

ولقـد أقـام القصـص القرآنى منهجه التربوى التعليمى على أساس العقيدة الصافية فجعلها المنطلق إلى عالم الحس أولاً وعالم الشعور الوجدانى ثانية. فالتأمل فى ملكوت السموات والأرض واستقراء آيات الله الكونية، منطلق حسى يقوم على المشـاهدة والتجريب والتأمل ، وعقد السياقات الكونية التى أبدعها الله خالق الكون وبارئه.. يقول تعالى فى سورة الروم : **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾**.

إن الاعتبار بآثار الحوادث الكونية وما حدث للأمم السابق وهو الطريق إلى الإيمـان بـالله.. هذا الطريق الإيمانى يثير الطاقة الروحية الإيمانية داخل الذات، فتستشـرف الأفـق الإيمـانى، ويغمر القلب صفاء اليقين وحقيقة التوحيد، فترسخ العقيـدة وتبعث فى الذات المؤمنة الطمأنينة والسكينة، ويتنامى الفعل السلوكى مع العقيـدة، وتـتوجه خالصة إلى الله مبرأة من كل خوف أو دنس.. ويبقى للإنسان صلته بربه فى قوة الإيمان وحرارة العمل الصالح..

جـاء عـن رسول الله فى علامة الإيمان (**إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه**).

إن من يخلص لله لا يخاف مَنْ دونه.. لأنه مشغول القلب به، مطمئن النفس إلى الحـق، مـتيقن من مؤازرة الله له. قال تعالى مصوراً هذا الموقف حين واجه إبراهيم قومه: **﴿كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** .

ومـن ثـم فـإن أشد المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلب هو ما جاء فى أسلوب قصصى يحمل على المشاركة، ويثير الوجدان فى نفوس الأشخاص فتحدث الرسالة المتمثلة فى التأثر والانفعال بالحدث والموقف.

وقصـــص القرآن وهو قصص لأمور واقعة (يساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيـــان مكـــان العناية ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال، وعاقبة الهداية، وبيان ما يقوم به النبيون ووراءهم كل الدعاة للحق)[1] ..

- وفى قصـــة "موســـى والخضر" بيان لما كرم به الله رسله من رعاية، وتدريـــب وتوجيـــه وتعليم وبما اختصهم به من أمانة وصدق، ونزاهة، وإخلاص لله، والعمل فى سبيله، وابتعاد عن صفات مذمومة، كالغرور، أو الطمع أو الادعاء بأنه ملك ناصية الأشياء..

وقصـــة موسى والخضر واحدة من القصص الكثير، الذى تتضمنه حياة ذلك الرســـول الكريم، وفيها العبرة، وفيها الجانب التربوى التعليمى.. وهى بما تضمنته من وقائع وإغراب وحوار وسرد.. من أمتع قصص القرآن وأروعه.

ولقد جاءت هذه القصة فى سورة الكهف.. تلك التى حفلت بالقصص الأخاذ.

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَـــالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا • فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا • فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَـــتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا • قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا • قَـــالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا • فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَـــةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا • قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا • قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا • وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِـــهِ خُبْرًا • قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا • قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا • فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا • قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا • قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا • فَانْطَلَقَا حَتَّى

(١) القرآن – المعجزة الكبرى ص ١٦٢.

إذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا • قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا • قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَـدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا • فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا • قالَ هذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا • أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَـفِينَةٍ غَصْبًا • وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا • فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا • وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِـيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُـدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾(١).

- والخضر هو العبد الصالح الذى رحل إليه موسى فى طلب ما عنده من العلم اللدنى. وقد اختلف فى الخضر. فذكر ابن قتيبة عن وهب بن منبه: أن اسم الخضر "بليا" ويقال بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شامخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح (عليه السلام). وقيل إنه ابن آدم (عليه السلام) كما يورد الحافظ بن عساكر، وقيل إنه ابن فرعون صاحب موسى (عليه السلام).. والصحيح كما قال ابن جرير أنه كان متقدماً فى زمن افريدون بن أثفيان حتى أدركه موسى (عليه السلام). وقيل إنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن. واتفق الكثير على أنه جاء فى زمن أفريدون الفارسى الذى كان أول من خندق الخنادق وقضى فى ملكه ما يقرب من مائة وخمسين عاماً.. ولقد أورد البخارى حديثاً عن رسول الله برواية أبى هريرة يوضح سبب تسمية العبد الصالح بصفة الخضر. عن أبى هريرة قال، قال (ﷺ) **(إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء).**

---

(١) سورة الكهف آيات ٦٠-٨٢.

والفــروة : الحشــيش الأبيــض وما أشبهه : يعنى الهشيم اليابس، وقيل : الفروة: الأرض البيضاء التى لا نبات فيها[1].

ولقــد أوردت كتب التفاسير ما جاء عن رسول الله (ﷺ) بشأن قصة موسى والخضر :

قال ابن عباس : حدثنا أبَى بن كعب أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول :

"إن موســى قــام خطيباً فى بنى إسرائيل. فسُئل أى الناس أعلم فقال : أنا فعــتب الله عــليه إذ لــم يَــرُدّ العلم إليه . فأوحى الله إليه: إنّ لى عبداً بمجمع الــبحرين هو أعلم منك. قال موسى : يا رب فكيف لى به؟ قال تأخذ حوتاً فتجعله بمكــتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ (أى هناك) ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناماً واضطرب الحوت فى المكتل واتخذ سبيله فى البحر سربا"..

وفى روايــة لابــن جريــر بإسناد إلى ابن عباس قال : قال : سأل موسى (عليه السلام) ربَه عزَ وجلَ فقال : أى ربِّ .. أى عبادك أحب إليك قال : الذى يذكرنى ولا ينســانى . قــال : فــأى عــبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال : أى رب.. أى عبادك أعلم : قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن رَدَى . قال: أى رب.. هل فى أرضــك أحــد أعلم منى قال : نعم .. قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال وأين أطلبه ؟ قال: على الساحل عند الصخرة التى يتفلّت عندها الحوت..[2].

.. ولندخل إلى القصة ..

عــلم نــبىّ الله موسى بنبأ رجل من الصالحين آتاه الله العلم والحكمة، فعقد العزم على لقائه، والسفر إليه، والضرب فى الأرض للقائه. وجهز نفسه وأخذ معه فــتاه واستعدّ بطعام يساعده فى رحلته، وكان طعامه حُوتاً مشوياً.. ووضع الحوت

---

(١) انظر كتب التفاسير وانظر أيضاً قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٩-١٤٠، ٢٠١، ٢٠٣.
(٢) الكشاف جــ٢ ص ٣٩٥.

فى مكـتل واتجهـا ناحية المكان حيث مجمع البحرين [1]. وفى هذا المكان جلسا يسـتريحان فأصـابهما النوم، ودبت فى هذا الحوت المشوى الحياة فقفز إلى البحر وأمسـك الله جـريان الماء فصار عليه مثل الطاق، وتلك معجزة لأنه الدليل على معـرفة العبد الصالح.. وحين طالب موسى فتاه بالطعام تذكر ما حدث واعتذر بأن النسيان كان سبباً وراء ترك الحوت.. وأخبره بأنه رأى عجباً.. حين مضى الحوت إلى الـبحر وفهـم موسى هذا المقصد.. وعاد وفتاه يتبعان الأثر حتى وصلا إلى المكـان الـذى انطلق منه الحوت. وهناك.. وجدا الرجل الذى أوتى العلم والحكمة ورأى موسى الرجل وتعارفا.. ودار بينهما حوار..

- سأل النبىُّ العبد الصالح فى تأدب طالب العلم : أيمكن أن أصحبك طلباً للعلم.

ولأن الأمر صعب وعسير وثقيل لا يتحمله بشر.. قال له العبد فى تأكيد حاسم.

– كيف تقوى على الصبر أمام أمور لا تطيق السكوت عليها.. لجهلك بها..

- ويـبادر النبى قائلاً فى طاعة من يبغى العلم ويطلبه ويحرص عليه بل ويصر.

– سأصبر ما دمت فى صحبتك ولن أعصى لك أمراً .

واشـترط الخضـر على موسى أن يلتزم بالصبر ويتحلى بالسكوت ولا يسأل عن شيء حتى يوضحه هُو لهُ..

وبعـد أن أظهر موسى الأدب الذى يجب أن يتحلى به المتعلم تجاه معلمه، ووافـق عـلى شرط الخضر.. انطلقا لتبدأ الرحلة فى عالم غريب من المشاهدات والمفاجآت. وعلى الساحل شاهدا سفينة فركباها. حتى إذا أبحرت فى عرض البحر أمسك الخضر فأساً فخرق السفينة بأن اقتلع لوحين.. وتدفق الماء وظل يحاول سدّ

---

(١) هـو مكـان التقاء بحر الروم (المتوسط) ببحر القلزم (الأحمر) أو هو مجمع خليجى العقبة والسـويس.. وقيل إن المكان طنجة فى المغرب.. وهو يخالف السياق ذلك أن مسرح تاريخ بنى إسرائيل هو هذا المكان.. التقاء الروم والقلزم .. لقربهما من مصر وسيناء.

الخـــرق وهو يسأل الخضر مستنكراً هذا الفعل.. أتخرق السفينة ليغرق أهلها.. لقد أتيـــت بفعلـــتك هذه أمراً عظيماً.. ونبهه الخضر إلى ما سبق من مشارطة وتحذير وقـــال: يـــا موسى ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً!! وأدرك موسى أنه تسرع واعـــتذر للخضر قائلاً: لا تؤاخذنى بما نسيت .. وامتدت الرحلة واتصلت ، وتركا الـــبحر وهـــبطا إلى البر مرة ثانية.. حيث ستشهد الساحة مفاجآت وغرائب لا تقل تأثيراً عما حدث لهما في البحر.. وانطلقا يدبان على الأرض كل منهما فى صحبة الآخر حتى إذا رأى الخضر غلاماً يلعب على مقربة من إحدى القرى، مضى إليه وقـــتله، ويـــنفعل موســـى (عليه السلام) انفعالاً يعجز عن ضبط نفسه إزاء ما يرى من جـــريمة، يرى أنه لا داعى لها ولا مسوّغ، فصاح مستنكراً أشد الاستنكار : إنك يا خضـــر قتـــلت نفســـاً زكية بغير نفس .. لقد جئت شيئاً نكراً.. لا ترضاه شريعة، ويـــنكره المـــنهج الـــربانى.. ولكـــن الخضر إزاء هذا الانفعال يظل هادئاً لا يأبه بغضـــبه.. ويذكـــره فقط بما اشترطاه سوياً.. وقال : سبق أن قلت إنك لا تستطيع مـــعى صـــبراً.. ويستعيد موسى توازنه ، ويخف انفعاله ويسترد احتجاجه الشديد، ويتأســـف طالـــباً منه، أنه فى حلٍ من الصحبة إذا اعترض على أمر مرة أخرى.. فلقد بلغ العذر.. إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى[1]..

وانطـــلقا .. حيـــث كان الموقف الأخير من تلك المشاهدات الغريبة. إنهما يســـيران فى القـــرية وقـــد أخـــذ منهما التعب مأخذه، أحسّا بالجوع، ولم يجدا من يســـعفهما بالطعـــام بيعـــاً أو ضيافةً، لقد كان أهل القرية لئاماً وشر القرى التى لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه[2].. ولكن الخضر تقدم إلى جدار متداع فى إحدى الدور فقام بإصلاحه دون أن يطلب مقابلاً فلم يتمالك موسى نفسه وعـــلق على هذا الأمر متسائلاً فى حذر : لو شئت لأخذت مقابل العمل أجراً فإننا نحـــتاجه لما بنا من نصب وجوع. وهنا أشار إليه الخضر فى حسم جازم وقد رأى أن موسى قد أخلّ بالشرط وعاود المساءلة : هذا فراق بينى وبينك.

---

(١) عـــن أبى بـــن كعب قال، قال رسول الله (ﷺ) : "**رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب**".

(٢) الكشاف جـــ ٢ ، ص ٣٩٦.

ولأنه معلم أوتى من العلم اللدنى ما عجز عن إدراكه موسى، لم يتركه دون أن يوضـــح له ما غمض عليه وأشكل.. ومضى يكشف الستار عن تلك الأسرار.. أمـــا السفينة التى خرقتها فقد كانت لمساكين يرتزقون بالعمل عليها من نقل للناس والأغـــراض الأخرى، ففيها منفعة لهم ولغيرهم من الناس.. وكان فى طريقهم ملك بـــاغ وظـــالم يصـــادر ممتـــلكات الغير، فأردت أن أعيبها لأنقذها خالصة لهم من مصادرة الملك واغتصابه.

وأما الغلام المقتول فقد كان شرًّا على والديه.. فهما مؤمنان صالحان، ولكنه يهددهما بأسوأ مصير.. إن سوء صنيعه سيلحق بهما الشر والبلاء، ولأنهما يحبانه فقـــد يغضـــيان عما به من سوء فينالان غضب الله، فكان مقتله جزاءً عادلاً على فساده وإنقاذاً لوالديه من عواقب جرائمه .

وأمـــا الجـــدار فهو لغلامين يتيمين دفن لهما أبوهما تحته كنزاً، ولأن الأب صـــالح فـــلقد حفظ الله الغلامين بصلاح أبيهما.. وخشية أن يضيع الكنز وتمتد إليه أيـــدى الآخرين بادرت إلى إصلاح ما عطب فيه.. ولم أفعل ذلك عن اجتهاد لى ، أو رأى خاص أرتئيه وإنما فعلت ذلك كله بأمر ربى..

.. والملاحظة على قصة موسى والخضر، وعما ورد عن رسول الله حول هـــذه القصة.. أنها تدور حول موضوع العلم وتشعب وسائله والتأكيد على أن علم الله فـــوق تصورات البشر.. فالعلم الذى يعتمد على العقل وحده لا يدرك من حقيقة الشـــىء إلاّ بمقـــدار مـــا تعطيه الظروف والمقدمات أما العلم الذى يستمد الإلهام الـــربانى فيـــرى الحقيقة ماثلة أمامه بكل تفصيلاتها.. ولا تصادم بين العلمين فهما جميعاً من ضروب العلم..

كمـــا دعت القصة إلى التحذير من الاغترار بمظاهر العلم.. وهذا وارد فى حديـــث رســـول الله.. قال (ﷺ) فى الحديث المذكور.. **(وجاء عصفور فوقع على حـــرف السفينة فنقر فى البحر نقرة : فقال له الخضر. ما علمى وعلمك من علم الله إلاّ مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر..).**

والقصة تشير إلى عجز التعليل الحسى إزاء المشاهدات الحسية ذاتها.. كعودة الحياة إلى الحوت، وإدراك ما خفى من أمر الغلام.. وهو عجز يكسر غرور الإنسان ويبعث فى قلبه الخشوع لله. كما فيها الدعوة إلى المبادرة بعمل الخير والإحسان إلى الغير..

وهذه القصة حلقة من سيرة موسى (عليه السلام) لم تذكر إلاّ فى سورة الكهف ولم تتكرر. والقرآن الكريم لا يحدد المكان، وإنما اكتفى بذكر مجمع البحرين كما لم يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى.. كما لم يذكر شيئاً عن صفات العبد الصالح غير أنه أوتى العلم، وإنما اكتفى بما يحقق الغرض الدينى المراد بحيث يقتصر عرض القصة بمواقفها وأحداثها على ما يؤدى إلى الأثر المنشود، فتختار المواقف الكفيلة بإيجاد التأثير المعين وعند ذلك يتوقف العرض القصصى(١) وقد يبدأ العرض القصصى من نقطة مبكرة تنشأ عنها أحداث ومواقف تنطوى على العبرة فيما بعد.

ولقد سارت الأحداث فى القصة على نظام محدد وفى توقيت محدد.. وترتيب خاص بحيث يبدو الحدث فى مكانه المناسب وزمنه المناسب، فنوم موسى وفتاه حدثٌ جاء فى توقيت محدد ليؤدى إلى حدث محدد وهو هروب الحوت إلى البحر سرباً. ويسلم هذا الحدث إلى أحداث متتابعة.. من تعب وجوع وتذكر للحوت ومن ثم العودة.. حيث محور الحدث الكبير وهو لقاء موسى بالخضر وبداية الرحلة. وهذا التوقيت السردى سريع فى أحداثه محكم فى توقيته دون أن يقف السرد مع جزئيات تفصيلية تخل بالغرض والعرض معاً.

وثمة ملاحظات فى هذه القصة الباهرة.. من هذه الملاحظات ما ورد عن الحوت فلقد كان للحوت دوره البارز فى القصة مثله فى ذلك مثل الهدهد والنملة وغيرهما.. والقصة تعرض هذه الشخصية اللابشرية إن صح التعبير كدور تكميلى يمهد للحدث.. والقصة تتعرض لبعض مواقف النبى موسى الإنسانية. حيث تبرز العواطف والانفعالات – فخرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار أحداث غير

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٣٤٤.

مألوفـــة لموسى .. مما أثارت العجب والدهشة، وأبرزت سمة من سمات شخصية موسى.. وهى الانفعالية الحادة..

وإذا كـــان لـــلحوت دوره. فإن فتى موسى.. أدى دوره هو الآخر.. وسكت القـــرآن بعد ذلك عنه.. إنه لم يذكر إلاّ فى صحبه موسى حتى لقاء الخضر .. ثم تبدأ الأحداث مع الخضر فى تجاهل كامل للفتى يوشع.

ولقـــد قـــام الحـــوار فى القصة بدور هام فى تحديد معالم الشخصية.. وهو حوار منبثق من الموقف، يتنامى به متلائماً مع السياق..

وعنصـــر التشـــويق كـــامن فى القصة والقرآن يسرد المفاجآت.. من رجل غامض ليراها نبى مندهش، لإبراز حكمة إلهية عليا. (إن القوى الغيبية لتتحكم فى القصـــة منذ نشأتها. فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود، فيمضى فى طـــريقه، ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة، وكأنما نسيه ليعودا فيجد هذا الـــرجل هـــناك. وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا فى وجهتهما ولم تردهما الأقدار إلى الصـــخرة كـــرة أخـــرى. كـــل الجو غامض مجهول وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول فى سياق القرآن)(١).

وثمة فجوات فى القصة سكت عنها القرآن.. واستخدام اللازمة اللغوية كلما بـــدأت الرحلة فى موقف مختلف، تلك اللازمة القرآنية هى (فانطلقا..) وهى فجوة تتيح للخيال البشرى أن يتصور ما يمكن أن يحدث.

والتعـــبير القـــرآنى يعطى للكلمة دلالات تنسجم مع السياق والقرينة فكلمة "عجباً" تعطى تلك التنويعات فى الدلالة.. إنها تفيد (التعجب من حاله – أى الفتى – فى رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها .. أو مما رأى من المعجزتين)(٢).

إنهـــا بذاتها حركة عجيبة ومن حقها أن تثير عجب المتكلم ومن حق المتكلم أن يثير بها عجب الآخرين وهى إلى ذلك سبيل عجيب حقاً(٣).

---

(١) الظلال ص ٢٢٨١ مجلد : ٤.

(٢) الكشاف ص ٣٩٦ جـ ٢.

(٣) قصص وعبر ص ١٩٠.

وكذلك الفرق الدلالي بين كلمتي **(تستطيع)** و **(تسطع)**. ففي الأولى يهيىء الخضر ذهن موسى لاستقبال التفسير للأحداث التي أنكرها وتشوق إلى معرفتها. ولذلك استخدم فعل الاستطاعة كاملاً. ولكنه بعدما أتم عرض التأويلات القاطعة المطمئنة ختم ذلك بالفعل **(تسطع)** وهو يستعمل هذا التعبير بعد إسناد كل ما فعله إلى أمر الله. فيكون في تقصير مساحة الفعل تصوير عجيب لتقصير مسافة الآثار التي أحاطت بالصورة الأولى.

كما أن لفظ **(أهل)** يعطي دلالات تضفي على الحدث عمقاً وتوضيحاً، وإحدى الدلالات تدل على أعيان القرية الذين هم موضع نظر الغريب الطارئ، يتوسم أن يكونوا لضيافته أهلاً.. والأخرى تدل على معظم السكان الذين تأهل القرية بهم(١).. وكلتا الدلالتين توضح ما يوصف به أهل القرية من بخل وشح ولؤم وسوء ضيافة غنيهم وفقيرهم كبيرهم ووضيعهم، وهو ما أثار موسى وطلب الأجر..

إن القصة حافلة بأنواع التعبير الفني والعناصر الفنية مما يجعلها سجلاً حافلاً لتلقي التوجيهات الإلهية..

والجانب التعليمي في القرآن الكريم واضح في القصص والتوجيهات العقائدية والحث على التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض، والتفكير في تجارب الآخرين من الأمم الغابرة، واتخاذها منطلقاً للعبرة وأساساً لبنيان فكري سليم.. وإرساء قواعد الأخلاق وأنماط السلوك النفسي السوي.. ولقد ورد ذلك كله في وحدة متناسقة. ولا شك أن إبراز هذا الجانب في إطار قصصي يجعل المغزى نافذاً إلى القلب فيحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث والانفعال بالمواقف، وتوجيه العاطفة الدينية إلى الخير والحق والفضيلة.. تلك العاطفة الدينية التي تنبني على أساس صاف من العقيدة، تلك العقيدة التي يبدأ الرسل في الدعوة إليها أولاً.. الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له.. ومن ثم حين ترسخ العقيدة الصافية وترسخ في النفوس، تُستأصل العادات الفاسدة، وتستقيم موازين الأخلاق والقيم.

---

(١) قصص وعبر ص ١٩٣.

ولهـذا فـإن القـرآن الكـريم أقام منهجه التعليمى على العقيدة أولاً لبعث الاطمئـنان فى النفس والاتزان فى الفعل، وإذا ما تمكنت العقيدة فى النفس أيقظت فى الإنسـان نوازع الخير. قال (ﷺ) (**إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسـه**).. (إذ لا شيء يستطيع أن يؤثر من الخارج تأثير الإيمان من الداخل. فكل قوة تتلاشى أمام قوته)(١).

ولقـد وجّه الرسل أقوامهم إلى آيات الله فى الكون المحيط بهم وفى أنفسهم لينشـأ فى القلوب الإيمان العميق بالله سبحانه عبر المشاهدات الحسية التى تتضافر عبر الوجدان المنفعل بها لإدراك حقيقة الوحدانية.. ونبذ الفاسد من العقائد الضالة.

- وفى إحدى حلقات موسى. يدعو نبى الله موسى فرعون إلى التأمل فى خـلق الله ومظاهـر قدرتـه.. عبر حوار يتجلى فيه الدرس التعليمى واضحاً.. مستخدماً الإشارة الحسية كمثير لمدارك العقل وآفاقه الكامنة، فى صياغة قصصية تحيل الموقف إلى صراع بين نمطين مختلفين فى العقيدة والفكر والتوجه القلبى..

قال تعالى فى سورة طه :

﴿إِنَّـا قَـدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى • قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى، قَـالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى • الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى • كُـلُوا وَارْعَـوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى • مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى • وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾(٢).

ويقـف موسـى أمام فرعون ثابت الجأش، نزع الله منه الخوف، ولا عجب فهـو رسوله الذى صنع على عينه.. وقف محاوراً فرعون حول العقيدة، قائلاً له: لقـد قرر الله فيما أوحى به أن العذاب يحيق دائماً بمن يكذب أنبياءه ويعرض عن الإيمان.

---

(١) سيكولوجية القصة ص ٥٤٨.

(٢) سورة طه آيات ٤٨-٥٦.

ويـــبدو عـــلى فرعون الإحساس بالعتو والطغيان فيحاوره فى تيه وغرور: ومن هو هذا الرب الذى تدعوننى إليه يا موسى فإننى أجهله.

ولا أعرفه ويرد عليه موسى فى توضيح حاسم يوقظ فيه تلك الغفلة ويوجه نظـــره إلى ما يحيط به من علامات تشير إلى الوحدانية.. وكان رده حاسماً قاطعاً بليغاً غاية البلاغة، موجزاً إيجازاً يتضمن المعانى كلها..

قـــال موسى : إنه الله الذى أبدع خلقه ثم هداه لمنافعه، إنه أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به فأعطى العين هيئة الإبصار والأذن موافقـــة الاســـتماع وكذلك الأنف واليد واللسان، كما أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة[١]..

وهـــنا ينتقل فرعون نقلة فجائية أمام هذا الرد الحاسم متصوراً أنه سيحرج موسى ويعييه :

قـــال فـــرعونٍ : حدثـــنى يـــا موسى عن أحوال الأمم الغابرة لم لَمْ يبعثوا ليحاســـبوا إن كان حقاً ما تقول؟ لقد كذبوا وعصوا وصدوا.. فأين هم؟ وقد عبدوا غير الله..

ولقد أحال موسى فى جوابه لفرعون أمر الأمم إلى الله سبحانه:

يا فرعون : الله وحده هو الذى يعلم حال تلك القرون وشأن تلك الأمم، وكل ذلك مسطر عند ربى، الذى لا يخطيء – تنزه عنه، ولا يغيب عن علمه شيء.

ومضى موسى يعرض على فرعون الدلائل على وجود الله وآثار تدبير الله فى الكـــون فقال : انظر إلى الأرض لقد خلقها كالمهد لقضاء المصالح، إنها كمهد الطفـــل (وما البشر إلاَ أطفال هذه الأرض يضمهم حضنها ويغذوهم درها.. وهي ممهـــدة لهم للسير والحرث والزرع والحياة)[٢]. والله الذى جعل لكم الأرض مهاداً هـــو الـــذى شـــق فيها الطرق وأنزل من السماء الماء فأخرج به النباتات المختلفة

---

(١) الكشاف جـــ ص ص ٤٣٥. قال الزمخشرى (لله درُّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه).

(٢) الظلال جـــ : ٤ ص ٢٣٣٩.

الطعم والشكل والرائحة كل صنف منها زوج يتكاثر وينمو ويزدهر فيصبح طعاماً لكم ومرعى لأنعامكم . أليس فى ذلك كله يا فرعون علامات واضحة لمن يستخدم عقله ويتدبر به.. على وجود الله ووحدانيته. إن تلك الأرض التى تخرج هذا النعيم كلـــه والخير جميعه هى مصيرنا حيث نعود إليها مقبورين، كما خرجنا منها أحياء نرزق.. فمنها خلقنا وإليها نعود ومنها مرة أخرى نخرج للبعث والحساب..

.. وانـــتظر موســـى أن يـــدرك فـــرعون تلك الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيـــته، ولكـــنه أخذته العزة بالإثم وطغى عليه الإحساس بالربوبية المدعاة.. فكذب ذلك كله بالرغم من الوضوح الجلى فى سرد الدلائل الحسية والعقلية.. وأبى أن يؤمـــن وأن يـــدرك وأن يطيـــع تلاؤماً مع ما ركب فى نفسه من صفات العلو والاستكبار.

ومـــن خـــلال هـــذا المقطع الحوارى الذى يتناول فى جدل تعليمى مظاهر القـــدرة، وتـــدرج مـــناحى التعـــليم، واستخدام وسائله الادراكية.. نتبين بعضاً من الملاحـــظ الهامة.. منها أن موسى قد ردَّ صفة الإبداع والخلق والتسوية فى الهيئة إلى الله ســـبحانه واســـتخدم فى العطـــف الأداة "ثم" التى خرجت عن معناها وهو التراخى إلى المصاحبة فكل خلق وهديه. ذلك أن "كل شىء مخلوق ومعه الاهتداء الطـــبيعى الفطـــرى لـــلوظيفة الـــتى خلق لها وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته"(١).

كمـــا لخـــص موسى أكمل الآثار الإلهية المدبرة للوجود.. حيث تتجلى تلك الآثار فى القدرة المدبرة المبدعة فى كل كائن صغير أو كبير من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة فى الإنسان. إنه الترابط المحكم بين عوالم الكائنات، هذا التلاؤم الذى يبدو فى وضع كل كائن فى مكانه من الـــتركيب الكـــونى، وإيصـــال كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر. إنه الوحدة القائمة على عدل الميزان.

والتذكير بالأرض فى هذا الحوار الرائع فيه إيحاء بأن فرعون على جبروته وعـــلى ادعائـــه الـــربوبية ذو منشأ ترابى.. وهو مثل غيره من الذى خلقه الله ثم

---

(١) الظلال جـــ ص ٢٢٣٨.

هـدى.. ومن ملامح النسق القرآنى فى هذا الحوار القصصى هو استخدام عنصر الالـتفات حيـث انـتقل مـن ضـمير الغيبة إلى ضمير المتكلم المعظم فى قوله (فأخرجنا) للإشارة إلى كمال القدرة وانقياد الكون له.

يقـول الزمخشـرى فى هـذا النسق البلاغى ("فأخرجنا") انتقل فيه من لفظ الغيـبة إلى لفـظ المتكلم المطاع لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشـياء المختـلفة لأمـره وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته لا يمتنع شيء على إرادته...)[1].

- .. وفى مجـال الـتربية والتعليم تأتى قصة قارون متناسقة مع المنهج القـرآنى فى عـرض القصص حيث تقف على جوهر المعنى ومغزاه دون اهـتمام بالوصـف المادى للشخصية وتاريخها وزمانها ومكانها.. إنهـا تخترق ذلك كله لتقف على العبرة وتقدم العظة التربوية فى نسق تعليمى يبرز أنماط السلوك الرديئة فى تصوير حسى بالغ التأثير، فتثير المشاعر والانفعالات البشرية وترتفع بها إلى درجة من السمو السلوكى الذى ترمى إليه القصة، بحيث يصبح مسلكاً سوياً.

ولقـد وردت القصـة فى سـورة القصـص. وهى سورة حافلة بكثير من المواقـف القصصـية.. وسـورة القصـص مكية تدور حول فكرة الحق والباطل ومـنطق الإذعان والطغيان وتصور الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان وقد ساقت لتوضيح ذلك قصتين : الأولى قصة تصور الطغيان بالحكم والسلطان ممثلة فى قصـة قارون. (وكلتا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان فى هذه الحياة، سواء بالمال، أو الجاه، أو السلطان)[2].

ويحكى القرآن قصة قارون فيقول :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ • وَابْتَغِ

---

(١) الكشاف جـ٢ ، ص ٤٣٦.

(٢) صفوة التفاسير ص ٤٢٣ جـ٢.

فــيمَا آتَــاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ • قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِــلْمٍ عِــنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْــثَرُ جَمْعًــا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ • فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ • وَقَالَ الَّذِيــنَ أُوتُــوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ • فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ • وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ • تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.﴾[١].

وعــن ابن عباس : أن قارون كان ابن عم موسى – وعن قتادة قال : كان يســمى المــنورَ لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق.. فأهلكه البغى لكثرة مالــه.. واختــلف المفسرون حول قارون والدافع الذى دفعه إلى الكيد إلى نبى الله موســى. والوســيلة التى لجأ إليها لتحقيق هذا الكيد، ولكنهم أجمعوا على أنه كان كافراً فى الباطن منافقاً فى الظاهر..

وممــا قاله المفسرون منسوباً إلى ابن عباس : أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالاً على أن تقول لموسى (عليه السلام) إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال إنها قالت له ذلك فــأرعد من الفرق (الخوف) وصلى ركعتين ثم أقبل عليها واستحلفها.. فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خرَّ موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون. فأوحى الله إليه : أنِّى أمرت الأرض أن تطيعك فيه. فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك..[٢].

(١) سورة القصص آيات ٧٦-٨٣.

(٢) قصص الأنبياء ابن كثير ص ١٦٦.

.. وليـــس غريـــباً على شخصية كقارون أن تسلك هذا المسلك البذيء للنيل مـــن نـــبى الله موســـى، فما ركب فى ذاته من عوامل العلو والغلو.. يجعله يشعر بالاســـتعلاء وهى صفة فى الظاهر قوية لكنها تحوى فى الداخل قلباً مريضاً، يحقد ويتهـــم.. فهى إذن شخصية منقسمة، يحرك بريقَ الظاهر الأخاذ باطنٌ يمور بفساد أخـــلاقى.. ولأن الطـــبع البشـــرى واحد فى كل زمان ومكان، فإننا نجد كثيراً من الشخصـــيات في زماننا هذا تلجأ إلى هذا الأسلوب المتدنى للنيل من غيرهم. وهو سلوك يدينه القرآن، وهى شخصية مرفوضة بالمنهج القرآنى القويم.

إن قـــارون يحمـــل نفساً مريضة، وعقلاً لا يدرك أو يفهم ، وقلباً خالياً من الانفعـــالات الســـوية كالحب والحق. (إن النفس المريضة نفس معطلة الحواس لا تستقبل الخير. نشطة فى إرسال موجات الشر والفتنة والفساد والضلال والغواية.. إنهـــا نفس شريرة)(١). وهى نفس ظالمة تظلم نفسها بسلوكها وتوقع الظلم بغيرها. ذلـــك لأن من سماتها الظلم والبغى.. ومن ثم نرى هذا الموقف الذى نحن بصدده.. العلاقـــة بيـــن الظـــالم الذى أبطره غناه والمظلوم الذى وقع عليه البغى ومن قبلُ الفقر.. قائمة عبر نوعين من حالات النفس : حالة الشكوى والتمنى، وحالة النشوة والفرح والاستعلاء.. وهما موقفان مدانان فى القصة.

.. وقـــارون من قوم موسى بل من عشيرته الأقربين، آتاه الله المال الوفير والســـعة فى الرزق فحاز سعادة الدنيا، فاكتظت خزائنه وعجز الأقوياء من أتباعه عـــن حمـــلها.. وكـــان قارون يحيا حياة البذخ والترف يسكن القصور الشامخات ويصـــطفى الخدم والعبيد ولا يبدو إلاّ فى أبهى منظر وأجمل زينة . وسيطر المال عليه ففرح وبطر وجحد نعم الله عليه.. وفرض سلطانه على قومه وسامهم البطش والعـــنت .. وهـــو فى زينته لا يسمع إلاّ إطراء المنافقين. ولا يحس نقمة المحروم ولوعة المظلوم...

ولكن القوم وقد رأوه سادراً فى غيه، نصحوه طالبين منه أن يشكر الله على نعمه، حتى لا يغويه المال فيضل فيكفر، ويضن بماله على المحتاج والمسكين من

---

(١) دراسات نفسية وتأملات قرآنية د. عزت الطويل ص ٢٥.

قومـــه وعشيرته.. وها هو المال فلتأخذ منه طيِّبه وتمتع به فى إطار الحلال الذى شـــرعه الله.. ولا تـــنس حـــق البؤساء والمساكين فى هذا المال الذى استخلفك الله عليه.. ولكنه حين سمع هذه النصيحة، ازداد تكبراً وصلفاً (وأنّى للطاغية أن تتفتح آذانـــه للنصـــيحة تـــلقى إليه. ومَنْ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمس شغاف قلبه)[1].. وجاء رده على القوم جافياً ومتعالياً.

لقد أعطيتُ هذا المال لأننى جدير به ولولا رضى الله عنى ومعرفته بفضلى واســـتحقاقى له لما أعطانى هذا المال دون قومى جميعاً، فاحتفظوا بالنصيحة لعلها تقـــوّم أموركـــم وتزيد من مالكم. ولكن الله عزّ جلّ يؤكد أن هذا الإنسان المغرور بماله، الجاحد نعم الله عليه، لا يدرك أنه ليس جديداً فى عالم الكفرة الطغاة، وليس بدعـــاً فى عـــالم الجاحدين، هؤلاء الذين أهلكهم الله بكفرهم وطغيانهم.. ولم يستمع قـــارون لذلـــك كلـــه بل أراد أن يزيد فى إيلام القوم فخرج عليهم فى كامل زينته يحيطه الأتباع الكثيرون فى حلل من الذهب والحرير، على خيول موشحة بالذهب ومعه الجوارى والغلمان.. ولما رآه ضعفاء الإيمان من قومه خدعتهم الدنيا ببريقها وزخـــرفها وتمنوا فى أسى أن يكون لهم مثل هذا الثراء الفاحش.. واعتبروه رمزاً عظيمـــاً للغنى وصاحب الحظ فى الدنيا.. ولكن عقلاء القوم الذين ثبت الإيمان فى قـــلوبهم زجـــروا الضـــعفاء الذين أصابتهم رعشة الثراء وزينته، ونصحوا لهم أن جـــزاء الله لعباده الصالحين خير وأبقى.. واستحق قارون عذاب الله واستجاب الله لدعاء موسى وخسف به وبداره الأرض وما كان له من فئة يدفعون عنه العذاب.. فابتلعته الأرض ولقفت ماله وقصوره فكان عبرة لقوم موسى والضعفاء من قومه.. ولمـــا رأى القـــوم ما حل بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين.. وأدركوا أن الله منّ عـــليهم باللطف وتفضل عليهم بنعمة الإيمان والرحمة، وحمدوا الله أنهم لم يكونوا مثله.. وأن عند الله الخير الوفير، ودار النعيم الخالد الذى لا يبلى ولا يزول.. تلك الدّار التى وُعد بها المتقون الذين يبتغون رضوانه ويحذرون عقابه.

---

(١) قصص القرآن ص ١٤٦.

وعندما ننعم النظر فى هذه القصة ندرك أن سلطان المال ينتهي بصاحبه إلى البغى والبطر فالهلاك والبوار، ومن ثم فإن المعنى الكامن وراء القصة يشعر بأن قيمة المال والزينة ترخص إلى جانب الإيمان والصلاح. كما تشعر بالاعتدال فى الاستمتاع بطيبات الحياة.. فى توازن لا يجنح إلى الإفراط أو التفريط.

والقرآن الكريم لا يحدد زمان القصة ولا مكانها وإنما يكتفى تناسقاً مع المنهج القرآنى فى سرد قصصه – بأنه كان من قوم موسى.. ذلك أن الهدف هو تقرير القيم الإيمانية والقواعد السلوكية. وجزاء البغى الذى مارسه قارون على قومه . وكل باغٍ يمارس طغيانه على قومه فى كل زمان ومكان.

(ولا يذكر فيما كان البغى، ليدعه مجهلاً يشمل شتى الصور)(1). من بغى بالمال والسلطان واغتصاب الأرض والأشياء. وحرمان الحقوق، كما يفعل الطغاة عموماً. ولقد أبرزت الآيات المنهج الإلهى القويم. المنهج الذى يعلق قلب صاحب المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة.. وهذا المنهج القويم يحقق التعادل والتناسق فى حياة الإنسان. ويمكنه من الارتقاء الروحى من خلال حياته الطبيعية.

والقصة حفلت بالأحداث والانفعالات البشرية، فمن تطاول بالبغى والإعراض عن النصيحة إلى الزهو بالنفس والاعتداد بها ونسيان نعم الله وفضله، إلى العذاب الذى حاق بأهله.. لما فعلوه من بطر وغلو وفساد.. إلى تصوير النفس الضعيفة أمام سطوة المال والجاه، إلى الإيمان الحق الذى يرى فى ذلك كله خداعاً وابتعاداً عن الحق.

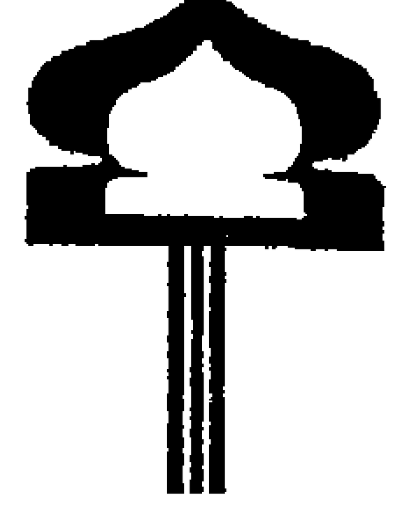
كما أبرزت القصة فيما أبرزت القيمة الثابتة للإنسان بين المادة والروح.. موضحة استخدام النعم التى أنعم الله بها على خلقه.. فى حدود المصلحة العامة للجماعة على نحو يضمن المتعة والخير، فالتوجيه الإلهى يضبط غريزة التملك وينظمها فتربط بين الفرد والجماعة، وتحمى المجتمع من عواقب الصراع الهدام حول المال والغنى.

(1) الظلال مجلد / ٥ ص ٢٧١١.

كما أن المال وما يجره من متع ليس هو الذى يحدد قيمة الإنسان فى مقياس الحق ولكن (قيمة الإنسان إنما يقررها العمل المنسجم مع تعاليم الله)[1].

ولقد تراوحت القصة بين السرد والحوار والوصف وإبراز المشاعر المتضادة فجسدت بذلك المعنى المراد أقوى تجسيد وأروعه ورسمت بتلك الصورة المجسمة تلك النهاية للبغى والفساد، وأدانت فى تصويرها كل الانفعالات التى تخرج عن المنهج الإيمانى الحق..

(١) قصص وعبر ص ١٣٧.



الفصل الرابع

القصة النفسية



يسمو الإنسان بنفسه ويعلو عن الطبيعة الجامدة وإن بدت حية زاهية تخلب اللب وتأسر الفؤاد ، ذلك لأن الإنسان هو الأعقل وهوالأعمق والأفضل.. ومن ثم استحق أن يتحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض.. إنه القوة المبدعة، والروح الصافية المتسامية. وهو فى الوقت ذاته يجمع الأضداد والتناقضات، ويمور داخله بصراعات، ويشتجر فى نفسه صراع أبدى بين الخير والشر، الحق والباطل. وهو كتلة من الوجدان والمشاعر تشف فيحصل على منزلة عليا ويصبح نورانياً كالملائكة، ويسف فيسفل ويضحى ثقيل المادة مطموس القلب ويقترب من الحيوانية ويتعادل فى حالات الانهيار والتقل مع الجمود والمادة :

.. ومن ثم جاء التوجه الإلهى إلى البحث فى أعماق النفس البشرية التى تجمع هذا الخليط العجيب من المشاعر والرؤى والانفعالات، من أجل إدراك جوهرها.. والقبض على العنصر الخيّر فيها والتسامى به..

ولقــد كشفت القصة القرآنية عن الشعور الإنسانى الفطرى الكامن فى الذات البشــرية حيــث لمست أبرز المشاعر الإنسانية، وأرقها وأنبلها، كما عرّت النفس البشــرية فى عــنادها وتهورهـــا ووقوعها تحت سطوة الانفعال اللاسوى كالحقد، والغيرة، والبطر، والجنس ، والانتقام، والخوف..

"والجــانب الوجــدانى من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب فى موضوع الفنون"(١).

ومــن ثم يتأتى عمق التأثير فى العمل الفنى حين يجنح فى تصوير الوجدان البشرى تصويراً عميقاً وموحياً يكشف عن جوهر النفس، وطبيعة الذات البشرية.

والــنفس منبع القوى الباطنية فى الإنسان ومناط سموه وترقيه، أو انحطاطه وتــرديه. ولقــد دعا القرآن الإنسان أن ينظر فى نفسه كمنطلق إلى الإيمان بخالق النفوس الذى يعلم سرها ونجواها.. قال تعالى : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وطريق النفس إلى المعرفة يتمثل فى ذلك الشعور العميق المتأصل فى نفس كــل إنســان مهما كان حظه من العلم والثقافة، وهو ميله الذى لايغالب، وانعطافه الــذى لا يقــاوم نحو السمو والجمال والخير. ومن آيات روعة القرآن وجلاله أن الخــالق يحدثــنا فيــه بنفسه عن همسات الضمائر وخواطر القلوب وما فى خبايا الــنفوس، وهو أدرى بما أودع فيها من أسرار(٢) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٣).

والقصة القرآنية تنظر إلى الإنسان فى حقيقته، وتعرضه عرضاً تكشف فيه مــا انطــوت عــليه نفسه من خير وشر، وضعف وقوة ، كما أنها تكشف ما عند الإنســان مــن قــدرة قادرة على الارتفاع والسمو وما لديه من استعداد إلى التدنى والهبوط.. والإنسان فى المعنى العميق الذى يكمن وراء القصة القرآنية قادر على أن ينتصر على جوانب الشر والضعف فيه وأن يطمس مسارب الشر ومداخله.

---

(١) منهج الفن الإسلامى ص ٦٥.

(٢) سيكولوجية القصة فى القرآن ص ٢٦٦.

(٣) سورة الملك آية ١٤.

والـنفس هى جوهـر الإنسان ولبابه، وإليها وبها يكون صلاح الإنسان أو فساده . فمـن نفس الإنسان توجد أنسام الطمأنينة والخير والراحة النفسية ومنها أيضا تثور الأعاصير المهلكة.

ولقـد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة هى : النفس المطمئنة وهى النفس الـتى تؤمن بالله وتستحضره فى كل موقف. وهذا الذكر الدائم يفيض على النفس أمناً واطمئناناً.

قـال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١).

والـنفس الأمـارة هى المقـابل للنفس المطمئنة فهى تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيّناً. إنها الوحش الضارى تنزع إلى الشر وتنتهك الحرمان . ومع ذلك فإن لهذه النفس علاجها وتطبيبها ، وهو ذكر الله والرجوع إليه.

قـال تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

والـنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربّه (والـنفس اللوامة لا تسكن إلاّ قلب المومن بالله المراقب لجلال سلطانه وما يخشى مـن سطوة عذابـه سـبحانه، يوم يقوم الناس لرب العالمين فى موقف المساءلة والمحاسبة وفى مقام الثواب والعقاب)(٣).

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الرعد اية ٢٨.
(٢) سورة يوسف اية ٥٣.
(٣) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٩٧.
(٤) سورة الأعراف أية ٢٠١.

ولقد عالجت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكها المريضة حتى تضرب للبشـر العـبرة وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الإنسانية بين الخير والشر وهما قوتان تتصارعان منذ همس إبليس لآدم أن يعصى ربّه.

كمـا عـالجت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها وضربت لذلك نماذج للنفس الخيرة الكريمة، ومن خلال هذا الضرب من القصص القرآنى تأتى الأحكام لتعديل السلوك وتقويمه وضبط العاطفة وكبح الانفعال.

ووراء النفس البشرية حياة متلاطمة الأمواج قليل منها يظهر والكثير مؤلف من نزعات خفية وأهواء دفينة وأحلام مكبوتة وذلك كله مطمور تحت قشرة رقيقة فى المخـزون النفسـى الذى يشبه البركان الخامد، ولا شك أن هذه التراكمات لها آثارهـا على الذات والسلوك. ويجدر بالذكر التأكيد على أن (أول صورة للعاطفة الأخلاقيـة هى الشـعور بالممـنوع والمكـروه. فقد كانت الأشياء فى الجماعات الابـتدائية منقسمة إلى ممنوع ومطلوب وحرام وحلال. فأدى وجود الممنوعات.. والمحرمات إلى إيقاظ شعور الإنسان بشخصيته وإرادته.

لقد كان هذا المنع فى الجماعات الابتدائية منعاً خارجياً)(١).

- ولـنذكر فى هـذا المجال أن قصة قابيل وهابيل – ولدى آدم – نموذج فذ، موجز غاية الإيجاز، على حدة الصراع بين قوتى الخير والشر أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء.

قـال تعـالى : ﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَـا وَلَـمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ • لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ • إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ • فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ • فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُـرِيَهُ كَيْـفَ يُـوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(٢).

(١) علم النفس د. جميل صليبا ص ٢٨٧.

(٢) سورة المائدة ٢٧ – ٣١.

ولقـد حظى نبأ ابنى آدم بكثير من التأويلات والتخريجات. اعتماداً على ما ورد فى الـتوراة وما قال به أهل الكتاب.. وكعادة القدماء حين كانوا ينظرون فى فى قصـص القرآن، فإنهم كانوا يدلون بمعلومات تاريخية عن طريق الرواية ليس لهـا سند من حقيقة .. وهو تأويل لا يضفى جديداً.. وداخل هذه المعلومات استقاء معـارف أسطورية وردت حول القصة مأخوذة من كتب أهل الكتاب، وهى مليئة بأخـبار الأولين .. وقد بلغ التعنت والتأويل مداه حين نسبوا إلى آدم أبياتاً شعرية قالهـا بعد وقوع الجريمة يصف فيها حزنه ويصب فيها حكمته عن الدنيا ومصائر الناس.

وذكر السّدى عن ابن مالك، وأبى صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسـعود وعن ناس من الصحابة، أن آدم كان يزوج كل بطن بأنثى البطن الآخر، وأن هـابيل أراد أن يـتزوج بـأخت قابيل.. وكان أكبر من هابيل، وأخت قابيل أحسن. فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فـأبى، فأمـرهما أن يقـربا قرباناً.. فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم وقرب قابيل حُزمةً من زرع ردئ زرعه. فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل وتركت قـربان قابيل. فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى. فقال (هابيل).. إنما يتقبل الله مـن المتقين.. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى، فبعث آدم قابيل لينظر مـا أبطـأ به.. فلما ذهب إذا هو به. فقال له: تقبل منك ولم يتقبل منى. فقال: إنما يتقـبل الله من المتقين. فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله. وقيل إنـه قـتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته، وقيل بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما تفعل السباع فمات..[(١)].

وقيـل إنه (بجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها)[(٢)].

---

(١) انظر قصص الأنبياء ابن كثير ص ٨٥/٨٦.
(٢) المصدر السابق ص ٨٩.

- إن القصة تبدأ بالأمر الإلهي إلى رسوله بقص قصة ابني آدم إلى اليهود الذين يحسدون على المسلمين دينهم ورسولهم.. فها هي الحياة قد استقرت بآدم وزوجه، واستقبلت حواء أولادها عاماً بعد عام.. وكانت أن وضعت توأمين قابيل وأخته، وهابيل وأخته. وشبوا جميعاً في رعاية الأبوين حتى امتلأوا نضارة وشبابا وقويت فيهم غريزة الحياة فمال الفتيان إلى أن يتخذا الزوجة التي يسكن إليها.. كي تعمر الدنيا ويكثر الناس وتتحقق سنة الله في الكون وتتجلى الحكمة من الخلق.

فأوحى الله إلى آدم أن يزوج كل فتى ﷺ توأم أخيه. وحين أفضى آدم إلى ولديه بذلك هبت عواصف النفس وبدت الطبيعة الإنسانية في احتوائها على المشاعر المتضادة.. وحدث الشقاق بين الأخوين، وأثار الجمال الأنثوي حفيظة النفس فجمح من جمح، وأطاع من أطاع.. وحين رأى آدم ذلك.. هداه الله إلى مخرج، فطلب منهما أن يقربا قرباناً إلى الله.. ومن يتقبل الله منه يأخذ ما يتمنى ويشتهي، فقدم هابيل قربانه واختار أزكى ما عنده عن نفسه، وكان هابيل مؤمناً سويَّ السلوك محباً للخلق الكريم، صافي القلب ... على حين استشاط قابيل غضباً، وامتلأ قلبه بالحقد، وخلا قلبه من التحرص إلى الله.. وذلك حين رُفض قربانه.. وانطفأ الأمل في قلبه وسيطرت ... الأثرة والأنانية.. وأضحت نفسه مغموسة بالشر، وانطمست النفس ورجعت إلى بدائيتها وتملكت النفس الأنانية والغيرة.. وهي غرائز ترتكز عليها النفوس المريضة، ومن يقع تحت وطأتها يهدم نفسه وغيرها أيضاً.. وها هو الجموح الانفعالي يتأجج .. فيهدد أخاه هابيل بالقتل: لأقتلك، ولم يرفع هابيل إلى أخيه يداً بل ناصحه أن يتعرف موضع الداء ويعالجه، فالله لا يقبل إلا من المتقين.. فقوّم السلوك. وأخلص النية لله.. وأطعه واخضع له.. وتصور هابيل أن كلماته قد تشفيه وتسل من نفسه سخائم الحقد والغيرة.. ولكن البركان في النفس يدمدم والغيرة نار مشتعلة، ولم تشفع له أخوة أمام غريزة مريضة تجتاحه .. فوقعت الواقعة وتمت الجريمة وراح هابيل قتيلاً ، وسجّل بمقتله أول جريمة وقعت على ظهر الأرض.. وحار قابيل بجثة أخيه وظل يحملها على ظهره حتى شاءت إرادة الله أن يضع حدًا لهذه الحيرة، تكرمةً للإنسان،

وتعليماً له من طائر أراد الله به أن يلقنه درساً. ويفضح التدني الإنساني الذي سقط فيه.. وها هو الغراب.. ينكش الأرض ويحفرها، ويواري جثة غراب آخر في التراب.. ووصلت الرسالة إلى قابيل فتحسر نادماً على عجزه البشري الذي لا يداني علم الغراب.. الذي جعله الله درساً له..

.. وتعلم من هذا الرمز الخاطف كيف يواري جثة أخيه.. وكيف يتعالى ببشريته المتدنية إلى رمزية الطائر الأخرس.

والقصة تبين بالدليل أن الغيرة والحسد في النفس المريضة يؤديان إلى العداوة والاعتداء على النفس والغير، ولا علاج للحسد – وهو يحدث بين الأخوة كما حدث هنا، وكما حدث بين يوسف وإخوته – إلا بالبتر والمواجهة لما فيه من صلاح الجماعة وصلاح النفوس وصلاح الدين.

وقصة ولدي آدم وردت في سورة المائدة، وهي سورة مدنية طويلة تناولت التشريع الإسلامي لتمكين الإسلام في الأرض، ولتأصيل المنهج الرباني في تنظيم شئون الكون والحياة. ولا شك أن جريمة القتل من الجرائم التي تهز البناء الاجتماعي والنفسي. ولقد جاء القصاص حاداً وحاسماً تلاؤماً مع عنف الجريمة وبشاعتها[١].

ومن ثم فقد وردت الأحكام التشريعية التي تنظم حياة المسلمين وتضع العقاب الملائم للقتل والنهب والسرقة والغصب.. مما يوحي بأن قصة ولدي آدم جاءت متنامية تماماً مع السياق القرآني، إنها المدخل الحسي إلى الفكر التجريدي المنظم. (ويحس القارئ المتأمل لسياق وظيفة هذه القصة في موضعها، وبعمق الإيحاء الإقناعي الذي تسكبه في النفس وترّسبه. والاستعداد الذي تنشئه في القلب والعقل لتلقي الأحكام المشدَّدة..)[٢].

وانطلاقاً من المنهج القرآني في قصصه، فالسياق القرآني لم يحدد زمان القصة أو مكانها أو تفاصيلها ، بل جاءت القصة قصيرة جداً تتضمن موقف القربان وأثره، ولكن لا شك أن ثمة فجوات كما قلنا تسمح بالخيال أن يملأ هذه

(١) نظرات في قصص القرآن جـ١ ص٩٣/٩٤.

(٢) الظلال جـ ٢ ، ص ٨٧٣.

الفجــوات بما يتنامى مع الحدث الرئيسى ونموذج الشخصية الذى دار بين نوعين من القيم.. الخير والشر. المؤمن والجاحد، السوى والجانح.. وهى قيم تقبض على الصراع وتدفع بالحدث إلى نهايته الطبيعية.. ولنا أن نتخيل طفولة الإنسان الأولى وهو يواجه هذا النوع الغريزى من الصراع.. ولكنه غريزى بالفطرة لأن الحواس هى الــتى تطفــو وتــتحكم، ولا زال الإنسان مهما أوتى من تحضر يرتد إلى تلك الطفولة البشرية.. ويقع فيما وقع فيه قابيل ولنفس السبب.

ونحــن نتابع هذا الصراع النفسى عبر الألفاظ والتراكيب القرآنية الموجزة التى عكست ذلك فى قوة معجزة.. ففى قوله تعالى ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ توحى كلمة (طوّعت) بظلالها المصاحبة، بأن قابيل – الشخصية المنهزمة المحبطة – كــان فى صــراع مع الضمير، وكأنما كان يراجع موقفه. إلا أن الهوى الجامح والغيــرة المشــتعلة والــبركان المدمدم، ينضوى تحت كلمة (نفسه).. التى أمرته بالسوء ودفعته دفعاً إليه.. إنها النفس الأمارة بالسوء..

.. ولنــنظر أيضاً إلى قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الــنَّادِمِينَ﴾ . فالفعل يشى بتحول النفس من حال إلى حال.. حالة الطيش والجموح والحقــد وســطوة الغضــب.. والذى لا متنفس لذلك كله – فى غيبة الإيمان – إلا الجــريمة التى تحوله من رجل غنىٍ وربْحٍ نفسى وذلك بفضل الله، إلى خاسر فقد كل شىء.. الإيمان، والذات فى انتظار نزول العقاب.. وحين تفور النفس، ترتكب الخطأ وتهدأ.. ويتبدى العجز البشرى واضحاً. وتنعقد المقارنة بين النفس والطائر. فيــندم الإنســان لعجزه وإحباطه.. والندم شعور طبيعى يتولد من تصور الخطأ.. مصداقاً لما ورد عن رسول الله (ﷺ) من أن الزانى لا يزنى وهو مؤمن ولا يقتل حيــن يقــتل وهو مؤمن .. لأنه فى هذه الحالة قد غاب العقل وغُيّب بفعل الغضب وســطوته ومــن ثم يأتى الندم تباعاً.. وتلك صفة نفسية بشرية تتابعت من طفولة الإنسان حتى يومنا هذا.

ولنــتأمل أيضاً الفعل المبنى للمجهول فى قوله تعالى : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَــمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ...﴾.. فالبناء للمجهول يبين أن القبول والرفض موكول إلى الله وهــذا يفيدنا فى أن لا نبحث عن الكيفية ولا نخوض فى تأويلات لا تتلاءم مع

السياق.. وأن الأمر كله قد تولاه الله لحكمة عليا.. ومشيئة مسبقة. وأن المعنى المصاحب لذلك كله هو أن الإيمان من أسباب إدراك القبول الأساسية.

يقول الزمخشرى "لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعّده بالقتل قال له: إنما أتيت من – قبَل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلى. فلم تقتلنى!. ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول .. فأجابه (أى هابيل) بكلام حكيم مختصر جامع، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعةً إلا من مؤمن متّقٍ[1].

إن الجريمة الأولى تعلمنا كيف نعالج سوءات النفس ونزواتها الحمقاء بمراقبة الله، والخضوع له، واتقائه بالإيمان والعمل الصالح.. وإنزال العقاب الذى شرعه الله سبحانه فى هذه الحالات، حتى لا نقع تحت كلمتى الخسران، والندم، التى شملت قابيل فى جريمته.

وإذا كان القرآن الكريم قد صور لنا تلك العواطف الغليظة التى تخرج من نفسٍ أمارة بالسوء، فتسول لصاحبها إتيان الفعل المحرم وهو القتل، ولما وقعت من سطوة الغيرة والحسد، والرضوخ لمشاعر إحباط نفسى تدفع صاحبها إلى الإفساد الذاتى والجماعى.. فإنه أيضاً قد حدثنا عن عواطف صافية، كرقة النسيم تهمس بها الضمائر وتخطر على القلوب اليقظة الواعية.. فتكشف خبايا النفس ومطاويها فى إشارات تمسّ أرق العواطف والمشاعر.

- وموقف موسى من ابنة شعيب خير مثال لهذا اللون النظيف من المشاعر .. وتلك القصة حلقة من حلقات موسى عليه السلام.. تسجل لحظة هروبه وخوفه من فرعون .. إنها لحظة البداية إلى الرسالة، فهو حين قتل المصرى خطأً.. هرب حين علم أنه مطلوب واستقر به المقام تجاه مدين عسى الله أن يهديه سواء السبيل.

ويحكى القرآن عن القصة فيقول :

(١) الكشاف جـ١ ص ٣٣٣.

قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ • فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ • وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ • فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ • فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ • قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ • قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(١).

وفى هذا المجال فقد ورد عن المفسرين عدة روايات.. ربما كان تأثير ما ورد فى الكتب السابقة واضحاً فيها.. حيث تؤكد على عامل القوة البدنية، ذلك العامل الذى يلفت إلى صاحبه الأنظار، ويوقع فى القلوب الإعجاب والخوف معاً..

ورد عن ابن عباس : سار (موسى) من مصر إلى مدين لم يأكل إلاّ البقل وورق الشجر، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه (جلده) من الحفاء. وجلس فى الظل، وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع وإن خُضرة البقل (نبات عريض الأوراق) لترى من داخل جوفه(٢).

وقيل إن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فتشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس. فلما كان

---

(١) سورة القصص آيات ٢٠-٢٨.

(٢) المراد تأويلاً لأن العقل لا يتصوره ، أن جلد البطن وجلده عموماً، قد تلون من كثرة ما أكل من البقل.. أو أن المعنى يقصد إلى المبالغة.

ذلــك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان.

وقيل : كان الحجر لا يُقله إلا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون..

وورد أنهمـــا (المــرأتان) لمـــا رجعتا إلى أبيهما قبْل الناس وأغنامهما حُفَّل بطـــانٌ. قـــال لهما : ما أعجلكما! قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهمـــا اذهبى فادعيه لى، فتبعها موسى فألزقت (ألصقت) الريح ثوبها بجسدها فوصفته ، (أى حددته) فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق.

وهذا الموقف يورده المفسرون حين يتحدثون عن عفة موسى وطُهره.

واختــلف فى أمــر شعيب. أهو شعيب النبى (عليه السلام).. رسول الله إلى أهل مديــن؟ ورأت طائفـــة أخرى أن شعيباً (عليه السلام) عاش عمراً مديداً بعد هلاك قومه حـــتى أدركـــه موسى وتزوج بأبنته الصغرى.. وروى عن الحسن البصرى : أن صـــاحب موسى (عليه السلام) هذا ، اسمه شعيب، ليس بالنبى صاحب مدين، وقيل إنه ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب..

- ومـــنهج القـــرآن الكـــريم حيـــن يتحدث عن القصص ويورد موقفاً من المواقـــف لا يجـــرى وراء التفاصـــيل ، ولا يحـــدد الصفات المادية للشخصـــية، ولا يســـرد تاريخـــاً تتابعياً .. بل هو يختار من المواقف وحلقات الحياة، ما يؤدى إلى إبراز الهدف وتوضيح العبرة. فلا حاجة لما قاله المفسرون حول قوة موسى البدنية، فالبئر لم تكن مغطاة وإنما وجـــد الناس يسقون فسقى للمرأتين معهم.. (ولا حاجة كذلك لما رووه عـــن دلائـــل أمانته من قوله للفتاة، امشى خلفى ودلينى على الطريق، خـــوف أن يـــراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها.. فهذا كله تكلف لا داعى له ودفع لريبة لا وجود لها. وموســـى (عليه السلام) عفيـــف الـــنظر نظيف الحس وهى كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان إلى كل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة، فالعفة تتضح فى التصرف العادى البسيط بلا تكلف ولا اصطناع)[1].

---

(١) الظلال جـــ ٥ ص ٢٦٨٧ / ٢٦٨٨ .

ويميل الشهيد سيد قطب إلى ترجيح أن شعيباً ليس هو النبى وإنما هو رجل آخر من مدين، ذلك أن شعيباً شهد مهلك قومه، ولم يبق معه إلا المؤمنون فلو كان هـو النـبى مـا سـقى الرعاة قبل بنتى نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمـنين.. يضـاف إلى هـذا أن القرآن لم يشر إلى أية علامات للنبوة، قد تبدت لموسى وقد عاش معه سنوات..

.. أمـا وأن المنهج القرآنى فى سرده للقصص يكف عن ذلك كله.. فلنمض إلى القصة نسردها فى مشاهدها المتتابعة..

- عرف الملأ من قوم فرعون وحاشيته نبأ ما فعله موسى بالرجل القبطى الذى وكزه فلقى حتفه، وها هم القوم يأتمرون عليه ليقتلوه، أن ما فعله موسـى أمر خطير. وجاءه رجل مؤمن من آل فرعون يحذره، جاءه سـاعياً من أقصى المدينة ليبلغه بالأمر الخطير ويطلب منه ان يخرج من المدينة حتى لا يلحقه الأذى. وخرج موسى خائفاً وحيداً، مطارداً. واتجـه صـوب الصـحراء نحـو مدين داعياً الله أن ينجيه من القوم الظـالمين.. مضـى لا أنيـس له إلا نور الله ولا زاد معه إلا التقوى الخالصـة، أسلم نفسه إلى ربه، واستسلم له، ودعاه أن يهديه إلى سواء السـبيل. واليد التى رعته طفلاً هى التى ترعاه وهو مطارد خائف.. وانـتهى بـه السفر الشاق إلى ماء لمدين يستسقون به. وصل مكدوداً ومتعباً، فوجد أناساً قد تزاحموا على مورد المياه لسقى الأنعام، ورأى عـلى البعد امرأتين منعزلتين تدفعان الأغنام عن ورود الماء..وكأنما كانـتا تنتظران .. – وقد بدا عليهما الضعف والمسكنة – أن ينكشف الزحام وينصرف الجمع فتتقدما للسُّقيا.

.. ورق قـلب موسى لهما ، وثار فى نفسه حب الانتصاف لهما وحمايتهما مما هما فيه من ضعف.

إن الـنظرة السليمة تدعوه إلى أن يتقدم إليهما. وسألهما : ما خطبكما؟ وفى انكسـار يـثير العطف قالت المرأتان: لا نقوى على السُّقيا حتى ينصرف الرعاة.. فـنحن لا نقوى على المزاحمة، ولا نرضاها، وليس عندنا من يقوم بالفعل، فأبونا

شـــيخ كبير لا يقوى عليه.. ولم يتأخر: ومضى إلى البئر وسقى لهما دون انتظار لشيء، فهو صاحب النفس التى صنعت على عين الله..

وتـــولى إلى الظل فالجو حار، والسفرة أتبعته.. وانطلق لسانه يسترحم ربّه، ولســـانه يعـــبر عـــن وحدته، وغربته، وألمه من هجير الصحراء، وجوعه الذى يضـــنيه.. ويـــرفع رأســـه ويدعو: إننى إلى فضلك وكرمك فقير محتاج.. وكانت المـــناجاة تشى بالحزن والألم وتوحى بالحاجة والمساندة.. واستجاب الله وساق إليه الفـــرج.. إذ أرسل شعيب إحدى ابنتيه فى طلبه، فجاءته الفتاة تمشى على استحياء مشـــية الفـــتاة الفاضـــلة الطاهرة وقالت له : فى إبانة ووضوح : إن أبى يدعوك ليجـــزيك أجر ما سقيت لنا. وكان موسى فى حاجة إلى الأمن، كما كان فى حاجة إلى طعـــام، وكـــان غريباً فاحتاج إلى الأنيس.. وتبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها، وآنـــس موســـى الأمن والأمان وقصّ على الشيخ قصته فطمأنه الشيخ : أنت هنا آمن، نجاك الله من الظالمين ولا سلطان لقومك علينا، فطمئن النفس وابعد الخوف.

وتهدأ نفس موسى وتسكن، وكان موسى مثار إعجاب الشيخ لمَا زانه الله به مـــن طـــبع قويـــم وخـــلق طيب. وتبادر إحدى البنتين فى مشاعر انثوية غاية فى الاســـتقامة والســـلامة .. تبادر إلى أبيها قائلة فى إبانة وحياء : يا أبت استأجره.. وكأنمـــا فطـــن الشيخ إلى المراد.. وكأنما تابعها فى اهتمام مندهش، فتسرع الفتاة لـــتؤكد أنـــه القوى الذى زاحم وسقى ، وأنه العفيف الذى أطرق حياء حين جاءته واستدعته، وأنه الذى سار أمامها حفاظاً على الطهارة وحرصاً على المكرمات، إنه أمين على العرض، والأمين على العرض أمين على سواه. إن خير من استأجرت القوى الأمين.

وكأنمـــا كان حديث الفتاة صدى يترجرج فى صدر الشيخ أملاً ورجاءً، وقد أكـــد الـــتماس الشـــيخ ولعله أحسن من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة وميلاً فطـــرياً ســـليماً لبـــناء أسرة.. وتوجه الشيخ إلى موسى قائلاً : إننى أرغب فى أن أزوجـــك إحدى ابنتى هاتين على أن تكون عوناً لى ترعى الغنم وتساعدنى ثمانى حجج. وإن زدتها اثنتين فذلك فضل منك ومنّة.

ولم يكد موسى يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة فى نفسه وانطلق سعيدًا، وطلب من الشيخ أنه لا عدوان عليه إن أتم أحد الأجلين.

واطمأن موسى فى المقام فى بيت الشيخ وقد أمن فرعون وكيده وابتعد عنه الخوف وشعر بالأمان.

- إن هذه القصة واحدة من النعم الألهية التى أنعم بها الله على موسى (عليه السلام)، إذ كان بمثابة مرحلة إعداد روحى عميق أشبه بالاعتكاف الذى يربّى الإرادة ويصفيّ النفوس من عوامل الضعف.

والقصة تصور بعض الجوانب النفسية فى شخصية موسى، إنها تصور الحيرة التى عاشها موسى – ربيب القصر – وقد رأى نفسه منبوذاً ومطروداً فى صحراء قاحلة. كما تصور حالة الخوف الشديد الذى سيطر عليه حين علم بنية قوم فرعون ثم الأمان وطمأنينة القلب.

كما تصور القصة عواطف الأنثى النظيفة تجاه الرجل (عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته ثم أمانته المتمثلة فى محافظته عليها، والفتاة تعبر عن هذه العواطف على طريقة الأنثى الحييّة الخجول)[(1)].

والتعبير القرآنى استطاع أن يعبر عن كل هذه العلاقات النظيفة التى لا تنحرف ولا تسف لإبراز أجمل ما فى النفس البشرية من مشاعر ووجدانات على طريق الحياة النظيفة التى أرسى قواعدها الإسلام.

وتسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له. وهذه العواطف ليست حراماً. إنها عواطف الإعجاب والميول وما يصاحبها من عمل طيب وسلوك قويم. والحكم عليها هو الحكم الذى يستمد شرعيته من قوانين الدين وشرعه الذى يتلاءم مع الفطرة السّوية الطاهرة النقية. إنها تهدف إلى علاقة نظيفة مثمرة منتجة، اتساقاً مع فطرة الحياة التى خلقها الله. والجمال هو فطرة الطبيعة ، وكل مشاعر طيبة مبرأة من الغرض فهى مشاعر جميلة، تساهم فى حسن الأداء، وتقويمه وتعديله وتخليصه من الهوى والجموح والشطط والسقوط.

---

(1) منهج الفن الإسلامى ص ٧٦.

- ولقد أشعت الألفاظ بهذه المعانى جميعها، فعكست مشاعر الخوف والحيرة والرغبة النظيفة، وجاءت متنامية مع الموقف ومع الحالة المصاحبة.

فلفظ "يترقب" يصور مشاعر القلق الذى يهجس بالذات ويسيطر على الوجدان، ويتبدى فى حركات مسلكية تدعو إلى التلفت والتوجس وتوقع الشر. وهو فضلاً عن ذلك يعكس ملامح الشخصية الانفعالية العصبية. وكذلك اللفظ (على استحياء) يشى بما تتصف به الفتاة من عفة ونبل وطهارة فهى جاءته تمشى مشية الفتاة الفاضلة العفيفة النظيفة.. تمشى على استحياء فى غير تبذل أو تبرج أو خروج عن المألوف فى الفطرة السوية.. إنه لفظ قصد إلى المعنى قصداً فى إيجاز مشع.

أما قول الشيخ لموسى (لا تخف) فهو طلب بابتعاد الخوف، وهو قول يبعث على الطمأنينة ويشعر بالأمان ويحتوى الموقف كله. فالحالة التى تصاحب موسى هى الخوف من فرعون وقومه، هذا الخوف الذى استتبع النبذ والطرد والهروب.. فكان طبيعياً وتلاؤماً مع النسق النفسى أن يكون بدء الحوار إبعاداً للخوف وإشعاراً بالأمان..

ولقد جاء لفظ (تذودان) ليصف مشاعر الضعف والذلة والمسكنة والتى كانت عليه حالة الفتاتين وهما ينتظران السقى إنهما امرأتان ضعيفتان مستورتان لا تقدران على مساجلة الرجال ولا ترضيان لنفسيهما أن تزاحما الناس على فعل هو من عمل الرجال الأقوياء..

ويأتى اللفظ (استأجره) ليكشف ذلك الهاجس الجميل الذى تحس به الفتاة إنه الاعجاب بنوعين من القوة تبدت لها من موسى : القوة المادية التى ظهرت فى مزاحمته للرجال وسقايته لهما، والقوة الخلقية التى تتبدى فى العفة والطهر ونقاء القلب، والبعد عن تتبع عورات الناس.. أو اقحام البصر فيما هو مفسد.

.. واللفظ يظهر نفسية المرأة وتكوينها الوجدانى.. فالمرأة حين تعجب بأحد.. هذا الإعجاب النقى النظيف تحاول فى رقة، ونبل، وإيحاء، أن تزينه فى

عيون الآخرين.. ومن ثم فلقد زينت ابنة شعيب.. فى عين أبيها.. موسى وزكته له وفى هـذا المجال فإننا ننقل عبارة قالها أحد المؤلفين فى هذا المجال الفنى لقصص القـرآن تتناول هذا الموقف الشعرى بين موسى والفتاة يقول المؤلف "وتبدأ مرحلة أخرى تصور الإعجاب بالفتى والاحتيال على لقائه إذ تتقدم إحدى ابنتى شعيب إلى أبيها وتطلب أن يستأجره.."(١).

والكـاتب فى العـبارة يصور موسى والفتاة كما لو كانا بطلين لقصة غرام وحب، فيها المغامرة وفيها الاحتيال ومن ثم الدسيسة للظفر بالحبيب.. ولا شك أن ذلك خيال جر المؤلف إلى الوقوع فيما لا يجب أن يقع فيه، فالقرآن لا يحكى قصة غـرامية، وإنمـا هو يورد حلقة من حلقات موسى ولقائه بمن أصبحت زوجة له، وبيـان نعم الله على نبيه إذ آمنه من خوف وهيأ له سبل الأمان والأمن.. والإعداد للرسـالة ومواجهـة فرعون. وما جاء فى القصة كان "تمهيداً طبيعياً وعادياً لأن يـزوج الشيخ إحدى ابنتيه واستعانة به فى رعى ماله تعويضاً عن فقده الذرية من الذكور"(٢).

والاحـتكام إلى النص القرآنى يشعر فى حسم مدى النظافة التى شملت هذه العلاقة النظيفة التى بنيت على أساس من العفة والطهارة والنبل..

وموسـى نبى أهلته عناية الله ليعلو فوق الحرص على متاع الدنيا والاحتفال بهـا، فطالمـا تنعم فى المال والنعيم فى قصر فرعون. ولكنه فى هذا الموقف نبذ مـتاع الدنيا وجلس إلى الشيخ الفقير وسمع له. ورأى الشيخ فيه بعدما سمع منه ما يؤهله لحمل الرسالة فوجدها شرفاً له أن يعرض الزواج عليه من إحدى ابنتيه ولم يكـن فى ذلـك عيب أو حرج والناس يرون المطارد الغريب صهراً للشيخ ولكن نظـرة الرجل الحكيم كانت تنظر إلى قابل الأيام، إلى موسى والرسالة، إلى موسى الذى صنعه الله على عينه وتنظر إلى سالف الزمان.. موسى الأمير الذى تربى فى حضن فرعون ملك الزمان فى ذلك الأوان.

(١) نقلاً عن كتاب القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ص ٢١١ والعبارة من كتاب (الفن القصصى فى القرآن) لمؤلفه د. محمد أحمد خلف الله.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤.

وموســـى فى هـــذه القصة لا يحزن على جاه افتقده ولا يفكر فى العودة إلى حظيــرة مـــلك طاغ قد تبناه ورعاه وأولاه بالتربية لينعم بما عنده من جاه أو مال ونعيم.. ولكنه يهاجر إلى الله هرباً من الطغيان إلى الحق، ويقبل أن يعيش مع شيخ عاجــز ضـــعيف تخدمـــه فتاتان منكسرتان وترعيان له الأغنام.. وها هو موسى يصاهر الشيخ وها هو الشيخ يهيئ المكان الطيب والإقامة الآمنة لموسى..

(فـــنحن نرى صورة من بساطة الأنبياء، واحتمالهم لقضاء الله، وفرحهم به، والتكييف له، لا يفرحون بما آتاهم .. ولا يأسون على ما فاتهم)(١).

ولقـــد تعـــلق موسى بالشيخ وتزوج ابنته بعد أن وفىّ بأطول الأجلين.. ولا عجـــب فى ذلـــك فلقد آوته الأسرة وحمته وكانت عوضاً عن أهله الذين تركهم فى مصر.. ولقد لقى عندها الاحترام والإجلال والتوقير..

(وموســـى (عليه السلام) نبى من أنبياء الله أعده الله لحمل رسالته. والأنبياء هم أعظـــم أبـــناء آدم وفاءً وأكثرهم عرفاناً بالجميل لأن الوفاء صنعة تكلف صاحبها مشقة وحرماناً وجهداً)(٢).

.. ولقـــد جـــرت القصة حسب النهج القرآنى فلم يورد من الخير إلاّ ما كان مـــتلائماً مـــع جوهر المعنى والمغزى الإيمانى المطلوب لإبراز المعانى الروحية الجميـــلة والـــتوجيهات الأخلاقية فى أسلوب موجز يشف عن المعنى فى وضوح باهـــر.. لا يحـــتاج إلى تكـــلف، ولا يقتضى التأويل، ولا يتحمل الجنوح إلى غير مغزاه ومراده.

- ولقـــد عـــبَّرت القصـــة القـــرآنية عن مشاعر مضطربة تتملك النفس وتســـيطر عليها. مشاعر ترتد إلى عنف الرغبة وسيطرتها، واحتوائها لـــلذات وعجز الذات عن مواجهتها.. وربما كانت هذه المشاعر أدخل إلى جـــانب اللذة وشهوة الحس منها إلى رقة الوجدان ونظافته .. وهو تعـــبير عن جانب من جوانب الذات فى لحظة تهورها وعجزها أو فى

(١) القصة القرآنية فتحى رضوان ص ٧٦ كتاب الهلال.
(٢) المصدر السابق ص ٧٩.

آنيــة الضــعف التى تلبستها.. وتلك العاطفة الجنسية عميقة فى الكيان الإنسانى منذ خلق الله الإنسان. وهى طاقة هادرة توجه السلوك أحياناً. ولكــن ليست الدافع الوحيد إليه.. وليست هى العامل الكامن فى توجيه الإنســان وتحديد مقاصده.. وليست هى العاطفة الطارئة على الإنسان حــتى يخجــل منها أو يقع تحت سطوتها، وإنما هى حقيقة كونية فلا تستقيم الحياة بدونها . قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ونظــرة الإسلام إلى الجنس نظرة تنطلق من هذا الوجود الكونى كله.. إنها بــنية الكــون إن صح التعبير. وفى القرآن الكريم إشارات تتعلق بالجنس كحقيقة بشرية. قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (٢).

فثمة التقاء وتلاصق حتى ليبدو الجسدان جسداً واحداً، ولكنه التلاصق تحت جناح الستر الروحى والنفسى الذى هو وقاية من الفحش والتبذل.

والإســلام يدرك تماماً ما يحدثه التجاذب الفطرى بين الجنسين من مشاعر وخواطــر وأفكــار وسلوك ولكنه يقيسها بمنهجه (لأن منهجه الذى يسير عليه فى معالجــة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها، نظيفة فى معرض النور، لا مستقذرة ولا مختلسة فى الظلام)(٣).

ولقد تحدثت القصة القرآنية عن مجالات الجنس التى تهبط بصاحبها وتسفل بــه، وتجنح به طاقته المنحرفة إلى سبيل فاسد.. ولكن الحديث وهو يصور لحظة الهــبوط لا يرقى بها إلى الإثارة أو إحداث اللذة.. شأن ما نراه فى الأدب البشرى المــائل إلى الإثــارة ودغدغــة العواطف. وإنما يقصد التعبير إلى تصوير النفس البشــرية فى لحظة الضعف دون تزّيد، للتنفير من تلك الفطرة المنحرفة عن منهج الله ونســق الفطرة السوى، ومن ثم فإننا قد نلحظ المواقف الجنسية والتهيؤ البشرى لها، والصراع النفسى المشتجر فى الموقف، والحالات الوجدانية المعبرة أدق تعبير

(١) سورة يس آية ٣٦.
(٢) سورة البقرة آية ١٨٧.
(٣) منهج الفن الإسلامى ص ٧١.

عن الموقف ولكن فى موضعها من السياق العام دون إثارة أو إحداث لذاذة عاطفية وإنما هو عرض لباطن النفس ورغباتها فى نظافة ، وقصد محسوم.

- وتعكس قصة يوسف هذا الجانب من جوانب النفس البشرية. حين راودت امرأة العزيز فتاها.. والقصة حين تعرض هذا الموقف لا تثير تلذذ القارئ بمشاعر منحرفة وإنما تهدف إلى إدانة هذا اللون من المشاعر الفاسدة فضلاً عن إبراز جانب من جوانب الابتلاء التى واجهها يوسف (عليه السلام).

(والإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية – نظيفة أو غير نظيفة، ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف، ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض. لحظة ضعف لا لحظة بُطولة. ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يظل دائراً فى حلقاتها المرتكسة على الدوام)[1].

.. ولندخل إلى القصة لنقف على هذه المعانى جميعها.

قال تعالى :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ • وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ • وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ • وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ • فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ • يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ • وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا

(١) المصدر السابق ص ١٦٢.

فِي ضَلالٍ مُبِينٍ • فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ • قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ • قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ • فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (١).

جاء فى حديث الإسراء "**فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن**". قال السهيلى وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم (عليه السلام)، لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ من روحه ، فكان فى غاية الحسن البشرى. ولهذا يدخل أهل الجنة.. الجنة على طول آدم وحُسنه. ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما.

وقال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره، كان فى الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام، عذرن امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى.. من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهشة عند رؤيته ومعاينته(٢).

وعن السبعة الأتقياء المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء يأتى حديث رسول الله (ﷺ) فيوضح ذلك :

"**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.**" وذكر منهم "**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله**".

(١) سورة يوسف آيات ٢٢-٣٥.
(٢) قصص الأنبياء ابن كثير ٣٣٤.

وعـن النـبى (ﷺ) مـررت بيوسف الليلة التى عرج بى إلى السماء فقلت لجـبريل من هذا ؟ فقال : يوسف. فقيل يا رسول الله كيف رأيته، قال كالقمر ليلة البدر(١).

وقيـل كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها.

- وقد فسَّر هَمّ يوسف بأنه حلّ الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبأنه حـلّ تكـة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهى مستلقية على قفاها. وفُسِّـر الـبرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها. فلم يكترث له فسمعه ثانيـاً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مُثّل له يعقـوب عاضًـا عـلى أنملته، وقيل ضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله.

يقول الزمخشرى فى رده على هذه الروايات المفتريات :

(ولـو وجـدت من يوسف (عليه السلام) أدنى زلة، لنعيت عليه. وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى عليه وسُمِّى مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة، والعزم، ناظراً فى دليل الـتحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم فى القـرآن الذى هو حجة على سائر كتبه، ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصـة وضـرب سـورة كاملة عليها ليجعله لسان صدق فى الآخرين وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر فى العفة وطيب الإزار والتثبت فى مواقف العثار.

فأخـزى الله أولئك فى إيرادهم ما يؤدى إلى، أن يكون إنزال الله السورة فى القـرآن العربى المبين ليقتدى بنبى من أنبياء الله فى القعود بين شعب الزانية، وفى حـل تكته للوقوع عليها، وفى أن ينهاه ربه ثلاث كرات ويصاح به من عنده ثلاث صـيحات بقـوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣.

الـذى سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جاثم فى مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا ينتبـه حـتى يتداركه جبريل. ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة لقى بأدنى ما لقى به نبى الله مما ذكروا لما بقى له عرق ينبض ولا عضو يتحرك فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه)[1].

- ولقـد جنح الخيال كثيراً فى هذا الموقف بالذات، ذلك لأن القصة تحكى عـن موقف تعرّض يوسف للفتنة والإغواء، ذلك الموقف الذى عبرت عـنه الآيات تعبيراً واضحاً ودقيقاً، حتى أن ملابسات الفعل من إغواء وصد واعتصام.. قد صورت تصويراً لا يترك للخيال بعد ذلك فسحة للـتخيل.. ولم يمر الموقف مروراً عابراً بل أخذ مساحته من القصة، بحيـث غـطى تـلك المحنة الهائلة التى واجهت يوسف، المحنة التى أحكمت فيها امرأة العزيز خطتها ليقع الفتى فى شركها .. وربما كان إيراد الروايات الدالة على حسن جمال يوسف. من أسباب وقوع المرأة فى حـبه وهـواه ومـن ثم محاولة إغرائه.. وكأن الجمال وحده هو المحـرك لـلمرأة لأن تفعل. وكأن هذه الروايات تقدم لها العذر فيما أقدمـت عـليه.. فلا الجمال مثير بمفرده، ولا الرغبة الجامحة يثيرها جمـال، أو قـبح ، إنمـا هـو نمط من السلوك تحكمه الدوافع القوية المتسلطة ونموذج من الشخصية الواقعة تحت أسر الجموح العاطفى.

ولـو كان الأمر بهذا التأويل الخيالى.. ما كان لعصمة الأنبياء من معنى ، وما كان للاصطفاء من مغزى وهدف..

- وسورة يوسف مكية، أفردت الحديث عن يوسف (عليه السلام) موضحة فى أسـلوب سـردى فـذ ما لقيه من ألوان البلاء والمحن ومن ضروب المعانـاة والشـدة.. فكـانت المحنة الأولى له مع إخوته التى صاحبها أحـداث أدت به فى النهاية إلى بيت عزيز مصر حيث نشأ وتربى – لـتأتى المحنة الثانية وهى موضوع درسنا – لتبرز الصراع بين امرأة العزيز وفتاها الذى تراوده عن نفسه، وقد هيأت كل الأسباب، وغلّقت

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٩ / ٢٥٠.

كـل الأبـواب، ولا مـنقذ من السقوط إلاّ رحمة الله. وتمسك المحن بعضـها بالبعض الآخر، فيقع فى محنة ثالثة حيث سجن ظلماً على ما لـم يفعـل. وفى كـل هذه المحن كانت عين الله تحرسه. وتعصمه، وتـؤازره حـتى جاء الفرج، وخرج من السجن عزيزاً مكرماً، مبرءاً مما اتهم به ومكّن الله له فى الأرض.

ولقـد نـزلت السورة فى فترة عصيبة من حياة الرسول (ﷺ) حين توالت الشـدائد والنكـبات عـليه وعـلى المؤمنين وخاصة بعدما فقد نصيريه : زوجته الطاهرة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعمه أبا طالب، ولقد كانا خير نصير لـه وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء حتى عرف هذا العام بعام الحزن.. وفى هـذا الجـو العصيب الحزين الملئ بالغربة والوحشة، والألم، أنزل الله على رسوله هذه السورة تسرية له، وإيناساً وتخفيفاً للألم، ومؤازرة للنفس والعقيدة. فمن هـذا الجـو الحزين سينبثق الفرح حين يأتى فرج الله سبحانه، وينتصر الحق على الظلم، كما انتصر الله ليوسف ضد أعدائه، ومكّن له فى الأرض وجعله عزيزاً فى أرض مصـر ومـلكه خزائـنها.. فالقصة فى المعنى العميق تحمل البشر والأنس والطمأنيـنة، وتـؤازر كلٍّ من يقف على طريق الحق، متسلّحاً بالعقيدة، داعياً إلى التوحيد. متحملاً كافة ألوان الأذى من أجل هذا الهدف النبيل السامى..

ولهـذا الموقف النفسى الذى مر بمحمد وبالمسلمين فى بداية الدعوة، جاءت السـورة ذات وحـدة واحـدة، ألقت بثقلها ، فظهرت المشاعر، وآزرت الجموع، واسـتلّت من النفوس بوادر الضعف وعلامات اليأس، وأدخلت السامعين فى سياق الحـركة الـتوحيدية واصطفاء الأنبياء لحمل هذه الرسالة للتصدى لجحافل الوثنية وغرس شجرة التوحيد الخالص لله.. ومن ثم كان نزولها فى هذا الوقت متلائماً مع الحـركة الـتوحيدية، ومـع الحركة النفسية، الأمر الذى جعلها لا تتكرر فى سور القـرآن.. لقد قامت بدورها ، فى الامتاع والمؤانسة وفى المؤازرة والمساندة، وفى العظة والعبرة، وفى إبراز مشاعر النفس المختلفة من حب وكراهية، وحقد وحسد، ولهفة وشوق، وجموح واعتصام، وغربة ووحشة.. وفرج ونصر .. مما يعطى لها تفرداً خاصاً فى مجال القصة القرآنية.

(وهـذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة، ويؤديها أداءً كاملاً.. ذلك أنهـا تـبدأ برؤيا يوسف وتنتهى بتأويلها، بحيث لا يلائمها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات فى سورة وتكون بقيتها فى سورة أخرى. وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه)(١).

- ولنمض إلى هذا الموقف المشحون بالصراع .
- هـا هى الأيـام تـتوالى على يوسف فى كنف عزيز مصر ورعايته، ويشـب الفـتى ويخلع رداء الحداثة ويمضى قدماً إلى الشباب وفتائه، قـوى البدن، وضىء الوجه، عفيف البصر، نقى القلب. لقد بلغ العمر الـذى تلقى فيه الحكمة والتفقه فى الدين فأحسن الله إليه وآتاه من لدنه الحكمـة والعـلم.. ولكـن الأيـام لا تريد له الراحة والأمان ليتفرغ لرسـالته، فهـا هى امرأة العزيز قد شغلها أمر فتاها، وقد نما وشب تحـت عينيها، شعرت المرأة المترفة بدبيب الحب ينبض فى العروق، وبحسيس حسى يتمشى فى الداخل فيشغل قلبها ويحتويها .. ولم تصمد أمام جموح العاطفة، ولم تلق بالاً إلى مكانتها ومنزلة زوجها ولم تراع الحـرمة، لقد شغلتها الغريزة، فضاق صدرها، وأجابت داعى الهوى الجـامح، وبـدأت تنصب للفتى حبال الإغراء والمخادعة.. لمّحت ، وأشارت، وشجعت، وصرّحت ، ولكن الفتى الجميل ما كان ينظر إليها إلّا غاضباً، وما كان يميل قلبه إليها، أو تحدثه نفسه خاطراً، وهو الذى نشأ فى كنف الرجل، وتربَّى تحت يد المرأة، وشملاه جميعاً بالرعاية..

ولكـن الأنثى وقد شب فى الداخل حريق الرغبة، تضاعف هواها وهى تراه مُعرضـاً عـنها لا يبالى بما تشير أو تلمّح.. فلم يعد أمامها إلّا الفعل الحسى نفسه تـلجأ إليـه وتضـع فتاها أمام الموقف الجامح. فهيأت نفسها جمالاً وزينة، ونحت جانـباً كل جوانب السلطان، وأبدت عشقاً متصابياً. فغلقت الأبواب وأسدلت الستائر وتقدمـت إليـه قائلة فى صوت ينضح بالرغبة : لقد تهيأت لك، فهلمّ إلى الفراش وأنت آمن فليس هناك من أحد تخشاه.

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٥١.

.. ولكــن يوسف النبي ولد يعقوب النبي، ليس كأي فتى، إنما هو المصطفى للرســالة والمحروس بعين الله.. وواجهها الفتى الجميل الحكيم مذكراً إياها بمكانته في القصــر وقــال : معاذ الله أن أجيبك وأفعل السوء، وأذعن إلى ما تطلبين من فحــش، وحاشاى أن أخون زوجك، وهو السيد العزيز الذى أكرمنى وأحسن مثواى وإقامتى وتعهدنى بالرعاية فكيف أخونه فيك.. وإن كنت قد غلقت الأبواب فإن الله يعــلم خائــنة الأعيــن ومــا تخفى الصدور، وكيف تطاوعنى نفسى إلى هذا الإثم والمعصــية. إنــه لا يفــلح الظــالمون. وجــنحت بها العاطفة، واستشاط غضبها واستطار، كيف للفتى أن يرفض!! وهى السيدة، صاحبة الصول والطول، وأنى له ذلــك، وهى تــبدى وهــو يرفض، أهو إذلال! أهو تمنع! أم هى عفّة ولا تدرى!! وهمــت بــه عن عزم وإصرار، لقد عقدت العزم على الفاحشة ولن يصرفها عنها صــارف، وكأنمــا تقصد إلى إجباره قصداً. وأمام هذا الموقف الجانح حدثته نفسه بالــنزول عــند رغبتها، ولم يكن الهم من الفتى إلا حديث نفس فى موقف مأزوم.. ولكــنه حديــث ككــل أحاديث النفس، خالٍ من العزم والقصد. وأدركته عناية الله فــأحس بإشــراق النبوة، وترقرق برهان الله على صفحة القلب، فصرف الله عنه الســوء وعصــمه من الفحشاء والتبذل.. فهو المصطفى للرسالة، ومثله لا تخدعه امــرأة، أو يغويــه شــيطان.. ورأت منه نية الهروب والبعد فجذبته فى شدة حتى مــزقت ثوبه، ولكنه يفلت من المكيدة، ويمضى قدماً إلى الباب وهى تتبعه، وما إن انــتهى إلى الــباب حتى وجد عزيز مصر، ورب البيت واقفاً لدى الباب، وقد رآه مضــطرباً، ممــزّق الــثوب. ولا تعدم الأنثى حيلة فى مثل هذه المواقف فبادرت زوجهــا قائلة : إن الفتى لم يرع حرمتك وقد حفظته، ورغب فىّ وقد صنته.. فقل لى إذن : ما جزاء مثل هذا الفعل إلا السجن، أو إيقاع العذاب به! وإذا كانت المرأة قــد عــادت إلى كيدهــا ولجأت إليه فإن يوسف التجأ إلى الصدق وإلى الصراحة، فــالموقف لا يحــتاج إلا إلى الصــدق. قــال يوسف للعزيز : هى التى راودتنى، ودعتنى إلى مقارفة الفحشاء، وجذبتنى ومزقت ثوبى..

وكان يشهد الموقف قريبٌ لها وكان فيه ذكاء وفطنة، فبادر القوم قائلاً : إن كــان ثوبــه قد مزّق من الخلف فهو والله صادق، أما أى فتصبح كاذبة. وإن كان

الثوب قد مزق من أمام فهى الصادقة، وهو الكاذب.. وتطلع العزيز إلى يوسف فرأى قميصه ممزقاً من الخلف، فوضح له الأمر وأدرك أن الأمر كله ناتج عن كيد النساء ومكرهن، وطلب من يوسف أن يتكتم الأمر فلا يذكره لأحد.. وتوجه إلى امرأته ناهراً إياها طالباً منها الاستغفار والتوبة من هذا الفعل القبيح.

ولكن الخبر يشيع فى المدينة، ويتطارح على الألسنة، ويصل إلى النساء فيجعلن منه قصة، وبدأن يرددن أن امرأة العزيز، تطلب من فتاها وخادمها أن يواقعها، بل وصل بها الأمر أن تتوسل إليه كى يقضى وطرها. لقد وقعت فى غرامه، ونزلت عن عرشها، وتلقت الصدمة عاتية حين وجدته زاهداً فيها. لقد شغفها حباً ووقعت أسيرة له..

ووصلت الشائعة إلى امرأة العزيز وهالها ما سمعت، لقد فُضحت بين الناس ولم يعد للنساء من حديث غير هذا الحب المتيم المفضوح. ولقد نالها النساء بالسوء، وتزيدن كطبيعتهن. فأرادت أن تجمعهن. فدعتهن إلى طعام وهيأت لهن متكآت وثيرة، ومساند مريحة. وقدمت لهن الطعام والفاكهة، وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً، لتقطع كل واحدة بها ما أمامها من حبات الفاكهة. وانتحت جانباً بيوسف. وطلبت منه أن يخرج عليهن وهن منشغلات بالطعام وتقطيع الفاكهة.. ولتمش يا يوسف بينهن فى أجمل زينة، حتى تفاجئهن.. وفوجئن به بينهن قائماً كأجمل ما يكون إنسان، فلما رأينه أكبرنه وأعظمنه، وأصابتهن دهشة بالغة، فما هو فتى كالفتيان، فما أجمله! وما أروعه! وظلت العيون تحدق بالفتى على حين مشت السكاكين على الأكف تجرح وتقطع وهن مذهولات مندهشات.. وقلن فى صوت واحد وفى نغمة مندهشة واحدة، سبحان الله.. إن هذا الجمال الفائق يليق بملك كريم.

وهنا تتقدم امرأة العزيز إليهن، وهى تشعر بأنها انتصرت عليهن وهى ترى عيونهن تأكل الفتى، رغبة ، وطمعاً، ودهشة. وقالت امرأة العزيز لهن : إنه يوسف الذى أُحبه والذى لمتنّنى فيه، ولقد أثر فيكن فى لحظة رأيتنّه فيها. فما بالكن وهو معى أراه أمامى صباح مساء.. لقد شغفت به، وأصدقكن أننى راودته عن نفسه فاستعصم وأعرض، فأدمى الفؤاد، وأصاب القلب.. وإن لم يطاوعنى، ويفعل

مــا آمره به لأدفعن به إلى غيابات السجن وظلماته، يعانى الظلام والوحدة، ويفنى بهــاءه وجمالــه الأخـــاذ هذا، حتى يصبح ذليلاً مهاناً.. وأبدت النسوة رأفة بحال المرأة، فرغبنه فيها، وحاولن كسر التأبى الذى هو فيه. والتمنع الذى يصرف قلبه. حاولن أن يلنَّ قلبُه، ويثرن عاطفته، ويثرن كوامن نفسه.. حتى بدا الموقف عصيباً ومــثيراً.. فــلم يمــلك يوسف إّلا أن يلتجئ إلى الله، ضارعاً أن يصرف عنه هذا السوء. ويبعد عنه هذا الكيد الذى يمارسنه وينفثن فيه سحر الأنوثة وفتنة الرغبة.. والسجن آثرُ عندى وأحب إلى نفسى من اقتراف الفاحشة.. إنه بالرغم من ظلمته ، وجهامــته ووحشته ، أقرب إلىّ أميل إلى قلبى من تلك الدعوة الظالمة. فلتعصمنى يــا ربى مــن شــرهن وكيدهن .. فأنا بشر، وبمقتضى بشريتى لن يعصمنى من الفاحشــة إّلا أنت. واستجاب الله لضراعته فصرف عنه الكيد. ولما عجزت النسوة جميعهــن .. فــزعت المــرأة إلى زوجهــا عزيز مصر قائلة له : إن يوسف قد فضــحنى، وافــترى علىّ، وأرى أن تسجنه فتشفى غيظى منه، وتبرئ شرفى مما ناله من سوء. وانقاد الرجل إليها، ودفع بيوسف إلى السجن، مظلوماً، وبريئاً.

وحيــن نعــاود الــنظر مرة أخرى فى القصة، ندرك أن كل المقولات التى وردت عــن جمــال يوســف، أو عن تفسير الهم، كلها مقولات خارجة عن جسم القصـــة، ولا تلقى ظلالاً عليها، أو تساعد على إدراك الموقف، أو كشف غموض، أو توضــيح مــبهم، ذلــك لأن الآيات القرآنية، واضحة المعنى مفهومة الغرض والدلالة، خالية من أى غموض أو إبهام، فضلاً عن أن الموقف القصصى قد اكتفى بذاتــه انطلاقاً من المنهج القرآنى فى السرد القصصى وتأكيداً للغرض الدينى الذى يســاق مــن أجله أى موقف قصصى. فنحن هنا لسنا أمام حكاية تدور حول امرأة وفــتى، وإنمــا نحن فى المقام الأول أمام نبى من أنبياء الله، مرّ بمحن وتجارب، وكان محروساً من الله ، معصوماً عن أى خطأ يرتكب، فهو القدوة ، وهو المثل.. لأنــه المصــطفى لــتحمل النبوة، إنه صقل النفس، وتقوية الإرادة وتدريبها على الصبر.

- وإذا كانت السورة تعرض للشخصية الرئيسية، وهى شخصية يوسف.. بكــل ما تنطوى عليها هذه الشخصية من أبعاد ومواقف، وصراعات،

وتحــولات.. فلقد عرضت بجانب هذه الشخصية المحور، شخصيات فاعــلة كــان لهــا دورهــا الفعَّال فى حركة الأحداث ونموها.. وهذا الموقــف القصصــى الــذى نحن بصدده يتناول شخصية المرأة.. فى غرائــزها ورغــباتها واندفاعاتها الأنثوية.. وهى فى حمأة الشهوة قد عميــت عــن كــل شىء، فلم تعد تحفل بالحياء الأنثوى الفطرى، ولا بالكــبرياء الذاتية، ولا بالمركز الاجتماعى الذى توجد فيه، ولا بالفعل الذى ينبئ عن فضيحة مزلزلة.. إنها مجرد امرأة ذات منصب وجمال تســعى إلى إرواء هواتفهــا الأنثوية.. ولم تكتف الآيات بتوضيح ذلك المعــنى الأنثوى، ولكنها كشفت أيضاً عن نفسية المرأة المترفة، ذات المنصــب الرفيع والجمال الأخاذ، الذى يدين له زوجها – ولها أيضاً – بــالولاء والتــبعية. ليصــبح دلالة إشاريَّة إلى الطبقة المترفة التى خمدت فيها الغيرة والحمية فى مسائل العرض والشرف.

ولقــد كــان لــلمرأة تواجدها فى التعبير القرآنى، ولقد اختلف ذلك التواجد باخــتلاف السياق، والمغزى، ونمط الشخصية، فامرأة فرعون نموذج لقوة الإرادة، وصــفاء القلب، فلقد رفضت الوثنية، ورفضت زوجها وما يدين به، وولت وجهها إلى الله سبحانه لتحدد توجهها الدينى والإيمانى..

وتقــف امــرأة لــوط على النقيض . حيث خانت دعوة النبى ولم تهتد بنور النبوة وكانت حرباً عليه مع الكافرين، وكذلك امرأة نوح..

وتــتحول أم موسى إلى رمز للأم القلقة، الحائرة، المعذبة بفقدان الرضيع.. ويغــلب عــليها الفزع والخوف والاضطراب، لولا أن تدركها عناية الله، فيتحول الخوف إلى طمأنينة، والهلع إلى رضى الله، فيمتنع الطفل عن المراضع ليعود إلى أمه كرة أخرى وهى فى حال بين اليأس والرجاء..

وفى ســورة مــريم يظهر لنا جانب من خصائص الأنوثة متمثلة فى عذراء طاهــرة متبتلة، انقطعت عن الدنيا، واتجهت إلى الله.. ثم ها هى يتملكها الرعب إذ تجد نفسها فى خلوة مع الملك – الرجل.. فينبثق من داخلها مشاعر التقوى.

وينقلنا لفظ "المراودة" إلى حركة نفسية تصوِّر داخل الأنثى فى مناورتها للرجل ومخادعته له..

ويرى الزمخشرى أن (المعنى : خادعته عن نفسه، أى فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهى عبارة عن التجمل لمواقعته إياها!)[1].

والمراودة فعل يحتاج إلى زمن.. مما يعنى أن ثمة تمهيداً وإغراءً سبقا لحظة الفعل ، حيث ظلت امرأة العزيز تبدى للفتى زينتها يوماً بعد يوم لعلها تستثير فيه كوامن الغريزة.. ولكن الفتى يغض البصر ويهمل الأمر كله، مما يسرع بالرغبة إلى ساحة الفعل الذى بدأت القصة بسرده. وهى المراودة للفعل نفسه بعد أن يئست من أساليب المخادعة والتزّين الطويل.

.. ويسفر اللفظ عن المعنى .. فكلمة "هيت لك" وكلمة "غلقت الأبواب". تتناميان مع دلالة المراودة.. فالتهيؤ يعنى وصول المرأة إلى قمة الرغبة. والقصد الحاسم إلى تحقيقها يعكسه لفظ الإغلاق.. فنحن هنا أمام لحظة حاسمة، اهتاجت فيها رغبة الجسد، فراودت المرأة، وتهيأت وأغلقت الأبواب.

.. وهذه الدعوة الراشحة بفحيح الأنثى لا تكون أول دعوة من المرأة.. بل هى الدعوة الأخيرة.. دعوة الفعل نفسه.

ومع ذلك فإن اللفظ القرآنى – بالرغم من صراحته ووضوحه – إلا أنه يتجمل فى نقل الحكاية، تجملاً يشعر بالنظافة والإشارة الدالة.

ويساهم لفظ (الهَمّ) فى دفع الحدث إلى ذروة الفعل وعقدته.. ذلك أن نتيجة الهم سيترتب عليها أمور معضلة، ومثيرة للجدل.

ولقد روت كتب التفاسير روايات أقرب إلى الأساطير التى لا يعقلها إنسان.. وخلاصة تلك الروايات توحى بأن يوسف (عليه السلام)، كان هائج الغريزة، شبق الحس، مندفع الانفعال.. ولقد رأينا كيف ردَّ الزمخشرى على هذه الروايات ردا فيه كثير من التهكم والسخرية.

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٨.

لقد أنهى "الهمّ" الموقف الطويل من الإغراء، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف. ولكن السياق القرآنى لم يفصل تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة، لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته فى محيط القصة، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة.. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية.. والعرض القصصى يبلغ قمة الأداء الفنى.. ولقد كانت السورة خليقة أن تستر على يوسف أنه هم بها.. ولكن الله سبحانه يريد أن يقول لعباده إن يوسف إنسان ، يهم بالخطيئة شأن الإنسان ثم يرجع عنها شأن الصالحين، وفى هذه العبارة القرآنية روعة فنية وكشف نفسى عميق حيث تجعل القارئ وهو يقرأ ويتدبر الموقف القصصى أنه أمام شخصيات تحيا وتعيش مثل حياة الناس وعيشهم، ويهمون بالخطأ ويوشكون أن يقعوا فيه ثم يرتدون عنه(1).

إن قصص الناس تغرينا أن نتشبه بهم حتى وإن كانوا أنبياء. والمراد من الهم – كما يرى الزمخشرى – أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب. ميلاً يشبه الهم والقصد إليه – وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم. ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسن عظم الابتلاء وشدته ولو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين (2).

.. وهذا يعطى للموقف القصصى قوة الفعل ، ويوحى بالصراع المشتجر، ويكشف عن طبيعة هذا الصراع وعن مكوناته ودخائله.. ويجعلنا نتصور تلك المحنة الجديدة التى صمد فيها النبى الشاب وإن شمله إحساس بالمخالطة...

ومن الألفاظ التى تساهم أيضاً فى كشف طبيعة الأنثى، لفظ (الكيد). فى قوله تعالى على لسان العزيز ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ .. وإذا كان الخطاب واقعا فى حالة

(1) السرد القصصى فى القرآن ، ثروت أباظة، ص ٢٦ نهضة مصر.

(2) الكشاف جـ ص ص٢٤٩.

فردية إلا أنه إشارة عامة للدلالة على طبيعة الجنس.. واستُعظم كيد النساء، لأنهن ألطف حيلة وأنفذ كيداً ولهن فى ذلك وسائل وأساليب يغلبن فيها الرجال. وروى أن بعض العلماء أعلن أنه يخاف من النساء أكثر من خوفه من الشيطان لقوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فى حين عظّم كيد النساء فقال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

.. والعبارة القرآنية كأنما تحمل حكماً جامعاً.. حكماً أطلق فى وجه النساء ولم يخصص فى المرأة الخائنة ، التى احتالت، وكادت، وسجنت..

ويرى العقاد فى كتابه "المرأة فى القرآن" أن الكيد فى القرآن مذكور بمفاهيم متعددة. "أما الكيد الذى وصفت به امرأة العزيز وصاحباتها فهو كيد يعهد فى المرأة ولا ينسب إلى غيرها، أو هو كيدهن الذى يتسمن به، ويصدر من خلائقهن وطبائعهن كما يفهم من الإضافة المتكررة ويدل عليه عمل امرأة العزيز فيما غشّت به زوجها، واحتالت له من مراودة غلامها عن نفسه، ثم من اتهامه بمراودتها وتنصلها من فعلها".

وكلها أعمال تتلخص فى (الرياء) أو فى إظهارها غير ما تبطنه ، واحتيالها للدس والإخفاء(١). فالكيد الذى وصفت به المرأة فى القرآن يحمل مفهوماً خاصاً ينسجم مع طبيعة المرأة وتكوينها النفسى.. كما أن التهيؤ والتزين من طبائع المرأة، فهى تتزين وتتهيأ لتعزز إرادة الغير فى طلبها .. وهى زينة كافية إذا راقت بمنظرها، ومن ثم تصبح الزينة فى مثل هذه المواقف وسيلة للإغراء..

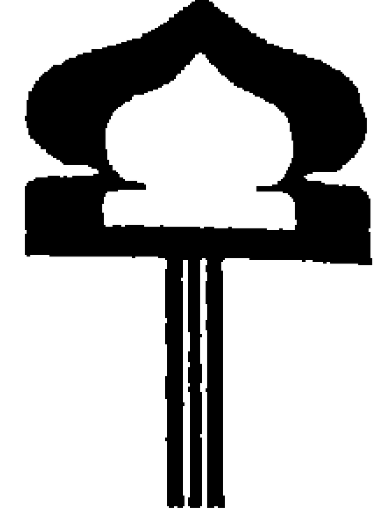
وهكذا تعكس الألفاظ القرآنية دلالة الموقف القصصى، فى أداء متحرك باهر.. أخاذ ، وتكشف عن شخصيات تمور بالحياة، وتمتلىء بعواطف البشر.

والتجاء امرأة العزيز إلى النسوة اللائى أشعن الخبر وفضحن المرأة يندرج تحت هذا النوع من الكيد والمكر.. ولكنها – نفسياً – التجأت إلى دعوتهن ، ومجالستهن وإطعامهن – وإخراج يوسف عليهن فجأة ليثيرهن بجماله.. إنما فعلت

(١) المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ص ٢٩٩.

ذلـــك لتـــبرير السلوك الذى أقدمت عليه.. وحتى لا يقوين على الإنكار مما يساعد على اقتناص الاعتراف منهن بعدالة مسلكها – حسب وجهة النظر الخاصة.. وهذا مـــا حـــدث.. ويعتـــبر ذلـــك نفسياً.. تبريراً للسلوك .. والتبرير لا يعنى أن تكون التصـــرفات المســـلكية معقولـــة، وإنما يعنى أن نبرر السلوك حتى يبدو فى نظرنا معقولاً .. وهى من حيل الذات الدفاعية حتى يجنب الذات الإنسانية مغبة الاعتراف الحقيقى بدوافع السلوك..

.. ولقـــد أبرزت أحداث القصة القرآنية الصراع بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، وصوت الحق ومغريات الهوى.. فى اختيار حر وإرادة متحررة.



الفصل الخامس

القصة الإشارية الرمزية



هذا نوع آخر من أنواع القصة القرآنية ، يختلف تماماً عن النوع المعروف والذى تحدثنا سابقاً عن بعض منه . فالقصص من القرآن نوعان : نوع ورد فى القرآن الكريم انطلاقاً من قوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (١). حيث تسرد القصة أخبار الأنبياء والرسل والأمم الغابرة. وذكر ما لقيه الرسل من تكذيب من أقوامهم، ومدى صبرهم الهائل حتى تم لهم النصر على الأعداء الذين مُنوا بعذاب شديد من الله.

ولقد سيق هذا النوع من القصص لتحقيق أغراض دينية متعددة منها إبراز جوهر الرسالات السماوية الداعية إلى التوحيد الخالص وإفراد الله بالوحدانية.. فالدين كله من عند الله. والمؤمنون كلهم أمة واحدة.. والأنبياء سلسلة متماسكة منذ آدم حتى محمد (ﷺ) ومن ثم وجدنا فى الآيات القرآنية ما يؤكد على الوحدانية والعبودية لله. وما من نبى إلا وجاء بهذه الدعوة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) سورة يوسف آية ٣.

نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٣).

ونحن نلاحظ العبارة القرآنية المتكررة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيره﴾ قد وردت على لسان كل نبى تأكيدًا على أن التوحيد أساس العقيدة "يشترك فيه جميع الأنبياء فى جميع الأديان وترد قصصهم مجتمعة فى هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص"(٤).

كما أبرزت القصة القرآنية وحدة الوسيلة إلى الدعوة . فوسائل الأنبياء والرسل فى دعوتهم أقوامهم إلى الإيمان بالله وخلوص العبادة له.. وسائل واحدة، حيث يعرض الرسول دعوته على القوم داعياً إلى الإيمان بالله واحداً لا شريك له، ثم يتبع ذلك بالتحذير من العناد والمكابرة التى يواجهها من القوم، ويخوفهم عذاب يوم أليم. وتذكر القصة القرآنية فى سياق الدعوة أن طريقة الكافرين واحدة فى مواجهتهم للدعوة، وتكذيبهم للرسل، بداية من ادعائهم بأن الأنبياء بشرٌ لا يفضلونهم فى شيء، وأن أتباع الرسل إنما هم أراذل القوم.. وهم لا يفضلونهم فى شيء، ويبدى الرسل النصح مما يدعونهم إليه فهم يبلغون رسالة ربهم لا يبتغون أجراً ولا مغنماً، ولكن القوم يعاندون ويتحدون الرسل فى صلافة المتجبر، أنْ ينزل الله العقاب كما يقولون..

(١) سورة الأعراف آية ٥٩
(٢) سورة الأعراف آية ٧٣
(٣) سورة الأعراف آية ٦٥
(٤) التصوير الفنى ص ١٤٩.

ولقد ألمحنا إلى ذلك فى القصص التى أوردناها حول هود وشعيب وغيرهما ويرتبط بهذا الغرض غرض آخر ملازم له لأنه نتيجة له. إنه الغرض الذى يؤكد على مؤازرة الرسول وتثبيته فى مواقفه وطمأنة المؤمنين معه حيث تبين تلك القصص جميعاً مصارع الأقوام الذى كذبوا برسل الله، وكذلك نصر الله لأنبيائه والمؤمنين به.

قال تعالى تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٢).

وأغراض القصة القرآنية كثيرة ومتعددة ولكنها تستقى تنوعها من الغرض الدينى الكبير الذى سيقت من أجله وهو بيان وحدة الدين والرسالات ووحدة الوسائل ومؤازرة الرسول وتثبيته.

وهذا الجانب القصصى نزل به القرآن الكريم.

أما الجانب الآخر من القصص فقد نزل من أجله القرآن، ذلك لأن الآيات القرآنية التى وردت فى هذا اللون إنما جاءت إشارات رامزة إلى قصص وأحداث قد وقعت للمسلمين تحتاج إلى القول الفصل، وتنتظر نزول القرآن الكريم ليبين فيها الحكم والتشريع والعبرة والموعظة.. وكشف حقائق المواقف وأسرارها، وهو من هذه الناحية يعتبر قصصاً إشارياً لموضوعات ذات أحداث ومواقف وقصص.

وهذا الجانب الإشارى فى القصة القرآنية ينقسم قسمين : قسم يتخذ الرمز محوراً للقصة. وهذا يتأتى فى القصص التاريخية التى جاء بها القرآن، أما الجانب

---

(١) سورة العنكبوت آيات ١٤، ١٥.

(٢) سورة العنكبوت آيات ٣٦، ٣٧.

الإشـــارى الآخـــر فيختص بما وراء الآيات من مواقف قصصية حدثت للمسلمين أنفسهم.

وخيـــر نموذج للنوع الأول من القصص الإشارى الرمزى. قصة (البقرة).. الـــتى وردت فى سورة (البقرة) والتى سميت باسمها .. ولا شك أن الإشارة كرمز إلى الـــبقرة يعنى معنى عميقاً تدل عليه تلك الإشارة المتكررة "إن الإشارة هنا إلى محسوس خارجي، ولكنها فى الدلالة تكتسب أهمية فى الحدث لأنها أصبحت بؤرته ومحـــوره. وتصـــبح العلاقـــة ليســـت علاقة تشابهية بقدر ما هى إدراك للمغزى الخفى"[1].

.. وتحكى الآيات القصة فتقول :

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَـــالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَـــالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ • قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ • قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّـــكَ يُـــبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ • قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ • قَـــالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ • وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَالـــلَّهُ مُخْـــرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ • فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

- وهـــذه القصة الرمزية التى تدور حول رمز حيوانى وهو البقرة وردت فى كتب المفسرين على صور عديدة "ولكن هذه الصور كلها تلتقى على أمـــر واحـــد هـــو أن رجلاً غنياً من بنى اسرائيل، لا ولد له، فاستعجل وارثه قتله ليأخذ ماله، وتظاهر بأنه يطالب بدم القتيل أو دية القتيل"[3].

(١) الصورة الأدبية ، د. مصطفى ناصف ، ص ١٤٥ .
(٢) سورة البقرة آيات ٦٧-٧٣.
(٣) القصص الرمزى فى القرآن الكريم. أحمد محمد جمال ص ١٢٥.

ولقـد تـناولت الكتب الدينية جانبين من القصة. كل جانب يغطى موقفاً من القصة بحيث يتبدى لنا المعنى العميق وراء القصة ويكشف لنا السر وراء البقرة.

الأول وهو إحدى الصور التى وردت عن سبب حدوث القصة.

والـثانى موقـف حياتى يكمن وراء تعدد الصور التى وردت للبقرة بحيث تنطبق فى النهاية على بقرة اليتيم.

- كـان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال وله إبنة واحدة، كما أن له ابـن أخ وحيدا، فخطب ابن أخيه إليه ابنته فأبى أن يزوجه إياها لفقره وحاجـته. وغضب الفتى واشتد غضبه حتى أقسم : والله لأقتلن عمى، ولآخذن ماله ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته. واحتال لذلك حيلة. فجاء إلى عمـه – وقـد قدم إلى المدينة تجار ببضائعهم وسلعهم – فقال يا عم. انطـلق معى ، فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أصيب منها خيراً فـإنهم إذا رأوك معى أعطونى. واستجاب العم لابن أخيه فانطلق معه إلى القافلة ليلاً، وفى الطريق اغتاله الفتى، ثم عاد إلى أهله، فلما أصبح جـاء يطـلب عمه كأنه لا يدرى أين هو؟ ولما لم يجده عاد إلى المكان الـذى طرحه فيه قتيلاً فوجد قوماً مجتمعين عليه، وهنا تابع الفتى تنفيذ مكيدتـه فـألقى تهمة قتل عمه على هذه الجماعة المحيطة بجثته، وقال أنـتم قتلتم عمى فأدوا إلىّ ديته، وجعل يبكى وينادى واعماه.. ودفعهم إلى موسـى (عليه السلام) ليقضـى فيهم، فقضى عليهم بالدية. ولكنهم أبوا وقالوا يا رسول الله، إن ديته علينا لهيّنة ولكنا نستحى أن نعيَّر به ونحن أبـرياء.. فـادع لـنا ربـك مَن صاحبه فيؤخذ به. وسأل موسى ربَّه فاستجاب له ونزل جبريل يأمرهم بذبح البقرة(١).

وعـن ابـن عـباس : كان رجل فى بنى اسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمـع الطريق، ويقال على باب رجل منهم. فلما أصبح الناس اختصموا فيه،

(١) القصص الرمزى ص ١٢٥/١٢٦.

وجـــاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : مالكم تختصمون ولا تأتون نبيَّ الله، فجـــاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى. فقال موسى (عليه السلام).. أنشد الله رجـــلاً عـــنده علم من أمر هذا القتيل إلّا أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم منه. فسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربّه عز وجل. فسأل ربه عز وجل فى ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح البقرة..[1].

- أمـــا الجـــانب الثانى الذى يكمل بناء القصة ويكشف عن بعض معانيها المســـتترة فيتمثل فى أنه كان هناك ولد صالح بار بأبيه وكان يملك هذه الـــبقرة الموصـــوفة بصـــفات لا تنطـــبق إلّا عليها، فلما وجدها القوم المتخاصمون عنده، ساوموه عليها بقرة ببقرة ولكنه أبى وظلوا يزايدون حـــتى عرضـــوا عشـــراً ولكنه فى كل مرة يرفض حتى أعطوه وزنها ذهباً.. وقيل وزنها عشر مرات.. فقبل.

(وروى أنـــه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عِجْلة "بقرة" فأتى بها الغيضـــة وقـــال : الـــلهم إنى استودعكها لابنى حتى يكبر، وكان برًّا بوالديـــه، فشبَّت، وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير)[2].

وعـــن رسول الله (ﷺ) : "**لـــو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم**".

قتل الرجل الغنى من بنى إسرائيل، ولم يعرفوا قاتله الحقيقى، فلم يجد القوم مـــلجأ إليهـــم إلّا موســـى (عليه السلام)، فذهـــبوا إليه يتحاكمون ويلتمسون عنده الحل وتوضيح ما خفى عليهم..

ويسأل موسى ربَّه عن الأمر. وينقل إليهم المطلب الإلهى..

.. يا قوم إن الله يأمركم بذبح بقرة.

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٢٨/١٢٩.

(٢) الكشاف جـــ١ ص٧٥.

ولكـــن القوم، وقد أخذوا بظاهر اللفظ دون أن يدركوا مغزاه، بادروا موسى فى استهزاء وسخرية، كعادتهم دائماً مع أنبيائهم ، وقالوا ..

– أتهزأ بنا يا موسى .. وكأنما تسفّه عقولنا !!

ولكن موسى يواجه القوم فى حلم وأناة، صابراً عليهم، فهو أعلم بطبعهم.

ويستعيذ بالله مما قالوه، وتمادوا فيه.

– أعوذ بالله أن أكون مستهزئاً بكم، فما هو طبعى وأنتم تعرفون.

- ويتدارك القوم الموقف ويتأدبون إلى حين مع نبيهم.

– إذن .. ما البقرة التى تريدنا أن نذبحها .. ما صفتها ؟

فالأمر مهم. والبقر كثير..

ويقول موسى فى نبرة تحمل الدعوة إلى الطاعة وتنفيذ الأمر.

– إن البقرة المطلوبة تتصف بأنها وسط بين الكبر والصغر..

فدعوا اللجاج وكثرة السؤال، ونفذوا ما يطلب منكم.

ولكـــن الطبع غالب ، فعاودوا السؤال فى إلحاف، وأدخلوا أنفسهم فى دوامة الاستقصاء.. والاستقصاء شؤم[1].

– يـــا موسى.. فلتبين لنا ما لونها.. أهى من جنس البقر ولونه.. وكأنما لا يـــزالون فى أعماقهم يرفضون هذا النوع من الطلب.. وعقولهم الضالة تصور لهم عـــدم ارتباط الأمر الجلل بالبقرة.. وكأنما يقولون.. فلنمض معه إلى النهاية، فإما نقتنع .. وإما ينتهى الأمر كله.

ويخبرهم موسى باللون قائلاً :

إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تسر بمنظرها من يراها..

– ووقـــع القـــوم فى حيرة ، وازداد عجبهم من الأمر.. فالبقر كثير واللون ينتشـــر وليس محدداً على بقرة بعينها.. إن الأمر يثقل عليهم.. وعادوا إليه بعد أن

---

(١) الكشاف جـــ ١ ، ص ٧٤.

تعبوا من البحث.. وعاودوا السؤال بصيغته الأولى ولكنهم أضافوا اعتذاراً جديداً.. فلعلهم أدركوا مدى اللجاجة التى وقعوا فيها..

- إننا فى حاجة إلى تحديد أكثر . فلا عمر البقرة كافٍ ولا لونها.

ولقد تشابه علينا البقر.. ووقعنا فى حيرة..

.. ولــو أن القــوم تعرضـــوا إلى بقــرة ما فذبحوها كما جاء فى الحديث لأجزأتهم. ولكن طابع التشكك أوقعهم فى دوامة الاستقصاء فشدد الله عليهم.

وموسى (عليه السلام) يدرك ذلك ويتابعهم بعينه، مدركاً هذا الطبع المتشكك وهو وراءهم بتلك الوسيلة الحسية المشهودة ليتعرفوا إلى الحق..

وهــو يعرف أن عقولهم قد ضلت وأنهم عجزوا عما وراء الرمز من سرٍ.. وقال لهم دون أن يغضب أو يضجر.

- إنهــا بقــرة، لــم تســخر لحرث الأرض ولا لسقاية الزرع.. مبرأة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الأصفر الفاقع.. إنها صفراء كلها..

واهــتدى القــوم إلى البقرة بعد بحث وتعب، ووجدوها عند ذلك اليتيم الذى بارك الله فى بقرته فاشتروها منه بمال وافر(١).

وتوجهوا إلى موسى وقد قضوا على الحيرة التى تملكتهم وابتدروه قائلين :

- الآن جــئت بــالحق.. ووضـــحت تمامـــاً ، بل ولقد اهتدينا إليها وانتهى الغموض الذى اكتنف الأمر كله..

ثــم ذبحوها وما كادوا يفعلون.. ذلك لأنهم وهم أمام الأمر الواقع شغلهم - وهــم المــاديون - هذا الذهب الباهظ الثمن لقاء تلك البقرة، والذى ذهب إلى ذلك اليــتيم .. كمــا شغلهم أمر الفضيحة.. فالذبح هو الكشف النهائى للسر الذى خفى وحاولوا أن يدفعوه..

---

(١) قصص القرآن ص ١٣٩.

ويكشف موسى (عليه السلام) سر البقرة فيقول :

- اذكروا أيها القوم من بنى إسرائيل أنكم قتلتم نفساً وتخاصمتم بشأنه ، وتدافعتم، كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره.. ولكن الله يفضح شأنكم ويخرج سركم.. ويقف القوم حائرين خائبى المسعى وموسى يواصل.. حديثه..

هيّا إلى البقرة المذبوحة.. فاضربوا القتيل بشىء منها فيحيا بإذن الله.. ويخبركم عن القاتل..

وأسقط فى يد القوم.. حين رأوا الآية واضحة جلية - حيث نهض القتيل بعد ضربه فسأله موسى من قتلك؟ قال : قتلنى ابن أخى ثم عاد ميتاً كما كان[1].

وهكذا رأى القوم بأعينهم دلائل قدرة الله على البعث والإحياء ليتفكروا ويتدبروا ويعلموا أن الله على كل شىء قدير[2].

وهذه القصة الرمزية القصيرة ذات دلالات متعددة.. فهى تدل على طبيعة بنى إسرائيل.. فقلوبهم منقطعة الصلة إلى الإيمان بالغيب والثقة بالله، وعدم الاستجابة للتكاليف وتلمس الحجج، والسخرية المنبعثة من سلاطة اللسان.

ولقد ضيق بنو إسرائيل على أنفسهم دائرة الاختيار وكانوا من الأمر فى سعة فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة.. مجرد بقرة بل عن بقرة محددة الصفات..

ولقد كشف الحوار هذه الطبيعة، المتشككة، الساخرة، الرافضة، الغليظة القلب..

- كما تدل القصة فى معناها العميق الذى يأتى من وراء الرمز - البقرة - على قدرة الله ، وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة .

(١) قصص الأنبياء ص ١٣٠ ، جـ ٢ .
(٢) صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٦٨.

ويـتلاءم سياق الأداء القرآنى مع هذه النقلة الفكرية – الدينية – حيث تحول الأداء من سرد الحكاية ومواقفها المتناقضة، إلى استخدام الخطاب الذى يتلاءم مع المواجهة والتحدى.. حيث كشف الخطاب عن الحكمة من ذبح البقرة.. وهو المعنى العميـق وراء الرمز الإشارى. حيث أظهر الله الحق على لسان القتيل ذاته. وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه.

(إن البقر يذبح قرباناً كما كانت عادة بنى إسرائيل.. وبضعة من جسد ذبيح تـرد بها الحياة إلى جسد قتيل . وما فى هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء. إنمـا هى مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله. التى لا يعرف البشر كيف تعمـل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها فى العمل. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ (1).

... والقصة بُدئت بداية تثير الشوق .. فثمة مجهول لا نعرفه، وثمة ماديات حوارية تدور حول الظاهر – البقرة ، عمرها ، لونها، حقيقة شكلها.

ولكـن الباطن مغيّب.. ولن تسفر القصة عنه إلا فى سياقه الطبيعى ومكانته الدالـة عليه.. وبين البدء والمنتهى يدور الحوار.. ولكن كما عوّدنا المنهج القرآنى فى السرد، فثمة فجوات كثيرة يستطيع الخيال البشرى أن يملأها بالتصور وهى فى جانب تُصوّر طبيعة النبى الصابر على لجاجة القوم، الحليم على سلوك يتسم بالشك والحذر – وطبيعة بنى إسرائيل الحائرة، الشاكة، المندهشة، الباحثة عن شىء مادى ليحلُوا به شيئاً يكتنزه رمز البقرة..

وفى النهاية تأتى المفاجأة – حاسمة، جلية تكشف عن القاتل، وتحمل العظة والعـبرة عبر الرمز، وعن طريق المشاهدات الحسية، للتأكيد على الغرض الدينى وهو البعث والإحياء..

يقـول الزمخشـرى فى هذا السياق.. سياق ترتيب القصة على هذا المنوال السـياقى. (فـإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها وكان حقها أن يقدّم ذكر

(1) الظلال مجلد / 1 ص 80.

القـتيل والضـرب بـبعض الـبقرة على الأمر بذبحها. وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فـادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه بها. (قلت). كل ما قصّ من قصص بنى إسـرائيل إنمـا قصّ تعديداً لما وُجِد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها. وهاتان قصـتان كـل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين. فـالأولى لـتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال. وما يتبع ذلك. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة. وإنما قدمت قصـة الأمـر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع)(١).

والقصـة ذات موضـوع . وهو قتل إنسان برىء من أجل أن يسلب القاتل مالـه.. (فالقضـية هى الطمع فى مال الغير واستعجال الإرث قبل أن يحين ميقاته بإزهـاق الرُوح وسفك الدماء، وبهذا تكون الجريمة مضاعفة مغلّظة.. والموضوع يحمل عبرة وهى أن الله عزّ وجلّ بالمرصاد لكل ظالم. وهو آخذه مهما حاول من اختفاء واحتيال، وفاضحه على رؤوس الأشهاد)(٢).

ومـن أجـل إبراز ذلك كله جاءت القصة على طريقة المنهج القرآنى. فمن أجل توصيل هذا المعنى وإبرازه.. جاء التشويق ليمسك أنفاس أنظار القوم ويقبض على مشاعرهم الداخلية..

(هـذه الواقعة قتل النفس جرت قبل أمرهم بذبح البقرة وإن وردت فى الذكر بعـده، والسـر فى ذلك : التشويق إلى معرفة السبب فى ذبح البقرة، والتكرير فى الـتقريع والـتوبيخ. قـال العلامة أبو السعود: وإنما غيّر الترتيب والتوبيخ وتثنية الـتقريع فـإن كـل واحـدٍ من قتل النفس المحرمة، والاستهزاء بموسى (عليه السلام) والافتيات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم)(٣).

.. ومـثل هذا النوع من القصص الإشارى الرمزى يتخذ الرمز الحسى أداة فعّالـة فى مجـريات الحدث.. يكمن وراءه الفكرة المجردة.. ذات المعنى العميق

(١) الكشاف جـ ١ ، ص ٧٦.
(٢) القصص الرمزى ص ١٢٧.
(٣) صفوة التفاسير جـ ١ ص٦٩.

المستتر خلف الرمز.. (وهذا التخييل والتجسيم وعمق التصوير يساعد على تشكيل الفكرة المجردة تشكيلاً يتلاءم مع مدركات الإنسان ووجداناته)[1].

فالبقرة تجسيد لموقف قصصيٍّ محدّد استولدت منه أحكام وتشريعات.. والرمز هنا هو البنية الحية فى الحدث كله.. وهى على مستوى التشكيل الفنى أداته الفعّالة. فكلمة البقرة نستطيع أن نقف عندها ونلم بهيكلها العام وصفاتها، ولكن البقرة فى القصة هنا.. ليست هذا الهيكل الخارجى فقط وإنما هى إشارة إلى معنى عميق يكمن خلف اللفظ، ويحمل تشريعاً ويشى بقصة بشرية هامة.. فاللفظ هنا يقطر عالماً كاملاً، يجيش بالعواطف وأنماط السلوك الفاسد الذى يردعه العقاب. ولفظة البقرة فى دلالتها الخارجية ينضح على القصة نمطاً من التعرف الشكلى الظاهرى على نوعية البقرة، ولكن اللفظ ينتهى فى الواقع المادى بمجرد التعرف عليه.. لخلوصه من الشكل واقترابه من المعنى الذى رمز به إليه.. (ففى الحياة العملية تنتهى قيمة الكلمة بمجرد التعرف على الشىء الذى تدل عليه[2]...ولكنها هنا تظل قائمة وفاعلة بما تشعه من دلالات).. ويحمل الرمز كثيراً من المعانى والمشاعر والأحكام وأنماط السلوك.. ومن ثم فهو وسيلة وظيفية فى كل فن عظيم.. ذلك أنه من سمات الأداء القرآنى فى القصة.. اتباع طريقة تصوير المعانى الذهنية والحالات النفسية فى صور حسية.. حتى لتبدو كأنها حاضرة شاخصة. وهذه الطريقة التعبيرية : تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى ومن الحواس بالتخييل ، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء.. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس[3].

وجو القصة مشبع بالخوارق.. التى تتمثل فى إحياء القتيل. وإعادة الحياة بعد الموت تؤلف الركن الأساسى فى بناء الإيمان حيث تربطنا بفكرة البعث والحساب. وبابتعاد الإنسان عن هذه الفكرة الإيمانية تتوحش فيه المسالك..

---

(١) المذاهب الأدبية د. نبيل راغب ص ١١٢.

(٢) المذاهب الأدبية ص ١٠٧.

(٣) التصوير الفنى ص ٢٤٢.

.. ومـــن ثـــم كثر ورود مشاهد البعث، والإحياء بعد الموت لإحداث التأثير الإيمانى، والمسلك التهذيبى فى النفس البشرية.

ولا شـــك أن القصـــة تكشف عن طبع يهودى ورث روح التمرد ، والنفاق. ودأب عـــلى الفتنة والدس. ومن ثم كان الخطاب الذى ينتقل به إلى تعليم المؤمنين طـــبيعة هؤلاء اليهود. وفضحهم أمامهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

- أمـــا الجانب الآخر من القصص الإشارى، فهو الذى يرد فى القرآن فى أماكن كثيرة، مشيراً فى السياق القرآنى إلى الأحداث والوقائع والقضايا والمشـــكلات التى جاء بها القرآن العظيم ليعطى فيها العبرة والموعظة أو الحل، أو يكشف عن أصحابها من براءة أو خيانة، وصدق أو كذب، ووفاء أو غدر[٢].

وتتضـــمن هذه الآيات أيضاً عدداً وفيراً من القصص والحكايات التى كانت وراء هـــذه الآيات، سبباً لها وداعياً إلى نزول القرآن بها .. ويتضمن تلك الإشارة إلى الفعـــل – الحدث – القصة، ثم يعطى الحكم فى النهاية فى اقتضاب أو إطناب حسبما يتأتى السياق القرآنى ويتطلبه.

وهـــذا النوع يندرج تحت ما سمى "بأسباب التنزيل".. وفى هذا المجال فإن القـــرآن الكـــريم يساير الحوادث والوقائع فى حينها وينبه على الأخطاء فى وقتها (فـــإن ذلك أوقع فى النفس وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق الدرس العملى. فكلما جدَّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ أو إنحـــراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغى اجتنابه، ولطلب عمله، ونبهم إلى مواطن الخطأ فى ذلك الوقت والحين[٣].

(١) سورة البقرة آية ٧٥.
(٢) القصص الرمزى ص ٧.
(٣) التبيان فى علوم القرآن . محمد على الصابونى ص ٣٨/٣٩.

.. وقصة "الثلاثة الذين خُلّفوا" تقع فى هذا الجانب الاشارى. ولقد وردت فى أواخـر سورة التوبة. وسورة التوبة ترسم صورة كاملة لحركة المجتمع الإسلامى، فى جهـاده ضـد المشركين وفى سعيه نحو إقامة مجتمع إسلامى منظم.. ولكنها ترصـد الخلل الذى يعترى تلك الحركة الإسلامية التنظيمية، من تعدد فى المستوى الإيمـانى، ومن أعراض السلوك النفسى كالشح بالنفس والمال من أجل الجهاد، أو مـن نفـاق يتـلون بمشـاعر الباطن والظاهر، ومن تردد فى السعى إلى الجهاد ونكوص عن الواجبات والتكاليف.

قال تعالى :

﴿لَقَـدْ تَـابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ • وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

وجـو النص القرآنى يشير إلى الغزوة التى تخلف عنها البعض. تلك الغزوة التى أمر بها رسول الله (ﷺ) للجهاد ضد الروم وهى ما تسمى بغزوة "تبوك". ولقد حـض رسـول الله أهل الغنى على النفقة على إعداد الجيش، ومساعدة المجاهدين الذيـن لا يجدون وسائل الحرب من دواب أو زاد.. وأبرزت تلك الغزوة كثيراً من دواخـل البشـر ومشاعرهم، وكشفت عن طبيعة الانفعالات التى لازمتهم. وبينت الصـادق الإيمان من ضعيفه، والمنافق من الصادق الوعد. والضعيف من القوى ، والمتردد من الساعى إلى الجهاد..

(والعسـرْة حـالهم فى غـزوة تبوك. كانوا فى عُسرْة من الظَّهر (الدواب) يعـتقب العشـرة عـلى بعير واحد. وفى عسرة من الزاد. تزودوا التَّمر المدوّد، والشـعير المسوّس. وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصّها الجماعة

(١) سورة التوبة آية ١١٧-١١٩.

ليشـــربوا عليها الماء. وفى عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفى شدة زمان من حمَّارة القيظ، ومن الجدب والقحط، والضيقة الشديدة)[1].

ويمضى الرسول بجيشه فى هذا الجو القائظ الحرارة، وفى تلك العسرة التى حـــلت بالناس، وتخلف من تخلف ، وأبطأ من أبطأ.. وأبرزت الغزوة نماذج بشرية تتسم بالإقدام، أو التردد.

- عـــن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله (ﷺ) ماشياً، فقال رسول الله لما رأى سواده.

(كـــن أبـــاذر. فقـــال الناس هو ذاك. فقال : رحم الله أباذر، يمشى وحده، ويموت وحده ويبعث وحده).

- وأبـــو خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله أياماً إلى أهله فى يوم حار. فبـــلغ بستانه، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له فى الظل، وبسطت له الحصـــير، وقربت إليه الرّطب والماء البارد، فنظر فقال : ظل ظليل، ورطـــب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله (ﷺ) فى الضَّح (الشـــمس) والريح. ما هذا بخير. فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومـــرّ كالـــريح، فمـــدّ رسول الله طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب. فقال : **كن أبا خيثمة** فكانه. ففرح به رسول الله واستغفر له.
- ومن الذين لم يلحق برسول الله الثلاثة موضوع الآيات القرآنية.. وهم. كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن مرة.

ويحكى كعب بن مالك القصة فيقول :

"لم أتخلفً عن رسول الله (ﷺ) فى غزوة غزاها قطّ، إلّا فى غزوة تبوك .. غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر، ولم يُعاتب أحدٌ تخلَّف عنهُ.

(١) الكشاف جـــ ٢ ص ١٧٥.

.. وكــان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله (ﷺ) فى غزوة تبوك، أنّى لم أكن قط أقوى ، ولا أيسر منى حين تخلفتُ عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبــلها راحلــتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة. ولم يكن رسول الله (ﷺ) يريد غزوة إلّا ورّى[1]. بغيرها حتى كانت تلك الغزوة. فغزاها رسول الله (ﷺ) فى حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً[2]، واستقبل عدداً كثيراً. فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهــبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد. والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتابٌ حافظ (أى ديوان).

قال كعب : فقلّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظنّ ذلك سيخفى به، ما لم ينزل به وحى مــن الله. وغزا رسول الله (ﷺ) تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعُر[3].

فــتجهز رســول الله (ﷺ) والمسلمون معه. وطفقت أغدو لكى أتجهز معه، فأرجع ولم أقض شيئاً. وأقول فى نفسى أنا قادرٌ على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يــتمادى بى حــتى استمر بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله (ﷺ) غادياً والمسلمون معــه. ولم أقض من جهازى شيئاً. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل ذلك يــتمادى بى، حــتى أسرعوا وتفارط[4] الغزو. فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتنى فعــلت. ثــم لم يقدّر ذلك لى، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله (ﷺ)، يحزنــنى أنى لا أرى لى أسوة[5]، إلا رجلاً مغموصاً[6] عليه فى النفاق أو رجــلاً ممّــن عذر الله تعالى من الضعفاء. ولم يذكرنى رسول الله (ﷺ) حتى بلغ تــبوك. فقــال وهو جالس فى القوم بتبوك : **ما فعل كعب بن مالك؟** فقال رجل من

(١) ورّى : أوهم الناس بغيرها .
(٢) مفاز : أرض واسعة لا ماء فيها ولا عمارة .
(٣) أصعر : اختار الجلوس تحت الظلال .
(٤) تفارط : تقدم الجيش .
(٥) مثيل .
(٦) مغموص : مطعون فى دينه .

بـنى سـلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عِطفيه(1). فقال معاذ بن جبل رضـى الله عنه : بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله (ﷺ).

قـال كعـب : فـلما بلغـنى أن رسول الله (ﷺ) قد توجَّه قافلاً من تبوك، حضـرنى بثى(2). فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غداً وأستعين عـلى ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل : إن رسول الله (ﷺ) قد أظلَّ قادماً، راح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشيء أبداً. فأجمعت صدقَة(3).

وأصبح رسول الله (ﷺ) قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعـتين ، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون(4) يعتذرون إليه ويحلفون له. وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً. فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئتُ.

فـلما سلَّمت تبسَّم تبسُّم المغضب. ثم قال : تعال : فجئتُ أمشى حتى جلست بيـن يديـه. فقال لى : **ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد أتبعت ظهرك**(5) قلت : يا رسول الله إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر. لقـد أعطيت جدلاً. ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كاذب ترضى به عـنىّ، ليوشـكن الله يسخطك علىَّ وإن حدثتك حديث صدق تجدُ(6) علىّ فيه. إنى لأرجو فيه عُقبى(7) الله عزّ وجلّ. والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منّى حين تخلفتُ عنك. قال : فقال رسول الله (ﷺ) : **أمـا هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك.**

---

(1) خيلاء .
(2) البث : أشد أنواع الحزن .
(3) أجمعت صدقة : عزمت عليه وهيأت نفسى له.
(4) الذين تخلفوا عن الذهاب إلى تبوك .
(5) الظهر : الراحلة .
(6) تجد : تغضب .
(7) يرجو حسن عاقبة الصدق.

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ...

ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى مَنْ أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بين الربيع العمرى، وهلال بن أمية الواقفىّ.

قـــال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوةٌ، ونهى رسول الله (ﷺ) عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلّف عنه.

قال : فاجتنبنا الناس. حتى تنكرت[1] لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباى فاستكانا، وقعدا فى بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدهم، فكـنت أخـرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله (ﷺ) فأسلِّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة. فأقول فى نفســى هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقُه النظر. فــإذا أقبــلت على صلاتى نظر إلىّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنّى. حتى إذا طال ذلــك علىّ من جفوة المسلمين، مَشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عــمى وأحب الناس إلىّ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ علىّ السلام.. ففاضت عيناى.. وتوليتُ حتى تسورت الجدار..

فبيــنما أنـــا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطىٌ[2] من نبط أهل الشام ممّن قدم بالطعام يبعيه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاءنى، فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه : أما بعــد فإنــه قــد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان أو مضيعة. فــالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء. فتيممت بها التَّنور،

(١) تغيرت .
(٢) فلاّح .

فســجرتها [١]. حــتى إذا مضـــت أربعون من الخمسين، واستلبث [٢] الوحى، إذا رسول يأتيني فقال : إن رسول الله (ﷺ) **يأمرك أن تعتزل امرأتك**، فقلت : أطلقها؟ أم مــاذا أفعل ؟ فقال : **لا بل اعتزلها فلا تقربنّها**. وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك: فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. وجاءت امــرأة هلال بن أميّة رسول الله (ﷺ) فقالت له : يا رسول الله إن هلال بن ربيعة شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكرهُ أن أخدمه ؟ قال: **لا، ولكن لا يقربنك**. فقالت: إنــه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومــه هذا. فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله (ﷺ) في امرأتك فقد أذن لامــرأة هلال أن تخدمه ؟ فقلت لا استأذن فيها رسول الله.. فلبثت بذلك عشر ليــالٍ فكمــل لــنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله تعــالى مــنّا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت علىّ الأرض بما رحبت، سمعت صــوت صــارخ أوتى عــلى سلع [٣] يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر، فخــررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء فرجٌ، فآذن[٤] رسول الله (ﷺ) بتوبة الله عزّ وجــلّ علينــا حين صلى صلاة الفجر. فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي وأوفى على الجبل، فكــان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت لــه ثــوبيّ فكســوتهما إياه ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبســتهما وانطلقت أتأمم[٥] رسول الله (ﷺ)، يتلقاني الناس فوجاً يهنئونني بالتوبة ويقولون لي، لتهنك توبة الله عليك.

---

(١) أشعلتها.

(٢) أبطأ وتأخر.

(٣) أشرف على جبل سلع ، وهو جبل بالمدينة .

(٤) أعلَم .

(٥) أقصد.

حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله (ﷺ) جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عـبيد الله رضـى الله عـنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى. والله ما قام رجل من المهاجرين غيره..

قـال كعـب : فلما سلمت على رسول الله (ﷺ) قال وهو يبرق وجهه من السـرور : **أبشر بخير يوم مرّ عليك مُنذ ولدتك أمك.** فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : **لا : بل من عند الله عزّ وجل.**

وكـان رسول الله (ﷺ) إذا سُرّ، استنار وجهه حتى كأن وجهه القمر، وكنا نعـرف ذلـك عـنه. فـلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتى أن أتخـلع[1]. من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله (ﷺ) : **أمسك**[2] عليك بعض مالك فهو خير لك.

فقـلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله إن الله تعالى إنمـا أنجانى بالصدق، وإن من توبتى ألاّ أحدثَ إلا صدقاً ما بقيت فوالله ما علمت احـداً مـن المسلمين ابلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) أحسن مما ابلانى[3] الله تعالى. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله (ﷺ) إلى يـومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى .. قال : فأنزل الله تعـالى ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْـرَةِ**﴾ حتى بلغ : ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾ حتى بلغ : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾.

قال كعب : والله ما أنعم علىّ من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام، أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله (ﷺ)[4]..

---

(١) أتركه .
(٢) أحبس / أبق .
(٣) المراد : أنعم علىّ وأكرمنى .
(٤) انظر صحيح البخارى المجلد الثانى (كتاب المغازى – باب غزوة تبوك ص ١٣٠ – ١٣٤).

- إن ورود قصة الثلاثة المخلفين في هذا السياق الإشاري القصير، يعطي للنص القرآني الكريم الأداء المميز الذي ترتقي فيه العبرة إلى قصتها، انطلاقاً من جو السورة الذي هو معرض رهيب لصور الجهاد والصراع النفسي المشتجر في الذات. إنها صور لأنماط من البشر أثابهم الله، ثم تاب على البعض منهم بعدما أخذ جزاءه وعرف خطأه.

فلقد عرفنا نمطاً من الناس باعوا الدنيا من أجل الدين، وتحملوا المشاق في سبيل الجهاد ونصرة الحق. مثل أبي ذر الذي حمل متاعه على قلته وسار يدب في الصحراء القائظة حين رأى بطئاً في راحلته، حتى يدرك رسول الله.

كما أرتنا نمطاً من المترددين الذين وقعوا تحت سطوة صراع نفسي رهيب، بين الركون إلى الراحة في ظل البستان ونعيم المرأة وبين حرارة الصحراء ومشقة الجهاد. ولكن الإيمان يعلو على كل شيء، ويحسم الصراع في صالح الإيمان، ولينفضوا عن أنفسهم حلاوة التنعم، وينطلقوا برواحلهم إلى الجهاد واللحاق برسول الله ومن امثال هؤلاء أبو خيثمة.

وترينا آيات السياق الذي نحن بصدده نمطاً آخر من البشر حرموا أنفسهم من مرافقة الرسول، ومشاركتهم في الجهاد، متلذذين بما لديهم من نعيم، ومتعللين بفسحة الوقت. والبحث عن راحلة، حتى غلبتهم الراحة فاستكانوا في ظلها، فحرموا من متعة المرافقة، ومن جزاء الجهاد، وحل بهم ندم نفسي رهيب، وغضب كبير من الله ورسوله ومن المؤمنين.

ولعلنا نلاحظ من السرد القصصي الجميل الذي سرده كعب وهو يحكي عن موقفه.. تلك النبرة الصادقة في الحكي، بحيث رسم لنا صورة واضحة للشخصية المأزومة التي وقعت نتيجة فعل انفعالي سريع تحت أسر صراع رهيب يعتمل في النفس.. ولقد توزعت قصته ناحيتان هامتان: الوصف النفسي لما حل به، من ندم، وأسف وهو يلاحظ العيون كل العيون تلاحقه بالتهمة والتقصير، وكان غضب الرسول عليه ثقيلاً لم يحتمله .. كما أنه عبر بوضوح عن جانب نفسي آخر وهو

"مــراودة" الــنفس له بالجلوس.. والتلذذ بالراحة ، فهو فى عمقه النفسى يتمنى أن يــبقى، ولكنه فى الظاهر السلوكى، يذهب ويجىء بحثاً عن الراحلة متعللاً بفسحة الوقــت وطولـــه، حتى غلبه فى النهاية الصوت العميق المستكين داخله والذى ظل يحركه هنا وهناك، حتى بقى ولم يلحق بالمجاهدين.

ولقــد عكســت الألفــاظ المصـــاحبة تلك المشاعر فى اضطرابها وتداخلها وتناميها..

والــناحية الــثانية : هو الوصف الخارجى الذى جُوبه به من قبل الآخرين حتى بدا يومه ثقيلاً، وليله بطيئاً ، فالتهمة عالقة بكل العيون، حتى من أقرب الناس إليه، وينضاف إلى هذا الهمّ الثقيل الرسالة التى وصلته ، لتزيد من عذابه، ولتمتحن مقدرتـــه عــلى الصمود.. إنها شخصية مأساوية من الدرجة الأولى، تضافر فيها الخـــارج والداخـــل ليرسما لنا هذه الشخصية الفذة فى دائرة الصراع المحكم الذى وقع فيه.

والآيـــات الإشـــارية التى تحمل تلك القصة، لا تذكر شيئاً عن هؤلاء الثلاثة الذيـــن خلفوا، انطلاقاً من المنهج القرآنى.. الذى لا يهتم بالشخص كشخص.. ولا بالمكان كمكان أو الزمان كزمان. كما لم تبين لنا الموضوع الذى كان فيه التخلف، أو الذنب الذى اقترفوه. واستحقوا عليه العقاب ثم التوبة..

فالقضية هنا ليست "قضية أشخاص خطئوا فتابوا، بمقدار ما هى قضية نظام إلـــهى، يســـتهدف مجـــرد الـــردع عن مثل تلك الخطيئة، وفتح أبواب التطهر من آثارها، للذين امتحنوا بنظير ذلك الموقف"(١).

ومـــن ثـــم فإن ملازمة الإيمان وتقوى الله، تعتبران رادعاً داخلياً حياً يظل يشغل صاحبه حتى يهتدى إلى الحق فى النهاية.. تلك التقوى التى تجعل المخطىء لا يـــلجأ إلى الصدق والإقرار بالواقع الذى حدث.. راجياً أن يكون الصدق وسيلة

(١) قصص وعبر ص ١٤٤ .

إلى رضـــى الله وعفوه. إنه الصدق الذى جعل صاحبه يعترف بخطئه أمام الرسول وأمام الأشهاد.. وهو الصدق الذى عامل به الناس هؤلاء حين أمرهم الرسول بنبذ الـثلاثة ومقاطعتهم.. والتزامهم بالأمر كله، بالرغم من أن البعض فيهم كان أقرب الأقـــربين إليهم.. وهو درس أخلاقى ونفسى واجتماعى، فيه عبير الوحى، ورحيق الـتربية المحمديـــة الـــتى قدمت للتاريخ نموذجاً لكمال المسلم.. فى ضعفه وقوته، وعـــلى المســـلمين أن ينـــتفعوا بهذا الإيحاء التربوى العظيم ليسيروا على المنهج الإســـلامى ملـــتزمين بـــه واضـــعينه أمام أعينهم، لتنظيم شئون الدولة والمجتمع الإسلامى.

"وليتـــنا نأخذ بمبدأ المقاطعة الاجتماعية لكل مفسد لمصالح الدنيا، وكل ملحد فى معـــالم الدين، فليس منا.. كما هو منهج المدرسة القرآنية المحمدية.. الغشاشون والمحـــتكرون لأرزاق الـــناس، وشـــاربو المسكرات، والمعتدون على الأعراض والأمـــوال والدماء"(١). وذلك يعنى تواصل الهدف والمغزى ليسرى فى كل أنشطة الحياة الإسلامية.

ولقـــد جـــاء البـــناء التعبيرى على قصره، متساوقاً تساوقاً رائعاً بين اللفظ والمعنى، بين القالب والمحتوى، وهو بعض من مواطن الإعجاز القرآنى فى الأداء الأســـلوبى. (فهـــو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوى الاتصال، آخذ بعضـــه بـــرقاب بعـــض فى سوره وآياته وجمله (٢).. متين النسج والسرد، متآلف الـــبدايات والـــنهايات.. مع خضوعه فىالتأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهى وقائع الزمن وأحداثه.. نزل مفرقاً منجماً، ولكنه تم مترابطاً محكماً)(٣).

فالألفـــاظ الـــتى صاحبت قصة الثلاثة تضىء ساحة المعانى وتكشف عنها، وتوضـــح دخائـــلها ومكـــنوناتها، وتـــبرز فى وضوح خلجات النفس التى حركتها

---

(١) القصص الرمزى ص ١١٢ .
(٢) التبيان فى علوم القرآن ص ٣٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

الأحـــداث فى إيجـــاز محكـــم، وإشارة موجزة ، فيتم التواصل المتنامى بين اللفظ والمعنى.

إن المفــردة القرآنية ترسم صورة الموضوع رسماً واضحاً، بما تحمله من جــرس صـــوتى وبمـــا توحيه من خيال، وبما تثيره من انتباه، وبما تستدعيه من مدلولات حسية. إن كل مفردة تحمل معنى خاصاً بها .. يترقرق مع موجة السياق القــرآنى الـــرائق. فمفردة "التوبة" وردت أكثر من مرة على صغر الآيات وقلتها. فمـــرة جاءت بالفعل الماضى مسبوقة بالتوكيد **(لقد تاب)** لبيان رِضى الله عن الذين تحمـــلوا مشقة الجهاد. إنها لفظة فيها إيحاء التوبة. وهو نوع يستحقه الذين بادروا إلى الجهاد.

وتـــأتى لفظـــة التوبة بالفعل الماضى مسبوقاً بثم الدالة على التراخى لتعطى فســـحة مـــن الـــزمن بين توبتين. الثانية فيها أبطأ الزمن وثقل بطؤه على الثلاثة، فوشـــت بدلالات إيحائية تصل إلى المتلقى لترسم صورة نفسية للثلاثة الذين وقعوا تحـــت وطـــأة الزمن الطويل، واكتووا بمرارته، وحزنوا لبطء الرحمة والعفو. **(ثم تاب)**.

وأردفـــت المفـــردة بأخـــرى **(ليتوبوا)** ليحدث التلاصق بين الفعل الربانى والفعـــل البشـــرى ويختمها القرآن بكلمة **"التواب"** صيغة المبالغة من التوبة، حيث النبع الالهى الذى يجب ألا يغفل المسلم عنه أبداً..

وكذلـــك فـــإن العبارات القرآنية، التى صاحبت السياق القرآنى، كشفت عن الحالـــة العامـــة والخاصة التى كانت سائدة. فى **(ساعة العسرة)** تعبير قوى يشى بالحالـــة العامـــة الـــتى كانت قبل وأثناء غزوة تبوك.. حتى أن الناس – كما يقول الزمخشـــرى وكما ورد فى كتب السيرة – كانوا يقتسمون التمرة الواحدة.. واللفظ يـــوحى بمعـــنى عميـــق وهو أن العسرة كشفت عن أنماط معينة من البشر، ومن الفعل.. فكأنما هى المدخل الحقيقى للأحداث كلها التى حدثت.

وجاءت عبارات ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ـ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ لتكشف الصراع النفسى المشتجر داخل ذوات الثلاثة الذين خلفوا. فالأولى ترسم لنا صورة القلق والتردد والوسواس النفسى الذى شغل البعض.. وهو نوع يتضاد مع عمق الإيمان الذى يجب أن يترسب فى نفس المسلم. والثانية توضح مدى القلق والحيرة الذى أصاب الثلاثة حتى بدت الدنيا على اتساعها فى أعينهم ضيقة وحملت العبارة التضاد بين (الرحب ـ الضيق) ليكشف الأزمة النفسية. فيقول الزمخشرى فى هذا المجال (وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه)[1] وتلتصق العبارة الثالثة بالثانية لتوضح المردود الخارجى على الذات، حيث الضيق الذى صارت إليه نفوسهم، والذى تستشعر منه الجو الخانق الذى شعروا به، والضغط النفسى الذى عانوا منه، والمجاهدة فى سبيل التخلص منه. حيث لا ملجأ إلا الله. فقلوبهم (لا يسعها أنس ولا سرور لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ)[2].

ويصبح الخروج من ذلك كله هو التقوى والصدق، وهما مجمل الفضائل التى يحبها الله.

إن دراسة الإشارات النفسية والدينية فى القصة الإشارية يكشف عن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة، وارتباط الجانب العقيدى بالنفس، لما تتضمنه القصة من إشارات متنوعة، وتجارب دينية مختلفة.. كان الإنسان محورها، ومن دعوات سماوية استفزت مشاعر الداعين والمدعوين، وتولد عنها صراع طويل بين الحق وأهله والباطل وناسه، وكانت عين القصة تسجل وترصد وتؤازر الحق وأهله.

والقرآن الكريم من خلال هذه الإشارات القصصية الرامزة إلى موقف ما، أو حكم ما، يتخذ أسلوباً حكيماً ومعجزاً، من حيث التربية والتعليم، والتغلغل إلى داخل الذات البشرية بتلون مشاعرها، وتضارب أهوائها، وضبط حركة الفعل

---

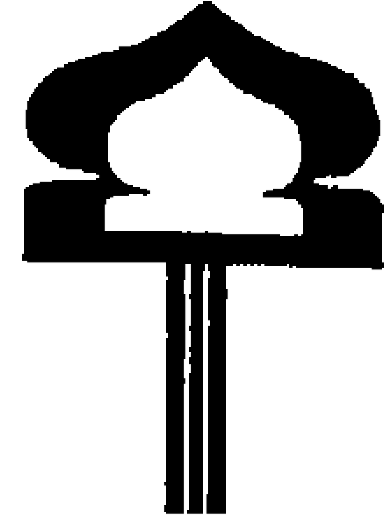
(١) الكشاف جـ ٢ ، ص ١٧٦.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

لديهـــا.. وهـــو مـــا يتنادى به علماء التربية وخبراء التعليم فى المدرسة التربوية الحديثة.

والقـــرآن بتـــلك الإشارات القصصية الرامزة يثير فى الفرد المسلم كوامنه الادراكيـــة العاقلة فيجعله يواجه مشاكله المختلفة، ويتصدى لها فى ضوء ما أبرزه القرآن من قيم وأحكام وتوجيهات..(١).

---

(١) انظـــر مقالاً للمؤلف عن القصة الرمزية فى القرآن جريدة الندوة السعودية فى ١٤٠٧/٦/١٨ هـــ ١٩٨٧/١/١٨م.



الفصل السادس

قصة اليوم الآخر



كانت قضية التوحيد من القضايا الأصولية الأولى فى العقيدة الإسلامية وكانت الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بمثابة اقتلاع للعرب من جذورهم الوثنية. كما كان جوهر الرسالات السماوية الأخرى. والقرآن الكريم يقرر ذلك فى أكثر من آية.

قال تعالى تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١).

ولكن كثيرا من الانحرافات والتحريفات "التى وقعت فى تصورات أتباع الرسل إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات، لم تبق فى الأرض كلها من تصور دينى صحيح إلا التصور الذى جاء به محمد (ﷺ) وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليه يد التحريف، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التى طغت على حياة الناس.. ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين"(٢).

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥.

(٢) خصائص التصوير الإسلامى ص ٢١٤/٢١٥ . سيد قطب.

ولقـد جـاء الإسلام والعالم تخنقه الوثنية، وتئده روح الأساطير والخرافة، ووقع الإنسان متخبطاً فى الظلمات، ما بين فساد وانحلال وظلم وشقاء.

وكـان الإسـلام هـو المخرج إلى الهدى بعد الضلال، واليقين بعد الحيرة، والوحـدة بعـد التعدد. ولقد جاهد (ﷺ) سنين طويلة للدعوة إلى عبادة الله وحده، وتجنب الوثنية القاتلة، التى أحاطت برقاب العرب وضمائرهم، ولم يكن ذلك سهلاً، فـأن تُخرج قوماً من ديانة أو ديانات تعودوا عليها سنين طويلة.. إلى ديانة جديدة، تدعوهم فيها إلى الوحدانية، أمر شاق يحتاج إلى صبر وتحمل وحكمة من الداعى، كمـا يحـتاج إلى إثـارة الفطرة البشرية النقية وإزاحة ما عليها من ركام الوثنية، والتوجه إلى مظاهر القدرة فى الكون والإنسان والحياة..

ولقد تبع ذلك قضية على جانب كبير من الأهمية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية التوحيد. وهى قضية البعث والنشور..

ولقد أنكر العرب هذه القضية إنكاراً تاماً ، ولم يطاوعهم عقلهم على إدراك القضية، وظل السؤال معلقاً فى أذهانهم: مصاغاً صياغة قرآنية معجزة تكشف هذا الجانب الإنكارى. قال تعالى ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ • أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾(١).. وهـذا الاستفهام الإنكارى يعكس لنا طبيعة القوم وصدهم عن الدين. وإنكـارهم للبعث .. متصورين – انطلاقاً من منطق وثنى مادى – أن الحياة حين تنـتهى لـن تعود.. وليس ثمة حياة أخرى.. لا بعث ، ولا قيامة، ولا حساب ولا جزاء.. ويتبع القرآن الكريم هذا الموقف بالآية الحاسمة، الدالة على البعث ووجود اليـوم الآخر.. قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ • لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾(٢).

ولقـد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة عناية أخذت جانباً كبيراً من السور القـرآنية، حيث البعث والحساب والنعيم والعذاب، والرد على إنكار المنكرين، فى

---

(١) سورة الواقعة آيات ٤٧-، ٤٨.

(٢) سورة الواقعة آيات ٤٩، ٥٠.

نسق تعبيرى مصور يحيل الأمر الذهنى إلى مشهد حى متحرك، كما وضع الإطار القصصى كبديل تعبيرى مصور لقضية البعث والإحياء من جديد.. وضرب لذلك أمثلة توضيحية تقرب للناس قضية البعث بعد الموت.. ولقد رأينا ذلك فى قصة البقرة، التى كانت وسيلة حسية بالغة الحسية فى كشف القاتل، حيث ضرب المقتول ببعضها، فهب واقفاً وقد عادت إليه الحياة، لقد أدت البقرة دورها فى إثبات الحياة بعد الموت. وما القيامة، والنشور إلا مثل هذا القتيل الذى ضرب ببعض البقرة فعادت إليه الحياة[1]. قال تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

ولقد وردت مشاهد يوم القيامة والبعث فى ثوب قصصى وصفى يغلب عليه السرد الوصفى، بحيث (يحس المتلقى للنص القصصى بالحركة والحياة تضرب أمامه من خلال الألفاظ والعبارات. وفوق ذلك، نواجه فى العرض القصصى شخصيات نعرفها، أو نعرف شيئاً عنها، تشارك فى أحداث تلك القصص التى هى أحداث اليوم الآخر. ذلك كشخصيات بعض الأنبياء والرسل والملائكة، وهذا عامل مهم فى خلق اليقين بذلك اليوم والاقتناع به)[2].

إن الملاحظ فى عرض كثير من مشاهد يوم القيامة فى إطارها القصصى الوصفى أنها تجسد الواقع المغيَّب والمستقبلى فى نسق تعبيرى مصور، نحس فيه ونحن نقرأ ونتابع المشهد بالصورة والحركة والإيقاع والحياة المتلاطمة.

ولتأكيد معنى البعث ، والقيامة، تكررت المشاهد فى كثير جداً من السور القرآنية وكل مشهد يتنامى ويتناسق مع السياق القرآنى وموضوع السورة. وهذا التكرار يتلاءم تماماً مع منهج القرآن فى عرض الدعوة ، وتأكيد قضية البعث كقضية هامة وأساسية تتبع مباشرة قضية التوحيد.. ولقد جاء التكرار مواكباً لحركة الإنكار أولاً، ولتقييم السلوك وردعه ثانياً. ذلك أن العالم الآخر ومشاهده هو

---

(١) انظر فصل القصة الإشارية.

(٢) القصص فى الحديث النبوى ، ص ٢٩١.

مكــان للعقاب والثواب.. وتلك قضية أساسية فى المنهج القرآنى فى تقويم السلوك وتــربية النفوس. والإسلام حريص على أن تظل هذه القضية حية متحركة، تشغل قــلب المسلم فيحسن القيام بمبادئ الدين والمعاملة، وترسيخ قيمة هامة، وهى قيمة المســئولية، والإحســاس بالمسئولية عن الفعل والقول، ومن ثم فإن جانب الحرية والإرادة البشرية وارد ومطلوب لأنه مناط كرامة الإنسان، وأحد عوامل مساءلته.

وإذا كان هذا التكرار وارداً ومطلوباً لتأكيد القيمة التى ذكرناها، فإن ذلك لا يعــنى التماثل بالرغم من أن الأساس واحد والقضية واحدة. ولا يعنى الإطناب فى قضية عامة ترد باستمرار، ولكنه التكرار المنفرد – إن صح التعبير – فهو تكرار لــلفكرة، لكن السياق ينفرد فى وضعه فى كل سورة عن غيره فى سورة أخرى.. ذلك أن كل (مشهد يختلف عن سابقه فى كلياته أو جزئياته وذلك لون من الاعجاز. شــبيه بالإعجــاز فى خــلق الملاييــن مــن الناس. كلهم ناس، ولكن لكلٍ سحنة وسمة؟)[1].

وتعنى مشاهد القيامة بتصوير الهول فى ذلك اليوم، وهو هول عام شامل لا يفــوت مــنه شــىء، الكــون كله بما فيه ومن فيه. حتى لتبدو كل المفردات حيّة شاخصــة يــدب فيهــا نوع من الحياة. وهذه المفردات التى تكوّن المشهد الحيّ قد تكــون مفــردات طبيعية، كالشمس والنجوم والجبال.. وقد تكون نفوس البشر، فى موقــف الهول، وقد تكون بين هذا وذاك.. ولكنها فى كل الأحوال تعكس فى إطار قصــص وصفى ذلك اليوم بما فيه من هول وخوف وعقاب وثواب ، وجنة ونار، وجحيم..

قــال تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ • خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ • إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا • وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا • فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾[2].

---

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٠.

(٢) سورة الواقعة آيات ١-٦.

والمــراد بالواقعة القيامة، وسميت بذلك لأنها تقع لا محالة. وكل نفس حينئذ مؤمــنة صــادقة مصدقة، وفى هذا اليوم ينخفض أقوام ويرتفع آخرون. وفى هذا اليــوم تــتحول مفــردات الطبيعة وتتبدل حيث تتحرك الأرض حركة شديدة حتى لتــنهدم كل الأشياء فوقها من جبال شامخات لتتحول إلى غبار يتطاير فى الهواء. فــالهول هنا عام وشامل. يشمل السماء والأرض والحيوان والإنسان.. هذا الهول المــادى والمحســوس يــلقى بأثــره النفسى الهائل على الإنسان فى هذا الموقف العصــيب. حيــث تــبرز المشــاعر النفسية المضطربة والخوف الشامل.. وحتى ليــتطارح الناس كالسكارى خوفاً ورعباً، يفر كل منهم من الآخر، الأب، والابن ، والصــاحب. فكل منهم به شاغله الذى يشغله، وخوفه الذى يملأه، ذلك اليوم الذى يجعــل الأم رمــز الحــنان والعطف ذاهلة.. لا تدرى ما حولها، ولا تلق بالاً إلى رضــيعها الصغير.. الكل خائف وجل. قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْــزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ • يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْــلٍ حَمْــلَهَا وَتَــرَى الــنَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١).

وتصــور المشــاهد القرآنية لليوم الآخر بعد البعث والنشور، تصور النعيم والعــذاب. وهــذا الــنعيم، مصــور تصويراً حسّيا فيدركها المتلقى ادراكاً واعياً محسوساً، يكون له النفاذ، والتأثير.

وسورة الواقعة – كغيرها من السور – تعطينا هذا النموذج.. فثمة نعيم وعد بــه المؤمــنون الصــالحون، نعيم الجنة الممتلئة بالسدر والطلح، والظل، والماء، والفاكهــة "وهــو نعيم تتمتع به البطون والأجسام، وتلتذه الجوارح والأبدان. ويدق الــنعيم والعــذاب ويعمقــان، حتى ليغدوا ظلالاً نفسية رقيقة، تنفرد بها النفوس أو تتضح منها على الوجوه فى مثل هذه الصور للنعيم"(٢).

---

(١) سورة الحج آيات ١، ٢.

(٢) مشاهد القيامة ص ٥٣.

قال تعالى:﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ • فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ • وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ • وَظِلٍّ مَمْدُودٍ • وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ • وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ • لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ • وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ • إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً • فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا • عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(١).

وأصحاب اليمين يتنعمون بهذا النعيم كله، كما يتنعمون معه بالنساء.. وكل نعيم تبدل وتحول، إنه ليس كما كان فى الحياة الدنيا، فالنساء مثلاً خلقن خلقاً جديداً... "معنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن فى الجنة خلقاً آخر، فى غاية الحسن بخلاف الدنيا، حيث تصبح كل امرأة بكراً، مهما آتاها زوجها، متحببة لزوجها متوددة، قال مجاهد: العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن، اللواتى يشتهين أزواجهن"(٢). وهن مستويات فى السن مع أزواجهن.. كل ذلك نعيم يستمتع به أصحاب اليمين.

.. أما أصحاب الشمال فطعامهم زقوم وشرابهم حميم ، كلما شربوا منه ازدادوا عطشاً، فهم كالإبل العطاش التى لا تروى لداء يصيبها، إنهم مبتلون بريح حارة وماء مغلى ودخان أسود شديد السواد.

قال تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ • فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ • وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ • لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾(٣).

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ • لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ • فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ • فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ • فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ • هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾(٤).

مشهد مخيف حافل بألوان العذاب المادية والحسية، نحس به ماثلاً فى الموقف، وفى اللفظ، وفى الدلالة، وفى تناسق الجزئيات.. فالضلال يؤدى إلى

---

(١) سورة الواقعة آيات ٢٧-٣٧.
(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ، ص ٣٠٩.
(٣) سورة الواقعة آيات ٤١-٤٤.
(٤) سورة الواقعة آيات ٥١-٥٦.

الكفر والكفر يؤدى بصاحبه إلى النار.. وفى النار يصبح الطعام والشراب متلائمين مع جو الحرارة واللهيب، فى هذا الجو الذى ينزف الجسد فيه عرقاً شديداً يصبح الميل إلى الشراب كثيراً ومستمراً، ليستمر العذاب بشرب الماء الساخن المغلى..

كما أن مشهد أصحاب اليمين يعكس طمأنينة النفس، والتلذذ بالنعيم.. فثمة ألفاظ مادية تعكس نعيم النفس وباطنها الرضىّ، وهى توحى بالظلال النفسية، حين تؤكد على النعيم المادى.. فكأن ألفاظ النعيم المادية تعكس نعيم النفس الباطنية وقد رضى الله عنها.. فأدخلها الجنة، ومتعها بالنعيم. إنها اللذائذ المادية، التى توحى باللذائذ النفسية الداخلية.

والآيات الكريمة تتتابع فى إيقاع موسيقى أخاذ ، يعكس الجرس الصوتى فيه، إيقاع الحركة المادية. ولعلنا نلاحظ حركة المدّ فى أواخر الآيات، التى تستغرق حركة فى الزمن، وكأنما تمدّ المعنى بنوع من الاستمرار والدوام.. كما أنها تعطى تأكيداً للمعنى وكذلك الآيات القصيرة، التى تحمل – فى إيجاز – معانى عظيمة مترعة بالأمل، ومبشرة بالنعيم، ومنذرة أيضاً بالويل والجحيم. وكذلك الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم، لإسناد القدرة إلى الله، وإسناد النعيم والرضى إليه.. ولإثارة كوامن الإنسان الراقية لترتقى إلى هذه المنزلة.

كما أن مشاهد القيامة تتضمن هذا الجدل الذى يشتجر بين المشركين وآلهتهم..

"ومن أطرف مشاهد القيامة. ذلك الجدل العنيف الذى يقوم بين المشركين وآلهتهم أو بين المتبوعين وأتباعهم. وذلك السم اللطيف الذى يدور بين المؤمنين والملائكة، أو بين المؤمنين والمؤمنين"[1] إلى غير ذلك من أنواع الجدل والحوار، وأنواع المشاهد ومقاصدها.

---

(١) مشاهدة القيامة ص ٥٦.

قال تعالى فى الموقف الأول :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ • وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١).

وقال تعالى فى الموقف الثانى :

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ • قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ • فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ • إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾(٢).

.. ولنمض بعد هذا العرض إلى الوقوف فى تأمل أمام مشهد قصصى لليوم الآخر، ورد طويلاً بحيث يبرز فيه الموقف القصصى الوصفى بروزاً واضحاً. ولقد ورد هذا المشهد فى سورة الأعراف.

قال تعالى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ • وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ • قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ • وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ • إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ

(١) سورة البقرة آيات ١٦٦، ١٦٧.

(٢) سوة الطور آيات ٢٥-٢٨.

الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ • لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ • وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ • الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ • وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ • وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ • أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ • وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ • الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(1).

- وسورة الأعراف سورة مكية قررت أصول الدعوة وهو التوحيد. كما قررت البعث والجزاء. وذكرت قصة آدم (عليه السلام) وخروجه من الجنة بوسوسة الشيطان، وهبوطه إلى الأرض ليبدأ الصراع البشرى بين الخير والشر والذى هو مناط الثواب والعقاب فى اليوم الآخر.

والسورة تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها إلى نهايتها فى عرض قصصى مبهر ومن ثم جاءت قصص الأنبياء الذين دعوا أقوامهم إلى التوحيد وعبادة الله بدءاً بنوح (عليه السلام) ومروراً بهود وصالح ولوط وشعيب وموسى حتى محمد

(1) سورة الأعراف الآيات ٣٥-٥١.

(ﷺ).. وهى فى هـذا العرض لتلك الرحلة البشرية فى علاقتها مع الخير والشر، مع التوحيد والكفر، إنما تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلية.

"ومن ثم فإنها تعرضها فى مشاهد ومواقف، وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناسـاً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن، فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة، ويخاطـبهم بمـا فيهـا مـن خبر، مذكراً ومنذراً، ويخوض معهم معركة حقيقية حيّة.."(١).

ومـن أجل توصيل هذه العبر والعظات جاءت النداءات التى وجهها الله إلى بنى آدم..

.. تـلك النداءات المتتالية التى تحمل التأكيد على التوحيد والنبوة والتحذير مـن الشيطان الذى نشأ منذ البدء على عداوتهم وتضليلهم ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

- ولقـد سميت السورة بسورة الأعراف لوجود ذكر اسم الأعراف فيها.. والأعـراف هو السُّور المضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما.. أى بيـن أصحاب الجنة وأصحاب النار "روى ابن جرير عن حذيفة أنه سـئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعـدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم.."(٢).

ومشهد القيامة الذى نحن بصدده يتناول فرقاً ثلاثة، فرقة المؤمنين أصحاب الجـنة، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة ثالثة لم ترد إلاّ فى هذه السورة وهم أصـحاب الأعـراف. والمشهد يوم القيامة على الحقيقة فلم يأت للتمثيل أو لمجرد التخييل.

---

(١) الظلال مجلد / ٣ ص ١٢٤٥.

(٢) صفوة التفاسير جـ ص ٤٣٥.

والموضـــوع فى مشـــاهد القيامة موضوع دينى ذو "دلالات فكرية وخلقية وجماليـــة". وهـــو مـــن أصفى التصورات التى عرفتها البشرية لفكرة الجزاء فى الآخـــرة، حيث تبرز الفكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالاً وثيقاً بحيث تكون هى الامتداد للدنيا بلا فواصل.

فالنفس البشرية تولد فى صورتها الحسية الجسمية على الأرض، ثم تخوض الـــتجربة الكـــبرى، تجربة الحياة، وتتطور فى أثناء هذه التجربة تطورات مختلفة، بعضـــها صاعد وبعضها هابط، وبعضها يتأرجح بين الصعود والهبوط.. حتى إذا نمـــت الـــتجربة الأرضية كان التطور كذلك قد تم وأخذت النفس صورتها النهائية الصاعدة أو الهابطة، وكان الجزاء بصورتيه هو التطور النهائى للحياة، بما يناسب تطور النفس مع سماتها الأخيرة"[1].

.. ويـــبدأ المشهد الحى فى اليوم الآخر – كما ورد فى السورة – بنداء عام موجـــه إلى البشـــر، وكأنمـــا هـــو مدخل يربط أصول الدعوة بممارسات الإنسان وجزائه عليها.

◈ **المدخل :**

جـــاءت دعـــوة الله إلى رسله ليبينوا للناس الأحكام والشرائع، ويدعوهم إلى الـــتوحيد والعمـــل بأحكام الله، وعلى الناس أن يؤدوا دورهم وفق هذا التوجيه فمن أطـــاع الله واتقاه ، وصل إلى رضى الله ، وانتهت به رحلته إلى الأمن من الخوف والرضـــى من المصير. ومن يكابر ويعاند ويستكبر عن الإيمان فهم فى نار جهنم خالدين فيها أبداً.

◈ **الاحتضار :**

وهـــا هـــم المكذبون بالله، الذين افتروا على الله بالباطل أمام مشهد مهول – تقشعر منه الأبدان.. وها هم ملائكة الموت يقدمون فى رهبة ليقبضوا أرواحهم.

---

(١) منهج الفن الإسلامى ص ١٧٤.

.. وهـم فى موقف العاجز، الذى لا يقوى على فعل شيء.. وهم التّاهون فى الدنيـا، المستكبرون على أمر الله.. وتحاورهم الملائكة فى أسلوب ساخر يتسم بالتوبيخ والتبكيت.. يقولون.

- أنـتم الآن فى الـلحظة الحاسـمة، تسلب منكم الحياة، عاجزين عن دفع شـيء، لا تجـدون عاصـماً مـن المـوت.. فأين آلهتكم التى فتنتكم وأضلتكم.. وعبدتموها من دون الله!!

واسـقط فى أيـدى الكفـرة .. بماذا يجيبون ! ماذا يقولون فى هذا الموقف العصـيب! لقـد ضاعوا وانتهى الأمر، وحقت عليهم اللعنة، واستحقوا الطرد من رحمة الله.. وجاء ردهم مبتسراً وشاهداً عليهم. قالوا..

- غابوا عنّا وتاهوا فلا نعرف لهم مقرّاً.

فمـا أضـيع العـباد الذيـن لا تهتدى إليهم آلهتهم ولا تسعفهم فى الموقف العصـيب.. لقـد أقروا واعترفوا فى هذا الموقف المروع بكفرهم وضلالهم.. ولم تخـل مشـاعرهم مـن الندم على ما فات والتحسر على الدنيا التى كان يمكن أن يقطعـوا رحلتها على غير ما فعلوا .. ولكنهم الآن فى انتظار البعث ليلقوا العقاب الشديد.

◈ **البعث :**

وينـتهى مشـهد الاحتضـار ويسـجل الملائكـة عليهم اعترافهم وندمهم واسـتحقاقهم للعذاب، ونستقبل مشهد البعث حيث يوجدون فى النار عقاباً وعذاباً.. وتقـف الآيـات صامتة عن الفترة بين الموت والبعث.. فجوة كبيرة لا ندرى عنها شـيئاً، تأخذنـا الآيات أخذاً متساوقاً إلى النهاية، فلقد كانت البداية حياة ضالة، ولقد كـان موتهـم اعـترافاً بكفرهم فلم يبق إلاّ الجزاء على الفعل.. وجاءت النقلة فى الزمان حيَّة، مصوّرة تكشف عن المصير المؤلم للضالين المستكبرين..

أمـا وقـد اعترفتم بكفركم ، فادخلوا مع أمم أمثالكم ضلوا وفسدوا .. ويأتى النداء : انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس.. وادخلوا فى نار جهنم.

وتـــرد عـــلى النار الأمم الضالة، والنار تلتهم جلودهم وتحصدهم حصداً.. وكلما وردت أمة من الأمم وحاق بها العذاب تصرخ لاعنة الأمة السابقة..

.. فلتدخلوا إذن سابقين ولاحقين فكلكم أولياء وكلكم سواء، فما أتعس نهايتكم وما أفظعها من نهاية.

◈ التلاعن :

وتلاحقـــت الأمـــم من الكفرة بعضها وراء بعض واستقر بهم المقام في نار جهـــنم .. وتواصـــلت أجيال الكفر أمة أمة، الأول بالآخر والقاصي بالداني، واشتد بينهم الخصام والجدل.. وبدأت كل أمة تلعن أختها..

وقفت الأمة الأخيرة، وقد ارتعدت من الهول، متوجهة إلى ربها مبدية ندمها صـــارخة لاعنة قادتها ووثنيتها.. تستمطر عليهم العذاب، وترجو الله أن يضاعف لهـــم العذاب.. ها هم يرجعون إليه في اللحظة الحاسمة بعد أن كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته..

- ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان. ربنا ضاعف لهم العذاب..

ويأتي الأمر واضحاً من قبل الله عز وجل.. يقد رأى موقفهم وتلاعنهم..

- لكم ما طلبتم جميعاً من مضاعفة العذاب الذي تستحقونه.

وتتـــبرى الأمة الأولى، أمة القادة والمتبوعين، لترد على هذا القول الشامت، بقول أكثر شماتة، فيه من السخرية والعناد ما فيه..

- لا فضـــل لكم علينا في تخفيف العذاب، فنحن متساوون في العذاب لأننا متســـاوون في الضـــلال.. فـــنحن كقادة ضللنا وأضللنا، وأنتم كتابعين فلضلالكم وتقليدكم..

إننا نتشفى فيكم فذوقوا العذاب بما أجرمتم.

- **وينتهى هذا الموقف الساخر الأليم، ليتبعه تقرير المصير الذى لا يتبدل .. فـالذين كذبـوا بآيات الله واستكبروا عن الإيمان وطاعته لا يصعد لهـم عمـل صالح**[1] ولا تفتح لهم أبواب الجنة.. إن الأمر مقضى به، ومـن المسـتحيل أن ينعموا بنعيم الجنة.. إنهم كمثل من يحاول إيرار الجمـل مـن ثقب الإبرة [2] ! فهل يقدر ؟ وهل يأملون ! فإلى أن يلج الجمـل فى سـم الخياط فهم فى نار جهنم خالدين فيها.. فراشهم نار، وأغطيتهم نار. وهذا جزاء كل من ظلم وتعدى حدود الله.

◈ **المؤمنون :**

وبُعث الذين آمنوا وصدقوا برسله وعبدوا الله حق عبادته، كل حسب طاقته ومـا فى وسـعه.. وهـؤلاء هـم أصحاب الجنة، جزاء إيمانهم وعبوديتهم. إنهم المسـتحقون لرضـى الله، وما أروعهم وهم يرفلون فى حلل السعادة.. لقد منّ الله عـليهم.. فطهـر قـلوبهم مـن الحِقد والحسد والبغضاء.. وسكنت قلوبهم المحبَّة والتعاطف والود.. وصدق فيهم قول الرسول (ﷺ) **"يدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غلٌ"**.

إنهم ينعمون بجمال الجنة ونعيمها .. فالأنهار المليئة بالماء المصفى تجرى من تحتهم .. يرتوون ويغتسلون، ويمتعون النظر..

وفى هذا النعيم يتوجهون إلى الله سبحانه معترفين بالفضل مبتهلين إلى الله.. قائلين فى خشوع وطمأنينة :

- إنـنا نحمد الله على مننه ونعمه، فلولا هداية الله وتوفيقه لنا ما كنا نعمنا بالجـنة وما تحوى.. ولقد صدقنا رُسُلَ الله فيما أخبروا به عن الله عزّ وجلّ.. وآمنا به. وعبدناه.. فمنّ الله علينا.. وجعلنا من أصحاب الجنة..

(١) قال ابن عباس : لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء : صفوة التفاسير جـ١ ص ٤٤٥.

(٢) يرى سيد قطب رحمه الله أن الجمل هو الحبل الغليظ ، ذلك لأنه يتلاءم مع طريقة التصوير فى القـرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو فى النظر.. ذلك أن المعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير : انظر : "المشاهد" ص ١٠٤.

ويتصاعد من الأرجاء نداء رطب ندى.. نداء الملائكة إلى المؤمنين يزفون إليهم مشاركتهم فى فرحتهم. ويؤكدون أن الجنة التى حصلوا عليها إنما كانت بسبب العمل الصالح فى الدنيا(١)..

◈ التَّنَادى :

وتستمر المشاهد بعضها وراء بعض.. فلقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم واستيقن أصحاب النار من مصيرهم وإذا الأولون ينادون الآخرين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم(٢).

يتوجه أصحاب الجنة إلى أصحاب النار قائلين فى فرح، خاص بهم، وفى سخرية من أصحاب النار.

- لقد وجدنا ما وعدنا به ربنا على ألسنة رسله من النعيم.. وجدناه حقاً وصدقاً.. ترى هل وجدتم ما وعد الله به الكافرين من خزى وعذاب.. هل وجدتم ذلك حقاً وصدقاً؟(٣).

ويجىء الجواب .. مكتسياً بالحزن والألم والندم .. يجىء فى كلمة واحدة.. نعم.

ويقف المنادى بين الفريقين معلناً أن لعنة الله على الظالمين. الذين منعوا الناس فى الدنيا عن اتباع الحق.

◈ أصحاب الأعراف :

وها هو السور العظيم الذى يقف فاصلاً بين الجنة والنار، يقف حاجزاً بين أهل الجنة وأهل النار.. حتى يمنع وصول أصحاب النار إلى الجنة.. ووقف على السور رجال يعرفون أصحاب الجنة بسيماهم، كما يعرفون أصحاب النار بسيماهم.

---

(١) قال القرطبى : ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله.

(٢) الظلال جـ ٣ ص ١٢٩٢.

(٣) وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتة بأهل النار وزيادة فى غمهم – الكشاف جـ٢، ص٦٣.

فـأهل الجـنة بيـض الوجوه، أما الآخرون فسود الوجوه [1].. والمشهد – ساحة العـرض الفسـيحة – مشـهد الأعراف.. واقف كالحاجز وكأنما هو نقطة مرور، ويفـرز عندها أهل الجنة من أهل النار، ويوجه كل إلى مستقره.. يعرفون سمات كلا الفريقين فيستقر كل فريق فى مستقره.. ويشيِّعون كل واحد بما يستحقه..

ويـتوجه هـؤلاء إلى أصحاب الجنة بالترحيب والسلام وإلى أصحاب النار بالتبكيت والإيلام [2].

- أيهـا المؤمـنون أصحاب الجنة .. سلام عليكم .. وأهلاً بكم .. ويتقدم أهل الجنة .. بعد هذا الترحيب .. ويتلفتون لفتة حذرة.. إلى أهل النار، ومـا يقاسـونه من عذاب وألم .. فاستغاثوا بربهم.. أن يبعدهم عن هذا العذاب، وينعم عليهم بنعيم الجنة التى ما كانوا يطمعون فيها لولا رحمة ربهم..

يمضـى المؤمـنون إلى الجـنة فـرحين مستبشرين ، يرحب بهم أصحاب الأعـراف.. على حين يتوجه رجال الأعراف إلى الكافرين الظالمين.. أهل النار.. مبكتين لهم، ساخرين منهم..

- **هـل نفعكم جمع المال .. وكنزه؟! هل نفعكم استكباركم عن الإيمان..** هل آزرتكم آلهتكم التى عبدتم من دون الله ! أم هل أسعفكم قادتكم الذين اتبعتموهم..

انظـروا .. إلى المؤمنين أصحاب الجنة .. أليس هؤلاء المؤمنون الضعفاء الذيـن كنـتم تسخرون منهم فى الدنيا، وتؤكدون أن الله لن يدخلهم الجنة!.. ها هم الآن يدخلون أمام ناظريكم إلى الجنة.. يدخلونها بسلام غير خائفين ولا محزونين.. فلتطب لكم الحياة يا أصحاب الجنة..

---

(١) قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم. وأهل الجنة ببياض وجوههم.

(٢) المشاهد ص ١٠٦.

◈ **الاستغاثة :**

استقر الظالمون في نار جهنم ، وأحسوا بالبلاء الشديد، واشتد بهم العطش من حرارة النار.. وصدر منهم صوت ممتلئ بالرجاء والذلة والاستجداء صوت صادر من أهل النار إلى أهل الجنة..

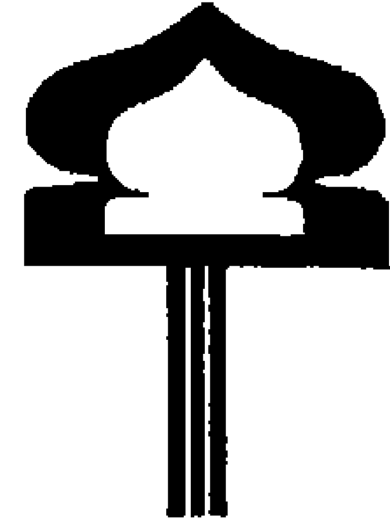
- أفيضوا علينا من الماء.. فلقد بلغ بنا العطش مداه.. واشتد بنا الجوع.. أعطونا من أشربة الجنة ، وتفضلوا علينا بأطعمتكم..
- ويأتيهم الجواب واضحاً وحاسماً..
- إنكم ممنوعون من شراب الجنة وطعامها.. وأنتم تستحقون ذلك.. فلقد هزأتم من دين الله وجعلتموه سخرية ولعباً.. وخدعتكم الزخارف العاجلة والشهوات القاتلة.. وفي هذا اليوم الحاسم أنتم متروكون في العذاب.. لا شفيع ولا نصير .. كما تركتم العمل الصالح في الدنيا حين كفرتم بالله ولم تؤمنوا به..

ويتوالى هذا الموقف الطويل مشهداً وراء مشهد .. يجيء ويذهب .. يختصر الزمان كله منذ البدء إلى المنتهى . الزمان في حركة دائبة.. طوى الزمان كله، وتداعت الأحداث ممتزجة بين الحياة والبعث.. فالاتصال قائم والامتداد بينهما موصول.. وهذا التراوح بين الزمن الماضي – الحياة الدنيا – والزمن الآتي – البعث والحساب .. يكشف لنا في صورة كاملة هذا النمط من الحياة التي عاشها كلٌّ من أصحاب الجنة وأصحاب النار.. إن رجعة الزمن دليل ومبرر على حضور الوقت وآنية الزمن.. والفعل حدث في زمن، والإيمان – العمل الصالح مسلك زمني في إطار مكاني أيضاً. ولكنهما في البعث توحدا، فالزمان دائم مستمر لا رجعة فيه بعد الحساب.. والمكان مستمر ومتوحد ومحدد.

وهذه الرحلة الطويلة في عالم الغيب المشهود رحلة تعكس حركة الحياة كلها.. منذ بدء الخلق إلى البعث والنشور..

ولقد عنى القرآن بمشاهد القيامة. البعث والحساب، والنعيم والعذاب فلم يعد ذلـك العالم الآخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر، موصوفاً فحسب، بل عـاد مصوراً محسوساً، وحيا متحركا، وبارزاً شاخصاً، وعاش المسلمون فى هذا العـالم عيشـة كاملة.. رأوا مشاهده، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جـلودهم تارة، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الاطمئنان أخرى، ولفحهم مـن النار شواظ، ورفّ إليهم من الجنة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعـرفة قبل اليوم الموعود. هذا العالم بسيط كل البساطة، واضح وضوح العقيدة الإسـلامية، موت وبعث، ونعيم وعذاب . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجـنة بما فيها من نعيم، وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله، فلهم النار بما فيها من جحيـم، ولا شـفاعة هناك، ولا فدية من العذاب، ولا اختلال قيد شعرة فى ميزان العدالة الدقيق.. وهذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرض فى صور شتى وترتسم فى عـالم كامل، حافل بالمشاهد، وتتراءى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات، وتؤلـف بذلـك ملاحم فنية رائعة، تتملاها النفس، ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحـس، وتتراءى فيها الظلال، وتضيف إلى الثروة الأدبية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال(١).

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص ٤٢-٤٣.



الفصل السابع

القصة الوعظية



إذا كانت القصة القرآنية تاريخاً لحركة الدعوة الدينية ومسيرتها فى الحياة، وإذا كان عبء هذه الدعوة قد قام به الرسل والأنبياء.. فى مجالات الصراع بين الحق والباطل، فثمة قصص أخرى لم يكن أبطالها أنبياء وإنما كانوا أفراداً عاديين، ولم يكن الغرض الدينى منها هو إثبات التوحيد والدعوة إلى الوحدانية، وإنما الهدف هو إبراز العظة الدينية والدعوة إلى التضحية فى سبيل الله، والدعوة إلى التحمل والجهاد.

هذا النوع نستطيع أن نطلق عليه القصة الوعظية.. بحيث تأتى فى السياق القصص بالقدر الذى يبلغ العظة ويوصلها إلى المتلقين، حتى يتواصل التأثير. وهو القدر الذى يتفق مع الغرض الدينى..

"قال صاحب الشهاب : ويتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم. ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع، ولا تحديد الأزمان، ولا تناول الظروف والملابسات، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص، ولا البحث

الـــتاريخى الاصـــطلاحى والفنى، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة، وتقريـــر قواعـــد هـــذه الهدايـــة فى النفوس بذكر القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين – والقرآن الكريم يصرح بهذا فى وضوح[1].

والقصـــة الوعظية نجدها فى قصص أصحاب الأخدود، وأهل الكهف والذى مـــر عـــلى قرية.. وأصحاب الجنتين .. وهى قصص تتضمن التضحية فى سبيل الإيمـــان، والاستشهاد من أجل اليقين.. كما فى قصتى الأخدود والكهف وهى من هذه الناحية عظة لكل جبار يصد عن دين الله، ويسوم الناس البلاء والعذاب.. ذلك لأن مصـــيره النار والعذاب الشديد، كما أنها فى هذا المجال تعطى النموذج الطيب لمسلمى مكة، حتى يصمدوا أمام جبابرة مكة وظالميها.. وفيها تسرية عن المسلمين الذيـــن يقـــع عليهم ظلم الجاهلين من مكة.. فضلاً عن أن حركة الدعوة تؤكد على سقوط كثير من الشهداء من أجلها.. وكأنما الحركة متصلة..

.. أما قصة الذى مرّ على قرية ، فهى تدل فى وعظية واضحة على التأكيد عـــلى الـــبعث والنشـــور وهو لب دعوة التوحيد وأحد أصوله الكبرى.. لقد سيقت الموعظـــة فى صـــورة قصصـــية مجسمة أوصلت الهدف الدينى فى وسيلة حسّية سردية مؤثرة. أما أصحاب الجنة.. وقد وردت فيما سبق عن القصة المثل .. فهى هـــنا تـــأتى لإبراز العظة والعبرة فى مجال السلوك البشرى الذى يجب أن يتعالى على الغرور والجحود بنعم الله..

- ولنأخذ فى هذا المجال .. قصة أصحاب الأخدود. وقصة الذى مرّ على قرية.. والقصة الأولى وردت فى إشارة موجزة .. فى سورة البروج..

قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ • وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ • وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ • قُـــتِلَ أَصْـــحَابُ الأُخْدُودِ • النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ • إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ • وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ • وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ • الَّذِي لَـــهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ • إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) نظرات فى القرآن . محمد الغزالى ص ١٢٢ دار الكتب الحديثة.

وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١).

والقصة القرآنية – كطبيعتها الفنية – أشارت إلى أصحاب الأخدود.. مجرد إشـارة، دون الاهتمام بالتفصيلات، أو توضيح القصة، وأشخاصها، وملابساتها.. انطلاقاً من أن القصة لا تهدف إلى سرد حكائى فقط وإنما تخترق القصة كلها إلى لـبّها ومغزاها.. وغرضها الديني. ولكن القصة وردت مفصلة فى كتب الصحاح، والتفاسير.. وتنوعت القصص واختلفت ولكن المغزى واحد..

- روى عن النبى (ﷺ) أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ، فلمّا كبر ضمّ إليه غلامـاً ليعلمه السحر. وكان فى طريق الغلام راهبٌ، فسمع منه. فرأى فى طـريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس. فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها. فقتلها. فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص ويشفى من الأدواء. وعمِى جليس للملك فأبرأه. وأبصـره المـلك فسأله فقال: من رد عليك بصرك؟ فلم يجبه فغضب فعذبـه. فدل على الغلام. فعذبه، فدل على الراهب. فلم يرجع الراهب عـن ديـنه. فقدَّ بالمنشار، وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروتـه. فدعـا. فـرجف بـالقوم فطاحوا ونجا. فذهبوا به إلى البحر ليغـرقوه. فدعـا. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا . ونجا. فقال للملك لست بقاتـلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع، وتأخذ سهماً مـن كنانتى وتقول بسم الله ربّ الغلام، ثم ترمينى به فرماه. فوقع فى صـدغه. فوضـع يده عليه ومات . فقال الناس آمنا بربّ الغلام. فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر.

فأمـر بأخـاديد فى أفـواه السكك، وأوقد فيها النيران. فمن لم يرجع منهم طرحه فيها. حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست أن تقع فيها. فقال الصبى : يا أماه اصبرى فإنك على الحق فاقتحمت(١).

---

(١) سورة البروج آيات ١-١١.

- وقيل وفد إلى نجران رجل ممّن كان على دين عيسى (عليه السلام) فدعاهم فأجـابوه. فسار إليهم ذونواس اليهودى بجنوده من حمْير، فخيرهم بين الـنار واليهوديـة. فـأبوا ، فأحرق منهم اثنى عشر ألفاً فى الأخاديد.. وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً.

.. ولا شـك أن ما ورد عن رسول الله قد أوضح لنا القصة وحدّد معالمها وأشخاصها.. وهو ما سكت عنه القرآن..

والقصة موقف من مواقف التضحية والفداء. وهى تحث على الاهتداء بنور الله والالـتزام بمـا أوحى بـه والاعـتقاد بأن الفلاح والنجاة فى التمسك بالعقيدة. والقصـة تتحدث أيضاً عن قضية الالتزام اليقينى بالعقيدة الدينية السمحة. والتمسك بهـا، وإن كلف ذلك التضحية والشهادة.. ولا شك أن تكرار نماذج التضحية يؤدى إلى ترسـيخ العقيدة فى نفوس المسلمين.. فتستقر فى وجداناتهم.. وتلك قضية ذات أهمية بالغة بالنسبة لما كان يواجهه المسلمون من مشكلات إزاء تمسكهم بالدين.

- والقصة وردت فى سورة البروج.. وهى سورة مكية.. تتعرض لحقائق العقيـدة الإسـلامية .. والمحـور الذى تدور عليه السورة هى حادثة "أصـحاب الأخـدود" وهى قصـة التضحية فى سبيل العقيدة.. كما أن القصة كما وردت فى الحديث توضح جانبين هامين : أن الغلام المؤمن الذى تحدى الملك أقدم على التضحية لتعرية الملك وأتباعه. وإقناع من آمـن بقـوة العقيدة. وأيضاً إبراز الشخصية الظالمة المتمثلة فى الملك الطـاغى، وهى شخصـية يسرى الظلم فى دمها، وبها شهوة قوية فى الانتقام ممّن لم يسمعوا كلمته، أو يدينوا بدينه. "ويأتى الموقف المشحون بكل معانى الانتقام لدى الملك، التى فجرتها فى كيانه مواقفه الفاشلة فى صـد هذا التيار المتدفق بالصحوة والإيمان. فإذا به ينتقم من المؤمنين

(١) الكشـاف جـ ٤ ، ص ٢٠٠ ، ووردت مفصلة وطويلة فى كتاب جمع الفوائد. الجامع لكتب السنة المطهرة: جمع محمد بن سليمان الرودانى المغربى جـ٢ ، ص ٣٨١/٣٨٢، وكذلك البخارى.

بخـد الأخاديد فى أفواه السكك، وإضرام النيران فيها، وإلقاء المؤمنين فى أحضان اللهب المتصاعد!"[1].

والسـورة بدئـت بالقسم . والقسم من المؤكدات. والتأكيد هنا لإبراز القدرة الإلهيـة. ولقـد أقسم الله سبحانه بمنازل السماء، وبيوم القيامة وبالأنبياء الشاهدين على أممهم على استحقاق أصحاب الأخدود للطرد واللعن من رحمة الله. ويصحب هـذا التأكيد تشويق. فيثور فى الذهن : ومن أصحاب الأخدود؟ ولماذا استحقوا هذا العذاب؟ لابد أنهم ارتكبوا جرماً خطيراً. وفى التشويق إثارة لحواس الإنسان.

وبـناء الفعـل لـلمجهول يعطى دلالتين : دلالة وقوع العذاب والطرد من الـرحمة . ودلالـة التشـويق وحب الاستطلاع لمعرفة هذا المَجهول.. وهو الذى وضحه رسول الله فى حديثه.

ولقد ورد المشهد مركزاً غاية التركيز، فها هم يحفرون ويوسعون فى الحفر وكلما حفروا، قست قلوبهم وانطوت على غلّ شديد، للمؤمنين الذين سيلقى بهم فى الأخـاديد. وها هى النيران مشتعلة.. والقوم يريدون أن يروا نتائج حسية مشهودة. كى يتـلذذوا بإحـراق المؤمنين، فجلسوا حول النار وتحلقوا حافة الأخاديد ليشهدوا هذا الفعل الشنيع..

ولـك أن تتخيل الفجوة هنا وهى فجوة تصور مشهد المؤمنين وهم مُساقون إلىمصـيرهم وكـلهم ثبات، وكانوا كلما عُرضوا على نار الأخدود استهزأوا بهم لثـباتهم على العقيدة. وفجوة أخرى تصور مشهد الكفرة وهم يطلبون من المؤمنين الـرجوع عـن الدين.. ولك أن تتصور وسائل الترغيب والترهيب بما يتلوها من تلون فى حركة الوجوه وملامحها وذلك لصرفهم عن العقيدة. ولكنهم يفشلون، حيث يستقبل المؤمنون النار كما لو كانوا يستقبلون روضة من رياض الجنة.

إن قصة أصحاب الأخدود علاوة على أنها نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيـدة. فهى أيضاً وعيد للكافرين وتسرية للمؤمنين، وتوضيح أن التحريق البشع هو مصير الطغاة أنفسهم.. على حين ينعم المؤمنون برضى الله وبالفوز بالجنة.

---

(١) القصص القرآنى فى الحديث النبوى ص ١٧٧.

يقـول سـيد قطب : "كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعـة الإيمـان المستعلى على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المـتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحيـاتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قـبل الآخـرة! وكم كانت البشرية كلها تخسر! كم كانوا يخسرون وهو يقتلون هذا المعنى الكبير. معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية. وانحطاطها حين يسـيطر الطغـاة عـلى الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد، إنه معنى كريم جداً ومعـنى كبير جداً هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض، ربحوه وهم يجدون مسّ الـنار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب"[1].

- أمـا القصة الثانية وهى قصة الذى مرّ على مدينة.. فهى تتناول قضية المـوت والإحيـاء.. ولقـد صيغت فى صورة حسية مشخصة يتخللها الحـوار والجـدل لإثبات قدرة الله سبحانه على البعث بعد البلى والفناء كقدرته جلّ وعلا على الخلق من عدم.. وهى فكرة أساسية فى التصور الإسـلامى لقضية التوحيد والبعث.. وهى دليل محسوس عيانى.. على تجسيد القضية تجسيداً واضحاً.

وإذا كانت ملابسات القصة وظروفها، قد حدثت فى زمن بعيد يرجح أنه قبل بعـثة المسيح وفى عصر بختنصر، فإن القصة نفسها تتواصل فى الزمان إلى أن يـبعث الله الموتى من جديد. لأنها تحمل فكرة أصولية وهى فكرة الحياة والموت، والـتى دار حولها صراع طويل بين الرسل والأنبياء وبين الأمم الغابرة واللاحقة، فـهى مـن كمال التوحيد وتمامه.. وإنكارها، كفر وضلال.. وهى من هذه الناحية تدخـل فى بـاب الـتوحيد الخالص، لأن الله سبحانه هو المتفرد فى الخلق، وفى الحياة، وفى البعث، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد..

وقـد وردت القصـة فى سـورة الـبقرة وهى من السور المدنية التى تهتم بالأحكام الإسلامية والتشريع فى مجالات الدين والمعاملات، وهى أيضاً مليئة بقدر

---

(١) الظلال جـ٦ ، ص ٣٨٧٤ .

كـبير مـن الجدل والحوار حول قضايا التوحيد والألوهية.. فضلاً عن المواجهات الـتى حدثت بين المسلمين واليهود. ومن ثم فإن العبرة والعظة فى القصة واضحة جلية "فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية، والطلب والرجاء والخشية والتقوى، كالتـلقى من الله وحده فى التشريع والتوجيه ومنهج الحياة ونظام المعيشة، وقواعد الارتـباطات وميـزان القيم والاعتبارات كلاهما من مقتضيات التوحيد، وكلاهما يصـور المسـاحة الـتى تشملها حقيقة التوحيد فى ضمير المسلم وفى حياته على السواء"(١)!

فقصـة الـذى مـرّ عـلى قرية إذن.. تجسد فى إيجاز حىّ محور التوحيد والعبودية.. وهو تفرد الله بالخلق، وتفرده بالبعث، الأمر الذى يترتب عليه الإيمان الخالص والعمل بأحكام المنهج الربَّانى فكراً وسلوكاً..

ولقد وردت القصة فى الآية الآتية :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَـةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

- وأوردت كتب التفسير كثيراً من الروايات حول الرجل صاحب القصة، وأجمعت على أنه العزير..

وخلاصـة القصـة أن عزيراً كان رجلاً صالحاً من بنى إسرائيل فى عهد بختنصر، خرج ذات يوم على حماره فمر على قرية خربة، فدخلها ومعه سلة تين وعنب، فاعتصر العنب وأخرج خبزاً يابساً فألقاه فى القصعة التى معه ليبتل ليأكله ثـم نظر سقف تلك البيوت الخربة ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها وقد باد أهـلها ورأى عظاماً بالية فقال ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قالها تعجباً، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته مائة عام.

(١) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ٢٢٤.
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩.

فلما أتت عليه مائة عام بعث الله إلى عزير ملَكاً.. فخلق قلبه، وركّب خلقه، فاستوى جالساً فقال له الملك كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم فقال له الملك: بل لبثت مائة عام. فانظر إلى طعامك وشرابك. الخبز اليابس والعصير الذى اعتصره فى القصعة، فإذا هما على حالهما لم يتغيرا ؟ وكذلك التين والعنب غضٌ لم يتغير شيء من حالهما. وانظر إلى حمارك. فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة. فنادى الملَك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية. فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء. ثم ركب الرجل حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس، فانطلق فإذا هو بعجوز عمياء، فأخبرها باسمه فقالت العجوز : إن عزيراً رجل مستجاب الدعوة فادع الله أن يرد علىّ بصرى حتى أراك.. فدعا ربَّه فأبصرت فقالت : أشهد أنك عزير. وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم فكذبوها. فأخبرتهم بما حدث لها، فنهض الناس فأقبلو عليه.

وقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدِّثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال، فاكتبها لنا..

.. وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله، فجدّد لهم التوراة. ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل..

.. وعن ابن عباس : أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات..[(١)].

.. والقصة قد وردت – اعتراضية فى قصة إبراهيم. حيث فصلت بين موقف إبراهيم الجدلى مع الملك الطاغية، عابد الوثن، ودار الحوار حول الموت والحياة، الإماتة والإحياء.. دليلاً على القدرة الإلهية.. وموقف إبراهيم الثانى حين طلب من ربه أن يريه كيف يُحي الموتى؟ وهو تساؤل قريب من تساؤل الرجل الذى مرّ على القرية.. فكأن هذه المواقف الثلاثة.. تتناول موضوعاً واحداً وهو

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٢٦ جـ ٢ وانظر الكشاف جـ١ ص ١٥٦/ ١٥٧/ ١٥٨.

البحث المتطلع إلى سر الحياة والموت. والإحياء والإماتة ظاهرتان مكرورتان فى كــل لحظة، وهما فى نفس الوقت سر يحير الألباب. ولابد من اللجوء إلى الألوهية القــادرة لحــل هذا السرّ الملغز الذى يعجز عن إدراك كنهه كل الأحياء.. ومن ثم جــاء التســاؤل .. ﴿أَنَّــى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وكذلك ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

.. وفى قصــة الرجل الذى مرَّ على القرية.. جاء الحدث موجزاً متلائماً مع طــبيعة القصة القرآنية التى لا تحفل بالتفاصيل.. فلا الآيات أخبرت عن اسمه ولا أخــبرت عــن القــرية التى مرّ عليها، ولا الطريقة التى بعث بها. ولا الهيئة التى ركّــب بها عظام الحمار النخرة.. لقد سكت القرآن عن ذلك كله، لأن التفاصيل لا تضفى جديداً على القضية الأساسية .. وهى قضية الحياة والموت.. الخلق والموت والبعث.. وتمر القصة بمشاهد متتالية.. يأخذ بعضها برقاب بعض.

◈ مشهد البلى :

ركــب الرجل حماره ومعه طعامه وشرابه، ومضى حتى وصل إلى مكان خــرب، وكــان الفناء يمرح فى كل مكان، والبيوت أطلال، لم يبق منها إلاّ قواعد مهدمة.. والخواء يضرب فى كل مكان.. ويسيطر على الحس والنظر والمشاهدة..

◈ التساؤل :

ويمعن الرجل النظر فى هذا الخواء، فالمشهد أمامه مرسوم ومجسّم وحواسه كلها تستقبل هذا المشهد وتندهش له.. وتضطرب مشاعر الرجل، فما أعظم البلى، ومــا أعنف تأثيره عليه.. ودار عقله بعيداً، وقلبه ينبض بمشاعر متسائلة.. وكأنما يعيــش لحظة حاسمة فى حياته.. حواسه كلها مستفزة، وبصره مشدود.. ولا يملك الــرجل فى هذا الجو المرعب المخيف إلاّ أن يتساءل فى تعجب ودهشة كيف تدب الحياة فى هذا الموت من جديد!!

◈ الموت والبعث :

وفجــأة يضــيع السؤال ويتلاشى.. ويضيع المشهد كله من أمامه، فقد مات الــرجل، مــات فجأة، ولم يجد بعد إجابة للسؤال.. مات ولم يجد علاجاً يشفيه من

تساؤله الملح، فالرغبة فى بحث السر كامنة، ولكن الموت خطفه. وظل مقبوراً فى مكانـــه مائـــة عام.. مائة عام كاملة.. تتغير فيها الدنيا من حال إلى حال.. ويبعث الرجل إلى الحياة فجأة كما مات فجأة..

◈ المحاورة :

وجـــد الـــرجل نفســـه حيًّـــا.. مظاهر الحياة تدب فيه وفيما حوله.. المكان والشمس والكون كله وقيل له بعدما أظهر من الحيرة والدهشة :

- كم لبثت على الحالة التى أنت فيها.. ؟

ولأن الـــزمن فى عـــالم المـــوت غير محسوب والإحساس به معدوم، لأن الإحساس بالزمن من طبائع الوعى والحياة، أسرع قائلاً.. فى عفوية :

- لبثت بعض يوم أو يوماً على أكثر تقدير ..

وقيل له .. وقد تبدت آثار واضحة لم يدركها الرجل.

- بل لبثت مائة عام..

مائـــة عام!! ويندهش الرجل دهشة بالغة، ويقع فى حيرة لا نهائية .. كيف؟ .. وكأنمـــا الرجل لم ينظر حوله، ولم يتعرف بعد على المتغيرات التى حدثت فى تجربـــته المـــثيرة.. ولأنها تجربة حسيَّة مشخصة.. برزت الآثار المحسوسة التى تعطى الدليل القاطع على لبثه مائة عام..

فقيل له – فى أمر علوى – أن يستقرئ المشاهدات التى حوله.

- ها هو طعامك الجاف الذى تركته من مائة عام لم يتغير..

وها هو شرابك الذى عصرته لم يصبه العفن أو العطب..

ولكـــن عقـــل الرجل لا يزال مندهشاً.. إذا كان فى تصوره أنه لبث يوماً أو بعـــض يـــوم فإن العطب لن يصيب الطعام أو الشراب.. إن الأمر يحتاج إلى دليل قوى وحاسم .. قبل أن يبدأ فى رحلته إلى ذويه..

◈ **الآية :**

وتجىء الآية ، عظة وعبرة ، ودليلاً حاسماً.. على التساؤل الذى مات به، وبعث به.

فقيل له :

– انظر إلى حمارك الذى تعرت عظامه وتفسخت وبليت وأصبحت كالرميم. ها هى العظام يأتى بعضها إلى البعض الآخر، وانظر كيف تكسى باللحم، وتعود فيها الحياة، وتدب الحركة فى الأعضاء.. فأنت أمام حالين مختلفين.. حالة الطعام والشراب الذى بقى مائة عام ولم يتغير شىء فيها.. وحالى البلى التى أصابت الحمار.. إن كلتا الحالتين آية على قدرة الله، القدرة المطلقة التى لا يعجزها شىء..

ويدرك الرجل بحواسه كلها أطراف المشهد، ويصل إلى الجوهر الحقيقى، ويأتيه الجواب.. جواب السؤال الذى شقى به، فمات مائة عام وبعث ليجد الإجابة.. فى إطار تجربة حسيّة مشاهدة ، لا تحتاج إلى تأويل.. تجربة تخترق القلب والعقل معا..

– إنك يا رجل آية للناس.. وما حدث إنما هو وسيلة مشاهدة لإدراك قدرة الله سبحانه، ولتصبح معجزة ظاهرة تدل على كمال القدرة الإلهية.. ولتصبح موعظة وعبرة لقومك ولغيرك من الأقوام .. على مر السنين والأيام..

وحين أدرك الرجل ذلك كله، ورأى بحواسه ما رأى، أيقن وعلمَ علْم المشاهدة أن الله على كل شىء قدير..

.. وهكذا كانت التجربة الحسيّة المشاهدة والتى سيتبعها مشاهدة أخرى لابراهيم (عليه السلام) وتمضى هذه التجربة، فتضيف إلى رصيد أصحاب الدعوة رصيداً جديداً، وإلى رصيد التصور الإيمانى بعداً صحيحاً. (وتقرر – إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله – حقيقة أخرى هى.. حقيقة طلاقة المشيئة .. التى يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها فى ضمائر المؤمنين به، لتتعلق بالله مباشرة، من وراء الأسباب الظاهرة والمقدمات المنظورة. فالله فعّال لما يريد!!"[1].

(١) الظلال جـ١ ص ٣٠١.

.. ولقـد قـامت الألفـاظ القـرآنية بدلالة إيحاء المعانى الكامنة وراءها.. وتضافرت الألفاظ لتبرز المعنى الجوهرى الكامن وراءها..

فـلفظة "خاويـة" تعنى البلى والفناء.. وهى ضد الامتلاء الذى يعنى الحياة والحـركة وهى جـاءت كمدخـل حسـى للتجربة الحسية المباشرة.. ليتولد عنها الإحسـاس بالدهشة والرهبة معاً.. والذى تحمله لفظة "أنى".. وهى أداة استفهامية تحمـل تساؤل الدهشة، "والاعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء.. واستعظام لقدرة المحيي"(١).. وجاءت لفظة (لم يتسنّه) بالنفى لإثبات دوام الحال دون تغيره.

فضـلاً عـن أنها تحمل دلالة مرور الزمان الطويل.. ذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان.. أما الطعام والشراب فبقى على حالته..

كمـا أن اسـتخدام أداة العطف "ثم" التى تدل على العطف والتراخى، يعطى دلالـة الـزمن فى التجربة، بمعنى أن حركة الخلق قد تمت أمامه فى بطء وتراخ حتى يتأكد تأكد اليقين من مراحل الإحياء وكيفيتها..

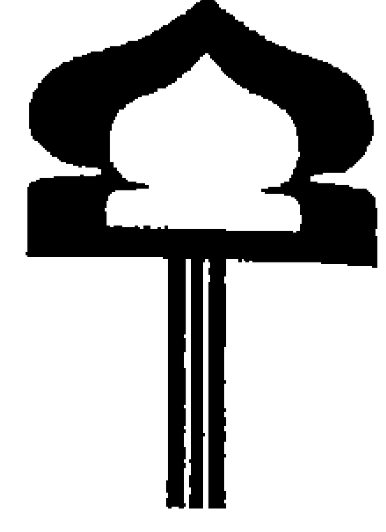
وتكـرار كلمة (انظر) جاء متلائماً تماماً مع التجربة الحسية المشاهدة، ذلك أن الـنظر هـو الحاسـة الوحيدة القادرة على تمثل ورؤية حركة الخلق والإحياء بكمالهـا وتمامهـا.. وهى وسـيلة حسـية إدراكيـة يدرك بها الإنسان المرئيات والمشاهدات.. فالبرهان العقلى قد توارى تماماً فى هذا الموقف وحل محله البرهان التجريبى الذى أداته النظر.

(فالمشـاعر والـتأثرات تكـون أحيانـاً من العمق والعنف بحيث لا تعالج بالـبرهان العقلى، ولا حتى بالمنطق الوجدانى، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يـراه العيان. إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة.. التى يمتلىء بها الحس، ويطمئن بها القلب!(٢).

---

(١) الكشاف ص ٢٥٧ جـ١.

(٢) الظلال جـ١ ، ص ٣٠٠.



الفصل الثامن

التنوع القصصى



وردت القصة فى القرآن الكريم لتدل على حقيقة الدين، وإبراز الغرض الدينى.. وتحديد الوسيلة لتحقيق رضى الله.. والإقرار بالعبودية المطلقة، وهى فى هذا الجانب أداة فنية موصولة منذ بدأ الرسل يدعون إلى التوحيد ويبلغون أممهم بوحى الله.. ورسالته.. كما أنهاتدل على طبائع البشر المتصادمة ووسائل علاجها، وإبراز سنن الله فى العقاب والثواب.. ومن ثم تصبح القصة كما قلنا سابقاً من أنجح الوسائل التعبيرية فى تهذيب النفوس وتأديبها، وصقل القلوب ورياضتها على الصلاح، وتقويم السلوك وتعديله، ورسم السياسة العامة الصالحة للجماعة المؤمنة.. وتشخيص الحقيقة المجردة بحيث تكون أكثر تأثيراً وفاعلية، مما يجعل العبرة والعظة تنساب طيعة إلى القلوب.

فالقصة فى القرآن (ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن فى القصة الفنية الحـرة التى ترمى إلى أداء غرض فنى طليق - إنما هىوسيلة مـن

وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها)(1).

ومن ثم فقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها لمقتضى الأغراض الدينية. الأمر الذي لمسناه في عرضنا السابق لأنواع القصة في القرآن - فبالرغم من انطلاق القصة من هدف ديني محدد وهو إقرار التوحيد والعبودية لله، الأمر الذي يصبح به هذا الغرض محوراً موضوعياً للقصة جميعها.. إلا أن التنوع واضح في إيراد القصص .. إنه تنوع على لحن واحد إن صح التعبير. فوجدنا القصة التمثيلية تضرب في مجالات الإنكار والجحود وغرور النفس، وبُعد المسلك البشري عن الحق الذي أمر به الله كما لمسنا في القصة التاريخية الصراع الأبدي بين الحق والباطل. وموقف الأمم الغابرة من الرسل والأنبياء.. والعقاب الذي حل بهذه الأمم من خسف وزلزال ورياح.. مما يدل على وحدة الرسالة، ووحدة الوسيلة، ووحدة الفعل منذ آدم وحتى محمد (ﷺ). كما ساهمت القصة التعليمية بما تضمنته من وسائل العرض والتربية في خلق قيم دينية سليمة، وإبراز المسلك القويم في السلوك البشري، وإدانة الأفعال التي تتنكر للحق وتجحد بالرب.. كما أبرزت القصة النفسية حقيقة المشاعر الإنسانية.. التي تتراوح بين الغلظة والشفافية والعفة والابتزاز، والمحبة والحقد، وكانت في كل هذه المشاعر.. ترصد النفس في لحظة سموها، وسفلها.. دون خروج على الإطار النظيف الذي التزمت به القصة.. ولم تخل القصة القرآنية من الإشارات الرمزية التي وردت عبر أدوات غير عاقلة كالبقرة أو الهدهد.. أو عبر حوادث مختزلة تشير إلى أسباب النزول القرآني.. لتكشف من وراء هذا الرمز الإشاري عن معاني عميقة، كامنة تحت هذا الرمز الإشاري .. مَعَانٍ تحفل بالحياة، والحركة والتنوع والصراع، وكشف طبائع الناس. فضلاً عن القصص الوعظية البحتة، التي تكشف معدن المؤمنين الصالحين الذين يضحون بأنفسهم من أجل العقيدة، هروباً من الوثنية والظلم.. أو إثبات حقائق التوحيد الكلية من بعث ونشور، دليلاً على قدرة الله وعظمته، ولم تنس القصة القرآنية أن تنتقل إلى عالم الغيب، فتتحدث عن

---

(1) التصوير الفني ص ١٤٣.

مشـــاهد القيامة، فى صور حسية مشخصة بحيث يتضح لنا فى موقف البعث أنماط البشـــر المؤمنين الذى رضى الله عنهم فدخلوا الجنة، أو الكافرين الذين غضب الله عليهم فعاقبهم بالنار.. أو هؤلاء الذين يقفون على الأعراف انتظاراً لرحمة الله..

... وإذا كـــانت هـــذه هى أنـــواع القصـــة القرآنية على قدر ما أسعفتنا به الدراســـة.. فإن هناك تنوعاً قصصياً آخر.. يضاف إلى ما سبق ليعطى لنا صورة كاملة للتنوع القصصى فى القرآن الكريم.

- وأول هـــذا التـــنوع القصصى .. يرتبط ارتباطاً بالشخصية المِحْور فى القصة .. بحيث نستطيع أن نضعها فى أطر ثلاثة..
- الإطـــار الأول : هو القصة التى تتناول الأنبياء والرسل.. وجهادهم فى الدعوة إلى التوحيد، وما كانوا يلقونه فى سبيلها من شر وأذى ومكابرة وعناد، وإعراض وجحود، وكيف صبر أولوا العزم من الرسل على ما كذِّبوا به حتى جاءهم نصر الله عزيزاً مؤزراً .. وتبع ذلك .. أن ورود مثل هذه القصص اختلف طولاً وقصراً.. وتكراراً.. ولعل قصة موسى دليـــل واضح على هذه الشخصية الفاعلة القوية فى مواجهة حشد هائل من الصراع المأساوى..
- وتتـــنوع قصص القرآن مرة ثانية، حين تتناول جماعة من البشر. وهى عـــلى قلتها.. نموذج حىّ للتعبير القرآنى فى مواجهة النفس البشرية.. لحظـــة الفعل الحاسم فى مجريات الدين والحياة. وهى تكشف – بطبيعة الحـــال – الجـــو الدينى الذى يغلف القصة ويحرك الأشخاص .. مع أو ضدّ الدين.. ولعل قصص أهل الكهف، وأصحاب الأخدود . وأصحاب الجـــنة.. مـــثال واضح على ذلك.. فجماعة البشر تتحرك فى إطارها الدينى الخاص.. ولكنهم يتحركون على مسرح حىٍّ.. مجسم يعكس كل نأمة فى النفس وكل رد فعل فى السلوك، وكل توجه فى الدين..

وتتـــنوع مرة ثالثة فتتناول الأشخاص مفردين .. كقصة قارون.. الذى كان مـــن قـــوم موســـى فطـــغى وتكـــبر بما أوتى من مال وكنوز.. وكان إذا نصحه

الناصــحون أن يــتذكر الله.. ونعمه عليه، وأن يتذكر اليوم الآخر، فيجعل للفقراء نصــيباً مــن ماله.. يأبى الإصغاء ويتمادى فى سلوكه الجاحد .. فلحقه عذاب الله، فخسف به وبداره الأرض..

- والملاحــظ عــلى النوعين الأخيرين من القصص أن القرآن الكريم لا يكــررهما مثــلما يحــدث فى قصص الأنبياء والرسل. فلم ترد إلا فى موضع واحد وفى سورة واحدة بعكس قصص الأنبياء التى تتوزع على ســور القرآن توزعاً واضحاً ومكرراً.. وربما كانت قصة يوسف هى الاســتثناء الوحيــد فى هذا المجال.. فلقد وردت كاملة فى السورة التى ســميت باسمه. وهذا التوزع الذى انفردت به قصص الأنبياء مع أممهم الغابــرة تحــتفظ دائماً بجوهر الأحداث ووحدة الموضوع مع تنوع فى الأداء التعــبيرى واخــتيارات المواقف ليتلاءم مع النسق القرآنى الذى وردت فيه.

وقــد تتــنوع القصــة بين الطول والقصر، والإجمال والتفصيل (ولكل من الإجمال والتفصيل هنا عمل يراد . ففى الإجمال ضرب من الإيهام يبعث القلق فى النفس المكذِّبة، ويحملها على التظنن وإعمال الخيال والذهاب معه مذاهب شتى فى تصــور الواقع الموعود، وفى التفصيل مكاشفة صريحة لا تدع لامرىء أثارةً من تعلل أو انخداع)[1].

وللقصــة فى جميــع مجالاتها بسطاً وإيجازاً، غاية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وهى بســط العقيدة وتقريبها إلى أذهان الناس ووجداناتهم.. وتوصيلها هذه المفاهيم للمســلمين الذيــن يقفــون مع الرسول فى صراعه ضد الجهل والجهالة العمياء – والعناصــر التى تتضمنها القصة القرآنية فى جميع أحوالها لا تتغير، فكل ما يخدم القصــة ويبرز جوهرها، وارد فى القصة، لا حذف ولا انتقاص.. وكل ما يخرج عــن الجوهــر فى القصــة أو يعطل تأثيرها أو ينتقص منه أو يحركه من مجاله ونسقه بحيث يغطى عليه موقف آخر.. لا نجده فى القصة القرآنية "وسواءٌ كان هذا

---

(١) مع القرآن الكريم – دراسة مستلهمة ص ٣٦.

النبأ طويلاً متعدد الحلقات، يمتد لزمن غير قصير، وتتداخل فى تطوراته شخصيات كثيرة، كقصة يوسف (عليه السلام) التى استأثرت بسورة كاملة، أو كان من آيتين أو ثلاث أو عشر كالأنبياء والأحاديث العديدة التى انتشرت فى قصص القرآن.."(١).

- ولعل الإيجاز هو السمة المميزة لما نزل من القصص القرآنى فى بداية الدعوة ذلك أن الله سبحانه جعل لأهل مكة قصصاً مميزة تتلاءم مع البيئة. فالبيئة وثنية، والقوم يعبدون الأصنام، وطال عهدهم بها ومصاحبتهم لها . أجيالاً وراء أجيال. حتى انطبعت قلوبهم بها وتشربت نفوسهم بطقوسها.. فقست القلوب وتحجرت المشاعر.. وأصبح اقتلاعهم من جذورهم يحتاج مجاهدة كبيرة. وصبراً طويلاً. وامتازت هذه القصص بالحدث الموجز، واللفظ الموقَّع، والرنين الصوتى، والتنقل السريع حتى يحدث تأثيره فى النفوس. بما تتضمنه من زجر ووعيد وإثارة. ذلك أن الغرض الدينى الكبير هو تحذير مشركى مكة من العناد والضلال والإصرار على الباطل، فجاء تخويفهم عبر سرد أحداث ما سبقهم من الأمم الضالة. تلك الأمم البائدة التى خالفت أمر الله وكذبت رسله فحق عليها العذاب والبلاء.. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ • وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ • وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ • الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ • فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ • فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ • إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (٢).

وسورة الفجر مكية، ولقد ذكرت الآيات قصص بعض الأمم الغابرة كقوم عاد وثمود وقوم فرعون.. وبينت ما حل بهم من عذاب. ولقد تتابعت القصص بعضها وراء بعض فى سرد موجز ولكنه يحمل المعنى المراد.. والتأثير المطلوب حيث تقبض على الأنفاس، وتقطع

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٧٦/ ١٧٧.
(٢) سورة الفجر آيات ٦ – ١٤.

علــى الضــالين والكفــرة الجدل واللجاج وتخترقهم مباشرة فى جوهر الوثنية الضالة، وترصد العقاب الإلهى بهم.

إن هــذه الآيــات القصـــار قد جمعت مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم..

ولا شك أن التصريف البيانى أعطى دلالات جمالية للنص القصصى السريع التــنقل.. حيــث بدئــت الآيات بالاستفهام المنفى.. المتبوع بالاستفهام عن الكيفية والهيئة.. مما يثير الانتباه، ويلفت الأذهان، ويثير الشوق إلى التوقع والتلقى..

كمــا توســطت الرؤية بين الاستفهامين لتعطى دلالتين فى المعنى.. الدلالة الأولى هى الــرؤية الاسترجاعية عبر السرد الذى يقص قصصاً مجسدة ومشخصة كأنمــا تتحرك على مسرح الساحة.. أمام الذهن.. والرؤية المشاهدة المستقبلية التى تــرى رأى العيان مصارع كفار قريش فيما بعد.. ومن ثم تلاءم التركيب الإضافى مــع هــذا المعــنى فــــ (ربــك) فيها دلالة الطمأنينة والأنس والراحة والإيناس والمــؤازرة. فعــاد تلك القبيلة البدوية المتصفة بالقوة والبطش، والتى تميزت عن غيرها من البلاد وثمود القوية المتجبرة التى جعلت من الجبال والصخور قصوراً، وفــرعون موســى المتجــبر الطاغية الجبار، الذى تمكن من البلاد وسامها الذل والعــذاب.. هؤلاء جميعاً أفسدوا وطغوا، فطهّر الله البلاد منهم ومن فسادهم حين صــبّ الله عــليهم ألوانــاً من العذاب.. لتفيض الطمأنينة فى قلوب المؤمنين وهم يواجهون الطغيان والضلال.

- إنــنا نــرى فى هذه الآيات السردية نماذج من قدر الله فى أمر الدعوة. (وقــد كــان القــرآن – ولا يزال – يربى المؤمنين بهذا النموذج.. أو ذاك.. وفق الحالات والملابسات، ويعدّ نفوس المؤمنين لهذا وذاك على الســواء لتطمئن على الحالين – وتتوقع الأمرين. وتكل كل شىء لقدر الله يجريه كما يشاء)[1].

---

(١) الظلال جــ٦ ص ٣٩٠٤.

.. وحيــن تطــورت الدعوة واشتجر الصراع قوةً وعنفاً.. ودخل الناس فى ديــن الله، وانتقــلت الدعوة إلى مكان آخر بعد الهجرة.. أبرزت القصص القرآنية مجــالات الصراع كاملة بين الرسل والأنبياء وبين أممهم.. وبرز الحوار واضحاً جلياً، والقصة تُسرد فى تمهل وأناة، وتصوِّر الصراع، وتتضمن الجدل، وتعبر من الشخصــية، وتميل إلى البسط والتفصيل، وتدعو إلى التأمل والتفكير.. وبرز على الســاحة أهــل الكتاب.. وهم قوم جاءتهم الرسالات السماوية السابقة.. من يهودية ومســيحية – وقــد كــانت عــندهم البشــارة برسول الله (ﷺ).. إلا أنهم عاندوا واستكبروا، ونال المسلمين منهم أذى كبيرٌ.

وتــنوعت القصص فى هذا الطور بين حديث عن ماضى أهل الكتاب، وبين حديث عن حاضر المسلمين فى جهادهم ضد المشركين واليهود معاً – ولقد كثرت القصــص الــتى تناولت فضل الله على بنى إسرائيل، إذ نجاهم من بطش فرعون وجــبروته، وتولاهــم بكثير من النعم، بالرغم من عصيانهم وعنتهم وإلحاحهم فى الشطط والمساءلة..

.. إن تفصيل القصة القرآنية وتنوعها فى الحدث والشخصية والحوار والجو العــام.. جاء موافقاً لمقتضيات الدعوة وتطورها... فحين اشتد الصراع بين الحق والــباطل وهاجر المسلمون إلى الحبشة هروباً من الأذى وألوان العذاب الشديد – كــان الصــبر على الأذى وتحمل العناد، مطلباً ضرورياً فى هذه المرحلة.. ولذلك نــرى القصــة القــرآنية تعرض النموذج المفصل عن ثبات موسى وصبره أمام فرعون وقومه..

قــال تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ • قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَــتَّقُونَ • قَــالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون • وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ • وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونَ • قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُــمْ مُسْتَمِعُونَ • فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْــرَائِيلَ • قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ • وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ • قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ • فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا

خفـتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ • وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ • قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ • قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ • قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ • قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِـينَ•قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ•قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ •قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ.. "إلى قوله تعالى".. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ•ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ•إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

.. وهـا نحـن نـرى كيف تحولت الإشارة القصصية فى سورة الفجر إلى موقـف قصصـى كـامل حافل بالأحداث، والحوار، والجدل العميق، والتنقل فى الزمان والمكان..

وهـذا الـنص القصصـى الباهر ما هو إلا حلقة قصصية من حلقات قصة موسـى مع بنى إسرائيل.. والنص الذى أمامنا يمثل مواقف متعددة يرتبط بعضها بالبعض الآخر.. دون لجوء إلى تفصيلات تعترض السياق السردى وتخل بوحدته. فالحلقة هنا هى حلقة الرسالة والتكذيب، وما كان من غرق فرعون وملئه عقاباً لهم على كفرهم، ونجاة موسى ومن معه من المؤمنين من بنى إسرائيل.

ولا شك أن ورود هذا النص القصصى وغيره فى سورة الشعراء، إنما جاء مـتلائماً مع موضوع السورة.. حيث عالجت السورة موضوع الرسالة بما يتضمنه من أصول التكذيب والمعاندة التى اتسم بها كفار مكة.. وتحدثت عن القرآن الكريم الـذى أنـزلـه الله هداية للخلق، وذكرت موقف المشركين منه (فقد كذبوا به مع وضـوح آياتـه وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً!)(٢).. وإذا كان بدءُ السورة تمثَّل فى الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشـركين مـنه ومـن صاحب الدعوة، مروراً بذكر قصص الأنبياء فى مواقف الرسـالة والتكذيب والمؤازرة ووقوع العذاب على المشركين فلقد (ختمت السورة

---

(١) انظر سورة الشعراء آية ١٠-٦٨.

(٢) صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٢٧٣.

بالــرد عــلى افتراء المشركين، فى زعمهم أن القرآن من تنزيل الشياطين ليتناسق البدء مع الختام فى أروع تناسق والتئام)[١]...

قــال تعــالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ • بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٢].

ولقد وردت قصة موسى فى كثير من السور القرآنية وفى كل مرة ترد فيه حلقة من حلقات القصة الطويلة (.. وكانت الحلقات التى تعرض فيها أو الإشارات متناســقة مــع موضوع السورة، أو السياق الذى تعرض فيه.. وكانت تشارك فى تصوير الموضوع الذى يهدف إليه السياق..)[٣].

والحــلقة القصصــية المعروضة تغرى بالتحليل والتفصيل ولكننا هنا نشير مجرد إشارة إلى المواقف المتتابعة فى هذه الحلقة..

فالموقف الأول يمثل النداء وتلقى الرسالة، ومناجاة قلبية بين موسى وربه.

والموقــف الــثانى يتمثل فى مواجهة موسى لفرعون وملئه ومعه تلك الآية الخارقة آية العصا.

والموقف الثالث يتمثل فى تجمع السحرة فى موقف عصيب، احتشد له القوم ومظنة التآمر كامنة فيه من قبل فرعون وسحرته.

والموقــف الــرابع : مشــهد المــباراة، وهــو مشهد حىّ حافل بالمشاعر والانفعالات وفيه يعلن السحرة إيمانهم على حين يواجههم فرعون بالوعيد.

والموقــف الخامس : مسرى موسى بأهله فى الليل البهيم هروباً من فرعون ونقمته. وحشد فرعون لجنوده لملاحقة بنى إسرائيل قبل أن يفلتوا منه.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٣.
(٢) سورة الشعراء آية ١٩٢-١٩٥.
(٣) الظلال جـ ٥ ص ٢٥٨٨.

والموقــف الســادس : يتمثل فى المواجهة أمام البحر حيث ينفلق البحر عن كتلتيــنن هائلتيــنن، يســير بينهما موسى وقومه، ثم ينطبق الموج فيغرق فرعون وملؤه.

- ولقــد تــتابعت المواقف بعضها وراء بعض فى حيوية أخاذة. منذ تلقى الوحى بالرسالة ومواجهة فرعون ثم النهاية الحاسمة..

تفصيل مطول حافل بالمواقف الحيوية..

ومــع ذلــك فإن أهل الكتاب من بنى إسرائيل ظلوا يكيدون للرسول (ﷺ) ويأتمــرون على دينه.. بالرغم من النعم الجزيلة التى أنعم الله بها عليهم، وبالرغم مــن الإشــارات الــتى وردت فى كتبهم عن النبى وبعثه.. فجاء القرآن ليدين هذا المسلك فى الشخصية، ويبين أنهم قوم يتصفون باللجاجة والشطط والخبث ونكران الفضــل، والمغالاة فى تتبع الأمور وتأويلها على غير مرادها – ولعل ما ورد فى قصة البقرة لدليل كافٍ على هذا المعنى(١).

- كمــا تــنوعت أيضاً القصة القرآنية فى المدينة.. فتحدثت عن حاضر المسلمين وغزواتهم.. ولقد حظيت غزوة الأحزاب باسهاب وتفصيل لما تضمنته من كيد ومؤامرة. وما لابسها من ابتلاء ومحنة.. حيث تجمعت فرق المشركين يظاهرهم حلفاء من اليهود.. لكن الله كان لهم بالمرصاد حيــث أرســل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، قذفت الرعب فى القلوب، فانقلب الميزان ورجع المشركون بالهزيمة والخسران.

ولقى حلفاء الغدر والخيانة من اليهود جزاءهم الذى يستحقونه.

وســجلت القصــة القــرآنية هــذا الموقــف الملحمى الهــائل فى سورة الأحــزاب..(٢). وأدانــت موقف اليهود إدانة واضحة ، وحق عليهم العذاب فأنزلوا مــن حصــونهم وقلاعهــم وألــقى الله الرعب فى قلوبهم بنقضهم عهدهم للرسول

---

(١) انظر فصل القصة الإشارية.
(٢) سورة الأحزاب آية ٩ -٢٧.

وتآمـــرهم ضـــده، فقـــتل رجـــالهم من المقاتلين، وسبيت نساؤهم وذريتهم وورث المسلمون أرضهم ومتاعهم.

قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِـــي قُـــلُوبِهِمُ الـــرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا • وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

ولقد نتج عن الإجمال والتفصيل الذى ذكرناه سابقاً أن تنوعت أشكال القصة القـــرآنية تنوعاً يتراوح بين الطول والقصر.. فنتج عن ذلك تنوع واضح فى شكل القصـــة القـــرآنية.. فوجدنا القصة الملحمية الطويلة الزاخرة بالأحداث والصراع، والجـــدل، والمأساة، والخارقة، والوجدانات المتضاربة، والشخصيات المتعددة.. فى إطار شخصية واحدة، شخصية فاعلة، يدور حولها الصراع.. تحركه وتقوده وسط جو هائل من الفزع والرعب. والخوف والرجاء، والنجاح والفشل.. تلك الشخصية الفاعلة.. هى شخصية الرسول.. الذى يحمل رسالة ربه. إلى البشر.. ونموذج هذا الـــنوع من القصص الملحمى الطويل.. قصة موسى (عليه السلام).. وهى قصة مكتملة فى البناء التعبيرى ورسم الشخصية.. حيث وردت بجميع تفاصيلها منذ المولد حتى وقوفـــه بقومـــه أمام الأرض المقدسة.. حيث كتب على بنى إسرائيل التيه أربعين عاماً.

ولقـــد عـــرض القرآن هذه القصة الطويلة على حلقات تتوزع سوراً قرآنية عديـــدة.. بدءاً بالإشارة وانتهاءً بالتفصيل والإطناب .. وقد جاءت فيما يربو على ثلاثين سورة قرآنية ما بين مكية ومدنية[1].

والقصـــة لـــم تأت دفعة واحدة، وإنما تكررت على مساحة السور القرآنية. مرحـــلة وراء مرحـــلة، وإشـــارة يتبعها تفصيل، وموقف يتبعه موقف.. وفى كل موضع يتلاءم الموقف القصصى مع السياق وموضوع السورة. فالتناسق بين حلقة القصـــة الـــتى تعـــرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم وهذا يتوافر دائماً، ولا يخل بالسمة الفنية إطلاقاً. (على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً

---

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٨٣-١٠١.

في عــرض الحــلقات المكــررة من القصة الواحدة، فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضــبة ثــم تطــول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعهــا جسْـم القصـــة، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحــلقات الكــبيرة عــند المناســبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها!)(١).

.. ويــأتي نوع آخر متوسط الطول يتوزع أيضاً على السور القرآنية على نفــس المــنهج القرآني ونظام القصة فيه. ويتمثل ذلك في قصتي إبراهيم ويوسف عليهما السلام، إلا أن الأخيرة وردت دفعة واحدة..

فقصة إبراهيم (عليه السلام) تعرض في حلقات التزاماً بالمنهج السياقي وملاءمته لموضــوع الســورة.. فــثمة حلقة عن إيمانه وأخرى عن المحاورة والجدل حول الأصنام واعتزال القوم، وثالثة عن إسماعيل وإسحاق والذبح والفداء، ،ورابعة عن بناء الكعبة والإذن بالحج وخامسة حول الإحياء والبعث .. (٢).

وهكــذا تــتابع الحــلقات في سور كثيرة متنوعة لتكون جسم القصة ككل.. وكذلك تبدأ قصة يوسف منذ موقفه مع إخوته متتابعة حلقة وراء أخرى دون توزع أو تكرار .. لتحكي قصة يوسف والمحن التي مرّ بها ومؤازرة الله له حتى مكن له في الأرض.

.. وهــناك قصص قصيرة حافلة بالتفصيل كقصة نوح (عليه السلام) حيث ذكر فيهــا تفصــيلات الرسالة ودعوته لقومه بالإيمان، واستكبار القوم، وصنع السفينة والطوفان وغرق الابن.. الخ.

وهــناك قصص قصيرة بحتة.. تعرض حلقة الرسالة وحدها حيث تتضمن الرســالة، والدعــوة إلى الــتوحيد والحوار حول العقيدة وتكذيب القوم ثم إهلاكهم جميعاً.. وقصة هود، وشعيب، نموذجان لهذا النوع من القصص..

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٥٦.

(٢) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٦٤-٧٠ وأيضاً نظرات في قصص القرآن جـ١، ص ١٢١-١٥٠.

وتـبقى القصـة القصـيرة جداً فتذكر الموقف القصصى ذكراً موجزاً غاية الإيجـاز.. كقصـة أيوب عندما مسّه الضر واستغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه، ولقد وردت قصته فى سور ثلاث وفى آيات لا تتعدى سبعاً[1].

قـال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ • وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[2].

فأيوب ينادى ربّه متضرعاً فلقد مسّه البلاء بالأذى والمشقة. ويأتيه الأمر أن يضرب برجله الأرض فنبعت منها عين ماء فشرب منه واغتسل فذهب ما كان به من مرض. وأحيا الله له أولاده ورزقه مثلهم حتى كثر نسله رحمةً من الله لصبره عـلى الـبلاء، وعظة وعبرة لأصحاب العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفـرج. وجاءه الأمر أن يأخذ حزمة من الحشيش اليابس فيضرب بها زوجته ليبرّ بيميـنه. وذلك رحمة من الله به وبزوجته التى قامت على رعايته أثناء بلائه الذى صبر عليه وأناب فيه إلى ربه..

.. إن مـن أبـرز خصـائص الأسـلوب القرآنى بعامة (وأسلوب الحكاية والـرواية فى أنباء الغيب والدول الغابرة. وأحاديث الرسل والأنبياء عليهم السلام بخاصـة، هو خاصية الإيجاز المعجز، الذى ينقل إليك المعنى كاملاً ومؤثراً، وحيّاً وموحيـاً، ولكـن فى أقل القليل من الألفاظ مع إسقاط مئات من التفاصيل الجزئية التى كانت تشغل حتماً أى كاتب مهما بلغت قدرته على الإيجاز)..[3].

وهكـذا تتـنوع القصـة القرآنية من حيث الشكل الفنى تنوعاً يتراوح بين الإجمـال والتفصيل وفى كل حالاتهما ، يتلاءم النوع مع السياق والنسق التعبيرى والغرض الدينى.

---

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٧٤.

(٢) سورة ص آية ٤١-٤٤.

(٣) القصة القرآنية ص ٥٦ فتحى رضوان.

ولأن الهـدف الدينى هو مقصد القصة القرآنية ، فلقد تنوعت القصة وتلونت فى طـريقة العـرض ما بين الإجمال والتفصيل، الطول والقصر.. وكذلك زمان القصـة وحدثها.. ذلك أن القرآن الكريم إيفاء للغرض الدينى كالفنّى معاً، يورد من القصـة الحـلقة التى تتنامى وموضوع السورة وتتلاءم والغرض الديني. واختلفت بدايات القصص.

فـنجد – مـثلاً – أن القصـة القرآنية قد وردت منذ البدء.. أى منذ ميلاد الشخصـية الفاعلة، محور القصة كلها .. وإن حلقة الميلاد هنا ، قد سجلتها القصة لمـا تتضمنه من عظة وعبرة – ودلالة دينية سامية – وثمة قصص قرآنية تأتى حـلقة الميلاد فيها بارزة بروزاً فى إطار السياق القصصى العام – ومنها قصة آدم وقصة ميلاد عيسى (عليه السلام) وقصة ميلاد موسى (عليه السلام).

فميـلاد عيسـى (عليه السلام) يعـرض فى تفصيل كامل لأن "مولده هو الآية الكـبرى فى حياتـه" ولأن هـذا المولـد كـان مثار الجدل والخلاف، وكان سبباً للاختلاف والفتنة، وتوزع الناس فى توجهاتهم الدينية.

قـال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا • فَـاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا • قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا • قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا • قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا • قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (١).

والآيـات القرآنية تعرض القصة العجيبة والمعجزة الخارقة، فمريم العذراء تـنجب طفـلاً من غير أب وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز ذلك الإعجاز ليظل أثـراً لـلقدرة الإلهيـة ماثلاً أمام الأبصار يحمل عظمة الواحد القهار. ولتتواصل القـدرة فى إنطـاق الله لـلوليد وهو طفل فى المهد ثم ما جرى من أحداث غريبة رافقت الميلاد.

---

(١) سورة مريم آية ١٦-٢١.

إن الفتاة الطاهرة الزكية تفاجأ برجل أمامها، يهزها قوله هزًا عنيفاً ويثير خجلها وحياءها الأنثوى.. إنه يريد أن يهبها غلاماً، وهما الآن فى خلوة ولتكن شجاعة وتدافع عن نفسها، وتسأل كيف يحدث ذلك، دون رجل يتزوجنى، وما علم أحد عنى إلا خيراً، نقاءً وطهراً، إن حسم الموقف يقتضى المواجهة .. ويأتى الرد واضحاً – إن ذلك أمر هيّن وهو على الله يسير، فمجيئه دلالة للبشر على قدرة الله ورحمته ببعثه نبياً يهتدى الناس به، وهو أمر مقضى فى علم الله.

ولقد استتبع هذا الميلاد المعجز تبايناً فى التوجه الدينى، ذلك التوجه الذى أدى إلى انحراف العقيدة فمالت إلى شبهات فى التأليه، وقد أبرزت الآيات القرآنية ذلك الانحراف فى العقيدة على لسان عيسى (عليه السلام) حيث يعترف لله خالقه بعبوديته ويشهد بحقيقة الرسالة إلى قومه.. ثم يُوكل الأمر كله لله..

قال تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

.. وثمة تناسق كامل بين البدء والنهاية، بين الميلاد والوفاة، بين ذكر الحلقة الأولى والحلقة الأخيرة.. فالبدء دينى وفنى معاً.. دينى لأنه يحمل معجزة الله فى خلق عيسى، كما حمل آدم المعجزة نفسها.. وترتب على هذا البدء تنوع فى تقبّل بنى إسرائيل لها فمنهم من آمن به، ومنهم من ضلّ، ثم جاء الانحراف فى العقيدة، الأمر الذى تبرأ منه عيسى نفسه وأدان به قومه، وأشهد الله على ذلك، وترك الأمر لله.. فى العذاب، أو العفو – وتنامت لحظة الوفاة حيث رفع الله عيسى على حين شُبّه بغيره فى عيون الآخرين.. فجاء المولد معجزة، والوفاة معجزة، لأنه خرقٌ لناموس الحياة، ولم يدرك الناس هذا الأمر الإعجازى فى سنن الله، فتشتت تصوراتهم فى العقيدة، وأدانوا أنفسهم بأنفسهم.

(١) سورة المائدة آية ١١٧.

وفـنياً فـإن التناسق وارد تماماً.. بين لحظة الميلاد ولحظة التوفى، فبدت القصـة كاملة ونامية نمواً عضوياً ومتكاملاً.. لقد جاء الختام ليسجل حركة الناس ومشاعرهم، ويدين ذلك كله وفقاً للغرض الدينى..

.. وقـد تُعـرضُ القصـة القرآنية فى زمن متأخر نسبياً. غافلة عن لحظة الميـلاد ولما فى هذا التأخر النسبى من دلالة.. تكمن فى بداية الحدث نفسه، الذى هو مناط القصة وتطورها..

.. فقصـة إبـراهيم (عليه السلام) تـبدأ وهو فتى كامل الفتوة يستقرىء كواكب السـماء علّها تهديـه إلى مـا يشتجر فى ضميره من صراع حول العقيدة. طلباً لـلوحدانية والألوهية.. ذلك أن عبادة الكواكب مما كان عليه بعض قومه.. كعبادة الأصـنام أيضاً.. وحين يأفل كل كوكب، يؤمن أن الله واحد، ويفىء إلى أمر الله.. ويبدأ الدعوة إلى عبودية الله، وتوحيده(١).

.. وتـبدأ قصة يوسف وهو غلام صغير، حين يرى الرؤيا التى كانت وراء قصـته كلها، ودافعاً إلى مجريات الأحداث التى حدثت والمحن التى وقع فيها حتى مكّن الله له فى الأرض.

قـال تعـالى : ﴿إِذْ قَـالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ • قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢).

.. تـلك بدايـة القصة ، الرؤيا العجيبة التى رآها يوسف.. أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر، تخر ساجدة له..

.. قـال المفسـرون : الكواكب الأحد عشر كانت اخوته، والشمس والقمر أبوه.. ولقد فهم يعقوب (عليه السلام) جوهر الرؤيا فحذر يوسف من قصها على إخوته حـتى لا يكيـدوا لـه، ويحتالوا لإهلاكه.. لأن القص سيؤدى إلى إثارة الحسد فى

(١) انظر نظرات فى قصص القرآن جـ١ ص ١٢١ وما بعدها.
(٢) سورة يوسف آية ٤-٥.

القلوب.. وتمضى القصة، مرحلة بعد مرحلة. وحدثاً بعد حدث، ومحنة بعد محنة، لتورد ألواناً من البلاء، وأنواعاً من النكبات. وضروباً من المحن، ويوسف المبتلى بذلك صابر على البلاء، حتى يهيىء له الله أخيراً سبيل العزة، ويمكن له فى أرض مصر..

ولقـد حددت الرؤيا مسرى القصة، كما حددت الاتجاه الذى سيسلكه يوسف فى حياته، وهو اتجاه مقدر من الله سبحانه لحكمة عليا – وتأتى نهاية القصة، تبياناً وتوضيحاً لبدايتها، وكشفاً لغموض الرؤيا وفك رموزها ومعانيها.. مما يأتى تكاملاً فى الأداء، وتناسقاً فى مسرى الحدث ، وتوحُّدًا فى القصة، موضوعاً، وأداة وفعلاً.

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ آمِنِينَ • وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

والآيات تتحدث عن مجيء أسرة يعقوب إلى مصر.. ودخولهم على يوسف وقـد مكّـن الله له فى أرض مصر، عزًّا وسلطاناً. وتحققت الرؤيا التى رآها وهو غـلام، تحققـت مشـهداً محساً ملموساً، وذلك بسجود إخوته الأحد عشر مع أبيه وأمـه.. واجـتمع الشمل بعد فرقة، وجاءت النهاية توضيحاً لبداية غامضة رامزة تحمل قدراً كبيراً من التشوق وإثارة الذهن والوجدان معاً.

.. لقد توافق مطلع السورة والختام فى السورة كما توافق المطلع والختام فى القصـة وجـاءت التعقيـبات متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها.. فتحقق الهدف الدينى وتحققت السمات الفنية.

"وقـد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء. فهى رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة فلا

(١) سورة يوسف آية ٩٩-١٠٠.

تـــتم العبرة بها، كما لا يتم التنسيق الفنى فيها، إلّا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها"(١).

وثمة نوع آخر من القصة القرآنية يبدأ عرضه فى حلقة متأخرة.. وفى هذا الـــنوع مـــن القصـــص، لا تُعرض إلّا حلقة الرسالة والدعوة إلى القوم بعبادة الله، وإبراز وحدانيته. ومواجهة الرسل لأقوامهم وهم ينكرون ولا يعبأون.. إنها الحلقة الوحيدة فى حياة هؤلاء الرسل لأنها أهم حلقة، تحمل العبرة كاملة، والهدف الدينى واضحاً..

وهـــذا الـــنوع مـــن القصص يتناول رسلاً وأنبياء أمثال نوح وهود وصالح وشعيب.. ولقد ذكرنا بعضاً من هذه القصص خلال هذه الدراسة(٢).

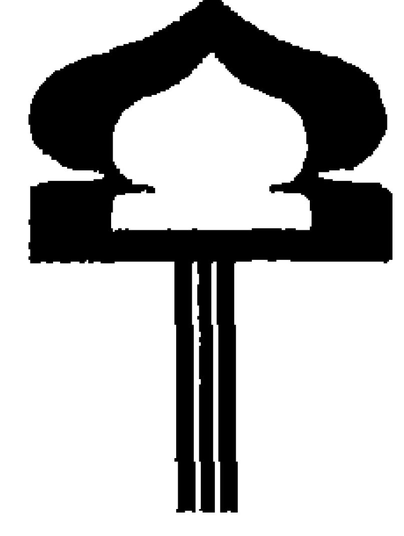
..إن التـــنوع القصصـــى فى القرآن الكريم بابٌ كبير يحتاج إلى توفر كامل لدراســـته، لأن يتناول طريقة العرض القرآنية فى السرد القصصى، وإيراد الحدث بمـــا يتضمنه من إجمال وتفصيل، وخوارق ومفاجآت، وفجوات تثير الذهن وتحمل الخيـــال عـــلى تجســـيد المشهد وتصوره.. فضلاً عن طريقة العرض فى تصور الموقف والشخصية، والحدث ورصد الانفعال والشعور..

ولكننا نخلص من ذلك كله إلى أن التعبير القرآنى يؤلف بين الغرض الدينى والغـــرض الفـــنى، فى وحـــدة واحدة، فالفن والدين محوران كبيران يتغلغلان فى أعمـــاق الـــنفس البشرية.. وإدراك الجمال، وتذوق الفن، وحسن تلقيه وتذوقه دليل يوحى بمدى التأثر الدينى، وسرعة النفاذ إلى جوهر النفس.

---

(١) الظلال جـــ ٤ ص ٢٠٣٧.

(٢) انظر فصل القصة التاريخية.



الخاتمة

القصة فى القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية، فهى قالب تربوى وإعلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها وإلى النفوس فتنفضها نفضاً. ومن ثم فهى تثير العواطف والوجدان، وتجذب النفس وتهيئ العقل وترسم الطريق وتحدد النهج.

والقصة فى القرآن تساق لإبراز هدف دينى وتوضيح غرض من أغراض العقيدة، إذ إنها تنطلق من منطلق دينى بحت. ومع ذلك فقد وفت بمتطلبات الفن القصصى وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وتنوع ملامحه.. وجاء ذلك وفق طريقتها الخاصة، ووفق المنهج القرآنى فى إيراد القصص.

فالقصة فى القرآن تتوزع على السور القرآنية بحيث ترتبط بالغرض الدينى. وهذا الارتباط يتناسق مع الموقف السياقى للقصة. ذلك لأنها ليست عملاً فنياً مستقلاً، وإنما هى إحدى وسائل القرآن الكريم لتقديم العقيدة والدعوة إليها وتثبيتها وترسيخها فى النفوس والقلوب. وهى كأداة تعبيرية تندرج تحت القضية الكبرى للتعبير القرآنى. فالتعبير القرآنى فى كل ما يورده من صور وقصص ومشاهد، يؤلف تأليفاً ممتزجاً عضوياً بين الغرض الدينى والغرض الفنى. فالفن والدين صنوان فى أعماق النفس وقرارة الحس.

والقصـــة كوسيط مؤثر قد حظيت بمكانة عالية فى القرآن كما شغلت حيزاً كبيراً فيه، فلا تكاد تخلو سورة من قصة أو من جزء من قصة أو إشارة إلى قصة أو تســجيل هدف سريع لقصة سريعة وهى فى جميع الحالات تراعى فيما تراعيه حســن الملاءمــة بيــن الغــرض الدينى الذى وردت فيه وبين الصياغة الجمالية المؤثرة.

ويبقى لمؤلف الكتاب كلمة توجيهية يقصد بها غاية سامية تنفع المسلم وتدعم العقيــدة فى نفــوس الناشــئة، وتضع على طريق الفن القصصى الإسلامى علامة قرآنية مميزة.

فمجــال الإفادة من القرآن الكريم فى مجاله القصصى أمر وارد الالتزام به. ولكن الإفادة هنا لا تعنى محاكاة القصة القرآنية فى موضوعها ووسيلة أدائها.. فإن ذلــك لا يــتأتى لمــبدع هذا الزمان وأى زمان. وإنما على المبدع فى هذا المجال القصصى أن يبدع فى إطار التوجيه القرآنى.. للقصة القرآنية، وهذا يعنى أن عليه أن يلــتزم فى أدائــه القصصى، أن ينطلق عملُه – وهو يصور الحياة والأشخاص والأحــداث والصراعات – من منطلق إسلامى. بحيث لا يتصادم العمل القصصى مع المفاهيم القرآنية للمجتمع المسلم.

ويجــب على المبدع وهو يبدع قصصه فى ضوء التوجيه القرآنى أن يكون بعيــداً عن الوعظ والمباشرة والخطابية، ويستفيد – متأثراً – من الجانب الإيحائى والإشـــارى الذى تلتزم به القصة القرآنية وهى تدعو إلى غرض دينى، أو تصور مشـــهداً مـــن المشاهد يدور بين الخير والشر، أو العدل والظلم. إن القصة القرآنية توحى وتلمح وتشير، ولا تخاطب فتباشر ، فتنفر القارئ.

وإن مـــن القيـــم الفـــنية التى ترسى مبادئها القصة القرآنية ، قيمتى الجمال والقـــبح، فكـــليهما يكون فى موضعه تماماً، ماداما قد جاءا عبر نسق جمالى يتوفر فيه التوازن وروعة التعبير. ومن ثم يصبح التناول جميلاً وهو يتعامل معهما عبر المشـــاعر والمواقـــف والعواطف والسلوك. بحيث يصبح الموقف مشاهداً ومحسًّا بجميـــع أبعـــاده ، لحظتها تشتاق النفس إلى الجمال وتسعى إليه، وتميل عن القبح وتنفر منه. دون أن تجنح الأداة إلى مباشرة، أو وعظ.

ومـــن ثـــم تنطلق أداة التعبير، وقد تلمست أداة التعبير القرآنية، إلى تصوير حياة الإنسان فى شتى حالاته ومتغيراته زماناً ومكاناً، وإلى تصوير النفس البشرية فى شتى حالاتها انفعالاً وتقلباً، وتصوير القيم الأخلاقية فى تعدد مناحيها ودرجات دلالاتهـــا. وهى فى ذلك كله لا تصطدم ولا تتعارض مع النظرة القرآنية إلى الفن والقصة. ذلك لأنه لا تعارض بين حقيقة الشيء وجماله.

ولأن للقصـــة تأثيـــراً على الفرد وعلى الجماعة.. ولأن للمجتمع الإسلامى تكويـــنه الخاص وانطلاقاته الخاصة، ولأنه المسلم فى هذا الزمان الصعب معرض لغزوات فكرية وثقافية تستهدف دينه وقيمه، ولمّا كانت إحدى وسائل هذه الغزوات المدمـــرة نشر القصص الردىء المدمر للقيم وللذات الإنسانية.. لذلك كله فإنه يجب صـــياغة قصـــص القـــرآن صياغة جديدة مكتملة بحيث ترتبط أجزاؤها المتفرقة فتصبح قصة كاملة.. سواء فى ذلك أن تتناول قصص الأنبياء والرسل، أو قصص المؤمـــنين المضـــحين فى ســـبيل العقيدة، أو بعض الأمثلة القصصية التى ضُربت للتعـــبير عن قيم معينة، مثل الحق والخير والجمال، وذلك فى أسلوب تعبيرى يبلغ درجة عالية فى التشويق والتخيل، وتضمين القيم المراد بعثها عبر العمل فى خفة، ورقة تكاد لا تدرك.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك بل يجب أن نعمل على خلق قصص جديدة يتسم بالأخلاق المبثوثة فى قصص القرآن وفى غيرها من آيات القرآن الكريم. إننا يجب أن نقيم كياناً أدبياً كبيراً وشامخاً على تلك المعانى والقيم التى جاء بها القرآن. حتى نســـير على هديه مسلكاً، وحتى تصبح لنا خصوصيتنا الفنية، وعلامتنا المميزة فى عالم القصة.

وكذلـــك مســـرحة قصـــص القرآن بحيث تؤدى القصة المشاهدة دورها فى التأثير الوقتى السريع.

إنـــنا لـــو فعلـــنا ذلك لدعمنا العقيدة فى النفوس ولوضعنا على طريق الفن القصصى علامة قرآنية مميزة.

المراجع



١- القرآن الكريم.
٢- تفصيل آيات القرآن الكريم : نقل محمد فؤاد عبدالباقى.
٣- الكشاف : الزمخشرى.
٤- صفوة التفاسير : محمد على الصابونى.
٥- فى ظلال القرآن : سيد قطب.
٦- الجامع الصحيح : الإمام البخارى أبو عبيدة الله محمد بن إسماعيل.
٧- جمع الفوائد : جمع : محمد بن محمد بن سليمان الرودانى.
٨- قصص الأنبياء : ابن كثير.
٩- قصص القرآن : محمد أحمد جاد المولى.
١٠- التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب.
١١- مشاهد القيامة فى القرآن : سيد قطب.
١٢- خصائص التصور الإلاسمى : سيد قطب.
١٣- مع القرآن الكريم . دراسة مستلهمة : على النجدى ناصف.
١٤- القرآن الكريم . كتاب أحكمت آياته جـ ٢ : أحمد محمد جمال.
١٥- القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٣ : أحمد محمد جمال .
١٦- القصص الرمزى فى القرآن : أحمد محمد جمال .
١٧- منهج الفن الإسلامى : محمد قطب .
١٨- القرآن المعجزة الكبرى : محمد أبو زهرة.
١٩- التبيان فى علوم القرآن. محمد على الصابونى.
٢٠- التعبير الفنى فى القرآن : د. بكرى شيخ آمين.
٢١- سيكولوجية القصة فى القرآن : د. التهامى نفرة .
٢٢- قصص وعبر : محمد المجذوب .
٢٣- القصص فى الحديث النبوى : محمد بن حسن الزير.
٢٤- الإسلام والمذاهب الحديثة : فتحى رضوان.

٢٥- القصة القرآنية : فتحى رضوان.
٢٦- السرد القصصى فى القرآن : ثروت أباظة.
٢٧- المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى : د. فتحى عامر.
٢٨- دراسات نفسية وتأملات قرآنية : د. عزت الطويل.
٢٩- الإنسان فى القرآن الكريم : عبدالكريم الخطيب.
٣٠- علم النفس : د. جميل صليبا.
٣١- الصورة الأدبية : د. مصطفى سويف.
٣٢- المذاهب الأدبية : د. نبيل راغب.
٣٣- نظرات فى قصص القرآن جـ ١ : محمد قطب عبدالعال.
٣٤- مجلة (منبر الإسلام) : مايو ١٩٨٦.
٣٥- الفن القصصى فى القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ط١.
٣٦- معلمة الإسلام : أنور الجندى.
٣٧- منهج التربية الإسلامية : محمد قطب.
٣٨- القصة فى التربية : عبدالعزيز عبدالمجيد.
٣٩- بناء الرواية : عبدالفتاح عثمان.
٤٠- نقد الرواية : نبيلة إبراهيم.
٤١- القصة القصيرة نظريا وتطبيقياً : يوسف الشارونى.
٤٢- قصص القرآن الكريم فى منطوقه ومفهومه : عبدالكريم الخطيب.
٤٣- أركان القصة : فورستر.
٤٤- إبراهيم أبو الأنبياء : عباس العقاد.
٤٥- القصص فى الأدب العربى : محمود تيمور.
٤٦- قصص العرب : محمد أحمد جاد المولى.
٤٧- أصول التربية : سعيد إسماعيل على.
٤٨- مجلة الوعى الإسلامى : رمضان ١٤٠٢هـ .
٤٩- مجلة الهلال : ديسمبر ١٩٧٠.
٥٠- مجلة القافلة : رجب ١٤٠٥هـ.

فهرس

الباب الثالث

صدر للمؤلف



◈ دراسات أدبية

١- نظرات فى قصص القرآن (٣ أجزاء)	رابطة العالم الإسلامى
٢- الأداء التعبيرى فى القرآن "جزءان"	رابطة العالم الإسلامى
٣- صورة المرأة فى قصص القرآن	مكتبة الخانجى
٤- القصة فى القرآن	قصور الثقافة
٥- محمود البدوى عاشق القصة	هيئة الكتاب
٦- الفن والبساطة	دار الشعب

◈ قراءات نقدية

١- قراءة فى القصة القصيرة	هيئة الكتاب
٢- الذات والموضوع	هيئة الكتاب
٣- الرؤى والأحلام	هيئة الكتاب

◈ الإبداع

١- الخروج إلى النبع ط٢ (رواية)	مركز الحضارة العربية
٢- السيد الذى رحل (رواية)	هيئة الكتاب
٣- الضوء والظلال (رواية)	قصور الثقافة
٤- حرث الأحلام (رواية)	هيئة الكتاب
٥- من يقتل الحب (قصص قصيرة)	هيئة الكتاب
٦- صدأ القلوب (قصص قصيرة)	هيئة الكتاب
٧- البنات والقمر (قصص قصيرة)	هيئة الكتاب

٨- المدار (مسرحية)	هيئة الكتاب
٩- الفيل الصغير (أطفال)	هيئة الكتاب
١٠- أنا وكلبتى (أطفال)	هيئة الكتاب
١١- المجلد الأول من الأعمال الكاملة	هيئة الكتاب
١٢- السرد فى مواجهة الواقع	مركز الحضارة العربية

هذا الكتاب

.. القصـــة فى القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية، فهى قالب تربوى وإعلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب والنفوس.

وتوزعـت القصـة عـلى سور القرآن لارتباطها بأغـراض دينية تتصل بالتوحيد والإيمان .. إذ هى إحدى الوسائل لتقديم الدعوة وترسيخها فى النفوس.

وإذا كانت القصة القرآنية ذات منطلق دينى وعقدى فـلقد وفت بمتطلبات الفن القصصى وتضمنت خصائصه وأنواعه وتنوعه وأهم ملامحه. وجاء ذلك كله وفق المنهج القـرآنى فى إيـراد القصـص. فالقصة فى القرآن إحدى الوسـائل لتقديم العقيدة الصحيحة، ولقد وردت على هيئة المـثل، كما وردت فى إطار تاريخى وعبرت عن الجانب النفسى فى الإنسان كما سيقت لهدف العظة والعبرة. وهى فى كـل هذه الأنواع ترصد الفعل البشرى فى حركته بي الإيمـان والكفـر فى سياق فنى معجز ينمى طاقة المس الروحية والدينية ويمنحه متعة فنية خالصة.

أحمد غري

